

جامعة 8 ماي 1945 قالمة



حوليات جامعة قالمة للغات والآداب

مجلة محكمة ومفهرسة تصدر عن
جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)

العدد رقم : 21

ديسمبر 2017

رقم الإيداع القانوني: 2007-2129

ISSN : 1112-7880



مديرية النشر لجامعة قالمة 2017

من ج ق

جامعة 8 ماي 1945 قالمة



حوليات جامعة قالمة للغات والآداب

مجلة محكمة ومفهرسة تصدر عن
جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)

العدد رقم : 21

ديسمبر 2017

رقم الإيداع القانوني: 2007-2129

ISSN : 1112-7880



مديرية النشر لجامعة قالمة 2017
من جق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

إنّ المتصفّح للعدد الواحد والعشرين من حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، في شقّه المخصّص للأدب واللغات يشدّ انتباهه كثافة البحوث التي ضمّها العدد وتنوّعها، وهو ما يؤيّد سياسة هذه المؤسسة العلمية التي تسعى إلى إتاحة فرص النشر أمام الباحثين الذين يتقيّدون بآبجديات البحث العلمي على اختلاف رتبهم، من دون إقصاء ولا تمييز، فبدت الحولية منبراً للباحثين المجدّين من جامعات متعدّدة، وموضوعات متنوّعة ثريّة تعدّدت بتعدّد المحاور وفروع العلوم، ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نشدّ أزر هؤلاء الباحثين ونثمّن جهودهم.

ولا نفوت الفرصة من دون أن نجدّد القول: إنّ هذا العمل المحترم لم يكن ليرى النور لولا الجهد الذي بذله أعضاء هيئة الحولية وعملهم الدؤوب على إنجازة ووضعه بين أيادي الباحثين والقراء.

ونحسب أنّ هذه الحولية ستسهم إسهاماً فاعلاً في تعميق الفكر العلمي وتاصيل مناهج البحث لدى الدارسين.

وبناءً على ذلك نعلن عن صدور العدد (21) من حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، في شقّه المخصّص للأدب واللغات، ونرجو أن يصيب الهدف المنشود.

رئيس الجامعة

الأستاذ الدكتور صالح العقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افتتاحية العدد

يسرّ هيئة تحرير حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، أن تتوجّه إلى الباحثين بالعدد الواحد والعشرين (21) لشهر ديسمبر (2017)، المخصّص للغات والآداب.

وإنّ البحوث التي حواها هذا العدد بين دفتيه كانت خلاصة ما أسفر عنه انتقاء السادة الخبراء ممّا ورد على بريد الحولية تقليديا، ونحن نتهيا لاستقبال بحوث الأساتذة والباحثين عبر البوابة الجزائرية للمجلات العلمية طمعا في تسهيل العمل على هيئة التحرير والهيئة الاستشارية، للمحافظة على وتيرة الصدور في الموعد الموقوت، وكذا تسهيل الأمر على الباحثين في تدبّع بحوثهم وفق المراحل التي تمرّ بها.

وإنّ هذه الحولية ما هي إلاّ ثمرة أينعت في شجرة ذلول، طفقت تزدهر يوما تلو الآخر، بعد أن كانت بذرة لفكرة طيبة تعهدتها بالرعاية والعناية قلوب ملأها حبّ الخير للإنسانية، وأناس بذلوا من أنفسهم أعز ما يطلب في هذا العصر (الصحة والوقت).

وإيماننا ممّا بانّ الجامعة لا بد لها من منبر يعتليه أرياب العقول الذيرة، ومن يصبو أن يكون منهم، ليصدحوا بالحقيقة التي يقرّها العقل والنقل، والمؤسسة علميا، والمقبولة منهجيا، وحتى لا يؤول الأمر للمدعين، فالطبيعة لا تقبل الفراغ، ومتى حلّ ضجّ بما هو ليس له أهلا

"وقد خاب من حمل ظلماً"، وإنّ لهذا كلّه تحمّل هيئة التحرير على عاتقها مسؤولية مواصلة رحلتها المضيئة وغايتها السامية، بفضل ما تبذله من جهد وتضحية في العمل التطوعي، وتفاني الهيئة الاستشارية في قبول تحكيم البحوث لحماية هذا المكسب، وبمباركة المؤسسة الوصية التي من ديدنها فسح المجال لكلّ مجتهد وذي أفق، بالإضافة إلى ما يتفضّل به الباحثون الذين ما تفتأ عصارة عقولهم تتدفّق من كلّ حدب وصوب.

أملنا أن نكون عند حسن الظن، والله من وراء القصد.

رئيس التحرير

الدكتور عبد الرحمن جودي

حوليات جامعة قالمة للغات والآداب

مجلة علمية محكمة ومفهرسة، تصدر عن مديرية النشر بجامعة 8 ماي 1945 قالمة،
و تعنى بنشر الأبحاث و الدراسات الأصيلة في اللغات والآداب.

أ.د. خالد بسندي جامعة م.سعود/السعودية	أ.د. حبيب مُونسي جامعة سيدي بلعباس/الجزائر	أ.د. محمد حور الجامعة الهاشمية/الأردن	أ.د. سكينه قدور ج. أ.ع القادر قسنطينة/الجزائر	أ.د.ع.الكريم عوفي جامعة/أم القرى/السعودية	أ.د فتحي بوخالفة جامعة مسيلة/الجزائر	أ.د. محمد العيد تاورته جامعة قسنطينة/الجزائر	أ.د. أحمد عزوز جامعة وهران/الجزائر	أ.د. صالح بورقي جامعة عنابة/الجزائر	أ.د. نعيمة حملاوي جامعة عنابة/الجزائر	أ.د العابد نصيف جامعة قسنطينة/الجزائر	أ.د. جودت إبراهيم جامعة البعث/سوريا	أ.د.عبد الجليل هنوش جامعة مراكش/المغرب	أ.د عبد الإله الإسماعيلي جامعة مكناس/المغرب	أ.د يوسف بكار جامعة اليرموك/الأردن	أ.د موسى مريان جامعة سكيكدة/الجزائر	د. طارق ثابت جامعة باتنة /الجزائر	د. يوسف عتروز جامعة عنابة/الجزائر	د.نور الدين بجلول جامعة عنابة/الجزائر	د.عبد اللطيف حني جامعة الطارف/الجزائر	د. رياض بلواهم جامعة قسنطينة/الجزائر	د. سامية عليوي جامعة عنابة/الجزائر	د. وليد بوعديلة جامعة سكيكدة/الجزائر	د. أمال معافة جامعة قالمة/الجزائر	مدير الحولية: أ.د/ صالح العقون (رئيس جامعة قالمة)	مدير النشر: د/ لسعد غريب	رئيس التحرير: د. عبد الرحمان جودي	هيئة التحرير: - د. ناصر بوعزيز - د. وسيلة حرقاس - د. حميد حملاوي - د. منية دحلوح - د. سهيلة بوخميس	الهيئة العلمية للعدد: أ.د نويوات مختار أ.د محمد خان أ.د عبد المجيد حنون أ.د بشير إبرير أ.د محمد غاليم أ.د صابر الجباشة أ.د رشيد شعلال أ.د.شريف بوشحدان أ.د. محمد بوعمامة	جامعة عنابة/الجزائر جامعة بسكرة/الجزائر جامعة عنابة/الجزائر جامعة عنابة/الجزائر جامعة محمد الخامس/المغرب جامعة المفتوحة/البحرين جامعة عنابة/الجزائر جامعة عنابة/الجزائر جامعة باتنة/الجزائر
--	---	--	---	--	---	---	---------------------------------------	--	--	--	--	---	--	---------------------------------------	--	--------------------------------------	--------------------------------------	--	--	---	---------------------------------------	---	--------------------------------------	--	-----------------------------	--------------------------------------	---	---	---

التصميم : غزلاني عدالة

الأمانة : عماري صباح - مكناسي أمال

المراسلات:

نرسل جميع المراسلات إلى: مديرية النشر - جامعة 8 ماي 1945 - قالمة

العنوان: ص.ب 401 قالمة 24000 الجزائر

الفاكس: 037.10.05.55

الهاتف: 037.11.60.46

Email: annalesguelmash @ yahoo.fr

الموقع الإلكتروني: www.univ-guelma.dz

قواعد و شروط النشر في المجلة

- 1- أن يتميز الموضوع بالأصالة و الجودة.
- 2- أن يكون الموضوع موثقاً علمياً.
- 3- أن لا يكون البحث قد نشر أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- 4- أن لا يزيد عدد الصفحات عن 20 ص إلا إذا قسم البحث إلى حلقات.
- 5- البحوث و المقالات التي تصل المجلة لا ترد لأصحابها نشرت أو لم تنشر.
- 6- تنشر المجلة الموضوعات باللغة العربية و الفرنسية و الإنجليزية مع ملخص بثلاث لغات (عربية، فرنسية، إنجليزي) في أقل من 80 كلمة مرفوقة بالكلمات المفتاح.
- 7- تخضع الأعمال المرسلة للتحكيم قبل النشر.
- 8- جميع الآراء الواردة في المقالات المنشورة لا تعبر إلا عن وجهات نظر أصحابها.
- 9- ترسل جميع المراسلات إلى مديرية النشر

مجلة حوليات جامعة قالمة

ص.ب 401 جامعة 8 ماي 1945 قالمة 24000 - الجزائر

Email: annaesguelmassh@yahoo.fr

Tel : 037- 11- 60- 46 Fax : 037-10-05- 55

- ترسل المقالات مكتوبة بالخط 14 Simplified Arabic بالنسبة للغة العربية و خط 12 Times New Roman بالنسبة للغات الأخرى.
- شكل الورقة: 24 x16
- بالهوامش الآتية:
- أعلى: 2.5 أسفل: 2.5 يمين: 1.5 يسار: 1.5 التجليد: 1
- في نسختين مرفقة بقرص مضغوط.
- 10- تذكر الهوامش في آخر المقال.
- 11- على صاحب المقال أن يبين بوضوح: الاسم و اللقب و المؤسسة التي ينتمي إليها والعنوان الكامل و الهاتف و البريد الإلكتروني.

مديرية النشر لجامعة 8 ماي 1945 قالمة. ص.ب 401 قالمة الجزائر

الهاتف: 037.11.60.46 الفاكس: 037.10.05.55

الفهرس

نصدير العدد

افتتاحية العدد

01. حروف المعاني بين النحاة والأصوليين من خلال
"نفايس الأصول في شرح المحصول" للقرافي
30-01 حسان عجمي
02. النوجيه الصونجي للأحاديث النبوية عند ابن مالك الزندلسي
« دراسة في كتابه : شواهد النوضيح والنصحيح لمشكلات الجامع الصحيح »
49-31 نبيلة قريني
03. البلاغة العربية نعلما ونعلما من النص إلى المعيار "المعزلة نموذجاً"
78-51 عمار بعداش
04. البلاغة العربية القديمة واللسانيات النداولية
100-79 عبد الكيع سحالية
05. طرائق الاستدلال غير الصناعية في رسائل أبي العلاء المعري
124-101 نبيل أهقيلي و رشيد شعلال
06. الحجاج الصنمي في خطاب الإمام إبراهيمي أمام الوفود العربية والإسلامية
في الأمم المتحدة
147-125 كمال حملاوي
07. آليات الاشتغال السجالي في رواية كريماتورويج سونانا لشباب القدس
للروائي وأسيني الأعرج
175-149 سعيد بومعزة
08. مظاهر النفاص في رواية "أبناء الديمقراطية" لياسر شعبان
198-177 عيسى مباركية
09. وظائف الخطاب اللساني: دراسة في المناوين والمقدمات
216-199 يوسف منصر
10. الكتابة اللسانية العربية الحديثة إبراهيم أنيس أنموذجاً
233-217 نورة بحري

11. لهجة (القومان) في مدينة عنابة بين الإبداع اللفظي والنداخل اللغوي
 نوار عبيدي 254-235
12. النوحه نحت مجهر اللسانيات
 زينب خلاف وخليفة صراوي 278-255
13. أهمية الأستلة في تعليمية النصوص الأدبية
 - دراسة تحليلية نقدية لكتب اللغة العربية للتعليم الثانوي-
 وليد بركاني 306-279
14. النص والنص المترابط - دراسة في المصطلح والمفهوم
 زغودة ذياب/مروش 334-307
15. التشكيل الإيقاعي في معزيات ابن هانئ المغربي الأندلسي
 - قراءة جمالية -
 أسماء سوسي 356-335
16. شرق وغرب، رجولة وأنوثة نحو مفهوم المواجهة الحضارية
 لدى صنع الله إبراهيم
 عائشة لكحل 385-357
17. صراع الحضارات وجدلية الأنا والآخر في رواية "القاهرة الصغيرة" لـ "عمارة لخص"
 فريدة دريدي 405-387
18. قضايا الرواية النسائية العربية و خلفيات التشكل
 حميدة قادوج و وردة معلج 426-407
19. أنطولوجيا الرواية البوليسية
 حنان بن قيراط 447-427
20. نجليات الجن (الخير) للإنس في الحكايات الشعبية الجزائرية
 - أسطورة " الرهبان / الرهباني" أنموذجا-
 عبد الحليخ مخالفة و عبد المجيد حنون 470-449

حروف المعاني بين النحاة والأصوليين من خلال "نفايس الأصول في شرح المحصول" للقراقي

حسان عجمي

جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف

الملخص:

ينقسم كلام العرب بحسب النحاة إلى اسم وفعل وحرف، ولكل منها دورها في نقل أفكار المتكلمين بالعربية، وشاءت حكمة الله - تعالى - أن تبدأ بعض سورة بالحروف، فاجتهد المفسرون في تحديد دلالاتها بحسب ما تقتضيها مناسبات السور التي تصدرتها، وزادت قيمتها باختلاف دلالاتها باختلاف سياقات الكلام، وهو ما حملته كتب النحاة والفقهاء والمفسرين، وهي كلها تسعى لتفسير كلام الله خوفاً من الوقوع الخطأ في تحقيق الحق في تطبيق الشريعة، فبذل كل منهم جهوداً للتمييز بين دلالات الحروف بين بعضها، و للوقوف على الدلالات التي يمكن للحرف الواحد أن يعنيها في السياقات المختلفة. ولكشف هذه المسألة حاولنا في هذا المقال أن نبين دلالات هذه الحروف بين النحاة والأصوليين من خلال نفايس الأصول في شرح المحصول للقراقي.

الكلمات المفتاحية: حروف المعاني، النحو، دلالة، دلالة لفظية، أصول الفقه، النحاة.

Résumé :

Selon les grammairiens arabes le mot se classifie en trois éléments: le nom, le verbe et le particule. Chaque élément a un rôle dans la transmission d'idées des locuteurs Arabes. la volonté et la sagesse de Dieux le tout puissant a voulu que certaines sourates coraniques commencent par des lettres. Les interprètes se sont efforcés à déterminer leur signification selon les occasions et les événements de leur émission. La valeur des lettres s'est accrue selon les différentes connotations dans différents contextes du discours; comme a été démontré dans les œuvres des grammairiens, d'érudits et des interprètes qui cherchent tous à interpréter la parole de Dieu par crainte de tomber dans l'erreur en appliquant le droit et la Sharia. Chacun d'entre eux s'est efforcé à établir une distinction entre la sémantique des lettres entre elles et les connotations de chaque lettre dans Différents contextes.

Afin de fournir une réponse à cette problématique, nous avons tenté d'illustrer dans cet article la signification de ces lettres dans les travaux des grammairiens et des fondamentalistes à travers "nafayis al'usul fi sharah almahsul lilqarafi."

Mots clés: Synonymes des lettres, Syntaxe, Significance, Sémantème, les Origines de la Jurisprudence, Les Grammairiens.

Abstract:

According to arabe grammarians, The word in arabic is divided into noun, verb, and particle, and each one of them has its role in conveying ideas amongst the speakers. In the Holly Quran. Some Surat (verse) start whit letters or a set of letters that many interpreters' strive to determine their real meaning according to the reason for the descent of the Surat. In effect, the value of these letters has increased due to its different meaning in different contexts of speech, and this is what many books of grammarians, scholars and interpreters have conveyed. They! all seek to interpret! God's word for fear of misperception of the right in applying the religious law. Each of them made efforts to distinguish between the significations of these letters and to identify the meaning that a single letter can have in different contexts.

In order to uncover this issue, we attempted to illustrate the significance of these letters in the works of grammarians and the fundamentalists through the book of Karafi " Nafais El ousoul fi Sharh El Mahsoul".

Abstract: Synonymy of characters, Syntax, Significance, semanteme, Origin of Jurisprudence, Grammarian.

مقدمة:

حروف المعاني من الموضوعات التي شددت اهتمام العلماء من النحاة والفقهاء والمفسرين، ولا يكاد يخلو مؤلف من مؤلفاتهم من ذكرها وتدارسها، وقد شد انتباهنا اختلافهم فيها، فبدأنا أنها تختلف كما وكيفا في استحضار المسائل الخلافية، وذكر المتخالفين فيها وتعليقاتهم وتخريجاتهم وتأويلاتهم، كل بما يخدم مذهبه، فأصبحت دلالات الحروف تتمايز بحسب هدف كل عالم في تعامله مع الحرف، ومن هنا عزمنا أن أقدم هذا العمل الذي وسمته: "حروف المعاني بين النحاة والأصوليين"، واخترنا أن يكون كتاب (نفائس الأصول في شرح المحصول) لأحد أعلام القرن السابع الهجري (شهاب الدين القرافي)، مدونة بحثنا؛ لما لمسناه فيه من تعامل مؤلفها مع حروف

المعاني، وسنتبع فيه المنهج الوصفي لتمكنا منه بعد التجربة التي خضناها به في أعمالنا العلمية السابقة، مع الاستعانة ببعض التقنيات كالتحليل والمقارنة وغيرهما كلما اقتضت الضرورة العلمية ذلك.

أولاً- المؤلف (شهاب الدين القرافي):

1- تسميته كنيته ولقبه: هو أحمد بن أبي العلاء إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله بن يَليّن (1) الصنهاجي، البهشمي (2) البهنسي القرافي، المالكي، وذكّر أنه "أحمد بن إدريس" ولم يذكر "أبي العلاء"، وتفرّد ابن فرحون بذكر جد القرافي "يعقوب" (3). وكنيته أبو العباس: وهو ما أجمعت عليه كتب التأريخ والتّراجم (4). واتفقت على أن لقبه "شهاب الدين" (5).

2- مولده: ولد شهاب الدين القرافي سنة (626هـ)، بقرية "كوزة بوش" من صعيد مصر الأدنى، والتي تعرف بـ "بهفشم" من أعمال البهنسا (6).

3- شهرته: يجمع العلماء والمؤرخون على شهرته بالقرافي، و يرجعها ابن الأثير (7) إلى القرافة المقبرة المعروفة بالقاهرة، يسندها آخر إلى بطن من المعافر (8). ويقول ابن تغري بردي: "نسب إلى القرافة من غير أن يسكنها، وإنما سئل عن تفرقة الجامكية (9) بمدرسة الصّاحب بن شكر، فقيل إنه: توجه إلى القرافة فقال بعض من حضر: اكتبوه القرافي، فلزمه ذلك" (10). وهوما يؤكد ابن فرحون (11)، ويقول عن نفسه: "واشتهاري بالقرافة ليس لأنني من سلالة هذه القبيلة، بل للسكن بالبقعة الخاصة مدّة يسيرة، فاتّفق الاشتهار بذلك" (12).

4- أصله ونسبه: يعود أصله إلى قبيلة صنهاجة⁽¹³⁾، الكائنة من قطر

مرآكش بأرض المغرب، وينسب إلى " البهنسا⁽¹⁴⁾ .

ز- أسرته: هي أسرة مغربيّة عريقة تنحدر من قبيلة صنهاجة إحدى أكبر قبائل البربر، قدموا مصر منذ زمن طويل، واستقرّوا بصعيدها، وفيه ولد شهاب الدّين، لذلك اعتقّد أنه: "المصري أصلاً"⁽¹⁵⁾ .

5- نشأته وطفولته: أغفلها المؤرخون، شأنه شأن كثير من علمائنا

السابقين، وإنما اهتموا إلا بالناحية العلمية التي وسم بها القرن السّابع الهجري. ونشأ القرافي في مصر المحروسة، التي كانت بلد علم وعلماء بما انتشر فيها من معاهد علمية ومدارس، وكانت بذلك مصدر إشعاع علمي وحضاري، وكباقي علماء عصره في البلاد الإسلامية، اتجه إلى علوم القرآن في أوّل تحصيله المعرفي⁽¹⁶⁾ ، وترك صعيد مصر قاصدا القاهرة، ليتزوّد من علمائها الذين أتوا من بغداد والشّام وغيرهما، فاغترف ما أمكنه من شتّى العلوم ولازم الشّيخ عزّ الدّين بن عبد السّلام، وأخذ عن ابن الحاجب، والخسر وشاهي حتّى برع في علوم كثيرة، أولها أصول الفقه⁽¹⁷⁾ .

6- وفاته : توفى سنة اثنتين وثمانين وستمائة هجرية، عن عمر

ثمانية وخمسين عاما، بدير الطّين بمصر، المسمّاة الآن بدار السّلام ، ودفن بالقرافة الكبرى على ما جاء عن الصّفي، وابن تغري بردي⁽¹⁸⁾ .

ثانيا- المدونة (نفائس الأصول في شرح المحصول):

1- التسمية: آل على نفسه أن يكون نفائس الأصول شرحا للمحصل

ومختصراته من المنتخب والحاصل وغيرهما، " فيعظم نفعه، ويجلّ في الوضع وقعه"⁽¹⁹⁾ .

2- منهجه واجتهاداته فيه: جمع شرحه تعليقات لجماعة من العلماء في أصول الفقه، استعان بعدد من مختصراته كـ"المنتخب والحاصل" لضياء الدين حسين، و"الحاصل" لتاج الدين، و"التحصيل" لسراج الدين، و"التفتيح" للتبريزي، والتزم في نسبة الأقوال لقائلها. وتجنب التكرار خشية الإطالة. وحرص أن يكون كلامه سؤالاً وجواباً، ولا يذكر من الأسئلة إلا ما يملك جوابه، وإن ذكر ما يعسر الجواب عنه، يجيب عنه حتى يحترز منه، وينتبه به على أمثاله، ولا يورد الأسئلة الضعيفة لأنه يعدّها تطويلاً بغير فائدة مهمة، ولا يشرح مما جاء في المحصول إلا ما يقع عليه السؤال، ويبدأ بما في المحصول ويستعين بما في مختصراته. يقول: "ويصير هذا الكتاب شرح لـ(المحصول) ومختصراته من (المنتخب) و(الحاصل)"⁽²⁰⁾.

3- مصادره: جمع لشرح محصول الرّازي نحو ثلاثين تصنيفاً في أصول الفقه للمتقدمين والمتأخرين من أهل السنة والمعتزلة، وأرباب المذاهب الأربعة، أمّا مصادره اللغوية، فقد تنوّعت بتنوّع مستويات اللّغة.

4- ملاحظات عامة:

- سلك القرافي فيه أسلوب التعليم، فكان يلجّ على الشرح والتوضيح بالتعليل والمقارنة والمقابلة وغيرها من طرق التعليم.

- الكتاب أشبه بالموسوعة، إضافة لما حواه من الآراء الفقهية، فقد حوى من الآراء اللغوية ما لا يمكن للمشتغل بهذا العلم أن يتخلى عنها.

- تنوّعت فيه المصطلحات الصوتية والصرفية والنحوية وغيرها.

وعليه فإن غزارة المادة اللغوية التي حوتها المدونة، وكثرة المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها، وتنوعها بين النحوية والفقهية، جعلها عينة بحث خصبة، تجيب بامتياز على إشكالية هذا العمل.

ثالثاً- حروف المعاني:

1-تعريف الحرف:

أ-لغة: " الحَرْفُ فِي الْأَصْلِ الطَّرْفُ وَالْجَانِبُ وَبِهِ سُمِّيَ الْحَرْفُ مِنْ حُرُوفِ الْهَجَاءِ... وَمِنْهُ حَرْفُ الْجَبَلِ وَهُوَ أَعْلَاهُ الْمَحْدَدُ ... حَرْفُ كُلِّ شَيْءٍ نَاحِيَّتُهُ كَحَرْفِ الْجَبَلِ وَالنَّهْرِ وَالسَّيْفِ"⁽²¹⁾. ويقول الراغب: "حَرْفُ الشَّيْءِ طَرْفُهُ، وَجَمَعَهُ أَحْرَفٌ وَحُرُوفٌ. يُقَالُ: حَرْفُ السَّيْفِ وَحَرْفُ السَّيْفِيَّةِ وَحَرْفُ الْجَبَلِ، وَحُرُوفُ الْهَجَاءِ أَطْرَافُ الْكَلِمَةِ وَالْحُرُوفُ الْعَوَامِلُ فِي النَّحْوِ أَطْرَافُ الْكَلِمَاتِ الرَّابِطَةُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ"⁽²²⁾.

ب- اصطلاحاً: هو في النحو ما يدل بنفسه على معنى في غيره⁽²³⁾، وهو أحد أقسام الكلم. وعند الفقهاء: " لكل حرف حدّ، ولكل حدّ مطلع"⁽²⁴⁾، و: " أصل الحروف أن تكون عاملة؛ لأنه ليس لها معان في أنفسها وإنما معانيها في غيرها"⁽²⁵⁾.

والحروف نوعان؛ حروف المباني التي تدخل في بنية الكلمة أو التي تتركب منها الكلمات، وحروف المعاني التي تدلّ على معاني جزئية وضعت واستعملت فيها، وتربط بين جزأين، ولها معاني تبعية، فلا تستعمل بالمعقوليّة، باعتبارها تدلّ على معنى في غيرها، ولا تكون ركناً في الكلام إلاّ مع ضمنية، لذلك سميت بهذا الاسم؛ لأنها موضوعة لمعان تتميز بها عن حروف المباني⁽²⁶⁾. وهي التي سيكون العمل عليها في هذا المقال، وقد صنفناها بحسب عدد حروفها كالآتي:

2-أنواع الحروف:

أ- الأحادية:

أ-1- الواو:

أ-1-1- عند النحاة والفقهاء: ذكر النحاة في مصنفاتهم للواو خمسة عشر معنى، منها الزائدة، والترتيب والعطف والمعية... الخ⁽²⁷⁾ وانقسموا في دلالة الواو العاطفة إلى ثلاثة؛ قسم يرى أنها تدلّ على مطلق الجمع، وآخر تدلّ على الترتيب، وثالث تدلّ على الجمع بقيد المعية⁽²⁸⁾.

أمّا القرافي فيستحضر الجدل الدائر فيها، ويبدأ برفضه لموقف الرّازي في إنكاره أن تفيد الواو الترتيب في نحو: تقاتل زيد وعمرو؛ لأنّ المقاتلة تلزم المشاركة، وطرح حول هذه المسألة سؤالين: يرى في الأوّل: أنّه باعتبار جملة المقاتلة تقتضي المشاركة. ويرى أنّ دعوى نفيه مطلقا باطلة. وحجّة الرّازي أنّه لو كان هذا النوع من الترتيب معتبرا لغة، لصحّ دخول الفاء في المقاتلة، فنقول: تقاتل زيد وعمرو، وهو ما لم يُجزّه أحد. بمعنى أن الذي يحدد ما إذا كانت تفيد الترتيب أو مطلق الجمع هو السياق الذي تكون فيه، والمعنى الذي يريد المفسر من التخرّيج. إضافة إلى منطوق الكلام، إذ لا يمكننا أن نتصوّر الترتيب في عمل مشترك كالمقاتلة⁽²⁹⁾.

الثاني: يرى أنّ هذه الثلاثة مقلوبة، للأسباب التالية:

- نقول: "الواو" فيما فيه الترتيب، فيكون فيه حقيقة، فلا تكون حقيقة في غير الترتيب دفعا للاشتراك⁽³⁰⁾، في نحو قوله تعالى: {وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف: 15]، وفيها يظهر الترتيب؛ لأنّ الفصال يكون بعد الحمل، بمعنى أن زمن وقوع الحدث الأوّل الذي هو الحمل، والحدث الثاني الذي هو الفصال هو من أعطى (الواو) معنى الترتيب.

- يرفض أن تكون دلالة الترتيب أصيلة في اللفظ بحجة أن اللفظ مستعمل في هذا المعنى؛ لأنه إذا عطفنا شيئين أحدهما على الآخر في المدح، أو الذمّ، أو الامتتان، فإنّ تقديم أحدهما يدلّ على الاهتمام به، وتأخير الآخر يدلّ على اهتضامه في العطف، وعلى العكس في المدح والذمّ، فإنّ المتأخّر أبلغ دائما،

وكذلك الامتتان، وهي معاني كثيرة واقعة مع "الواو"، وليست " الواو" مستعملة فيها إجماعاً.

- أن احتمال الرّازي أنّه لو كانت "الواو" للترتيب، لكان القول: رأيت زيدا وعمرا بعده تكراراً، ورأيت زيدا وعمرا قبله نقضاً، وأنّه عندما تستعمل "بعده" مع "الواو" في جملة واحدة، نكون قد أفدنا البعدية مرتين بلفظين هما "الواو" و"بعد"؛ لأنّ الواو عند الخصم تدلّ على بعده، وقولك: بعده يدلّ على بعده، فيلزم التكرار⁽³¹⁾.

أمّا اعتماد الرّازي على الحديث الشّريف لما سئل- عليه الصّلاة والسّلام- من أين يبدأ في الطواف؛ فأجاب -عليه الصلاة والسلام- نبدأ بما بدأ الله به، مصداقاً لقوله- تعالى-: { إِنَّ الصّفاَ والمَرْوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ } [البقرة:158]، فيرى أنّه لو كانت للترتيب لما اشتبه ذلك على أصحابه - عليه وعليهم السّلام-. فيجيبه القرافي بأنّه لو لم تكن للترتيب لما قال - عليه السّلام-: " ابتدئ بما بدأ الله به"، وما يدريهم ما بدأ الله به لولا دلالة "الواو"، ويرى أنّ هذا الاستدلال يصلح للفرقيين.

ويعترض بعد ذلك على حجّة الرّازي الثانية؛ بأنّه لو كانت الواو للترتيب لكان القائل: رأيت زيدا وعمراً، ثمّ تبيّن أنّه رأهما معاً أنّه يُعدُّ كاذباً، وليس ذلك إجماعاً، وينكر ما ينقله إمام الحرمين في البرهان من أن الشافعي يراها تفيد الترتيب وبعدها بعض الحنفية لمطلق الجمع، ويرى أن الواو تفيد في هذا المقام التشريك؛ لأنّها ترد للجمع في غير العطف. فلا يسلم شهاب الدين بالإجماع، لأنّ الخصم يكذبه، باعتبار ما دلّت عليه " الواو"، لا باعتبار مدلول الرؤية، مثله من كلّ وجه⁽³²⁾.

وينقل ذم بعض العلماء - دون أن يسميهم- هذا الرأي؛ لكونه جمع بينهما (أي الله والرّسول) في الضمير؛ لأنّ الجمع يوهم "التسوية" ولكنّه

ورد جمعهما في الضمير في حديث آخر في قوله -عليه السلام-: "لا يؤمن أحدكم بالله حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما"، ثم ينقل جوابا للشيخ عز الدين بن عبد السلام، بأنه منع من الجمع؛ لأن الجمع يوهم التسوية من قصده؛⁽³³⁾، والذي سمع عنه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: [الطويل]

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً⁽³⁴⁾

فقال له عمر - رضي الله عنه - : "لو قدمت الإسلام على الشيب، لأجزتك؛ لأن التأخير في اللفظ يدل على التأخير في الرتبة"⁽³⁵⁾.

وينقل عن الشيخ تقي الدين بن رزين أن كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جملة واحدة فيكره لغة إقامة الظاهر فيها مقام الضمير، فلذلك حسن الجمع، وكلام الشاعر جملتان لا يكره إقامة الظاهر فيهما مقام المضمّر⁽³⁶⁾.

أ-1-2- أسباب دلالة الواو على الترتيب:

يقدم قاعدة يرى فيها أن الترتيب له سببان؛ أداة لفظية كـ"الفاء" و"ثم" وطبيعة زمانية، هي أن أجزاء الزمان مرتبة بذاتها، فلا يقع الحال قبل الماضي، ولا المستقبل قبل الحال، ولا حين إلا قبل حين بعده، وبعد حين قبله، واجتماع الأزمان محال⁽³⁷⁾، فيستحيل وقوع أول النهار آخره، وآخره أوله، فلا يقع الزمان إلا مرتبا، "وهذا هو السرّ في قول العلماء: إن التقديم في النطق دليل الاهتمام في المتقدم، ويتأخر الأهم في المدح والذم والامتتان⁽³⁸⁾، ويشير إلى أن الفرق بين ما أمر به - عليه السلام - لا ما ذكروه، وهو الجواب على قول عمر - رضي الله عنه - إن الله - تعالى - قدم الحجّ على العمرة، قال الله - تعالى -: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} [البقرة

[196]، وهو ما فهمه الصحابة على الرغم من أنهم كانوا فصحاء العرب، فثبت أنهم فهموا من الواو الترتيب⁽³⁹⁾.

ويعتدل القرافي بالتقديم والتأخير الزماني لدلالة الواو على الترتيب في لزوم الطلاق باللفظ المتقدم في غير المدخول بها، وعليه نفرق بين دلالة الزمن على الترتيب التي يفرضها السياق والدلالة اللفظية التي تفيدها الواو كذلك من خلال السياق الذي تكون فيه. ويرى صاحبنا أن الترتيب في قوله: جاءني زيد وعمرو، يدلّ عليه الطبيعة الزمانية، وهو النطق به أولاً، وسببه كون زيد قيل أول، وليس سبب الترتيب الواو، ويرى أن النزاع في المقام حاصل في الدال على الترتيب، ولا في سبب الترتيب، مثلما لو عطف بالفاء، فكان الدال على العطف هو الفاء، أمّا سبب الترتيب هو الوجود؛ أي وجودهما قبل الآخر في الزمان محلّ الكلام⁽⁴⁰⁾. فنفهم من هذا أن الحروف لا تدلّ على الترتيب من نفسها، ولكنها علامة على وجود الترتيب الزماني في الكلام، بذلك يصبح سياق الكلام هو من يتحكّم في الدلالة التي تؤدّيها الواو.

ويرفض إنكار سيف الدين أن تدلّ الواو على الترتيب لشبهها بالفاء ودخولها في جواب الشرط، وخضوعها لأحكامه فتدلّ بذلك إضافة إلى الترتيب على الارتباط؛ لأنها موضوعة للترتيب لأنه لا يحسن دخولها مكان الفاء. ويضيف عن سيف الدين أقوالاً نقلها عن جماعة دون أن يعيّنهم أنها للترتيب مطلقاً، وبه يقول الفراء حيث يستحيل الجمع بين حركتي الركوع والسجود في حركة واحدة، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا} [الحج: 77] إذ يستحيل الجمع بين حركتي الركوع والسجود في حركة واحدة.

أ-1-3- معاني " الواو " الأخرى: تفيد الواو معاني أخرى منها:
 - بمعنى "أو": في نحو قوله تعالى: {أُولِي أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع} [فاطر:01].

- بمعنى الاستئناف: نحو قوله- تعالى-: {والرأسخون في العلم يقولون: آمناً به} [آل عمران:07].

- بمعنى "مع": نحو: جاء البرد والجباب⁽⁴¹⁾.
 - بمعنى "إذا": نحو قوله - تعالى-: {ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمناً ناعساً} [آل عمران: 154]، إلى قوله - تعالى-: {وطائفة قد أهمتهم أنفسهم} [آل عمران: 154].

نأتي في نهاية عرضنا للجدل القائم في اختلاف دلالة الواو على الترتيب أو الجمع، إلى أنها تكتسب معناها من السياق الذي ترد فيه، ولا تحمل معناها في لفظها، وهو ما وضحه القرافي في المحاورات التي أقامها مع الآراء المتباينة فيها.

ب- الثنائية:

ب-1- في⁽⁴²⁾ :

ب-1-1- دلالة (في) عند النحاة: هو من حروف الجرّ ويرد لمعان، منها؛ بمعنى "على"، وبمعنى حرف الجر "الباء"، والظرفية... الخ⁽⁴³⁾، وعند علماء أصول الفقه يأتي "في" للظرفية محققاً، أو مقدرًا ويرى أن قوله: "أو مقدرًا" غير متجّه؛ لأنّ البحث في هذه المسائل إنّما هو عن تحرير الحقيقة اللغوية، وهي المرادة بقوله: الأمر للوجوب، الأمر للتكرار، الصيغة للعموم إلى غير ذلك. أمّا الظرفية (المقدّرة) نحو: قوله- تعالى-: {ولأصلبكم في جنوع النخل} [طه:71]، وينسب إلى العلماء بأنه مجاز

تشبيهه، أي: شبه تمكّن المصلوب من الجذع بتمكّن المظروف من الظرف، وإذا كان مجازاً لا يذكر؛ لأن المقصود ضبط الحقائق ليستقرّ كلّ لفظ في مركزه وموضوعه⁽⁴⁴⁾. وهو ما يقوله سيبويه: "وإن اتّسعت في الكلام فهي على هذا، وإنّما تكون كالمثّل يُجاءُ به يُقاربُ الشيءَ وليس مثله"⁽⁴⁵⁾. ويشير الرّماني إلى اختلاف البصريين والكوفيين في معانيها، فبينما يرى الكوفيون أنّها تأتي بمعنى (على) في نحو قوله - تعالى -: {لأصلّبّنكم في جذوع النخل} [طه:71] ومنه كذلك قول الشاعر: [الطويل]

هُم صَلَبُوا الْعَبْدِيَّ فِي جِذْعِ نَخْلَةٍ * * * * فَلَ عَطَسَتْ شَيْبَانُ إِلَّا بِأَجْدَعَا
يراها البصريون على بابها أي: الظرفية⁽⁴⁶⁾. ولا ينكر المبرّد أنّ تتناوب حروف الخفض في دلالة بعضها من بعض في بعض⁽⁴⁷⁾. وإن كانت الظرفية تختلف كذلك بين المكانية والاستعلاء بحيث يكون الصّلب: "بتثيبت الجسم في جذع النخلة بمسامير من حديد وما شابهها، وليس فوق جذوعها"⁽⁴⁸⁾.

ب-1-2- معاني (في) عند علماء أصول الفقه: تفيد السببية، والظرفية، وهذه الأخيرة أربعة أقسام: الظرف والمظروف، جسمان نحو: زَيْدٌ فِي الدَّارِ، ومعنيان نحو: البركة في القناعة، والسعادة في طاعة الله، والظرف جسم، والمظروف معنى نحو: الإيمان في القلب، والعكس نحو قوله - تعالى -: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ} [البروج:19]، وقوله - تعالى -: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الأعراف:60]، ويقول غيره: "وكان بعضهم يقول: إنّما قال - تعالى -: {وَأَصْلَبَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه:71]؛ لأنّ الجذع للمصلوب بمنزلة القبر للمقبور، فذلك جاز أن يقال فيه هذا"⁽⁴⁹⁾.

ب-1-3- تخريج القرافي لمعنى (في):

ينقل عن العلماء - دون تعيينهم - أن الحقيقة هو الأول حين يكون الظرف والمظروف جسمان نحو: زَيْدٌ فِي الدَّارِ، وغيرها مجازات؛ نحو:

- الظرف جسم والمظروف معنى: نحو: مُحَمَّدٌ فِي تَرْكِيزٍ مُسْتَمِرٍّ.

- العكس لوجود الجسميّة فيه من حيث الجملة.

- الأبعد كليّة أن يكونا معنيين: لانتفاء الجسميّة بالكليّة.

ويطيل في الشرح والتمثيل⁽⁵⁰⁾.

ويظهر اختلاف تصوره للظرفية عن تصور النحاة، فبينما يرى النحاة الظرف ماديا يراه القرافي معنويا، ويكون في استعماله المادي حقيقيا، وفي صورته المعنوية مجازا، وهنا الفرق.

ب-1-4- معاني أخرى لـ (في): ينقل عن العلماء أنها تفيد:

- بمعنى (على): يعدها المرادي في قوله -تعالى- : { وَأَصْلِبْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ } [طه:71] بمعنى (على)⁽⁵¹⁾.

- بمعنى (الاستعلاء): ويراها آخر للاستعلاء⁽⁵²⁾. وسمّاه آخر العلو، يقول: " وللعلو نحو: لأصلبكم في جذوع النخل، أي: عليها قاله الكوفيون وابن مالك وأنكره غيرهم .

- بمعنى الظرفية المجازية: جعلها الزمخشري وغيره للظرفية المجازية بجعل الجذع ظرفا للمصلوب لتمكنه عليه تمكن المظروف من الظرف⁽⁵³⁾، ويؤيده ابن يعيش⁽⁵⁴⁾. أمّا إذا قيل: زيد في ضلاله، فهو مجاز تركيب؛ لأن لفظ "في" لم يوضع ليركب مع المعاني التي لا تتجوّف بل ليركب مع ما يقبل التجويف، ويصلح لأن يكون لغيره، والمعاني ليست كذلك، أي لا يمكنها أن تكون وعاء⁽⁵⁵⁾.

- بمعنى السببية: أنكر الرازي أن يكون أحد من أئمة اللغة قاله⁽⁵⁶⁾، ويشير إلى أنه قد نقله جماعة - دون أن يسميهم - وبأنه لا يستقيم كثير من الكتاب والسنة إلا به كقوله - تعالى -: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } البقرة: [190] أي: سبب طاعة الله - تعالى - بالتوحيد، وقوله - عليه الصلاة والسلام - : " مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ " ⁽⁵⁷⁾.

نأتي في آخر حديثنا في هذا الحرف إلى أنه يفيد الظرفية حقيقة، وغيرها كالعمق والانغماس، أو الوعاء مجاز، أمّا الفرق فواضح بين كلام النحاة فيه وكلام القرافي؛ فبينما تحدث النحاة عن المعنى المادي لدلالته على الظرفية، فصل القرافي الحديث في دلالة (في) على الحقيقية والمجاز، إذ تتحول المعاني بين استعمال اللفظ في الحقيقة والمجاز وبين القوة والضعف والأهمية وغيرها.

ج-1- من: يرى: " أن لها ثمانية معان " ⁽⁵⁸⁾، ويعرضها كالاتي:

ج-1-1- معاني (من) لدى النحاة: تدل عندهم على معاني عديدة منها:
-ابتداء الغاية⁽⁵⁹⁾: نحو: سرتُ من مصرَ إلى مكة.

-انتهاء الغاية: نحو: شممتُ المسكَ في داري من السوق. ورأيتُ الهلالَ في داري من خلال السحاب. بمعنى: انتهت الرؤية والشم إلى ذلك الوضع، ويشير إلى أنه قيل: إنها هنا لابتداء الغاية، أي: ابتداء الشم والرؤية من ذلك الموضوع، لكنه لا يذكر صاحب القول⁽⁶⁰⁾. وتدلّ عند الكوفيين على انتهاء الغاية⁽⁶¹⁾، أمّا الذي اختلف فيه النحويون، فنحو: رأيت الهلال من داري من خلال السحاب، حيث يجعلون (من) الثانية لانتهاء الغاية⁽⁶²⁾. فيما يذهب ابن السراج مذهباً مخالفاً يؤيده فيه ابن عصفور⁽⁶³⁾، عندما أبطل ذلك بحجة أن المحذوف الذي يقوم المجرور مقامه، إنّما يكون ممّا يناسب معناه الحرف

ومن الابتدائية لا يفهم منها الظهور⁽⁶⁴⁾، ويعدّه أحد الدارسين تعسفاً من ابن عصفور؛ لأنّ السّياق واضح الدلالة على ظهور الهلال من خلال السّحاب⁽⁶⁵⁾. أمّا سيبويه فقد اعتقد كثير من النّحويين⁽⁶⁶⁾، أنّه يعدّ انتهاء النّهاية أحد معاني (من)، لكن النّصوص التي وردت عنه في الكتاب تنفي ذلك⁽⁶⁷⁾.

يبدو أنّ استعمال سيبويه لكلمة غاية هو ما جعل بعض النّحويين يذكرها كأحد دلالات (من)، يقول المرادي: "إنّ بعض المتأخّرين ذكر أنّها للغاية وحمل كلام سيبويه عليه، قال معناه إنّه محلّ لابتداء الغاية وانتهائها معاً"⁽⁶⁸⁾، وهو موقف المالقي كذلك⁽⁶⁹⁾، أمّا ابن هشام فقد ميّز بين أمثلة ابن عصفور، الذي يعدّ: أخذته من زيد، للابتداء، يقول: "والظاهر عندي أنّها للابتداء، لأنّ الأخذ ابتدئ من عنده وانتهى إليك"⁽⁷⁰⁾.

- لبيان الجنس: نحو قوله- تعالى-: { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ } [الحج:3]، إذ يبدأ بالعامّ الذي هو الرّجس، ثمّ يخصّص جنسه (الأوثان)⁽⁷¹⁾. ويبدو أنّ الصّعوبة تكمن في التفريق بين التي للجنس والتي للتبويض، فالتّي للتبويض تقدر بـ(بعض)، والتي لبيان الجنس تقدر بتخصيص الشّيء دون غيره⁽⁷²⁾، وعلامتها أن تبديل بـ(الذي) مكانها، لأنّ المعنى: فاجتنبوا الرّجس الذي هو وثن⁽⁷³⁾.

- التّبويض: يقدم لها مثالا واحداً: قبضت من المال، يرى أنّ معناها أنّه يحسن محلّها بعض، أي: قبضت بعض المال⁽⁷⁴⁾، وهو رأي سيبويه⁽⁷⁵⁾، بينما يردّها المبرّد إلى الابتدائية يقول: "وكونها في التبويض راجع إلى هذا؛ فأنّت تقول: أخذت مال زيد، فإذا أردت بعض قلت: أخذت من ماله، فإنّما رجعت بها إلى ابتداء الغاية"⁽⁷⁶⁾. وقد ذكر سيبويه لـ (من) أمثلة أخرى تكون فيها بمعنى التبويض منها:

- الزائدة للتأكيد: نحو: ما أتاني من أحد⁽⁷⁷⁾.
- المميّزة للجنس: نحو: عندي ملؤه من عسل.
- الواردة مع أفعال التفضيل: نحو: محمد أفضل من زيد⁽⁷⁸⁾.
- الواردة في نحو: أخزى الله الكاذب مني ومنك⁽⁷⁹⁾. والمبرّد يقول: "وقولك زيد أفضل من عمرو إنّما جعلت غاية تفضيله عمراً، فإذا عرفت فضل عمرو علمت أنه فوقه"⁽⁸⁰⁾، وزاد الرّماني أمّا كونها تبعيضية فساقه بعد صيغة التمريض (قيل)⁽⁸¹⁾.
- بمعنى البدل: نحو قوله- تعالى-: { وَكَلَّمَ نَسَاءً لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ } [الزخرف: 60]، أي: بدلا منكم⁽⁸²⁾، ويتخذ المرادي⁽⁸³⁾ قوله- تعالى-: { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ } [البقرة: 19] مثالا لذلك.
- زائدة: نحو قولك: ما جاءني من أحد، بمعنى: ما جاءني أحد⁽⁸⁴⁾. أمّا ابن عصفور فيقتصر على ذكر شرطين: كون الاسم نكرة، وكون الكلام نفيا أو نهيا أو استفهاما. والشرط الثاني ينكره الأخفش، يقول: "فإن قلت: إنّما يكون هذا في النفي والاستفهام، فقد جاء في غير ذلك، يقول الله-تعالى-: { وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ } [البقرة: 271] فهذا ليس باستفهام ولا نفي. وتقول: زيد من أفضلها، تريد: هو أفضلهما"⁽⁸⁵⁾.
- فعل أمر من المين: الذي هو الكذب.
- تفيد العموم: نحو: ما جاءني من رجل⁽⁸⁶⁾.

ج-1-2- موقف القرافي من معاني (في):

ويرد رأي الرّازي في أن تفيّد(من) التّبّعيض في نحو: خاتم من حديد، وعن النّحاة أنّها لبيان الجنس لا للتّبّعيض⁽⁸⁷⁾. كما يرد رأي الرّازي

عندما قال: "والحقّ عندي أنّها للتمييز"⁽⁸⁸⁾، بأنّ النّقل مقدّم على الاستدلال، ويتعجّب من استدلاله بالمثال: ما جاءني من أحد، بمعنى: ميّزت الشّيء الذي نفيت عنه المجيء مع أنّه كان متميّزاً في نحو: ما جاءني أحد، قبل دخول "من"، لأنّه لو صحّ ما قاله هنا، لتناقض ذلك مع قوله بأنّها قد تأتي زائدة؛ لأنّ الزيادة تقتضي عدم اعتبارها في المعنى، وما قاله هنا يقتضي أنّها معتبرة في المعنى⁽⁸⁹⁾.

تجمع كتب النّحو أنّها مناظرة لـ(إلى) في الانتهاء والغاية، إمّا مكاناً نحو قوله- تعالى -: {مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ} [التوبة:108] وعلامتها: تصلح أن تقاربها (إلى) لفظ نحو: مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أو معنى نحو: فاستعدّ بالله من الشيطان الرجيم، وزيد أفضل من عمرو، عند المبرّد⁽⁹⁰⁾. وذكر الشيخ عزّ الدين أنّها حقيقة في ابتداء غاية الأمكنة، ويتجوّز بها عن ابتداء غاية الأزمنة وهو حسن يجمع به بين القولين.

ج-1-3- إغفال القرافي لبعض معاني (في) التي ودرت عند النّحاة

نحو:

أ-التعليل: نحو قوله- تعالى -: {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ} [البقرة:19].

ب-الفصل: نحو قوله- تعالى -: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} [البقرة: 220]، وبقوله- تعالى -: {حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [آل عمران:179]، يقول المرادي: "وتعرف بدخولها على ثاني المتضادين وقد تدخل على ثاني المتباينين من غير تضاد، نحو: لا يعرف زيدا من عمرو"⁽⁹¹⁾.

ج-الثلاثية: ج-1- إلى:

ج-1-1- معناها عند الفقهاء: يرى الرّازي أنها لانتهاء الغاية⁽⁹²⁾، قيل: إنها مجملة؛ لأنها في قوله- تعالى-: {وَأَيُّدِكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ} [النساء: 43] تدخل الغاية، أمّا في قوله - تعالى-: {ثُمَّ أْتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [البقرة: 187] فتخرج منها، ولا يسلم القرافي أنّ الغاية دخلت في آية الوضوء؛ لأنّ القاعدة أنّ المغيا تجب ثبوته قبل الغاية، وتكرّره إليها، نحو: سرت من مصر إلى مكّة، فالسير الذي هو المغيا، بدأ وثبت قبل الوصول إلى مكّة، واستمرّ وتكرّر السير إليها، أمّا في الآية: {وَأَيُّدِكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ} [المائدة: 6]؛ فإنّ المغيا هو غسل جملة اليد، واليد اسم للجملة، وثبوت غسل كلّ اليد قبل المرفق محال، لذلك لا يكون هو المغيا، ويتعيّن أن يكون العامل في قوله- تعالى-: {إِلَى الْمَرَافِقِ} [المائدة: 6] فعلاً مضمرًا، وهو المغيا، وتقديره: اتركوا من أباطكم إلى المرافق، فـ(إلى) غاية للمتروك لا للمغسول للقاعدة المتقدّمة... والإضمار والمجاز سواء على طريقه في "المحصول"، والمجاز أرجح على قوله في "المعالم"⁽⁹³⁾.

ج-1-2- أنواع دخول الغاية في المغيا: كما يضيف فائدة يرى فيها أنّ في دخول الغاية في المغيا أربعة مذاهب، ولكنّه يكتفي بعرض الثالث، والرّابع فقط، فيرى في ثالثها: إن كانت متميّزة عن ذي الغاية بمنفصل حسّي، لم تدخل كما في قوله - تعالى-: {ثُمَّ أْتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [البقرة: 187]، فإنّ اللّيل بسواده متميّز عن النهار بالحسّ. وفي رابعها: إن كانت الغاية من الجنس دخلت، وإلا فلا، نحو قولك: بعثك من هنا إلى تلك الشجرة، فإن كانت تلك الشجرة زمانا والمبيع زمان دخلت، وإلا فلا.

ج-1-3- موقف النحاة من المعطوف بـ(حتى):

يقدم تشبيها يشير فيه إلى أن النحاة قد اتفقوا على أن المعطوف بـ(حتى) لا بد وأن يكون داخلا في حكم ما قبلها لأنك إذا قلت: أكلت السمكة حتى رأسها، فلا بد أن يكون الرأس مأكولا، وإلا فلا يصح الكلام، وهي حينئذ لا تنفك عن الغاية، وذلك ما لا خلاف فيه مطلقا، ويعزوه إلى جماعة دون ذكرهم، ويرى أنه ينبغي أن يخص ذلك، بـ (إلى) وحدها، أما (حتى) فلا، وإن كان في الذخيرة يشير إلى أن (حتى) و(إلى) للغاية.

أما ابن عصفور فيرى أنه: " لا يخلو أن تقترن قرينة بما بعدها أو لا تقترن. فإن اقتربت به قرينة تدل على أنه داخل فيما قبلها أو خارج عنه كان على حسب القرينة. وذلك نحو قولك: "اشتريت الشقة إلى طرفها"، والطرف داخل في الشراء لأن العادة قد جرت بأن لا يشتري الإنسان شقة من غير أن يكون الطرف داخلا في الشراء" (94). ويضيف: "اشتريت الفدان إلى الطريق"، فالطريق غير داخل في الشراء لأنه معلوم أن الطريق ليس مما يباع" (95). والأمر الذي يؤكد تأثير السياق في دلالة الحروف.

ينقل ابن يعيش عن الزمخشري قوله: " وإلى معارضة لمن دالة على انتهاء الغاية ، كقولك: سرت من البصرة إلى بغداد، وكونها بمعنى المصاحبة في نحو قوله-تعالى-: { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ } [النساء:2] راجع إلى معنى الانتهاء"، فيرى أن (إلى) تدل على انتهاء الغاية كما دلت على ابتدائها، وبعدها نقيضتها؛ لأنها طرف بإزاء طرف(من)، وهو السبب الذي يراه وراء قول الزمخشري؛ بأنها معارضة (من)؛ أي مجانية ومضادة لها، ثم يفرق بينهما يقول: " ولا تختص بالمكان كما اختصت به من، كقولك: خرجت من الكوفة إلى البصرة، فإلى دلت أن منتهى خروجك البصرة ،

وكذلك إذا قلت : رغبت إلى الله، دللت به على أن منتهى رغبتك الله -عز وجل- وإذا كتبت فقلت: من فلان إلى فلان، فهو النهاية، فمن للابتداء وإلى للانتهاء". ثم يطيل في شرحها، وتقديم اختلاف النحويين حولها إن لم تقترن به قرينة⁽⁹⁶⁾.

والصحيح كما يرى ابن عصفور: "أنها غير داخلة في الشراء وعلى ذلك أكثر المحققين من النحويين. وذلك أنه إذا اقترنت قرينة بما بعدها، فإن الأكثر في كلامهم أن يكون ما بعدها غير داخل فيما قبلها، وقد يكون بخلاف ذلك، فإذا عري ما بعدها عن القرينة وجب الحمل على الأكثر"⁽⁹⁷⁾.

ج-1-4- دلالة (إلى) على معاني أخرى: يرى آخر أنها تأتي بمعنى (مع)، يقول: "و(إلى) من قوله: "إلى سارية المسجد" بمعنى "مع" كقوله -تعالى-

{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ} [النساء:2] وكقول الشاعر: [الطويل]
فَلَمْ أَرِ عَذْرَاءَ بَعْدَ عَشْرِينَ حِجَّةً * * * مَضَتْ لِي، وَعَشْرٌ قَدْ مَضَيْنَ إِلَى
عَشْرٍ

د-1-1- لكن:

د-1-1: معاني (لكن) عند القرافي: يرى أنها تفيد الاستدراك بعد النفي نحو: ما جاء زيد لكن عمرو، بشرط أن يتقدمها نفي في المفردات أو يحصل تناقض بين المركبات، والعدد يذكر فيه المؤنث ويؤنث فيه المذكر، ولذلك يرى أن المراد بقوله - تعالى - : {والمُطْلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} [البقرة:228] الأطهار دون الحيض؛ لأن الطهر مذكر والحيضة مؤنثة، وقد ورد النص بصيغة التأنيث فيكون المعدود مذكرا لا مؤنثا.

د-1-2-معاني (لكن) عند النحاة: يرى ابن عصفور أنّها لا تخلو أن يقع بعدها جملة أو مفردة، فإن وقع بعدها جملة، كانت حرف ابتداء، وخرجت من باب العطف، ويكون معناها الاستدراك وتكون الجملة التي بعدها مضادة لما قبلها في المعنى، نحو قولك: "قام زيد لكن عمرو لم يقم"، و "ما قعد بكر لكن قعد عمرو". ولا يجوز أن تكون موافقة لها، لا تقول: "ما قام زيد لكن ما قام عمرو"⁽⁹⁸⁾. ويقسم المرادي كل حرف إلى قسمين:

- الأول: أن تكون مخففة من "لكنّ" الثقيلة. ولا عمل لها، إذا خففت، خلافاً ليونس، والأخفش، فإنهما أجازا ذلك، وردّ بأنه غير مسموع. وقد حكاه يونس عن العرب، وعلى مذهب الجمهور يكون ما بعدها مبتدأ وخبراً، نحو قوله- تعالى: {وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا} [البقرة: 102]، واختار الكسائي، والفرّاء، وأبو حاتم، التشديد إذا كان قبلها الواو؛ لأنها حينئذ تكون عاملة عمل (إن)، وليست عاطفة، والتخفيف إذا لم يكن قبلها واو؛ لأنها حينئذ عاطفة، فلا تحتاج إلى واو كـ(بل). ويرى أنّ هذا القسم- يعني (لكن) المخففة- ليس حرفاً أصلياً، وإنما هو فرع (لكنّ) المشددة⁽⁹⁹⁾.

-الثاني: أن تكون حرف عطف. ويعزو الرّأي إلى جمهور النحويين. ثمّ اختلفوا على ثلاثة أقوال⁽¹⁰⁰⁾؛ أحدها: أنّها لا تكون عاطفة، إلا إذا لم تدخل عليها الواو. وثانيها: أنّها عاطفة، ولا تستعمل إلا بالواو، والواو مع ذلك زائدة، وصححه ابن عصفور. قال: وعليه ينبغي أن يحمل كلام سيبيويه، والأخفش؛ لأنهما قالوا: إنّها عاطفة، ولما مثلاً للعطف بها مثلاً مع الواو. وثالثها: أنّ العطف بها، وأنت مخير في الإتيان بالواو، وهو مذهب ابن كيسان.

هـ - الرباعية :

هـ - 1- 1- لولا:

هـ - 1- 1- دلالاته عند النحاة: وهو من الحروف المركبة من حرفين هما: (لو) و(لا)، وتدل عند النحاة على: انتفاء الشيء لوجود غيره: لأجل أن لا يثبت النفي الكائن مع لو فصار ثبوتاً، وإلا فحكم لو لم ينتقض، فقوله- عليه الصلاة والسلام-: "لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك"، يدل على انتفاء الأمر لأجل وجود المشقة المترتبة على تقدير ورود الأمر⁽¹⁰¹⁾. ويقول أبو يحيى زكريا الأنصاري: "(لولا) مثلها لوما (حرف معناه في) دخوله على (الجملة الإسمية امتناع جوابه لوجود شرطه) نحو: لولا زيد. أي؛ موجود لآهنتك، امتنعت الإهانة لوجود زيد"⁽¹⁰²⁾.

-التحضيض: أي الطلب في دخوله على الجملة المضارعة نحو قوله- تعالى-: {لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ} [النمل:46]. أي؛ استغفر.

- العرض: من زيادتي وهو طلب بلين نحو- قوله- تعالى-: {فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ} [المنافقون:10] أي تؤخرني إلى أجل قريب.
- التوبيخ: في دخوله على الجملة الماضية، نحو قوله-تعالى-: {لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ} [النور:13]. وبخهم الله على عدم المجيء بالشهداء بما قالوا من الإفك وهو في الحقيقة محل التوبيخ.

وينبه أبو يحيى زكريا الأنصاري إلى أنها لا ترد للنفي ولا للاستفهام في الأصح؛ كالأية: {لَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمِنَةٌ} [يونس:98] أي؛ فما آمنت قرية، أي أهلها عند مجيء العذاب فنفعها إيمانها إلا قوم يونس، وردَّ بأنَّها في الآية للتوبيخ على ترك الإيمان قبل مجيء العذاب وكأنَّه قيل: فلولا قرية قبل نفعها إيمانها، والاستثناء حينئذٍ منقطع⁽¹⁰³⁾.

- وقيل ترد للاستفهام: كقوله - تعالى: - {لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ} [الأنعام: 8] ورد بأنها فيه للتحضيض أي هلا أنزل بمعنى ينزل وقولي للاستفهام من زيادتي.

هـ-1-2- دلالاته في أصول الفقه: يذكرها في البحر المحيط في أصول الفقه في الثنائي، يقول: "لولا: من حق وضعها أن تدرج في صنف الثلاثي ولكن المشاكلة أوجبت ذكرها هنا"⁽¹⁰⁴⁾، ثم يشير إلى أنه يمتنع بها الشيء لوجود غيره، وأصلها (لو) و(لا) وبتركيبيهما حدث لهما معنى ثالث غير الامتناع المفرد وغير النفي⁽¹⁰⁵⁾. ويشير بعد ذلك إلى أنّ (لو) فيها امتناعان؛ لأنها يمتنع بها الشيء لامتناع غيره، أما (لا) فنافية، والنفي إذا دخل على المنفي صار ثابتاً، كما يشير إلى أنه في تفسير ابن بركان عن الخليل كل ما ورد منها في القرآن فبمعنى (هلاً) إلا في قوله - تعالى: - {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} [الصفات: 143].

نخلص في نهاية عرضنا لما وجدناه في مدونة القرافي (نفائس الأصول في شرح المحصول) إلى أن تعامل الفقهاء مع الحروف اختلفت عن تعامل النحاة معها، وذلك لأسباب نذكر منها ما يلي:

- إن الفقهاء أخضعوا الحروف لكل الاحتمالات التي يحتملها السياق؛ للوصول إلى المعنى الذي يقبله العقل، والشرع لإصدار الأحكام الصحيحة، بينما يكتفى النحاة باستخراج معانيها كما وجدوه في كلام العرب، ولما كانت اللغة أحد معجزات القرآن بدا لنا أن تعامل الفقهاء معها كان من باب الحذر لأنّ الخطأ في التخريج يصدر عنه الخطأ في الحكم وبالتالي في تفسير مسائل الشريعة الإسلامية.

-إن شدة حرص الفقهاء جعلتهم يدققون في المسائل، ويقلبونها على مختلف أحوالها، وجعلتهم يكثر من الأدلة والبراهين والأمثلة لتوضح مقاصدهم، ولقطع الشك في أحكامهم، وإن كان اختلافهم في بعض المسائل اللغوية نتيجة اختلاف مذاهبهم؛ لأن كل منتصر لمذهب يوجه المسألة اللغوية بما يوافق مذهبه.

- يضاهي القرافي في معرفته اللغوية علماء عصره من النحاة والفقهاء، الأمر الذي شحذ همته ليخوض في مسائلها موازاتاً مع المسائل الفقهية.

- إن الفرق واضح بين دلالات حروف المعاني عند الفقهاء ودلالاتها عند النحاة، فبينما استمد النحاة معانيها من القرآن والحديث وكلام العرب؛ شعره ونثره، يستمد الفقهاء دلالاتها من العقل بعد اطلاعهم على معانيها في كتب النحو، فتراحم يؤولون ويوجهون ويقلبون المسائل على كل الاحتمالات الممكنة.

قدما هذا العمل ليكون محاولة للمقارنة بين كيفية تعامل النحاة والفقهاء مع حروف المعاني، وحاولنا أن نوجه بحثنا نحو ذلك الهدف، فإن وفقنا فمن الله وإن جانبنا الصواب فمن أنفسنا، والله نسال السداد والتوفيق.

- الهوامش:

¹ - يلين: بياء مثناة من تحت مفتوحة، ولام مشددة مكسورة، وياء ساكنة مثناة من تحت ونون ساكنة. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، طبعة دار التراث للطبع والنشر بالقاهرة (د.ت)، ج1، ص 239.

² - البهفشيبي: بالياء الموحدة المفتوحة، والهاء الساكنة، والفاء المفتوحة، والشين المعجمة المكسورة، والياء المثناة من تحت الساكنة، المرجع نفسه، ج1، ص 239.

- ³ - ينظر: نفائس الأصول في شرح المحصول، للقرافي، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، وقرظه: عبد الفتاح أبو سنه، مكتبة البار، سنة: (1416هـ - 1995م) ، ط1، مج1، ص63.
- ⁴ - مثل: الوافي بالوفيات، ج6، ص333، والمنهل الصافي، لابن تغري بردي، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، طبعة مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، (1375هـ، 1956م)، ج1، ص 215.
- ⁵ - حسن المحاضرة ، ج1، ص 316.
- ⁶ - ينظر: الوافي بالوفيات، للصفدي، طبعة المطبعة الهاشمية ، دمشق، سنة:(1953م)، ج6، ص 233، وكشف الظنون في أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، طبعة مطبعة وكالة المعارف باسطنبول سنة: (1362هـ - 1943م)، ج2، ص 153.
- ⁷ - في كتابه: اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير، طبعة دار صادر، بيروت، لبنان، (1400هـ - 1980م)، ج3، ص 22.
- ⁸ - المعارف: بفتح الميم والعين، وكسر الفاء، نسبة إلى معافر بن يعفر بن مالك بن الحارث، من القحطانية. نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، سنة: (1342هـ - 1923م)، ج2، ص 303.
- ⁹ - هو لقب يعني: ما يعطى لطلبة العلم من نقود وغيرها. ينظر: العقد المنظوم في الخصوص والعموم ، للقرافي، أطروحة لنيل الدكتوراه في أصول الفقه، جامعة أم القرى، دراسة وتحقيق، أحمد الختم عبد الله، المكتبة المكية، دار الكتب، القاهر، مصر، ط1، (1420هـ، 1999م)، ص31.
- ¹⁰ - ينظر: المنهل الصافي، ج1، ص 215 إلى 217.
- ¹¹ - النبياح المذهب، ج1، ص 238.
- ¹² - المصدر نفسه، ج1، ص 31.
- ¹³ - ينسبها ابن الأثير الجزري إلى قبيلة حمير اليمانية الأصل الكائنة بأرض المغرب، اللباب في تهذيب الأنساب، ج2، ص 249.

- 14 - البهنسا: مدينة كبيرة تقع غربي النيل بصعيد مصر، كما ينسب إلى بهفشيم إحدى القرى التابعة لمدينة البهنسا، لذلك كان ينسب إليها، فيقال: البهنسيّ، والبهنشيميّ. المصدر نفسه، ج1، ص32.
- 15 - الخوانساري، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، نشر مكتبة إسماعيليان بطهران (د.ت) ج1، ص336.
- 16 - الوافي بالوفيات، ج6، ص334.
- 17 - المصدر نفسه، ج1، ص35.
- 18 - الديباج المذهب، ج1، ص238 و239.
- 19 - نفاثس الأصول في شرح المحصول، مج1، ص97.
- 20 - المصدر نفسه، مج1، ص96.
- 21 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، مادة، (ح، ر، ف)
- 22 - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص87.
- 23 - المرادي (الحسن بن قاسم)، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، (1403هـ، 1983م)، ص20.
- 24 - ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج1، ص64.
- 25 - المصدر نفسه، ج1، ص37.
- 26 - أثر اللغة في اختلاف المجتهدين، ص211، 212. وحروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي، دياب عبد الجواد عطا، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (1421هـ - 200م)، ص6.
- 27 - ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام، ص337، والجنى الداني، ص174.
- 28 - العلاني بن عبد الله، (ت:761هـ-)، الفصول المفيدة في الواو المزيدة، تحقيق: حسن موسى الشاعر، دار البشير، عمان، الأردن، ط1، (1990م)، ج1، ص70.
- 29 - المصدر نفسه، مج3، ص999.
- 30 - المصدر نفسه، مج3، ص999.

- 31- المصدر نفسه، مج3، ص1000.
- 32- المصدر نفسه، مج3، ص1003.
- 33- نفائس الأصول في شرح المحصول، مج3، ص1002 و1003.
- 34- شطر من بيت لسحيم عبد بني الحساس من قصيدة له أولها البيت: [الطويل]
عُمَيْرَةٌ وَدَعَّ إِنَّ تَجَهَّزَتْ غَادِيَا *** كَفَى الشَّيْبُ وَ الإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا
ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، دار مصعب، بيروت، لبنان، ط1، (1968م)، ج1، ص52.
- 35- نفائس الأصول في شرح المحصول، مج3، ص992.
- 36- المصدر نفسه، مج3، ص1001.
- 37- المصدر نفسه، مج3، ص1003.
- 38- شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول، ص152.
- 39- نفائس الأصول في شرح المحصول، مج3، ص992.
- 40- المصدر نفسه، مج3، ص1005.
- 41- المصدر نفسه، مج3، ص1010.
- 42- نُقِلَ عن الرَّمَّانِي أنَّهَا من الحروف العوامل، ومعناها الوعاء "أي اشتمال الظرف على ما يحويه". البحر المحيط في أصول الفقه، ج2، ص296.
- 43- ينظر: الجنى الداني، ص250 و252.
- 44- نفائس الأصول في شرح المحصول، مج3، ص1016.
- 45- الكتاب، ج4، ص226.
- 46- الرَّمَّانِي (أبو الحسن علي بن عيسى)، (ت:384هـ)، معاني الحروف، تحقيق: عبد الفتاح شلبي، دار النهضة، مصر، (1973م). ص96.
- 53- الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، طبعة جديدة، (1431هـ، 2010م)، ج3، ص71.
- 48- حسن عباس، حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، (2000م)، ص74.
- 49- الصاحبى في فقه اللغة، ص114.

- 50- نفائس الأصول في شرح المحصول، مج3، ص 1017.
- 51- الجنى الداني في حروف المعاني، ص 251 و 252.
- 52- حاشية اللباني على شرح المحلي، ص 349، وينظر: موسوعة معاني الحروف العربية، علي جاسم سلمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، (2003م)، ص 145.
- 53- أبو يحيى زكريا الأنصاري الشافعي، غاية الوصول شرح لب الأصول، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، (د.ت). ص 95.
- 54- شرح المفصل لابن يعيش، ج 8، ص 20.
- 55- نفائس الأصول في شرح المحصول، مج3، ص 1017.
- 56- منهاج الوصول إلى علم الأصول، ص 40.
- 57- أخرجه مالك في الموطأ، ج 2، ص 952.
- 58- المصدر نفسه، مج3، ص 1018.
- 59- وهو المتفق عليه عند النحاة والفقهاء، الكتاب، ج 4، ص 224.
- 60- نفائس الأصول في شرح المحصول، مج3، ص 1018.
- 61- الجنى الداني، ص 310.
- 62- شرح المفصل، ج 8، ص 13.
- 63- يردّ ابن عصفور على الكوفيين مؤيدا ابن السراج، فيجعل من لايتداء غاية الظهور؛ لأنّ ظهور الهلال بدأ من خلال السحاب. شرح جمل الزّجاجي، تحقيق: فوّاز الشعّار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، (1419هـ، 1998م)، ج 1، ص 490 و 491.
- 64- المصدر نفسه، ج 1، ص 491.
- 65- حروف الجرّ، دالاتها وعلاقاتها، ص 21.
- 66- كالمرادي، في الجنى الداني، ص 312.
- 67- ينظر: الكتاب، ج 4، ص 225 و ص 226.
- 68- شرح جمل الزّجاجي، ج 1، ص 490.
- 69- رصف المباني في شرح حروف المعاني، ص 323.
- 70- مغني اللبيب، ج 1، ص 322.

- 71- نفائس الأصول في شرح المحصول، مج3، ص1018.
- 72- رصف المباني، ص323.
- 73- الجنى الداني، ص310. أمّا ابن عصفور فنفرّد برأيه، فلم يستسغ أن تدلّ على تبیین الجنس، في الآيات المستشهد بها. شرح جمل الزجاجي، ج1، ص491، و492.
- 74- نفائس الأصول في شرح المحصول، مج3، ص1018.
- 75- يقول: "وتكون أيضا للتبويض، تقول: هذا من الثوب، وهذا منهم، كأنك قلت بعضه" الكتاب، ج4، ص225.
- 76- المبرّد، (ت: 285هـ)، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، دار الكتب، بيروت، لبنان، (د.ت.)، ج1، ص44.
- 77- الكتاب، ج4، ص225.
- 78- المصدر نفسه، ج4، ص225.
- 79- المصدر نفسه، ج4، ص225.
- 80- المقتضب، ج1، ص44.
- 81- معاني الحروف، ص97.
- 82- أخرجه مسلم في الصّحيح، ج1، ص347، في كتاب الصّلاة (4)، باب: ما تقول إذا رفع رأسه (40) (205-477).
- 83- الجنى الداني، ص310.
- 84- نفائس الأصول في شرح المحصول، مج3، ص1019 و1020.
- 85- الفراء، (ت: 207هـ)، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجّار وأخرون، دار الكتب المصريّة، القاهرة، مصر، (1955م)، ج1، ص99.
- 86- نفائس الأصول في شرح المحصول، مج3، ص1019 و1020.
- 87- المصدر نفسه، مج3، ص1020.
- 88- المصدر نفسه، مج3، ص996.
- 89- المصدر نفسه، مج3، ص1021.
- 90- الهروي، (ت: 415هـ)، الأزهية في علم الحروف، تحقيق: عبد المعين الملوحي، مطبوعات: مجمع اللغة العربيّة، دمشق، سوريا، (1413هـ، 1993م)، ص224.

- 91- الجنى الداني، ص314.
- 92- نفائس الأصول في شرح المحصول، مج3، ص1021.
- 93- المصدر نفسه، مج3، ص1023.
- 94- شرح جمل الزجّاجي، ج1، ص516.
- 95- المصدر نفسه، ج1، ص516.
- 96- شرح جمل الزجّاجي، ج1، ص516.
- 97- المصدر نفسه، ج1، ص516.
- 98- شرح جمل الزّجّاجي، ج1، ص198 و199.
- 99- الجنى الداني، ص586.
- 100- المصدر نفسه، ص586.
- 101- شرح جمل الزّجّاجي، ج1، ص539.
- 102- غاية الوصول شرح لب الأصول، ص90. و ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه، ج2، ص289.
- 103- المصدر نفسه، ص90.
- 104- البحر المحيط في أصول الفقه، ج2، ص289.
- 105- المصدر نفسه، ج2، ص289 و290.

التوجيه الصوتي للأحاديث النبوية عند ابن مالك الأندلسي « درامة في كتابه : شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح »

نبيلة قريني

جامعة 8 ماي 1945 - قالمة

الملخص:

يسعى هذا العمل إلى تتبع صور التوجيه الصوتي للأحاديث النبوية المُشكِّلة (الصعبة) الواردة في صحيح البخاري، حيث حاول ابن مالك أن يوجِّهها صوتياً، وصرافياً، ونحوياً كي يجعلها موافقة للقواعد النحوية المشهورة ولو بوجه. واختيارنا للتوجيه الصوتي إنما لكونه متصلًا بواقع الاستعمال اللغوي. ومن أهم صور التوجيه الصوتي التي اتبعها، التوجيه وفق علتي التخفيف والاستئصال، وعلّة الإتياع، والإبدال، وعلّة الجوار، وعلّة المشاكلة.

الكلمات المفتاحية : الأحاديث المشكِّلة، التوجيه الصوتي، علّة التخفيف والاستئصال، علّة الجوار، علّة الإتياع، علّة الإبدال والإدغام.

Résumé:

Nous essayons à travers ce travail de suivre les aspects de l'orientation phonétique des paroles prophétiques difficiles contenues dans le Sahih Bukhari, où Ibn Malik a essayé de les diriger vocalement, morphologiquement, et grammaticalement afin de les rendre conforme aux règles communes.

On a opté pour l'orientation phonétique parce qu'elle est relié à l'utilisation linguistique. Parmi les aspects les plus importantes de l'orientation phonétique que Ibn Malik a adopté: l'orientation selon l'atténuation, Al istithkal, la juxtaposition, l'addition, la substitution, et l'inclusion.

Mots clés: les paroles prophétiques difficiles, l'orientation phonétique, l'atténuation, Al istithkal, la juxtaposition, l'addition, la substitution, et l'inclusion.

Abstract:

We try through this work to follow the aspects of the phonetic orientation of the difficult prophetic words contained in the Sahih Bukhari, where Ibn Malik tried to direct them vocally, morphologically, and grammatically in order to make them conform to common rules.

We opted for phonetic orientation because it is connected to linguistic use. Among the most important aspects of the phonetic orientation that Ibn Malik adopted for: orientation according to attenuation, Al istithkal, juxtaposition, addition, substitution, and inclusion.

Key words: difficult prophetic words, phonetic orientation, attenuation, Al istithkal, juxtaposition, addition, substitution, and inclusion.

أولاً : عناية العلماء بالحديث النبوي والمؤلفات المتعلقة به:

يعدّ الحديث النبوي الشريف -باعتباره جزءاً من السنة النبوية- المصدر الثاني من مصادر الفقه الإسلامي. وقد اكتسب الحديث النبوي هذه الأهمية من حيث كونه تابعا للقرآن؛ فيكون إما « مؤكداً لمعناه، أو مخصصاً لعامه، أو مقيّداً لمطلقه، أو مفصلاً لمجمله، أو آتياً بأحكام مستقلة عنه»⁽¹⁾. لأجل ذلك حظي باهتمام الدارسين منذ بداية تدوينه على عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وبأمر منه، فكثرت بذلك علوم الحديث، وتعددت الجوانب التي يدرس منها، فنجد من تلك العلوم: علم مصطلح الحديث، وعلم علل الحديث، وعلم غريب الحديث، وعلم مختلف الحديث، ومشكله. وعلم غريب الحديث وتأويل مشكله من أهم العلوم التي اهتمت بدراسة الحديث من حيث ألفاظه ومعانيه، فكثرت بذلك المصنفات والتأليف في هذين العلمين من أرباب المهتمين بالحديث، واللغويين على حد سواء.

(أ) وأما غريب الحديث: « فهو عبارة عما وقع في متون الأحاديث من الألفاظ الغامضة البعيدة عن الفهم لقلة استعمالها»⁽²⁾.

وما تجدر الإشارة إليه أن حديث الرسول (صلى الله عليه و سلم) لم يكن غريباً على الأمة العربية في صدر الإسلام، ولا في عهد الصحابة، ولا عصر التابعين حتى دخول الأعاجم فاستحال اللسان العربي أعجمياً، فلمّا

أعضل الداء ألهم الله سبحانه وتعالى جماعة منه أولي المعارف إلى هذا الشأن طرفاً من عنايتهم، فشرعوا في دراسة حديث رسول الله (3).
وتوالى التصانيف منذ القرن الثالث للهجرة، وطيلة ما تلاه من القرون، حتى بلغت المصنفات في هذا المجال "ثمانين" مصنفاً (4). أشهرها: غريب الحديث لأبي عبيد (224هـ)، غريب الحديث لابن قتيبة (267هـ)، غريب الحديث للخطابي (388هـ)، غريب الحديث للهروي، الفائق في غريب الحديث للزمخشري، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (606هـ).

(ب) كتب تأويل مشكل الحديث: مُشكِل الحديث، ويُعرَف أيضاً بـ: مُختلف الحديث، واختلاف الحديث، وتلفيق الحديث (5). وهو علم يتناول الأحاديث التي ظاهرها التعارض من حيث الجمع والتوفيق بينهما؛ إمّا بتقبيد مطلقها، أو بتخصيص عامّها. أو بحملها على تعدد الحادثة التي جاء من أجلها الحديث، أو غير ذلك، كما يتناول أحياناً بيان تأويل ما يشكّل من الحديث، وإن لم يعارضه حديث آخر، فيدفع إشكاله ويوضح حقيقته (6).
ويعرف أيضاً بأنه علم يدرس الآثار المروية عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما جاء مناقضا لها في الظاهر من آية أو حديث، أو غير ذلك مما هو ظاهر، ومعتبر، أو فيها ألفاظ، ومعانٍ لا تُعلم عند كثير من الناس (7).

وتظهر أهميته في ردّ دعوى تعارض النصوص، وتصادم الأخبار التي أثارها بعض الفرق، وأصحاب الشبهات، ودفع التناقض عن كلامه (صلى الله عليه وسلم) حتى يطمئن المكلف إلى أحكام الشرع (8).
ومثال هذه الأحاديث ما ذكر ابن قتيبة من أن أصحاب الشبهات ادّعوا التناقض في قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): « الماء لآ

يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ»⁽⁹⁾ وقوله: « إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قَلْتَيْنِ لَمْ يَحْمِلْ نَجَسًا »⁽¹⁰⁾ فقالوا هذا دليل على أن ما لم يبلغ قلتين محل للنجس، وهذا خلاف الحديث الأول. فرد ابن قتيبة دعوى هذا التناقض يقول: « ونحن نقول إنه ليس بخلاف الأول، وإنما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (الماء لا ينجسه شيء) على الأغلب، لأن الأغلب على الآبار والغدران أن يكثر ماؤها، فأخرج الكلام مخرج المخصوص، ثم بين لنا بعد هذا بالقلتين مقدار ما تقوى عليه النجاسة من الإناء الكثير الذي لا ينجسه شيء»⁽¹¹⁾.

والتأليفات في تأويل مشكل الحديث كثيرة أهمها: كتاب اختلاف الحديث للإمام الشافعي (204هـ) وهو أول ما صنّف في هذا العلم، اختلاف الحديث للإمام أبي أحمد الأزدي (217هـ)، وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري (217هـ)، مختلف الحديث للطبري (310هـ)، ومشكل الآثار للإمام أبي جعفر الطحاوي (321هـ)، وما إلى ذلك من المصنفات.

جـ) كتب إعراب الحديث : يقصد بها المؤلفات التي عُنت ببيان وجوه إعراب الأحاديث التي قد يبدو ظاهرها مخالفا للقواعد النحوية، وذلك بالتماس أوجه صواب تخرج إليها، والاستشهاد على صحتها بشواهد لغوية أخرى من القرآن، وكلام العرب.

وقد تأخر اهتمام النحاة، واللغويين بإعراب الحديث - على عكس عنايتهم بإعراب القرآن منذ زمن مبكر- إلى بداية القرن السابع للهجرة، حيث يظهر أول كتاب في إعراب الحديث هو "إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث" للعكبري (616هـ).

ولئن تعددت المؤلفات في إعراب القرآن وكثرت، فإننا في مقابل هذا لم نحظ في إعراب الحديث إلا بثلاثة كتب وهي: كتاب العكبري الذي سبق

ذكره، وقد وضعه على جامع المساند لابن الجوزي رحمه الله⁽¹²⁾. وكتاب شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك الأندلسي (672هـ)، اعتمد فيه على صحيح البخاري، وكتاب عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد للسيوطي (911هـ).

تضم هذه المؤلفات توجيهها صوتياً وصرفياً ونحوياً لكثير من الأحاديث التي رميت باللحن لمخالفتها الشائع من القواعد، والأحكام النحوية، وبذلك أعادت هذه المؤلفات الثقة، والاطمئنان لنفوس الدارسين لكلامه (صلى الله عليه وسلم) ولا سيما وأن النحاة قد وقفوا من الاستشهاد بالحديث النبوي موقفاً سلبياً؛ حيث أقلوا منه، ولم يعتدوا به في تأصيل قواعدهم إلى أن أصل ذلك ابن مالك الأندلسي؛ إذ خالف مذهب الجمهور، واتخذ الحديث أصلاً بنى عليه كثيراً من الأحكام النحوية غير المعروفة عند القدامى، وافتتح بذلك باب النقاش في مسألة الاستشهاد بالحديث على مصراعيه لمن جاؤوا بعده.

ثانياً: كتاب شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك الأندلسي.

وهو ثاني مؤلف في إعراب الحديث لصاحبه جمال الدين محمد بن مالك الأندلسي (672هـ)، هذا النحوي الجليل الذي بلغ الغاية في علوم عديدة. وأكثر ما اشتهر به من مؤلفاته: الألفية في النحو، وكتاب التسهيل. إلا أن كتاب إعراب الحديث هذا لا يقل قيمة عن سائر مؤلفاته، بل إنه هو الذي فتح له الطريق للانتفاع من الحديث في ميدان النحو.

يضمّ كتاب "شواهد التوضيح، والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح" توجيهها صوتياً، وصرفياً، ونحوياً لما يربو عن مائتي حديث يخالف ظاهرها الشائع من الأحكام الصرفية، والنحوية.

والذي حدا ابن مالك إلى وضعه هو أن الشرف اليونيني - وهو أحد الأعلام المعتمدين بالحديث في عصر ابن مالك- قام بتصحيح نسخ صحيح البخاري التي توفرت لديه ، ووجد فيما حققه هذه الأحاديث المشكلة، فطلب إلى ابن مالك أن يصحّحها له ففعل، وكان تصحيحه لها في مجالس علنية حضرها علماء كثر⁽¹³⁾. وفي تصحيحه لهذه الأحاديث لم يرّم ابن مالك أيّ حديث بالخطأ واللحن، وإنما التمس لها شواهد من القرآن، وكلام العرب شعره، ونثره تثبت صحتها، وموافقتها للعربية ولو بوجه. بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك؛ حيث اتخذ كثيراً من الأحاديث أصلاً بنى عليه أحكاماً غفل عنها جمهور النحاة، أو خصّوها بالضرورة، أو عدّوها من الشاذ الذي لا يسوغ القياس عليه⁽¹⁴⁾.

ويظهر من خلال الكتاب براعة صاحبه في توجيه الأحاديث المشكلة على أوجه متعددة تجعلها كلّها صحيحة. وتوجيهه للأحاديث كان في المستويات اللغوية الثلاثة: الصوتي، والصرفي، والنحوي.

ثالثاً : التوجيه الصوتي للأحاديث النبوية عند ابن مالك :

التوجيه مصطلح ابن مالك في تصحيح الأحاديث النبوية الشريفة. وهو أسلوب يتبعه النحاة عموماً في تعاملهم مع النصوص اللغوية التي يبدو ظاهرها مخالفاً للأحكام النحوية الشائعة. ومعنى التوجيه أن يجد للشاهد

اللغوي الذي يبدو ظاهره مخالفاً للأحكام النحوية المشهورة وجهاً يخرج إليه في العربية.

وأقصد بالتوجيه الصوتي اتباع تعليقاته الصوتية في توجيه الأحاديث النبوية؛ فالتعليل إحدى الآليات التي اعتمدها ابن مالك في تصحيح الأحاديث النبوية المشككة، وإنما قصدنا العلل الاستعمالية المرتبطة بالجانب الاستعمالي للغة، لا تعليلاً لأحكام نحوية.

وأكثر هذه العلل واردة لدى النحويين في تعاملهم مع النصوص اللغوية، ومن هنا فمرتکز هذه الدراسة ما أثبتته النحاة المتقدمون أكثر من اعتماد دراسات المحدثين في مجال الصوتيات.

1- علنا التخفيف والاستئقال:

تعدّ هاتان العلتان من أبرز العلل الصوتية؛ إذ تقومان على أساس إحساس فيزيائي مفاده أن بعض الكلمات والتراكيب يصعب نطقها بصورة معينة فتستبدل هذه الصورة بصورة أخرى أكثر سهولة، ولا يتم هذا الاستبدال تحت إشراف العقل، بل يتم ألياً دون وعي المتكلم⁽¹⁵⁾. وتتلازم هاتان العلتان تلازماً ظاهراً، فما يتقل نطقه يُعدّل به إلى التخفيف، وغالباً ما تطلب الخفة عند التقل، فهما على حد قول تمام حسان: «وجهان لعملة واحدة»⁽¹⁶⁾.

وترتبطان بمبدأ الاقتصاد اللغوي؛ إذ تتأسسان على مسلمة مفادها أن الإنسان يسلك في نطقه أيسر السبل، وأقلها جهداً، ولذلك فإن النطق يتغير تبعاً لذلك من التقل إلى الخفة⁽¹⁷⁾.

ومن دواعي النقل التي تقتضي التخفيف: توالي الأمثال، وعدم الانسجام الصوتي. وأما توالي الأمثال فقد يكون لتوالي حركات متشابهة، أو حروف متشابهة، أو متقاربة في المخرج؛ إذ تعتبر كالمتشابهة⁽¹⁸⁾. وأكثر وسائل التخفيف: الحذف والإدغام والإبدال؛ فقد يحذف الحرف مصدر النقل، أو يدغم في غيره، أو يبدل منه حرف آخر، وكذلك الحركة تحذف أو تستبدل بحركة مناسبة، بل قد يحذف الحرف دون أن يُرد ذلك إلى توالي الأمثال، وعدم التجانس بين الأمثال، بل لمجرد التخفيف فحسب⁽¹⁹⁾. ومن صور توجيه الأحاديث النبوية وفق هاتين العلتين نذكر:

أ) حذف الحرف لتوالي المثليين : وجاء ذلك في توجيه ابن مالك قول عقبة ابن عامر للنبي (صلى الله عليه وسلم): « إِنَّكَ تَبَعْنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ نَا يَقْرُونَا »⁽²⁰⁾، وكذا قول مسروق لعائشة رضي الله عنها: « لِمَ تَأْذَنِي لَهَا؟ »⁽²¹⁾، وقول بعض الصحابة: « وَأَصْبَحُوا يُعَلِّمُونَا كِتَابَ اللَّهِ »⁽²²⁾.

ففي هذه الأحاديث إشكال ظاهر وهو حذف نون المضارع من الأفعال: " يَقْرُونَا، تَأْذَنِي، وَيُعَلِّمُونَا " مع عدم وجود موجب لحذفها فكلها أفعال مضارعة مرفوعة، فالأصل ثبوت النون، وكان القياس أن يقال: يقروننا، وتأذنين، ويعلموننا.

والوجه في حذف هذه النون بحسب ابن مالك إنما هو تخفيفاً لتوالي الأمثال⁽²³⁾: نون المضارعة، ونون الوقاية.

ب) حذف الحرف تخفيفاً فحسب: نحو ما ورد في توجيه ابن مالك قول ابن عباس والمسور بن مخرمة وآخرين لرسولهم إلى عائشة يسألونها عن الركعتين بعد العصر : « بَلَّغْنَا أَنَّكَ تُصَلِّيهِمَا »⁽²⁴⁾.

فكان القياس أن يقال: "تصلينهما"؛ إذ لا موجب لحذف النون علامة رفع الفعل المضارع، فإنما كان الحذف هنا لمجرد التخفيف⁽²⁵⁾.

ومن حذف النون لمجرد التخفيف ما رواه البغوي من قول النبي (صلى الله عليه وسلم): « لَأَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَحَابُّوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا »⁽²⁶⁾.

والأصل في هذه الأحاديث أن يقال: " تُصَلِّيْنَهُمَا"، و"تَدْخُلُونَ" و"لَأَ تُؤْمِنُونَ" فهي أفعال مضارعة مرفوعة و"اللام" في لا تدخلون، ولا تؤمنون نافية لا تعمل، ومن ثمّ فالأصل أن تثبت النون علامة للرفع، وحذفها من هذه الأفعال إنما كان لمجرد التخفيف.

ومن صور حذف الحرف لمجرد التخفيف ما ذهب إليه ابن مالك في تحقيقه لفظ "كن" في أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) عمر - رضي الله عنه - ببناء المسجد قال: « كِنَ النَّاسَ فِي الْمَطَرِ وَ إِيَّاكَ أَنْ تُحَمَّرَ أَوْ تُصَفَّرَ فَتَفْتِنَ النَّاسَ »⁽²⁷⁾.

قال ابن مالك: فالأصل في (كن) أكنّ « وحذفت الهمزة تخفيفاً كما حذفت في: يا بَا فُلَانٍ، وَلَا بَا لَكَ »⁽²⁸⁾.

ج) التخفيف بحذف الحركة: من حذف الحركة لمجرد التخفيف ما ذهب إليه في توجيه قول الرسول (صلى الله عليه وسلم): « قَوْمُوا فَلِأَصْلِي بِكُمْ »⁽²⁹⁾.

يرى ابن مالك أن الوجه في ثبوت الياء ساكنة في: "لأصلي" أن اللام التي اتصلت بالفعل "لام كي" وسكنت الياء تخفيفاً⁽³⁰⁾؛ أي إن الفعل منتصب بكي مضمر بعد اللام، والقياس أن يقال: لأصلي بفتحة فوق الياء علامة للنصب، وإنما سكنت الياء لمجرد التخفيف.

د) **علة الإبدال**: الإبدال ظاهرة لغوية منتشرة في اللغة العربية، تحدث نتيجة التجاور الصوتي، وتأثير الأصوات بعضها في بعض، والإبدال في العربية على ضربين منه ما هو مُطَرَّدٌ وله قياس معلوم⁽³¹⁾، ومنه ما هو غير مطرد، موقوف على السماع، ولعل الغاية من الإبدال هي التخفيف.

ومما وجهه ابن مالك من أحاديث على "الإبدال" قول أبي جهل لصفوان: « **مَتَى يَرَاكَ النَّاسُ قَدْ تَخَلَّفْتَ، وَأَنْتَ سَيِّدُ هَذَا الْوَادِي تَخَلَّفُوا مَعَكَ** »⁽³²⁾. حيث تضمن هذا الحديث ثبوت ألف "يراك" بعد متى الشرطية، وكان حقها أن تحذف فيقال: "متى يرك"; لأن متى أداة شرط جازمة لفعلين، والقياس حذف ألف يراك علامة لجزم الفعل المعتل الآخر، ومن أوجه تخريجه لها: أن يكون: يَرَا مزارع رَاءَ بمعنى: رأى كقول الشاعر [بحر الطويل]:

إِذَا رَأَيْتِي أَبْدَى بِشَاشَةٍ وَأَصِلِ ... وَيَأْلَفُ شَنَايِي إِذَا كُنْتُ غَائِبًا

ثم أبدلت همزته ألفاً فصار: يَرَا، فثبتت في موضع الجزم كما تثبت الهمزة التي هي بدل منها⁽³³⁾. وللتوضيح نقول: إذا حمل "رأى" على "راء" سيكُون مزارعه يَرَاؤُك، وإذا جزم قيل: متى يَرَأُكَ بحذف الألف، ثم تبدل الهمزة ألفاً، فتصير: متى يَرَاكَ.

ومما وجه على الإبدال قول عمر - رضي الله عنه - : « **وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ** »⁽³⁴⁾ دون تنوين: "عجباً". قال ابن مالك: فواعجباً إذا لم تنون فالأصل فيه: واعجبي، فأبدلت الكسرة [كسرة الباء] فتحة، والياء ألفاً فصارت "واعجباً" كما فعل في: "يا أسفًا"، و"ياحسرتا"⁽³⁵⁾ وأصلها: يا أسفي، ويا حسرتي.

2- علة كثرة الاستعمال: يعتمد على علة كثرة الاستعمال في توجيهه «التغييرات التي تحدث في الكلمة، أو التركيب الذي يشيع استعماله عند العرب»⁽³⁶⁾.

وكثيرا ما تقترن علة كثرة الاستعمال بعلة التخفيف؛ ذلك أن ما يكثر استعماله يكون أحوج إلى التخفيف، ولتلازم هاتين العلتين كثيرا عدّهما بعض النحاة علة واحدة بمصطلحين متباينين⁽³⁷⁾.

إلا أن الراجح أن كثرة الاستعمال نعدها مسوِّغا للتخفيف، لا مرادفاً له. فكثرة الاستعمال « تكاد تكون المقياس الأغلب الذي عليه التعليل في كثير من الظواهر، وبخاصة في ظواهر التخفيف والحذف والاستغناء والترخيم، وغيرها»⁽³⁸⁾.

ومما وُجّه من أحاديث وفق هذه العلة، ما جاء في تعليل قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) « وَيَلْمُهُ مِسْعَرُ حَرْبٍ »⁽³⁹⁾. فالأصل أن يقال : وَيْ لِمُّهُ، فحذفت الهمزة تخفيفاً لأنه كلام كثر استعماله وجرى مجرى المثل⁽⁴⁰⁾. ثم نقلت حركته إلى اللام دليلاً على حذفها، ووصلت بـ : وَيْ نطقاً، وأجريت في الخط مجرى النطق.

ومثله قول أم حارثة للرسول (صلى الله عليه وسلم): « فَإِنْ يَكُ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرُ وَأَحْتَسِبُ، وَإِنْ تَكُنُ الْأُخْرَى تُرَى مَا أَصْنَعُ »⁽⁴¹⁾، فالأصل في "يَكُ" : يكون، ثم جزم فصار "يَكُنْ"، ثم حذفت نونه لكثرة الاستعمال فصار "يَكُ"⁽⁴²⁾.

3- علة المشاكلة: وهي من العلل التي تطرد في كلام العرب، وتكثر في استعمالاتهم⁽⁴³⁾، ولما كان التشاكل يحدث من أثر الجوار عدّه بعضهم مظهراً من مظاهر علة الجوار لا علة مستقلة⁽⁴⁴⁾. والحق أن بينهما من الترابط ما

جعل التفريق بينهما عسيراً. واختيارنا لمصطلح "المشاكله" لأنه الوارد في استخدام ابن مالك؛ حيث قال: « إن سبب العدول عن الظاهر هو تحقيق التشاكل للمتجاوزين »⁽⁴⁵⁾.

ومما وجّه وفق علة التشاكل قوله (صلى الله عليه وسلم): « لا دريت، ولا تليت »⁽⁴⁶⁾ فالقياس أن يقال: تلوت⁽⁴⁷⁾، لأن الألف منقلبة في ماضيه "تلا" عن واو، يقال تلا، يتلو، وإنما قلبت الواو ياء في الحديث لمشاكله ياء دريت.

ومثله قول: « أخذهُ ما قَدَمَ، وما حَدَثَ »⁽⁴⁸⁾، والأصل: حَدَثَ⁽⁴⁹⁾ فأبدلت حركة عين الفعل -التي هي فتحة- ضمةً لتشاكل حركة عين الفعل "قَدَمَ" وهي الضمة.

4- **علة الإتياع:** والإتياع علة ناتجة عن التجاور كذلك، تنشأ من تأثير الأصوات بعضها في بعض بإجرائها مجرى ما يجاورها، ومن صور هذه العلة ما جاء في توجيه قوله (صلى الله عليه وسلم) كذلك: « وَيُؤَمُّ مِسْعَرِ حَرْبٍ »⁽⁵⁰⁾.

قال ابن مالك: والوجه الآخر في ضمّ اللام [وهي حرف جر أصل حركتها كسرة] أن يكون ضمّ إتياعاً للهمزة، كما كسرت الهمزة إتياعاً للام في قراءة: ﴿فَلِيَامِهِ الثُّلُثُ﴾ [النساء/11].

أي إن الأصل أن يقال: وي لأمه، ثم ضمت اللام إتياعاً لحركة الهمزة، فصارت: وي لأمه، ثم حذفت الهمزة، وبقي تابع حركتها على ما كان عليه، و"وي" من أسماء الأفعال بمعنى التعجب، واللام متعلقة به⁽⁵¹⁾.

5- **علة الإشباع** : ويعني الإشباعُ مَدَّ الصوت من جنس الحركة، فَمَدُّ الفتحة يوَلِّدُ ألفاً، ومَدَّ الضمة يوَلِّدُ واواً، ومَدَّ الكسرة يوَلِّدُ ياءً.

وممّا وجه من أحاديث على "الإشباع" ما جاء في قول أبي جهل : « **مَتَى يَرَاكَ النَّاسُ...»**(52). والإشكال في هذا الحديث أن "متى" شرطية جازمة، إلا أن يَرَاكَ ثبتت فيه الألف، والأصل أن تحذف علامة للجزم، والوجه في ثبوتها أن تكون الألف متولدة عن إشباع فتحة الراء بعد سقوط الألف الأصلية جَزْماً.(53)

وذكر ابن مالك أن إشباع الحركات الثلاث، وتوليد الأحرف الثلاثة بعدها لغة معروفة؛ فقد حكى الفراء عن بعض العرب قولها: «**أَكَلْتُ لَحْمًا شَاةً**»، يريد لحمَ شاةٍ، فأشبع فتحة الميم، وتولدت الألف.(54)

6- توجيه بعض الأحاديث على لغة ربعة عند الوقف:

تتباين اللهجات العربية القديمة فيما بينها تبايناً ملحوظاً، ولاسيما في المستوى الصوتي؛ فقد حفظت كتب فقه اللغة ظواهر لهجية اشتهرت بها بعض القبائل العربية، من مثل الكشكشة، والكسكسة، والفحفة، والعجرفية، والطمطمانية، ولغات أخرى غير منسوبة(55).

ولما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) عربياً، ومبعوثاً إلى قبائل العرب أولاً؛ فقد أثر عنه بعض الأحاديث، وعن بعض الصحابة جاءت على لهجات بعض العرب غير اللهجية القرشية، مثل الحديث الذي ترويه كتب النحو وهو قوله: « **لَيْسَ مِنْ أَمْبَرٍ أَمْصُومٌ فِي أَمْسَفَرٍ** » وقد جاء على الطمطمانية وهي لغة حمير؛ تبدل الألف في "أل" التعريف ميماً، ولو جاء على اللغة المشهورة ل قيل « **ليس من البرّ الصّومُ في السّفَرِ** ». كما روي عنه أنه كان يخاطب بعض العرب بلغاتهم. ومن ثمّ فمن جميل الفعل أن وجّه ابن

مالك بعض الأحاديث التي بدا فيها إشكال، وخرَّجها على لغات بعض القبائل ولاسيما لغة ربيعة، وتميم، ومن ذلك:

(أ) توجيه قول عائشة - رضي الله عنها- في باب المحصب: «إِنَّمَا كَانَ مَنزَلٌ يَنْزِلُهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) تَعْنِي الْمَحْصَبُ»⁽⁵⁶⁾ من دون تنوين منزل.

قال ابن مالك: « والوجه فيه أن يكون منزل منصوباً في اللفظ إلا أنه يكتب بلا ألف على لغة ربيعة، فإنهم يقفون على المنصوب المنون بالسكون، وحذف التنوين، واستغنى عنها في الخط، لأنها على لغتهم ساقطة وقفاً ووصلاً»⁽⁵⁷⁾.

(ب) جاء في الحديث أن بعض الصحابة سئل: « كَمْ اعْتَمَرَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم)؟ » فقال: «أربع»⁽⁵⁸⁾، كذا في بعض النسخ برفع أربع وفي بعضها بالنصب.

والوجه في كونه منصوباً غير منون أن يكون كتب على لغة ربيعة، وهو في اللفظ منصوب⁽⁵⁹⁾؛ ذلك أنهم يقفون على المنصوب المنون بالسكون. (جـ) ومنها قول أبي برزة - رضي الله عنه-: « غَزَوْتُ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) سِتَّ غَزَوَاتٍ أَوْ سَبْعَ غَزَوَاتٍ، أَوْ ثَمَانِيَّ »⁽⁶⁰⁾.

قال ابن مالك: وفي ترك تنوين " ثَمَانِيَّ " أوجه منها: أن يكون في اللفظ "ثمانياً" بالنصب والتنوين إلا أنه كتب على اللغة الربيعية؛ فإنهم يقفون على المنون المنصوب بالسكون، فلا يحتاج الكاتب على لغتهم إلى ألف لأن من أثبتتها في الكتابة لم يُرَاعَ إلا جانب الوقف فإذا كان يحذفها في الوقف كما يحذفها في الوصل لزمه أن يحذفها خطأ⁽⁶¹⁾.

7- التوجيه على تسكين عين الكلمة على لغة تميم : جاء في الحديث قول النبي (صلى الله عليه وسلم): « فَقَالَ الذَّنْبُ: هَذَا اسْتَفْذَتْهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبْعِ يَوْمَ لَارَاعٍ لَهَا غَيْرِي؟ »⁽⁶²⁾.

والأصل في قوله : "يوم السَّبْع" "يوم السَّبْع" بضم الباء، فسكنها على لغة تميم فإنهم يسكنون العين المضمومة في الأسماء، والأفعال، وكذلك يفعلون بالعين المكسورة، فينقلون في : نمر، وإبل : نمرٌ، وإبلٌ⁽⁶³⁾.

كان هذا عرضاً لصور التوجيه الصوتي التي خرّج عليها ابن مالك كثيراً من الأحاديث المشككة في صحيح البخاري؛ حيث التمس لها أوجهاً من العلل بعضها مطرد، وبعضها غير مطرد، ولكن عدم الاطراد لا ينافي الصواب فالمهم أنه لم يرمها قطّ باللحن، وإنما حملها على الأوجه العربية المحتملة والمقبولة. وذلك ما ينبغي أن يكون في التعامل مع الأحاديث النبوية. فليست مخالفتها للمشهور من الأحكام النحوية والصرفية مدعاة لتترك الاستشهاد بها، أو تخطتها، بل إنّ فيها من الأحكام ما لم تدركه عقول النحاة الذين أهملوها، وكان لابن مالك الفضل في إعادة الاعتبار للحديث باتخاذ أصلاً بنى عليه عديد الأحكام النحوية، واتخذها مصدراً في النحو كما هو مصدر في الفقه الإسلامي.

الهوامش:

(1) محمد محمده : مختصر علم أصول الفقه الإسلامي، شركة الشهاب، الجزائر، ط4،

1999: ص: 19.

(2) ابن الصّلاح : مقدمة ابن الصّلاح في علوم الحديث، (د، تح)، دار الفكر، بيروت،

لبنان، ط2002، ص: 171.

- (3) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، والأثر، اعتنى به : رائد بن صبري بن أبي علفة، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ط 2002، ص: 14، 15 [مقدمة المؤلف].
- (4) ينظر : أشرف أحمد حافظ : الاستشهاد بالحديث في المعاجم العربية، دار المعرفة الجامعية، بيروت، لبنان، ط4، 1982، ص: 303.
- (5) ينظر : محمد عجاج الخطيب: أصول الحديث: علومه ومصطلحه ، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2003، ص:181
- (6) ينظر: مر.ن، ص.ن.
- (7) ينظر : عبد الله بن حمد المنصور: مشكل القرآن الكريم، دار ابن الجوزي، السعودية، ط1، 1428هـ، ص: 53.
- (8) محمد إبراهيم عبد الرحمان: دراسة في علوم الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط2005، ص: 279، 280.
- (9) ينظر: ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث، تح: سعيد محمد النساري، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط2006، ص: 421، 422.
- (10) ينظر: مص.ن، ص.ن.
- (11) ينظر: مص.ن، ص.ن.
- (12) العكبري : إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث النبوي، تح : عبد الحميد هندراوي، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، ط1، 1999، ص: 13 [مقدمة المؤلف]
- (13) ابن مالك : شواهد التوضيح، والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ط)، (د، ت)، ص: 219.
- (14) ينظر مثلا : مص.ن، ص: 98، 65، 19، 44.
- (15) ينظر: جلال شمس الدين : التعليل اللغوي عند الكوفيين مع مقارنته بنظيره عند البصريين "دراسة إبستمولوجية"، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، مصر، (د.ت)، ص : 87.
- (16) الأصول: "دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب"، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1991، ص: 205.
- (17) ينظر: جلال شمس الدين : التعليل اللغوي عند الكوفيين مع مقارنته بنظيره عند البصريين "دراسة إبستمولوجية"، ص: 81.

- (18) ينظر: حسام أحمد قاسم : الأسس المنهجية للنحو العربي: «دراسة في كتب إعراب القرآن الكريم»، دار الآفاق العربية، مصر، ط1، 2000، ص: 376.
- (19) ينظر: مر. ن، ص. ن.
- (20) البخاري: صحيح البخاري، عناية وضبط: أحمد جاد، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر، ط1، 2002، كتاب المظالم، باب قصاص المظلوم إذا وجد مال ظالمه، ح 2461، ص: 446.
- (21) ينظر: ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح، ص: 171.
- (22) مص.ن، ص : 173.
- (23) مص.ن، ص.ن.
- (24) مص.ن، ص : 171.
- (25) مص.ن، ص.ن.
- (26) مص.ن، ص : 173.
- (27) صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب بنيان المسجد، ح: 446، ص: 96.
- (28) ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح، ص: 201.
- (29) صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة على الحصير، ح: 380، ص: 85.
- (30) ينظر: ابن مالك : شواهد التوضيح والتصحيح، ص : 187.
- (31) ينظر: تمام حسان : اللغة العربية : معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط 2001، ص: 275، 276.
- (32) صحيح البخاري : كتاب المغازي، باب ذكر النبي (ص) من يقتل ببدر، ح : 3950، ص: 372.
- (33) ينظر: ابن مالك : شواهد التوضيح والتصحيح، ص : 17، 18.
- (34) صحيح البخاري : كتاب المظالم والغضب ، باب الغرفة، والعلية المشرفة، ح: 76، وشواهد التوضيح والتصحيح، ص: 210 .
- (35) ينظر : ابن مالك : شواهد التوضيح والتصحيح، ص : 212.
- (36) حسام أحمد قاسم : الأسس المنهجية للنحو العربي، ص: 385.
- (37) ينظر : جلال شمس الدين : التعليل اللغوي عند الكوفيين، ص : 81.

- (38) عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث "بحث في المنهج"، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1986، ص: 82.
- (39) صحيح البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، ح: 2731، ص: 503.
- (40) ينظر: ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح، ص: 157.
- (41) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا، ح: 3982، ص: 737.
- (42) ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح، ص: 175.
- (43) ينظر: السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو، تح: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1998، ص: 82.
- (44) ينظر: حسام أحمد قاسم: الأسس المنهجية للنحو العربي، ص: 390.
- (45) ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح، ص: 75.
- (46) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، ح: 1338، ص: 246.
- (47) ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح، ص: 75.
- (48) ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح، ص: 75.
- (49) مص.ن، ص.ن.
- (50) صحيح البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، ح: 2731، ص: 503.
- (51) ينظر: ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح، ص: 157.
- (52) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب ذكر النبي (ص) من يقتل بيدر، ح: 3950، ص: 372.
- (53) ينظر: ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح، ص: 22.
- (54) ينظر: ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح، ص: 22.
- (55) ينظر: ابن فارس: الصحابي في فقه اللغة، وسنن العرب في كلامها، تح: عمر فاروق الطَّبَّاع، دار المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص: 29-32.
- (56) صحيح البخاري: كتاب الحج، باب كم المحصب، ح: 1765، ص: 321.

- (57) ينظر : ابن مالك : شواهد التوضيح والتصحيح ، ص : 37.
- (58) صحيح البخاري : كتاب العمرة، باب كم اعتمر النبي (ص)، ح : 1775، ص: 323 .
- (59) ينظر : ابن مالك : شواهد التوضيح والتصحيح ، ص: 39.
- (60) صحيح البخاري: كتاب العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة، ح: 1211، ص: 224.
- (61) ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح، ص: 49.
- (62) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء، باب حدثنا أبو البيان، ح: 1161، و: شواهد التوضيح، والتصحيح، ص: 210.
- (63) ينظر: ابن مالك: شواهد التوضيح والتصحيح، ص: 210.

البلاغة العربية تعلماً وتعليماً من النص إلى المعيار "المعتزلة نموذجاً"

عمار بـمـدـاش
جامعة 8 ماي 45 قالة- الجزائر

المـلـخـص:

موضوع هذا المقال تعليم البلاغة عند العرب القدماء- المعتزلة خاصة- وهو مفهوم حاولنا أن نؤسس له في ضوء ما وصلنا من ثراء معرفي، وزخم إنتاجي يدلُّ بوضوح على ما كان عليه أسلافنا من تمثُّل للمفاهيم النظرية الضابطة للعملية التعليمية، وما واكبها من إنتاج إبداعي ظلَّ مشكاة يستمدُّ منها المتأخرون شرعيتهم. وقد ترصد- املقال- آراء علماء البلاغة- من المعتزلة- في عصورها الزاهرة، وطرائق تعاملهم مع مشكلات، وعوائق تعليمية، أفرزتها ظروف طرأت عليهم، ارتبطت بمعيشتهم، كتعليم غير العرب، أو محاجتهم، وما صحبه من تجديد في وسائل الخطاب التعليمي، وتوابعها.

الكلمات المفتاحية: البلاغة- التعليم- التعلّم- المعتزلة- التراث العربي.

La rhétorique arabe : enseignement et apprentissage : du texte à la norme (mu'tazilistes exemplaire)

Résumé :

Le sujet de cet article est l'art d'enseigner la rhétorique chez les anciens arabes, plus précisément les mu'tazilistes, c'est un concept que nous essayons de l'établir à la lumière de ce qui nous est arrivé de la richesse de la connaissance, et de la dynamique de production qui montre clairement ce que nos ancêtres représentaient à travers les concepts théoriques pour le processus éducatif et ce qui l'accompagnait du production créative qui représente une torche de légitimité chez les autres. Cet article traite les avis des chercheurs de la rhétorique – des mu'tazilistes- dans ses moments de force, ses méthodes de traiter les problèmes, et les lacunes d'apprentissage causés par les circonstances quotidiennes comme l'apprentissage des non arabes, et faire des débats avec eux, c'est ce qui a donné naissance à l'innovation dans les moyens du discours et sa diversité.

Mots clés: Rhétorique, enseignement, apprentissage, les mu'tazilistes, patrimoine arabe.

From the Text to the Examplar: The Teaching and Learning of Arabic Rhetoric "The case of Rationalists"

Abstract:

This article deals with the art of teaching rhetoric among the ancient Arabs - the rationalists in particular - a concept that we have tried to establish in the light of the broad knowledge passed to us, and the productive momentum that clearly indicates what our ancestors represented for the theoretical concepts of the educational process, from which the latter scholars draw their legitimacy.

The article examines the views of the scholars of rhetoric - from the rationalists - in their glorious era, and the ways in which they dealt with problems and educational obstacles created by circumstances related to their lives, such as non-Arab education or their needs.

Keywords: rhetoric - teaching - learning - rationalists - Arab heritage.

- توطئة:

لعلّ أبرز من حاول صياغة نظرية واضحة المعالم حول عملية التعلّم هو (الغزالي أبو حامد)¹، الذي عرفه تارة بأنّه: "اكتساب العلوم واجتلابها في القلب" وعرّفه تارة أخرى بأنّه: "إعادة العلم الأصلي للنفس" وإن كان (الغزالي) من خلال هذين التعريفين لا يكاد يجاوز المرجعية الدينية التي اتخذها لنفسه، والتي لا تنظر إلى الأشياء إلا من خلال زاوية النفس الطاهرة المتصلة بعالم الملكوت، العارضة في سلم المقامات والأحوال، وهي نظرة وجدناها عند كثير ممن سبقوه من أمثال: (الشافعي)، و(وكيع)، وأرباب العلوم الدينية.

ثم أخذ مفهوم التعلّم عند المحدثين أبعادا جديدة، على اعتبار ما تبوأه من مكانة خطيرة، فظهرت العديد من المدارس أبرزها:

أ-المدرسة الشرطية: التي عكفت على رصد الاستجابات المختلفة المصاحبة لمنبهات معينة، وهي نظرية كرسّت النمطية التعليمية².

ب-المدرسة الارتباطية: التي تعتبره تغييراً "يطراً على قوة الارتباط بين المثبرات، والاستجابات والتي تؤدي إلى اكتساب استجابات جديدة"³. ولا يكاد يتجاوز تناول العرب المحدثين للتعلم هذه الجوانب، إن لم يقف عندها وقوف المقاد، ولذلك تضيق هذه الفسحة عن عرض آرائهم. إنَّ التعلم - في ضوء ما سبق- ظاهرة نفسية سلوكية تتمظهر في سلوكيات الأفراد التي تنحو منحى تصاعدياً في سلم المهارات، هذه السلوكيات لا تعدو كونها حصيلة لتفاعل الفرد مع البيئة، وما بها من مؤثرات طبيعية، وثقافية، واجتماعية فضلاً عن الضغوط المختلفة، التي تقع على الفرد من البالغين المحيطين به.

ولكي تتضح لنا الرؤية أكثر، ونحن نغوصُ في ثنايا هذه الدراسة، ارتأينا أن نميط اللثام عن ثلاثة مصطلحات محورية هي: التعليم، والتعليمية، والبلاغة.

1- ما التعليم؟

يقصد بالتعليم «التصميم المميز للخبرة (الخبرات) التي تساعد المتعلم على إنجاز التغيير المرغوب فيه في الأداء، ويعنى بإدارة التعلم التي يقودها عضو هيئة التدريس داخل المؤسسة التعليمية أو خارجها، بهدف مساعدة المتعلم على تحقيق الأهداف المسطرة»⁴.

2- ما التَّعليمية؟

يقصد بالتَّعليمية كلُّ ما له علاقةٌ بالتَّعليم، أو هي الدراسة العلمية لطرائق التدريس وتقنياته، هدفها الأساس هو البحث في المسائل التي يطرحها تعليم مختلف المواد، ورغم الصُّعوبات، والتداخل الذي يكتنف هذا المصطلح، إلَّا أنَّ هذا لم يمنع الباحثين في هذا المجال التَّمييز بين نوعين أساسيين لها⁵ هما: أ- التعليمية العامة: تهتم بكل ما هو مشترك في تدريس جميع المواد.

ب- التعلللمة الالاة: تهتم بكل ما يال تصرر ماة من مواد الدراسة، من الال الطرائق، والوسائل، والأساللب الالاة بها.

3- ما البلاغة؟

قال (ابن الأالئر) فف الالاة: "أما البلاغة فإن أصلها فف وضع اللغة من الوصول والالتهاء يقال: بلغت المكان إذا الالتهت إله، ومبلغ الشفء منالها، وسمف الكلام بللغا من ذلك أي أنه قد بلغ الأوصاف اللفظفة والمعنوفة"⁶. ولم يزل الناس -منذ الالهلفة إلى فومنا هذا- يسألون ما البلاغة؟، ولم تزل الإالابات تلور حول معان بذالها، كالإلجاز والالالار الكلام، والالصد فف الالاة، وتقلل اللفظ فف الال عجز، وإصابة المعنى، والرها من الالعارلف. وقد ذكر (الالالظ) أقوال كالأر من الفضلاء، والشعراء، والاللاء من العرب والرها، فف الالاة، لعل أالمعها الالاة (ابن المالقع) الال يقول ففه: «البلاغة اسم الال معان الال فف وواله كالأرة؛ فمنا ما فكون فف السكول، ومنا ما فكون فف الإالالاع، ومنا ما فكون فف الإالارة، ومنا ما فكون فف الالالال، ومنا ما فكون فف الإالالاع، ومنا ما فكون ساعا والالابا، ومنا ما فكون رسائل، فعامة ما فكون من الال الأبواب الوال ففها والإالارة إلى المعنى، والإلجاز هو البلاغة، فأما الالالاب بفن السمالفن و فف إالالاع ذات البفن فالالإالالار فف الال الال، والإالالة فف الال إمالل، وللفن فف صالر كلامك الال على الالالاع»⁷.

وهو الالاة لا فصح أن نقرأه إلا فف ضوء المرجعفا الالالاة، والالالاة، والالالاة الال الالالاة فف (ابن المالقع)، ولعل فف الال بلغة للمالالال وبلالاة للمالالال.

4- أسباب اهتمام العرب بتعليم البلاغة:

تضافرت جملة من الأسباب المباشرة، وغير المباشرة دفعت العرب عامة، والمعتزلة خاصة، إلى البحث في البلاغة، وطرائق تعليمها، وإن كان الرأي الغالب قبل ظهور المعتزلة، اعتماد البلغاء، والخطباء على ما أوتوا من مقدرات فطرية، وصفات جبلية، ولعل مكابرة (واصل بن عطاء) ومجاهدته نفسه، وسعيه إلى تخليص لسانه مما شأنه، أكبر دليل صار يلجأ إليه، لإظهار أن البلاغة قد تكتسب كما تكتسب اللغة، وسائر الأخلاق والفضائل، على اعتبار أن النفس البشرية ما خلقت إلا مبرأة من كل عيب، وأن علمها الأول اللدني علم كامل، وبالتعلم يعاود هذا العلم النفس، ويرجع إليها.

وستشير إلى جهود (واصل) في الجزء المخصص له مكتفين في هذا المقام بعرض الأسباب التي حتمت على العرب، الاهتمام بالدرس البلاغي، والتي منها:

أ- فساد الذوق وانحراف الملكات وتضاؤل الطبع في نفوس العرب⁸، خاصة بعد اتساع رقعة الدولة، وامتداد الفتوحات الإسلامية، وما صاحبها من اختلاط، وامتزاج عرقي غير مسبوق كان كافيا لدق ناقوس الخطر، وتحفيز هم بعض العلماء الذين بادروا إلى وضع قواعد، وضوابط، تعصم المتكلم من اللحن من جهة النطق، ومن جهة التركيب، والتعبير، وإن فطن المعتزلة إلى لحن آخر اعتبروه أشد خطرا، ألا وهو لحن الأمة العقدي، ولذلك دارت جل مباحثهم البلاغية حول توطين النفوس على عقيدة لا تجسيم فيها، ولا تشبيه فبدلوا في سبيل ذلك جهدا عقليا لا نكاد نجد له نظيرا في تاريخنا القديم والحديث.

ب-الرغبة الجامحة في معرفة سر إعجاز النص القرآني، وكشف أسباب عجز العرب عن مجاراته و هم من هم لسنا، و فطنة، و دراية بفنون القول و دقائقه، ثم استحالته هذه الرغبة بحثا عن صفات الكلام الرفيع، و دفعا بالناشئة إلى تعلمه، لاسيما وقد بدأ بعض المشككين من غير العرب، يطرحون أسئلة جعلت المعتزلة يستنفرون قرائهم بحثا عن أجوبة مفحمة، ومع شيوع علم الكلام، واختصاصهم به، زادت حاجتهم، و حاجة أتباعهم إلى تعلم البلاغة، و التعمق في أسرارها، حتى صارت علمهم الأثير، و لا يخفى كبير الأثر الذي خلفته هذه العلاقة في نفوس من جاء بعدهم من المتكلمين و الفلاسفة، كـ(قدامة)، و(ابن وهب)، و(ابن خلدون)، و غيرهم.

ج- رواج سوق المناظرة و الجدل، و علم الكلام، في صدر الدولة العباسية على وجه الخصوص، بين أئمة النحو، و اللّغة، و علم الكلام الذين راحوا ينتصرون للأساليب العربية، و يعظّمون شأن لغة الأعراب، و يتخذونها مثلا ليقاس عليه، و يقتدى به، و كثرت بذلك القواعد، و الاستنباطات في اللغة و النحو، و البلاغة، و قد نشأت مع أطوارها حركة أخرى سايرتها تمثلت في كثرة التّأليف، و اتّساع المعارف.

د- و قبل كل هذا و ذلك، ما فطر عليه العرب من حبّ للبلاغة، و إكبار لأربابها؛ فقد زاداها القرآن رفعة بأن جعلها طريقا موصلا إلى معرفة الله، إذ هي أكد و جوه إعجاز كتابه.

و قد تمخضت هذه الأسباب عن أهداف ثلاثة، رسخت مبدءا لتعليم البلاغة عند العرب هي:

1-الهدف الديني: وقد تمحور حول القرآن الكريم، في محاولة لتفسيره، وإظهار وجوه إعجازه التي جزموا بتعددها، وقد اتجهوا إلى البلاغة باحثين في فنونها، موضّحين أقسامها لتكون لهم عوناً، حتّى عدّها (أبو هلال العسكري): «أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله- جل ثناؤه»⁹ وهي عنده كما عند (عمرو بن عبيد المعتزلي) وسيلة لمعرفة إعجاز كتاب الله، الناطق بالحقّ الهادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رفعت أعلام الحق وأقامت منار الدين وأزالت شبهة الكفر ببراينها وهتكت حجب الشكّ بيقينها»¹⁰.

2-الغرض النقدي: والموازنة بين أشكال الإبداع من خطب، وقصائد، ورسائل، ولأنّ البلاغة تتمي في الناقد موهبة التمييز بين الجيد والرديء، وتمدّه بما يعينه على الحكم كانت الحاجة أشدّ إلى التّظهير، والتّقييد، والتّعلم، والتّعليم، وكتاب البيان والتبيين خير مثال لاجتماع هذه الغايات التي وقع تحت طائلتها التفكير المعتزلي _على وجه الخصوص_ ردحا من الزمن، وإن كنا نتساءل بإلحاح عن جهود غير المعتزلة في إنضاج تعليم البلاغة العربية، وإذكاء البحث فيها.

3-الهدف التعليمي: وهو صورة من صور انبهار العرب بالقرآن، وبلاغته، ودفاع المعتزلة عن الإسلام، وذنبهم عن حماه، ظهرت في حرصهم على تعليم الناشئة فنون البلاغة، وتلقينهم قواعدها التي هداهم إليها بحثهم، وتفكيرهم، خاصة بعد أن تفسّى فيهم اللّحن، وكثرت حاجتهم إلى علم عاصم من الزلل، يحترز به عن الخطأ من جهة التعبير عن المعاني.

ويضاف إلى ذلك حاجة كثير من المسلمين إلى تعلّم اللّغة العربية، وبلاغتها، على اعتبار أنها صارت تشكل وسيلة تعلّم المعلوم من الدين بالضرورة، وقد

قرّر الأصوليون أنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فكان عليهم إذن_ أن يتقنوا العربية بمعرفة ألفاظها، وتراكيبها، ومعانيها، وأساليبها، والبلاغة إحدى سبل هذه الغاية التي لا محيص عنها.

5- الفئات المؤثرة في إنضاج تعليم البلاغة:

وكان من أبرزها على الإطلاق:

أ- اللغويون والنحاة:

ويظهر أثرهم البين في إمداد البلاغة العربية بروافد أثرتها دراساتهم حول اللغة، وبحوثهم في أسباب ثقل بعض الألفاظ، وعوامل تنافرها أو تلاؤمها، وقد أفاد كل ذلك علم البلاغة، الذي بدأت تتضح ملامحه على أيدي أمثال (الخليل بن أحمد)، و(سيبويه)، و(خلف الأحمر)، و(قطرب)، و(أبو عبيدة)، و(الأصمعي)، و(أبو حاتم السجستاني)، و(المبرد)، فكانت العلوم اللغوية البيت الذي نشأ البلاغة، وقوى عودها، وطرح أسئلتها الأولى، وأجاب عنها؛ فضلا عن ممارستهم الرواية التي عدوها عمود اللغة، راحوا يتناولون جوانب أسلوبية؛ كالقديم والتأخير والذكر، والحذف، والفصل، والوصل، والمجاز، والمدح بما يشبه الذم، وغيرها، من الأبواب التي تجاذبتها الدراسات النقدية، واللغوية، والبلاغية زما غير يسير¹¹.

ب- المفسرون و الأصوليون:

ارتبط دور المفسرين، والأصوليين في تحديد ملامح البلاغة العربية بدور القرآن الكريم والحديث الشريف، اللذين شكّلا مصدرا من مصادر المعارف اللغوية، والبلاغية، والدينية، وهي معارف راحت تتداخل وتتساقق؛ فالقرآن ما نزل إلا ليبلغ للعالمين معاني ومعارف تحتاج إلى من يفتقها، ويفتح ما أغلق منها، وتبين هذه الأسرار، والدواخل لا يكون إلا بلامسة مكامن

الرّوعة والجمال، والتفرد من طريق ما يكفله علم البلاغة، من تفسيرات، وتأويلات، ولذلك حفلت مقدّمات كتب التّفسير بالحديث عن البلاغة وفنونها، «وعلى هذا النحو تسلل التّفكير الأصولي إلى رحاب البلاغة، وقد كان البلاغيون، يتعمدون الربط بين العلمين، ولا أدل على ذلك (السكّافي) الذي كان يرى أن أصول الفقه أحد العلوم التي توزّعت في المباحث البلاغيّة، كما أن البهاء السبكي يصرّح في مواضع متعدّدة بأنّه مزج بين أصول الفقه والبلاغة لقوّة العلاقة بينهما»¹².

ج_ الشعراء والكتّاب:

عني الشعراء منذ الجاهليّة بفنّ القول، فمارس بعضهم سلطة نقدية ذاتية، حتّى لقبوا (عبيد الشعر)¹³، كما دلّت النقدات الكثيرة التي وصلتنا على ذوق، ومعرفة عميقة بجيّد الشعر، ورديئه، ومن الشعراء الذين عنوا عناية خاصّة بالبلاغة، (عبد الله بن المعتز) الذي كان له فضل فتح باب التأليف البلاغيّ، و(الشريف الرّضي)، و(ابن رشيق)، و(ابن سنان)، و(ابن أبي الأصعب المصريّ)، وأبعد الكتّاب أثرا في شيوع منهج تعليميّ شائق (ابن المقفع)، و(الجاحظ) و(أبو هلال العسكري)، و(ضياء الدّين بن الأثير)، و(شهاب الدّين محمود الحلبيّ) دون أن نغمت (قدامة)، و(ابن وهب)، وأسئلتهما الاستفزازية حقّهما ووقعهما المغاير على سيرورة الدّراسات البلاغيّة تعليما وتعلّما¹⁴.

إلا أن جهود (الجاحظ) الذي نجده في كل مكان تسترعينا حقّا، ونحن نذكر كتابيه البيان والتبيين، والحيوان، وما فيهما من براعة، وإشراق، وحسن تمثّل للبلاغة بشقيها العلمي والأدبي.

د- الفلافة والمكلمون:

أمن المكلمون بأن الصنعة الكلامية هي الطريق الأمثل للبحث في القرآن، والتدليل على إعجازه، واستتباط عقائده، والدفاع عنه، وقد ظهر أثرهم في الدراسات اللغوية، والبلاغية مبكرا لأسباب منها:

- قضية إعجاز القرآن: وهي إحدى أهم القضايا التي تناولها أوائل المكلمين، والفلافة العرب، كـ(الكندي) الذي بادر بسؤال سجله تاريخ الدراسات البلاغية، حول اختلاف أشكال تعبير العرب عن المعنى الواحد¹⁵.

- مكان البلاغة من العلوم العربية، وحاجة علماء الكلام إليها في شرح آرائهم، وبسط عقائدهم والدفاع عنها.

- إيمان المعزلة - وهم أبرز المكلمين- بأن الشعر العربي هو رافد العربية الرئيس، ومصدرها الأوحد، ووعاؤها الذي صبّت فيه كل المعارف، ومن جملة المكلمين الذين أرسوا دعائم البلاغة، (واصل بن عطاء)، و(عمرو بن عبيد)، و(سهل بن هارون)، و(بشر بن المعتمر)، و(الجاحظ)، و(الزمخشري)، وقد طبع هؤلاء، وغيرهم البلاغة العربية بطابع عقلي بحت، قوامه الاستدلال ودقة التقسيم والتحديد¹⁶.

ومن الفلافة الذين أثروا الدرس البلاغي، وأجلوه عن بعض ما كان يشوبه، (الكندي)، و(قدامة بن جعفر)، و(ابن وهب الكاتب)، و(الفارابي)، و(ابن سينا)، و(ابن الهيثم)، و(ابن رشيق)، وإن كانوا جميعا يغرفون من بحر (أرسطو طاليس).

وقد ازداد تأثير الفلافة في البلاغة حدة، عند المتأخرين من أمثال (السكاكي) الذي جعل المنطق مهادا للبلاغة، وعلل ذلك بما يفرضه «تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها، مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان»¹⁷، وإن كان (أبو هلال) لا يجد بدا من التفرقة بين مدرستين -عند

تعاطي البلاغة- هما: المدرسة الأدبية، والمدرسة الكلامية، حين يقول في مقدمة كتابه: «وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صنّاع الكلام من الشعراء و الكتاب»¹⁸.

6- مدارس تعليم البلاغة: ونجملها في:

(أ) المدرسة الأدبية:

وهي التي تجسّد الشكل الأدبي للبلاغة العربيّة، ومن خصائصها، قلة أكتراثها بالتحديد والتّقسيم، وعزوفها عن استعمال المصطلحات، والمقاييس الفنيّة في الحكم على الأدب، وبالمقابل يسرف أصحابها في الاستشهاد، وتحكيم الذوق الفنيّ، أكثر من تحكيم المنطق، وسلامة النظر، ومن ميزات هذه المدرسة أن رجالها «يذكرون القاعدة في سطر أو سطرين، ثم يوجّهون جلّ همهم إلى تحليل النصّ الشعريّ أو النثريّ أو الآية القرآنيّة، ولم تكن أمثلتهم مقصورة على الجملة أو الجملتين، وإنما تتعدّى ذلك إلى القطعة النثرية أو القصيدة الشعريّة أو السورة القرآنيّة، ومن أعلام هذه المدرسة (ابن سنان الخفاجي) و(أسامة بن منقذ) و(ابن الأثير) و(ابن أبي الأصعب المصري) و(الطوفي البغدادي)، فقد كان هدفهم دراسة بلاغة القرآن ومعرفة مظاهر فصاحته وبلاغته والقدرة على الكلام الجميل وإنشائه¹⁹.

ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء (ابن المعتز) في كتابه "البديع"، و (أبا هلال) في "الصناعتين"، و(الجرجاني) في "أسرار البلاغة"، ويمكن عد (أمين الخولي) امتدادا لها في العصر الحديث، من خلال كتابه "فن القول".

(ب) المدرسة الكلامية:

وتتميز بالميل الشديد إلى الجدل، والتحديد اللفظي، والتقسيم العقلي، واستعمال أساليب المتكلمين في استقصاء الموضوعات، وحصرها، وتظهر ملامحها في

المؤلفات البلاغية التي تعنى بمسائل الفلسفة، والطبيعة الإلهية، والخلقية؛ كالكلام عن الأجسام، والألوان، والطعموم، والوهم، والخيال، والحس المشترك، وللمعزلة قسط وافر في ما ذكرنا، خاصة (النظام) منهم²⁰، ويذهب بعض الدارسين²¹، إلى أن هذه المدرسة فرضتها طبيعة المجتمع الإسلامي في صورته الجديدة، الممتزجة الأجناس، والتقافات، ولذلك تجد جلّ رجالها من غير العرب، أمثال (الزمخشري)، و(الرازي)، و(المطرزي)، و(السكاكي)، و(التفتازاني)، ولعل أبلغ الكتب تجسيدا لخصائص هذه المدرسة كتاب "نقد الشعر" لـ(قدامة بن جعفر)، و"البرهان" لـ(ابن وهب الكاتب)، و"دلائل الإعجاز" لـ(لجرجاني)، و"نهاية الإيجاز" لـ(لرازي) و"مفتاح العلوم" لـ(لسكاكي).

على أننا نلحظ اتجاها يكاد يكون ثالثا يقف على حدود المدرستين السابقتين، يمزج فيه أصحابه بين تحكيم الذوق، والجمال من جهة، واستخدام المصطلحات، والتقسيمات من جهة أخرى، وهو اتجاه لا نجد أحسن من (الجرجاني) ممثلا له، بكتابه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"؛ فهو في هذا الأخير بلاغيّ نواقة، يتفنّن - على طريقة الأدباء- في الكلام عن أساليب البيان، ويقارن بينها ويذكر لها من الشواهد الكثيرة المشفوعة بالتحليل الجماليّ ما يدفعك إلى اكتشاف الجرجاني الأديب، وهو في الأوّل متكلم متصرف في فنون الكلام، يخوض في مسائل الإعجاز، ويسهب في التفرّيع والتقسيم.

7- مرتكزات تعليم البلاغة عند المعتزلة:

أ- التّعليم بالقُدوة (واصل بن عطاء):

يعدّ المسعودي²²، (واصل بن عطاء) شيخ المعتزلة الأوّل؛ قديمها وحديثها، وهو من أعظم شخصيات الإسلام، وأعجبها، وأعظمها شأواً في تاريخ بلغاء العرب، وإن كانت حياته لدى المتأخرين منهم تكاد تكون غامضة، وسواء أكان قديراً أم شيعياً، تعلم على يدي معبد الجهني، أم (محمد بن الحنفية)، فهو في النهاية نموذج المعتزلة الأوحده، الذي جمع خصالاً جعلت صديقه (عمرو بن عبيد) يقول لأخته وقد زفّها إليه: «زوّجتك برجل ما يصحّ إلا أن يكون خليفة»، وقد فضّله في الخطابة على (الحسن البصري)، و(ابن سيرين)، وكان يشبّهه بالملائكة والأنبياء²³.

ويقال إنه عابه أولاً بطول العنق، ثم ندم بعد ذلك وقال: «أشهد أن الفراسة باطلة إلا أن ينظر رجل بنور الله»، وسئلت أخت عمرو -وكانت زوجته-: "أيهما أفضل زوجك أم أخوك؟" فقالت: "بينهما كما بين السماء والأرض"، وقد وصفت زوجها واصلاً بأنه كان "إذا جنّه الليل صفّ قدميه يصلّي، ولوح ودواة موضوعان، فإذا مرّت به آية فيها حجّة على مخالف جلس فكتبها، ثم عاد إلى صلاته".

فلا شكّ إذن في ديانة الرجل، وصدقه في الدفاع عن الإسلام دفاعاً واعياً يحتاج فيه إلى سلامة طويّة، وحسن نيّة، وإلى علم كثير، وبيان وافر، لولا أن الذهبي ناقد الرجال الشهير ما يفتأ يذكرنا - بهذا الترتيب - بصفات واصل فيقول: «واصل بن عطاء البصريّ الغزالي، المتكلمّ البليغ المتشدّق، الذي كان يلثغ بالرّاء، قيل عنه هجر الرّاء وتجنّبها في خطابه، سمع من الحسن البصريّ وغيره»²⁴.

فهو عنده أعظم شهرة بأوصافه تلك على الترتيب، اسما، ومسكنا ثم لقبا، وهو بعد ذلك متكلم بليغ متشوق، وشهرته التي بها ذاع صيته، هي قدرته على تجنب الرأء، وتطهير لسانه من عيب كاد يحول دون تمام بيانه، والحق أن هذا العمل وحده كفيل بأن يجعل (واصلا) جديرا بإعجاب أعدائه قبل أتباعه، وتلامذته، ولذلك لم يزل عند أصحابه من المعتزلة، وغيره مقدما ومهيبا، يقتدون به، ويدللون بمجاهدته لسانه، ومكابرته طبعه على أن البلاغة علم يمكن تعلمه بالطلب، والنظر، والدرية، والمران، وتتبع القواعد التي يهتدي إليها العقل.

وقد وجدنا بعد ذلك من يشير إلى أن البلاغة ليست عطية توهب، بل هي كذلك جهد يبذل، وهدف يبلغ، وحق ينال، يقول الجاحظ: «...ولما علم واصل بن عطاء أنه ألتغ فاحش اللثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذ كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل، وزعماء الملل، وأنه لا بدّ من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطوال[...]. رام (أبو حذيفة) إسقاط الرأء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقته، فلم يزل يحتال لذلك، ويغالبه، ويناضله، ويساجله، ويتأنّى لستره، والراحة من هجنته حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمل، ولولا استفاضة هذا الخبر، وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا[...]. لما استجزنا الإقرار به، والتأكيد له، ولست أعني خطبه المحفوظة، ورسائله المخددة لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم، ومناقلة الأكفاء ومفاوضة الإخوان»²⁵، على الرغم من أن الجاحظ نفسه يقرُّ بأن الرأء من أكثر الحروف دورانا في اللغة العربية حين يورد قول أبي محمد اليزيدي:

وخلة اللفظ في الباءات إن فقدت كخلة اللفظ للآمات والألف
 وخصلة الرأء فيها غير خافية فاعرف مواقعها في القول والصحف

ولعلّ ذلك ما دفع (بشارا بن برد) إلى مدحه بعد أن سعى بعض الخطباء إلى الوقية به بين يدي (عبد الله بن عمر بن عبد العزيز) بأن حبروا خطبا ودفعوا به لأن يرتجل فقال بشار:

أبا حذيفة قد أوتيت معجبة من خطبة بدهت من غير تقدير
وإن قولاً يروق الخالدين معا لمسكت مخرس عن كل تحبير
وقال أيضا²⁶:

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا وحبّروا خطبا ناهيك من خطب
فقام مرتجلا تغلي بداهته كمرجل القين لما حُفّ باللّهب
وجانب الرء لم يشعر به أحد قبل التّصفّح والإغراق في الطّلب
وقد ذاق بشار نفسه من هذا المرجل، واكتوى ببعض اللّهب الذي حفّ به، بعد أن قال بالرجعة وأعلن ثنويته، وثبت لـ(واصل) ما يشهد بإلحاده، وهو قوله:

الأرض مظلمة والنّار مشرقة والنّار معبودة مذ كانت النار²⁷
فوقف في أتباعه خطيبا وقال: "أما لهذا الأعمى الملحد، أما لهذا المشنف المكنى بأبي معاذ من يقتله، أما والله لولا أن الغيلة من سجايا الغالية لدست إليه من يبعج بطنه، في جوف منزله... ثم لا يتولى ذلك إلا عقيلي أو سدوسي." وقد تجنب كلمات تخلصا من الرء في غير تكلف ظاهر منها اسمه (بشار بن برد)، ووصفه (المشنف)، وكان بشار ينبذ بـ(المرعث)، وقال (الغالية)، ولم يقل (الرافضة)، وقال: (يبعج)، ولم يقل (بيقر) كل ذلك تخلصا من الرء.

فقد كان لوصل- بما سبق من خصال- أكبر الأثر في إرساء قواعد الاعتزال، وبقوة شكيمته وصلابة عارضته، وحضور بديهته، وشخصيته

الفنانة، فقد كان أديبا ممتازا، وخطيبا من الطراز الأول، وصفه ياقوت بأنه: «كان متكلمبا بليغا، متفننا خطيبا...»²⁸.

وهو حسب (أحمد أمين) أوسع المعتزلة عقلا، وأغزرهم علما، و«كان له الفضل الأكبر في تأسيس الاعتزال، على أسس علمية ووضع الخطط في نشره بإرسال الدعاة في الآفاق... وكان أقدر على الجدل، والمناظرة، سريع البديهة في استحضر آيات القرآن التي تؤيد مذهبه "ولهذا" كان أكثر رجال المعتزلة، تلاميذ لوصل، أو تلاميذ لتلاميذه»²⁹، وهؤلاء هم أصحاب الفضل الأول في وضع الأسس الأولى لعلم الكلام، وعلم البلاغة، وعلم الجدل، والمناظرة، وقد نقل الجاحظ: «أن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين و على رأسهم المعتزلة طبعا كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البليغاء، وهم تخيروا الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من الكلام العربي تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف، وقدوة لكل تابع»³⁰.

ب- الغاية المثلى وحسن التوسل (بشر بن المعتزم):

تعتبر صحيفة بشر، إحدى الآثار النابذة الذكر، في توجيه الناشئة، وتعليمهم أساليب الكتابة، والخطابة المحببة، وترشدهم إلى سبل تعلمها من أقصر وجه، وبأيسر مؤنة، وقد تناقلت كتب النقد و الأدب و البلاغة، شذرا من هذه الصحيفة، ويكاد يكون (الجاحظ) أول من أوردتها كاملة³¹، في حين اختلط كثير منها مع آراء (أبي هلال) "الصناعتين"، واكتفى صاحب العمدة بإيراد بعض فقراتها.

والصحيفة وإن تناولت موضوع الكتابة، إلا أن فيها إشارات نفيسة إلى بعض طرق المعتزلة في تعليم الناشئة البلاغة، وفنون صياغة الأساليب واستحضار

الحجج، ولذلك وجدنا القدماء يكبرون من شأنها، ويعتبرونها إحدى مراجع تعلم فنون القول وحوك الكلام.

وها نحن نكتفي بالإشارة إلى ما يخدم موضوع مقالنا، ومنه:

1_ التحذير من القصد إلى التوعر الذي يسلم إلى التعقيد، ويستهلك المعاني، ويشين الألفاظ، ويوصي الناشئة بتوخي السهولة في التفكير، والتعبير، والبعد عن التكلف، والتنبيه إلى الملائمة بين الألفاظ والمعاني، ويقول بشر: «وياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، وهو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، ومن أراغ معنى كريما فليتمس له لفظا كريما فإن حق المعنى الشريف، اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما»³².

وقد رتب اللفظ والمعنى في ثلاث درجات، وجعل لكل درجة من المعاني ما يناسبها من الألفاظ، وجعل لكل طبقة من الناس ما يلائمها من الكلام، وهو في هذا يشير إلى ما اصطلح عليه في البلاغة، بـ"مقتضى الحال".

2_ ثم ينتقل إلى الحديث عن أساس العلاقة بين المعاني، والألفاظ فيحصرها في أربع درجات هي:

أ_ الصحة: وتشمل الصحة المنطقية والعقلية والعلمية والعرفية.

ب_ النفعية: ومدارها الفائدة التي تعود على المتلقي.

ج_ التناسب بين المعاني وموضوعاتها: أو ما يعرف بالتناسب الموضوعي.

د_ مراعاة حال المخاطب (المتلقي)، ومداركه، ومستواه الفكري، ومدى استعدادة للتلقي.

وبشر هنا لا يكتفي بالاهتمام بالعلاقات الداخلية للكلام، بل يتعداها إلى الموضوع، والمتلقي، وقد أشار إلى ذلك أكثر من مرة في صحيفته، يقول مثلا³³: «ينبغي للمتكم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات».

بقي أن نشير إلى أن كثيرا من آراء (بشر) مبنوثة في كتابي "البيان والتبيين" و"الصناعتين"، وهي آراء شكلت النواة الأولى التي فجرت مباحث النقد، وعلاقته بالعلوم الأخرى كعلم النفس، وهي مباحث من صميم الدرس النقدي الحديث، وهو أول من فتح الباب على مصراعيه أمام النقاد بعده، وهو الذي وضع أساس التعريف الشهير: «البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال»، وهو أيضا أول من تطرق لقضية الصدق، والكذب³⁴.

فبالصحيفة إذن أهمية بالغة بما نظرت له من أصول بلاغية، وأدبية، ونقدية -على الرغم من ضآلة حجمها- تتمثل أساسا في الموازنة بين حسن استعمال اللغة باعتبارها وسيلة، وإدراك الحاجة، وبلوغ المنية، بتحقيق أرقى صور التعبير المطبوع الخاضع لسلطاني العقل، والعاطفة.

ج- موسوعية الثقافة، وسحر الاسترسال (البيان والتبيين) للجاحظ:

يستهل (الجاحظ) كتابه بالدعاء فيقول: «اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهذر كما نعوذ بك من العي والحصر».

ثم يبحر بك في مجاهل القول مسترسلا دون خطة واضحة، ولا سبيل بيّن، متتبعا خيطا رفيعا نظمت فيه معارفه نظما عجيبا أذا تجعلك لا تتأخر في الحكم لصاحبها بالإمامة في البيان والسبق في الخطابة والكتابة.

فالكتاب _كما ترى_ على غير عادة صاحبه خالٍ من المقدمة، وقد طلب الدارسون لذلك عللا ليس المقام مقامها، إلا أنه بيّن السبب واضح الغاية، يكون الجاحظ قد قصد إلى تأليفه، لغرضين هما³⁵:

1_ الرد على الشعوبية، ومن هنا نحوهم من منكري بلاغة العرب، ودحض مطاعنهم.

2_ استحضار النماذج الرائعة التي تصلح لان تكون قدوة، ومثلا يحتذيه ناشئة الكتاب، والبلغاء و(الجاحظ) في هذا معلّم بارع ينزع منزعمهم في حسن الاختيار، والتحليل، والاستطراد.

وهو من هذا الوجه _الثاني_ حاجة أملتها ظروف العصر، ومطلب يعبر بصدق عن ولوع أهله بالخطابة، وأساليبها، كما يدل على اهتمام الجاحظ _باعتباره رئيس فرقة_ بتعليم أتباعه فن القول وأساليب المجادلة، وطرق الاحتجاج التي هي وسائل تمكين هذا الدين في قلوب الناس، عربهم وعجمهم، سنتهم، وشيعتهم.

وقد جعل الجزء الأول كله للحديث عن البيان وعيوبه، والبلاغة، وحدودها، ومذاهبها، ممهدا للرد على أغاليط الشعوبيين، ودحض شبههم³⁶، وعلى الرغم من غياب المنهج العلمي المنظم، وتناثر المعلومات، وتباعد المباحث إلا أن الكتاب يبقى أكبر الموسوعات العربية التي عنيت باللغة العربية وآدابها فهو مصدر من مصادر الدرس البلاغي، وإليه يرجع في درس الفصاحة و البيان، والبلاغة وهو أيضا من مصادر الدرس اللغوي، وعليه يعتمد في التاريخ للغة

العربية، وتطور مفرداتها، وفروق دلالاتها، والتعرف على لهجات القبائل، وخصائصها، والحروف الأكثر دورانا، والألفاظ الأكثر توافقا³⁷.
ويكرّس (الجاحظ) موسوعيّة ثقافته في خدمة نظريته التعليميّة، حين يتعدى آراء سابقه_بشر مثلا_ فيجعل مدار الخطابة على ثلاثة محاور هي: النص، والمبدع، والمتلقي.

فتناول كل ما تعلق بالنص من الألفاظ، وما يلزم المتكلم من حسن مراعاة ما بينها من انسجام، والبعد عن التكلف والغرابة إلا ما يسمح به لمن كانت تلك عادته، كالبدوي، والعربي، أو ما اصطلح عليه بمراعاة الحيز المكاني.
وهو مع المبدع واسع الأفق، حاد الرؤيا؛ فأحصى في القسم الأول ما يستقبح في الخطب من العيوب الخلقية، والعيوب العارضة، وتلك المتعلقة بالأسلوب³⁸.

وتحدث في القسم الثاني عما يستحسن في الخطيب، من جهاة الصوت وسعة الفم، كما أشار إلى عادات العرب في الخطابة، وميلهم إلى الإشارة باليد والاتكاء على العصا، والمخاصر، والقسي والسيوف، ثم مال إلى الحديث عن حسن المظهر ودوره في قبول كلام الخطيب³⁹.
ولم يفت الجاحظ_وهو الملتزم بتعاليم أستاذه بشر_ إيحاء الخطباء بمراعاة أحوال المستمعين وتقديرها، ومراعاة المقام، إلا أن العسير حقا هو تتبع هذه الإشارات التعليمية المبيّنة التي لا رابط بينها، وما يحتاجه هذا التتبع من صبر وجلد.

د_المعلم المعزلي الذواقَة(الزمخشري):

تظهر خصوصية تفسير (الزمخشري) من خلال عنايته بالنص القرآني، واهتمامه بجمال نظمه وسحر بلاغته، وأسرار إعجازه، وهو_بعد_ أحد

مراجع المعتزلة، التي تظهر جانبيين هامين هما لفكرهم كالجناحين للطائر: أحدهما تعزيز أصول الاعتزال الخمسة، وآخرهما، مخالفة أهل السنة في تحليل النص القرآني، وتوجيه ألفاظه، أي عدم الالتزام بظاهر المعنى في اللفظ أو العبارة، ويمكن إيجاز أركان تعليمية البلاغة عند (الزمخشري) فيما يلي:

أ_الاهتمام باللفظ، ومكوناته (الأصوات والحروف)، وما يتبع ذلك من فروق في الدلالة مع الحكم لما اختاره القرآن بالدقة، والفصاحة، والإصابة، كتفرقته بين "مرضع"، و"مرضعة" في قوله تعالى: ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾⁴⁰، حيث يقول: «المرضعة هي التي في حال الإرضاع، ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، فقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به _وقد ألقمت الرضيع ثديها_ نزعته عن فيه، لما يلحقها من الدهشة»⁴¹.

ومن الأمثلة التي أكد بها العلاقة بين المبنى، والمعنى حديثه عن التعريف والتكثير، في تفسيره قوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ الذي يظهر (الزمخشري) المنتصر للقاعدة اللغوية القائلة «بأن كل زيادة في المبنى تتبعها زيادة في المعنى».

ب_اهتمامه ببناء الجملة، وما تخفيه من أسرار بلاغية، وثروة جمالية، فهو معني بكشف هذه الدواخل _ولعل هذا سبب اختياره عنوان الكتاب (الكشاف)_ مهتم بما تحويه من دلالات، وقيم تعبيرية، يشي بذلك تناوله لأسلوب الاستفهام، والتكثير، والتعريف، ومواقعهما، وأساليب الأمر والنهي، والقسم، والنداء، وأغراضه البلاغية⁴²، ومن أمثلة ذلك مقارنته بين قوله

تعالى: ﴿لَا فِيهَا غُولٌ﴾، وقوله في سورة أخرى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فيقول معللا: «فإن قلت فهلا قدم الظرف "الريب" كما قدم على "الغول" ... قلت لأن القصد في إيلاء الريب حروف النفي، نفي الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعون، ولو أتى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أن كتبا آخر فيه الريب، لا فيه، كما قصد في قوله (لا فيها غول) تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بان لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب و النقيصة»⁴³.

كما اهتم بالتكرار وفائدته، والحذف، وبلاغته، والالتفات مستشهدا بكلام العرب الذي اتخذه أساسا للبلاغة.

جـ تحسسه الصورة البلاغية، التي يعتبرها جزءا أساسا من أجزاء الصورة التعبيرية، وما يميز اهتمام (الزمخشري) هو نظرته الكليّة إلى هذه الصورة، وشدة ارتباط المعنى بها، فهي إحدى وسائل الشرح والإفهام، وهي كذلك إحدى طرق ليّ الكلام وتأويله، إلى ما يخدم مذهبه الاعتزالي، تأويلا يشبه في روعته، ودقته، روعة ودقة أستاذه الأول (واصل بن عطاء)، في تخلّصه من الرّاء، ولا أدلّ على ذلك من محاولته صرف قوله تعالى على لسان أمّ مريم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، وما يروى من حديث أنه "ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا، من مسّ الشيطان إياه إلا مريم وابنها".

فيقول: «الله أعلم بصحّته، فإن صحّ فمعناه كل مولود يطعم الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها، فإنهما معصومين... واستهلاله صارخا من مسه

تخييل وتصوير لطمعه فيه كأنه يمسه ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممن أغويه ونحو من التخييل قول بن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وما حقيقة المس، والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا، ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخا، وعياطا مما يبيلونا به من نخسه»⁴⁴.

وهكذا يسلك (الزمخشري)، بحثه عن المعاني الثواني، متذرا بما يحسنه من تعليل لغوي، وما يحويه من دقائق تكاد تختفي حقيقة مذهبه، وإن كان أكثر الفضل يرجع إليه في استجلاء غوامض التشبيه وأقسامه، والاستعارة، وأنواعها، والكناية، وما اتصل بها من تعريض، يقول مثلا في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا...﴾، «شبه الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان، والمسلمون يدعونهم إليه فلا يلتفت إليهم...»⁴⁵.

ويستجلي قوله تعالى: ﴿الر. كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾⁴⁶، فيقول: «الظلمات والنور استعارتان للضلال والهدى (بإذن ربهم) بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب...»⁴⁷.

ومن الآيات التي وقف عندها، موضعا لطف تعبيرها، ودقة مسلكها في تأدية المعنى، مع مجانية التصريح، قوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم. وأنتم لباس لهن﴾⁴⁸. فبين كيف كنى عن الجماع بالرفث مؤكدا على جمال التعبير القرآني، وعفته⁴⁹.

لقد طبق (الزمخشري)، بذكاء، ودهاء قواعد البلاغة النظرية، التي ورثها عن سابقه، محاولا جعلها مدخلا من مداخل الإقناع القائم على مخاطبة

العواطف، والعقول في أن معا، تمهيدا لبث آرائه الاعترالية التي كان يجهر بها في غير موارد، ولا مدهنة.

إلا أن السؤال الذي يفرضه المقام هو: ما الذي أفادته تعليمية البلاغة من اتصالها بالمتكلمين عامة، والمعزلة خاصة؟

لا شك في أن اتصال البلاغة بعلم الكلام، جعلها تتجه اتجاها واضحا نحو البحث عن الحدود والتقسيمات أكثر من اهتمامها بالجوانب الجمالية الفنية، ولذلك أسهم المتكلمون أكثر من غيرهم في إثراء المصطلحات البلاغية، بدءا بمراحل نشوء الدرس البلاغي الأولى، ووصولاً إلى قمة نضجه وغناؤه.

كما أن جل فنون البلاغة ارتبط ظهورها بعلماء الكلام الباحثين في الإعجاز، من أمثال الجاحظ والرماني، والباقلاني، والجرجاني، وغيرهم، وغالبا ما جرم هذا البحث إلى الحديث عن قضايا فلسفية سرعان ما وجدت طريقها إلى الدراسات البلاغية، كحديثهم عن الخبر، والصدق فيه

وبحثهم في أوجه الحسن الفلسفي، والأسباب، والمسببات، والمجاز المرسل، والفاعل الحقيقي والفاعل المجازي، وغيرها من المسائل التي أنتجت الفلسفة الإلهية.

وقد أدى انفصال البلاغة عن النقد _بتأثير من علم الكلام_ إلى هيمنة المنهج التقريري في مقابل المنهج التأثري، ومن ثم شهدنا وظيفة جديدة للبلاغة، تمثلت في إنتاج القواعد، والقوانين المتحكمة في العملية الإبداعية، بدل ما كانت تمارسه والنقد، من إظهار ما في النص الأدبي من مواطن الجمال، أو القبح أي أنها انتقلت من الوظيفة البعدية إلى الوظيفة الاستباقية، فصارت مؤثرة أكثر منها متأثرة، كل ذلك بإيعاز من عقل المتكلم الذي يسعى دائما إلى إخضاع ما حوله لقوانينه ونظمه، وإن كنا نؤمن _من خلال ما تقدم من

نماذج_ بأن للمعتزلة جهدا مميزا في الاقتراب بالبلاغة العربية_ المتأبئة على القواعد الراضة للترويض_ من دائرة الممكن تعلمه، الواضحة معالمه. فمن الواضح_ إذن_ أن المدرسة الكلامية المعتزلية أفادت البلاغة بأن فصلتها عن النقد، وجعلتها تعليمية معيارية، وإن أضرت بها من ناحية أخرى، حين ألزمتها المنهج التقريري بروحه العلمية التعليمية، مما أفقدها بريقها الجمالي الذي دأب عليه كل من عبد القاهر الجرجاني، وجار الله الزمخشري، وسلاسة الأداء الجاحظي الشمولي، على أن تبعات هذا التحول لا يتحملها_ حسب رأيي_ هؤلاء المتقدمون، بقدر ما يتحملها جيل السكاكي، والقزويني، ومن جاء بعدهما من شراح التلخيص؛ فقد عمد (السكاكي) إلى أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز وجردهما من ميزتي التحليل الفني، والتعليل الجمالي، والنفسي للشواهد جريا وراء دقة التقسيم، والتحديد التي لا ننكر أن أصحاب الفضل الأول في تطعيم البلاغة به هم المتكلمون، وعلى رأسهم المعتزلة، ثم سار من جاء بعده على نهجه النفعي، التعليمي المحض إلى أن استحالت البلاغة جملة من القواعد أو المقدمات التلازمية، التي نشحن بها ذهن الطالب قبل قلبه.

كما انجرّ عن مبالغة هؤلاء في الفصل بين البلاغة، والنقد، قصور نظرة البلاغي إلى الإبداع، واكتفاؤه بالنظر في الشاهد الواحد بدل تمثل النص كله، وما يزخر به من علائق داخلية، تتفاعل وتتشابك في سبيل خدمة النص الأدبي.

- هوامش البحث:

¹ التعلّم عند الغزالي: حمّانة البخاري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، د-ت، ص: 42.

- ² نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية، محمد مصطفى ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983 : ص:25.
- ³ موسوعة علم النفس للتربية والتعليم: بيروت، لبنان، د- ط، 2004-2005، ج8، ص:14.
- (4) ينظر: استراتيجيات التعلم والتعليم والتقويم، كتيب رقم3، جامعة نورة بنت عبد الرحمن، المملكة العربية السعودية، 1435هـ، ص: 13.
- ⁵ يُنظر: علي تعوينات: التعليمية والبيداغوجيا، الملتقى الوطني الأول حول تعليمية المواد في النظام الجامعي مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربية، جامعة الجزائر، أفريل 2010، ص: 6.
- (6) المثل السائر: ابن الأثير، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، دط، 1995، 840/1.
- ⁷ البيان والتبيين: الجاحظ، تح/محمد عبد السلام هارون، طبعة الخانجي، 76/1.
- (8) ينظر: الكتابة والتفسير، أحمد محمد فارس ، دار الأمان، ص:155.
- ⁹ الصناعتين : أبو هلال العسكري، طبعة دار الكتب العلمية ، ص:9
- ¹⁰ ينظر : مقاييس البلاغة بين و العلماء الأدباء، حامد الصالح خلف الربيعي، سلسلة بحوث اللغة العربية جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص: 418 وما بعدها.
- ¹¹ كتاب الصناعتين : أبو هلال العسكري، طبعة دار الكتب العلمية، ص.9.
- ¹² ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، دط، د-ت، ص404-406.
- ¹³ مقاييس البلاغة بين والعلماء الأدباء، حامد الصالح خلف الربيعي ،ص: 432 .
- ¹⁴ نقصد زهير بن أبي سلمى ومدرسته، التي وصل بها طه حسين إلى حدود العصر الأموي.
- ¹⁵ ينظر: نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي (656هـ-)، نبيل خالد رباح أبو علي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1993م، ص: 88 وما بعدها.

- ¹⁶ ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط2، 1965، ص: 29.
- ¹⁷ ينظر: بنية العقل العربي، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت- لبنان، 1987، ص: 101.
- ¹⁸ مفتاح العلوم : السكاكي أبو يعقوب، تر: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان 1987م، ص: 432
- ¹⁹ الصناعتين: العسكري، ص: 9.
- ²⁰ المختصر في البلاغة: عبد القادر حسين، دار الشروق، ط: 1، 1982، ص: 15.
- ²¹ ينظر ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، دار الكتاب العربي بيروت- لبنان، ط10، ج3، ص: 121.
- ²² ينظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، دار الأندلس- بيروت لبنان، ط: 1984، 06م، ج3، ص: 54.
- ²³ عن نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشار، دار المعارف، ط: 09، 1995، ج1، ص: 386.
- ²⁴ نفسه، ج1، ص: 386.
- ²⁵ البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص: 29، 28.
- ²⁶ نفسه : ج1، ص: 386.
- ²⁷ نفسه : ج1، ص: 30.
- ²⁸ عن نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشار، ج1، ص: 384.
- ²⁹ فجر الإسلام: أحمد أمين
- ³⁰ البيان والتبيين: الجاحظ، ج1ص: 106.
- ³¹ ينظر: نفسه، ج1، ص: 41.
- ³² نفسه: ص: 136.
- ³³ نفسه: 139/1، 138.

- 34) ينظر: أدب المعنزلة إلى نهاية القرن 4 هـ، عبد الحكيم بلبع، دار نهضة مصر، ط3، 1979، ص: 180، 181. والبيان العربي: بدوي طبانة، مطبعة الأنجلو مصرية، ط6، ص 67، 77.
- 35) ينظر: محمد زغول سلام، دراسات في الأدب العربي (العصر العباسي)، منشأة المعارف، ص: 445
- 36) ينظر: البلاغة العربية، سيد نوفل، مكتبة النهضة المصرية، 1998 م، ص: 15، 16.
- 37) ينظر: نقد النثر في تراث العرب النقدي، نبيل خالد رباح أبو علي، ص: 65.
- 38) ينظر: البيان والتبيين، 55/1، 133، 1.
- 39) سورة الحج/01.
- 40) الكشاف: الزمخشري، طبعة دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج3، ص: 04.
- 41) نفسه: ج485، 2 وج3، 84، 1، 298.
- 42) نفسه: 114، 115.
- 43) نفسه: 426 / 1.
- 44) الأنعام / 71.
- 45) الكشاف: 2 / 28، 29.
- 46) ابراهيم / 01.
- 47) الكشاف: الزمخشري، 2 / 356.
- 48) البقرة / 187.
- 49) ينظر: الكشاف: 1 / 337، 338.

البلاغة العربية القديمة واللسانيات التداولية

عبد الحكيم سحالية
جامعة الشاذلي بن جديد الطارف - الجزائر

الملخص:

اعتبر العلماء المعاصرون التداولية امتدادا لمسار البحث البلاغي القديم، لأنها تحمل نفس الاهتمامات، كالخطاب ومننجه، والبيان وآلياته، من هذا المنطلق تسعى المداخلة إلى إبراز أهم الآليات التداولية التي تتقاطع مع البلاغة في كثير من المناحي، كالسياق والتواطؤ التخاطبي والاستلزام الحواري والافتراض المسبق والأفعال الكلامية، فما هي حدود التماهي والاختلاف بين اللسانيات التداولية البلاغة العربية، وهل يمكن أن نطمح إلى إقامة نظرية تداولية عربية منبثقة من تراثنا، ومنسجمة مع الوافد اللساني المعاصر، ومراعية الخصوصية العربية.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، العربية، القديمة، اللسانيات، التداولية.

Résumé :

Les linguistes modernes ont considéré une nouvelle éloquence, et une extension de l'ancien chemin de recherche rhétorique, parce qu'il porte les mêmes préoccupations que le discours et son produit, la déclaration et ses mécanismes, l'intention et la compréhension, la position, le lieu communicatif et les façons dont la langue est utilisée dans la réalité sociale. Dans cette perspective, la communication, l'impact et l'impact cherchent à refléter les mécanismes délibératifs les plus importants qui recourent la rhétorique dans de nombreux aspects, tels que le contexte et la collusion de la rhétorique et du dialogue, la préposition et les actions verbales. entre la linguistique linguistique et la rhétorique arabe? Pouvons-nous aspirer à établir une théorie délibérative arabe émanant de notre patrimoine, et en harmonie avec le linguiste contemporain et l'arabe.

Mots clés: Ancienne_ rhétorique_ arabe _et_ linguistique_ pragmatique.

Abstract:

The modern dialectical scholars considered a new eloquence, and an extension of the old rhetorical research path, because it carries the same concerns as the discourse and its product, the statement and its mechanisms, the intention and the understanding, the position, the communicative place, and the ways in which the language is used in social reality.

Communication, and impact and impact, from this perspective seeks to reflect the most important deliberative mechanisms that intersect with rhetoric in many aspects, such as context and collusion of rhetoric and dialogue and the preposition and verbal actions, what is the limit What is the difference between linguistic linguistics and Arab rhetoric? Can we aspire to establish an Arab deliberative theory emanating from our heritage, and in harmony with the contemporary linguist and Arab.

Key words : Old_ Arabic_ rhetoric_ and_ linguistic_ pragmatic.

مقدمة

التداولية امتداد للبلاغة القديمة، بل تعتبر حاملة محتوى تداوليا لاهتمامها بالباط والمستقبل والسياق والمقام، وتعود ملامح التداولية في الفكر العربي إلى كوكبة من العلماء كسيبويه، الجاحظ، ابن جني، أبي هلال العسكري، ابن سنان الخفاجي، عبد القاهر الجرجاني، حازم القرطاجني، وغيرهم، لكن الفارق أن البلاغة العربية قديما تحمل الطابع المعياري، فلأي مدى تشترك البلاغة العربية القديمة مع التداولية، وماهي أوجه الاختلاف والاتحاد بينهما، وما هي الشروط التي تجعل الخطاب ناجحا، من هنا قسمنا بحثنا إلى مبحثين: _ الأول ملامح التداولية عند العرب قديما، وتناولنا فيه ما جاء به علماء العرب القدامى من وجهات نظر حول البلاغة وتقاطعها مع التداولية والثاني: التداولية وتناولنا مفاهيمها عند المحدثين، ثم وصلنا إلى نتائج أهمها تقاطع البلاغة العربية القديمة والتداولية، مما يجعلنا نقترح إلى إقامة نظرية تداولية عربية منبثقة من التراث العربي، ومستفيدة من الوافد اللساني الغربي .

أولاً: ملامح التداولية عند العرب قديماً

1- ملامح التداولية في فكر سيبويه

لم يكن كتاب سيبويه كتاباً خالصاً في النحو بل اشتمل على كثير من العلوم اللغوية، ففيه تحليل للخطاب العربي تأسيساً لقواعد كلام العرب، وفيه تناول موضوع القراءات، والتجويد، والأصوات، والنحو والبلاغة. ولقد درس سيبويه مفاهيم تخص دلالات الكلام مراعيًا المقام، والسياق الذي يقال فيه هذا الكلام، ولقد تحدث عن مفهوم الكلام بطريقة تقترب مما قال به المعاصرون عن الخطاب الذي يستوجب مراعاة حال المستمعين واختيار اللفظ المناسب، وقنوات الاتصال والتواصل، وكل ما من شأنه أن يساعد في عملية التخاطب، وقد مثل لنا سيبويه ذلك في باب ما يختار فيه الرفع وجائز فيه النصب⁽¹⁾، ونرى من هذين النمطين أن سيبويه حين يتحدث عن جواز النصب والرفع في تمثيله: "له علم علم الفقهاء" برفع العين ونصبها من اللفظة الثانية، هو خطاب مقبول في النظام اللغوي للعربية، لأنه يشير في ذلك إلى ارتباط التراكيب بالسياق الكلامي والموقف الذي يقال فيه، فالكتاب هو كتاب في النحو والبلاغة، "لأن النحو كان دراسة لنظم الكلام، وكشفاً عن أسرار تأليف التراكيب، وبياناً لما يعرض له من ظروف، وتوصل إلى ربط المعنى بالسياق"⁽²⁾، وقد يظهر هذا المعنى بوضوح في باب حسن الاستقامة من الكلام والإحالة، لأن الاستقامة أن يكون التركيب خاضعاً لما أجرته العرب في كلامها فيقسم الكلام إلى: مستقيم حسن: أتيتك أمس. - المحال: أتيتك غداً. - المستقيم الكذب: حملت الجبال. - المستقيم القبيح: قد زيدا رأيت. - المحال الكذب: سوف أشرب ماء البحر⁽³⁾، إن ما نلاحظه على هذا التقسيم أن الاستقامة تكون في أن يكون الكلام قائماً على أساس التأليف والتركيب وبناء المعنى، وصدق ما ورد فيه، ولقد استخدم سيبويه مصطلح الجملة أوسع

من الجملة ذاتها، وقاطع مصطلح الكلام الذي يقترب بمفهوم الخطاب، كما نستنتج أن سيوبه يريد ضم مفهوم الكلام بضم بعض الكلمات بطريقة خاصة وصولاً إلى المعاني النحوية، مع مراعاة السياق الكلامي دون الفصل بين المعاني النحوية والبلاغية، فهو إذن لا يعتني بالنحو فحسب أو يعزله، أو يجعله مستقلاً عن الظاهرة الاجتماعية وأغراض المتكلم، ومقام السامع والوسائل الموصلة للكلام، بل يجعل كل ذلك كلاً متكاملًا متناسقًا، مازجا بين الباث والمتلقي، من خلال القناة، والفهم، والسياق.

2 - ملامح التداولية في فكر الجاحظ:

ذهب "محمد العمري" في كتابه "البلاغة العربية" إلى أن التداولية بعد "جاحظي" في أصله لاهتمام الجاحظ وتركيزه على هذا المستوى في كتابه "البيان والتبيين" وعلى عملية التأثير في المتلقي، والإقناع، وقد سميت هذه النظرية عنده، والتي تعرف اليوم بـ"التداولية" بـ نظرية "التأثير والمقام وتتجلى جذور التداولية عند "الجاحظ" من خلال تقسيمه للبيان إلى ثلاث وظائف، واهتمامه أكثر بالوظيفة التأثيرية، التي تمثل جانباً مهماً في التداوليات الحديثة، يقول الجاحظ: "أما بعد، يمكن إرجاع وظائف البيان، اعتماداً على كل ما سبق إلى ثلاث وظائف أساسية هي: (4)

1- الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية.

2- الوظيفة التأثيرية (حالة الاختلاف) تقديم الأمر على وجه

الاستمالة.

3- الوظيفة الحجاجية: (حالة الخصام) إظهار الأمر على وجه

الاحتجاج.

3- ملامح التداولية في فكر ابن جني:

ترتبط البلاغة في فكر ابن جني بالخطاب وبالقناة المؤدية له، وهي اللغة التي عرفها ابن جني (ت 392 هـ) على أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم⁽⁵⁾، فنجد في هذا التعريف أربعة عناصر أساسية ترتبط بأغراض الخطاب وأقسامه كما وردت عناصره الأربعة في هذا التوزيع: - طبيعة اللغة حيث إنها أصوات - وظيفتها فهي تعبير - اجتماعية ومرتبطة بالجماعة اللغوية - علاقة نفسية بين الفكر واللغة⁽⁶⁾. والملاحظ أن ابن جني قد قارب التداولية من خلال توضيحه لعلاقة اللفظ بالمعنى، وعلاقة اللفظ باللفظ، وعلاقة الحروف ببعضها، وأفرد لها أبواباً، في كتابة الخصائص وقد قدم جهداً بالغاً في كيفية عناية النحاة بأساليب الكلام، وقد تحدث على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني، حيث أكد أن العرب تعنتي بنظم ألفاظها وترتيبها، لأن ذلك هو طريقها لإظهار أغراضها، ومعانيها، وما الألفاظ إلا خدماً للمعاني⁽⁷⁾ حتى يوصل المرسل خطاباً مفهوماً، وكما أرادته في نفسه. ويؤكد ابن جني على هذه المسألة بقوله أن هذا الباب من أشرف فصول العربية وأكرمها وأعلاها وأنزهها، وإذا تأملته وعرفت منه وبه ما يؤنقك، ويذهب في الاستحسان له كل مذهب، وذلك أن العرب كما تعني بألفاظها فتصلحها وتهذبها، وتراعيها وتلحظ أحكامها بالشعر تارة، والخطب تارة أخرى وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخر قدراً في نفوسها⁽⁸⁾، فما هذه العناية بالألفاظ إلا ليكون الخطاب أقرب فهما وأكثر بياناً، فهي عناية مقصودة، ولم تكن اعتباطية، وإنما حتى تبين أغراض أصحابها وتوضح خطابهم وتوصل مراميهم وأهدافهم من الخطاب.

ويرى ابن جني في باب شجاعة العربية أن النظم وفق أساليب العرب يؤدي إلى خطاب مفهوم، ويرى أيضا أن اللغة العربية تقوم بالتقديم والتأخير، والفصل والوصل، والحمل على المعنى، وذكر أن العرب قد تلج إلى إفساد الإعراب من أجل المعنى وصحته، فابن جني يربط بين الإعراب والمعاني الوظيفية لأجزاء السياق الكلامي، ونفهم من خلال ما سبق أن الإعراب في خدمة الخطاب، والفهم والتواصل، وما وظيفته إلا الإبانة عن مكنون كلام العرب "إن الذي يرفع، وينصب ويخفض، ويجزم هو المتكلم نفسه، إذ يبين عن المعاني التي يريد بها بالألفاظ"⁽⁹⁾، فالإعراب إذن هو وسيلة من الوسائل التي يستخدمها المرسل لإيصال خطابه واضحا للمتلقين.

4- ملامح التداولية في فكر أبي هلال العسكري:

اهتم أبو هلال العسكري بمقاصد المتكلم وأحواله بكيفية تلقي السامع للخطاب ومراعاة أحواله و بالمقام وبالفايدة والتأثير في المتلقين وإقناعهم فسلط الضوء على المرسل والمرسل إليه والمقام والقصد ومراعاة مقتضى الحال والموقف والإقناع والفايدة والتداول "إن مراعاة مقتضى الحال في التعبير الأدبي أمر ضروري لتبيين مقاصد المتكلم والمخاطب معا في سياق معين"⁽¹⁰⁾.

5- ملامح التداولية في فكر ابن سنان الخفاجي:

يشير "ابن سنان الخفاجي" ضمناً إلى التداولية الحديثة، في خصم كلامه عن الفائدة التي نرجوها من الكلام، فهو يشترط في الكلام الصحيح الانتظام والفائدة، وإلا فلا يمكن عدّه كلاماً. إلا إذا حقق الفائدة المرجوة منه، أي أن الكلام عنده له وظيفة براغماتية نفعية، إضافة إلى هذا، تحدث عن المواضعة والقصد واستعمال المتكلم له، أي استعمال اللغة في قصد، وقد

جعل الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل والاتصال والتأثير وهذا هو صلب النظرية التداولية " اللغة عبارة عما تواضع عليه القوم من كلام" (11).

6- ملامح التداولية في فكر عبد القاهر الجرجاني:

نظر الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) إلى النحو نظرة شاملة، فجعل العامل مرتبطاً بالمعمول، ونظر إلى الكلام على أنه كل لا يتجزأ بل وظيف النحو لخدمة العملية التواصلية وأكد على أن السياق الكلامي لا يتأتى إلا من خلال معرفة علامات الإعراب في التراكيب، وما هي إلا عوامل ليكون خطاب الباث مفهوماً لدى المتلقين، حيث يقول في هذا الصدد: "واعلم أن ما ترى أنه لا بد من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص، ليس هو الذي طلبته بالفكر، ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواضعها" (12)، ولقد انتقى الجرجاني معنى النحو وأعطاه الخاصية التواصلية، وفي هذا المعنى يؤكد عبد السلام المسدي على النهج الذي سلكه الجرجاني في تحديد الطاقة الاستيعابية للنحو ووضعه في المرتبة الأولى لا لشيء إلا لأنه يعبر عن مقاصد المتكلم، وأغراض الناطق، والعملية التواصلية الخطابية، أما عن الحدث الكلامي فإن الجرجاني ركز على وجوب علم المخاطب بمحتوى الخطاب حتى تكون الفائدة، ويصل الفهم إلى المتلقي بسرعة وسهولة، واستنباط قانون من التناسب بين طاقة التصريح في الكلام وعلم السامع بمضمون الرسالة (13)، هذا ما يتوافق مع طاقة الخطاب، إذ يتجاوب كل من الباث والمتلقي كي تتم عملية التواصل بنجاح، ويستطيع الخطاب أن يمر من ذهن المخاطب إلى فكر السامع، وتكون بذلك العملية الخطابية ناجحة كل النجاح، ويؤكد الجرجاني كل ذلك من خلال شرحه

للطاقة التي يتضمنها الخطاب والتي يكون على إثرها قابلا للامتداد أو النقل فيقول: "لا يخلو السامع من أن يكون عالما باللغة وبمعاني الألفاظ التي يسمعها مستطلعا أو يكون جاهلا بذلك، فإن كان عالما لم يتصور أن يتفاوت حال الألفاظ معه فيكون معنى اللفظ أسرع إلى قلبه من معنى لفظ آخر، وإن كان جاهلا كان ذلك في وصفه أبعد"⁽¹⁴⁾.

إن بنية الخطاب عند الجرجاني هي التي تساعد على فهم محتوى الخطاب من خلال النظم، والتركييب المحكم للألفاظ التي تكون خادمة للمعاني، فحسن التأليف وتوخي المعاني النحوية وأحكام النحو هي التي تجعل الفهم أسهل، وأكثر نفوذا، وعملية التواصل دائمة ومستمرة، حيث يقول الجرجاني في هذا السياق: "إذا كان النظم سويا والتأليف مستقيما، كان وصول المعنى إلى قلبك تلوى وصول اللفظ إلى سمعك، وإذا كان على خلاف ما ينبغي وصل اللفظ إلى السمع وبقيت في المعنى تطلبه وتتعب فيه"⁽¹⁵⁾، وفي تحديده للوظيفة الإبلاغية نجد الجرجاني كذلك عنى بالعلاقة الإسنادية فدلالة الخطاب أثناء العملية التواصلية راجعة إلى عامل خارج عن اللغة، هو قصد المتكلم أو الباحث من إعلام السامع بخطابه، فالحمولة الدلالية للخطاب تتوقف على قصد المتكلم، ويقول الجرجاني محددًا أهمية إسناد الخبر إلى المخبر/الباث، الدلالة على شيء هي لا محالة إعلامك السامع إياه شيئًا تعرف ما يدل عليه، وإذا كان كذلك وكان مما يعلم ببداهة المعقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده، فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره وما هو؟ أهو أن يعلم السامع وجود المخبر به من المخبر عنه، أم أن يعلمه إثبات المعنى المخبر به للمخبر عنه؟⁽¹⁶⁾.

ونخلص إلى القول بأن الجرجاني يركز على منطقيّة اللغة وفق منظور نحوي، ويقيم دلالة الخطاب اللغوي على قاعدة الإسناد التي تجعلنا ننظر إلى ثلاثة أطراف أساسية في عملية الإبلاغ وتوصيل الخطاب وهي: المسند وهو محتوى الخطاب الإبلاغي، وهو الشيء الجديد بالنسبة للسامع، والمسند إليه أو المخبر عنه وهو إحداه فائدة الكلام، وثالث الأمور، ناقل الإسناد أو المخبر أو الباث وهو الذي يقوم بتركيب الكلام في نفسه ثم يبيته إلى متلقين، وعن هذا الأخير يقول الجرجاني: "فإنّ الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والواضع له، والمؤلف له، والواجب أن ينظر إلى حال المعاني معه لا مع السامع"⁽¹⁷⁾. ومما يكشف في هذه التوجيهات اللغوية أن عبد القاهر الجرجاني انطلق من أساس اللغة وهو النحو المنسجم مع مقصد التأليف الكلامي الذي يراعي عنده الدلالة والسياق الكلامي، وأقامه على النظم وعلى المعاني، ويعني ذلك أن فهم عبارة ما لا يكون إلا بفهم أبعادها الدلالية وموقفها الاتصالي الذي تتم فيه عبر الأصوات اللغوية، حيث ترتبط المكونات الخطابية أو ما يعرف باسم الأداء الكلامي لتؤلف خطابا مفهوما لدى المتلقين، فمدار المتلقين إذن هو أساس التفاعل بين التراكيب، ولعل هذا ما جعل عبد القاهر الجرجاني يرفض فصاحة اللفظ المفرد إذ لم تكن في مجموعة كلامية "واعلم أن هاهنا أصلا أنت ترى الناس في صورة من يعرف من جانب وينكر من جانب آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف وأصل عظيم، والدليل على ذلك أننا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها لأدى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالتة، وهو أن يكونوا وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعريفها حتى كأنهم لو لم

يكونوا قالوا: رجل، فرس، ودار، لما كان يكون لنا علم بمعانيها⁽¹⁸⁾، فالألفاظ ما وضعت من أجل أن تطلق التسميات على الأشياء فقط، بل من أجل أداء وظيفة التواصل والإبلاغ أثناء تضام الكلمات

7- ملامح التداولية في فكر حازم القرطاجني:

تتجلى ملامح التداولية في العملية التواصلية ، فنراه يتحدث عن الكلام الذي يعتبره الوسيلة الأولى والأساسة للتواصل، من خلال إبرازه للقصد والفائدة من الكلام، والتأثير والتأثر، وعناصر العملية الاتصالية التواصلية من مرسل ومرسل إليه والوضوح والفهم والإفهام حيث يقول في هذا الصدد: "لما كان الكلام أولى بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتيج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجهم إلى معاونة بعضهم على تحصيل المنافع وإزاحة المضار وجب أن يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطب أو الاستفادة منه"⁽¹⁹⁾.

ثانيا: التداولية:

وردت مادة "دول" في عدة معاجم لغوية من بينها لسان العرب، والقاموس المحيط، وهي آتية من دول يتداول، تداولوا، ويقال تداولنا الأمر: أخذناه بالدول، وقالوا دواليك: أي مداولة على الأمر، و تداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة ، وتداولنا العمل بيننا بمعنى تعاوناه، فعمل هذا مرة وهذا مرة⁽²⁰⁾، فمعنى داول هو الأخذ مرة بمرة، وتارة بتارة، والتبادل، "وداول كذا بينهم، جعله متداولاً تارة لهؤلاء، وتارة لهؤلاء، ويقال داول الله الأيام بين الناس، أدارها وصرفها"⁽²¹⁾، وجاء في قوله تعالى: ((وتلك الأيام نداولها بين الناس))⁽²²⁾، فسرها ابن كثير بأن الألم والفرح، تارة عليكم فيكون الأعداء غالبين، وتارة تكون لكم الغلبة، ولكن النصر الأخير سيكون للمؤمنين حيث

يقول "أي نديل عليكم الأعداء تارة وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة"⁽²³⁾، وأكد هذا الفهم السعدي بقوله "ومن الحكم في ذلك من هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم لطائفة أخرى"⁽²⁴⁾، ومما وضح من هذه اللفظة أنها تعني التداول والأخذ مرة بمرّة. والتداوليات مصطلح مركب من مورفيمين، الأول، التداول من الفعل تداول، وهي من صيغة تفاعل والتي تحمل معنى المشاركة، والثاني اللاحقة "يات" والتي تشير إلى البعد المنهجي والعلمي، التداولية علم يتصل بالظاهرة اللسانية، ومن هذه الزاوية المعرفية، فهو علم حديث، غير أن البحث فيه قديم، إذ تشير المصادر إلى أن كلمة تداولية يقابلها مصطلح (pragmaticus) اليونانية، التي تعني الغرض العلمي حيث استخدمها فلاسفة اليونان منذ العهود الأولى للدلالة على العلمية⁽²⁵⁾، وانتقل هذا الدال إلى اللاتينية بما يقارب شكلا المصطلح اليوناني، فلفظة (pragmaticus) اللاتينية هي امتداد لذلك الاصطلاح العلمي و ترجم مصطلح التداولية إلى العربية بعدة ألفاظ، وذلك نظرا " لتداخل حقولها بحقول أخرى مجاورة لها، فإن لها كثيرا من الترجمات في العربية منها: التبادلية، الاتصالية، والنفعية، والذرائعية"⁽²⁶⁾، ولقد اهتم الدارسون بآثار تفاعل اللغة مع الظروف والمقامات في المجتمع، وكيفيات استعمالها داخل النظام الاجتماعي، حيث يحدث التفاعل بين المرسل والمتلقي، فهي إذن تعني " بالكيفية التي تتحقق بها اللغة عند الاستعمال وعند التخاطب، وتدرج هذه القضايا كلها في إطار تيار من الدراسات والنظريات تسمى عند أهل الاختصاص بـ: التداولية وتعددت تعاريف التداولية فربطت كذلك بالفائدة التي تحدثها فهي تعبر عن نظرية تهتم بالفائدة العلمية لفكرة كميّار صدقها"⁽²⁷⁾، وهي تهتم بمقاصد المتكلم والبحث في أغوار معاني الكلام

والمتكلم، ومحاولة اكتشاف الأغراض التي يريد بها المرسل من خلال رسالته، فقد تتعدى الدلالة المعنى الحرفي إلى المعنى المستتر فهي "فرع من علم اللغة بحث كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم، أو دراسة معنى المتكلم، فقول القائل "أنا عطشان تعني: "أحضر لي كوبا من الماء وليس من اللازم أن يكون إخبارا له بأنه عطشان، فالتكلم كثيرا ما يعني أكثر مما تقوله كلماته"⁽²⁸⁾. أنشأ غرايس مبادئ عامة تؤسس لمقاصد المخاطبين والمشاركين في عملية التخاطب وهي بمثابة العقد والاتفاق الضمني بين المخاطب والمخاطب المشاركين في عملية التخاطب، فكلاهما يسعى إلى جعل شبكة الاتصال دائمة ومتواصلة، وفي سيرورة منتظمة ومترابطة وتتبنى هذه المبادئ على أربع حكم أساسية⁽²⁹⁾ هي:

- **حكمة الكمّ:** تجعل مساهمتك في الحديث إخبارية بالقدر الذي يقتضيه.
 - **حكمة الكيف:** أن تقدم مساهمة حقيقية _ **حكمة العلاقة:** أن تقدم مساهمة دالة.

- **حكمة حكم الكلام:** أن يتكلم بوضوح ويتجنب الإبهام وأن تقدم الحجة، فالتداولية تعني بالكيفية التي تستعمل بها اللغة عند الحديث، وتهتم بالسياق الكلامي والموقف، وتعنى بالمتكلمين وطرائق حديثهم، وبكل ما من شأنه أن يزيد عملية الاتصال وضوحا، حيث يعرفها إيلوار بأنها مجال يهتم بمعالجة ثلاثة معطيات توجه عملية التبادل الكلامي وهي: أ / المتكلمون ب / السياق ج / الاستعمالات العادية للكلام⁽³⁰⁾ تعنى التداولية بالاستعمال العادي للغة من خلال العناصر الثلاثة فتهتم بالمتكلم والسامع مشاركا في فعل الكلام والحدث التواصلية، وتهتم بظروف الكلام، ومقام الحال، وكل ما له صلة بالكلام من عوامل خارجية، أو تتناسب حال من الأحوال ، أو تتأفره للحدث الكلامي

وتهتم بالسياقات اللغوية للمتكلمين حسب الواقع اللغوي، فتبحث في الكيفية الخطابية" وتستنتج مقاصد المخاطب، فهي "دراسة اللغة في الاستعمال"⁽³¹⁾ وللسياق دوره البارز والمهم في التداولية فبتغييره يمكن أن يتغير القول والمفهوم، ويكون بذلك موافقا للسياق الجديد، فلكل سياق قول، وهذه الأقوال متوقفة على العوامل الخاصة بالمتكلمين والعوامل الخارجية عنهم، فالسياق هو "مجموع شروط إنتاج القول، وهي الشروط الخارجية عن القول ذاته، والقول هو وليد قصد معين، يستمد وجوده من شخصية المتكلم ومستمعه أو مستمعيه ويحصل ذلك في الوسط (المكان) واللحظة (الزمان) اللذين يحصل فيهما"⁽³²⁾، وتدرس العلاقات التي تنشأ بين اللغة والسياق، والمتكلم والسامع، والظروف الزمنية والمكانية، وتراعي بذلك مقاصد المتكلم وظروفه، وكيفية وصول الكلام إلى السامعين وظروفهم المحيطة بهم، إنها كل متداخل، فهي إذن تهتم "بدراسة العوامل التي تؤثر في اختيار الشخص للغة وتأثير هذا الاختيار في الآخرين"⁽³³⁾، لأن لكل لفظة دلالة خاصة، فحينما نستعمل لفظة دون أخرى، نحملها دلالة دون غيرها ونعلم أنها قادرة على إيصال مقاصدنا التي نريدها إلى مستمعينا، فالاختيار لم يكن بطريقة اعتباطية، ولكن هناك أسباب تدفعنا للتلفظ بهذه الجملة بصيغتها التي قلناها دون أن نتلفظ بجملة غيرها وعرفها شارلز موريس وميز بين ثلاثة اختصاصات تعالج اللغة وهي⁽³⁴⁾: علم التركيب: ويعنى بدراسة العلاقات الشكلية بعضها ببعض علم الدلالة: ويدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها أو تحيل إليها، التداولية: وتهتم بدراسة علاقة العلامات بمفسيها، وتدرس كل ما له علاقة باللغة، سواء أكان يعنى بشكل الخطاب من لغة أو إيماء أم بدلائلها أم بالدلالة وعلاقتها بالأشياء والحسيات الخارجية أم بالعلامات والإشارات، واستنتاجات الكلام أم بالفهم الضمني دون الحديث، لتتم عملية التبليغ على

أحسن وجهه، ولأن عملية التبليغ لها عدة فروع وعدة أشكال، فإن صلاح فضل قد عرّف التداولية على أنها "الفرع العلمي من مجموعة العلوم اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بوجه عام"⁽³⁵⁾، إنها ميدان من ميادين اللسانيات يدرس كيفية فهم الناس وإنتاجهم لفعل تواصلية أو فعل كلامي في إطار موقف كلامي ملموس ومحدد، وقد عرّفها فانديك بأنها تساهم بشكل فعال في التفاعل الاجتماعي، والتواصل حيث يقول "التداولية بوصفها علميا بتحليل الأفعال اللغوية، ووظائف المنطوقات اللغوية، وسماتها في عملية الاتصال بوجه عام، انطلاقا من كون المنطوقات اللغوية تهدف إلى الإسهام في الاتصال، والتفاعل الاجتماعي"⁽³⁶⁾، ففانديك يعد التداولية ذلك العلم الذي يبحث في المنطوقات الهادفة إلى إقامة تفاعل اجتماعي، ولقد قدم العديد من الباحثين تعريفات كثيرة للتداولية منها "التداولية هي دراسة الأسس التي نستطيع بها أن نعرف لم تكون مجموعة من الجمل الشاذة تداوليا أو تعد في الكلام المحال، وعلى الرغم من أن إيضاح الشذوذ في هذه الجمل قد يكون سبيلا جيدا للوصول إلى نوع من الأسس التي تقوم عليها التداولية فهو لا يعد تعريفا شاملا لكل مجالاتها"⁽³⁷⁾ فقد تعرفنا التداولية على الكلام الذي لا يتمشى والاستعمالات اليومية أو الواقعية، وهي التي ندرس من خلالها الأسس المبرزة لكيفية استعمال اللغة داخل المجتمع شاذها وعاديتها، "هو نوع من التعريف يحاول أن يوضح جوانب التركيب اللغوي بالإحالة إلى أسباب غير لغوية"⁽³⁸⁾، لكن هذا التعريف يجعلنا نخلط بين عدة مجالات للدراسة وعدة فروع علمية أخرى كعلم الاجتماع اللغوي وعلم اللغة النفسي، فهذا تعريف قاصر ناقص لا يبرز ولا يبدي كل حقائق التداولية، ولعل هذه الصعوبة القائمة في تحديد تعريف جامع مانع يكمن في تشعبها لعدة حقول ومجالات، وقد تتشابك وتتقاطع مع علم الدلالة في دراستها للمعنى فهي كما

عرفها بعض الباحثين "دراسة كل جوانب المعنى التي تهملها النظريات الدلالية، فإذا اقتصر علم الدلالة على دراسة الأقوال التي تنطبق عليها شروط الصدق، فإن التداولية تعنى بما وراء ذلك مما لا تنطبق عليه هذه الشروط" (39)، فالتداولية تتجاوز علم الدلالة إلى كل العلامات اللغوية وغير اللغوية، بل تتجاوز مع تفاعل السامع والمتكلم وتواطئهما لحدوث عملية الاتصال بكل نجاح، لذلك فقد عرفها بعضهم على أنها "دراسة جوانب السياق التي تشفر شكليا في تراكيب اللغة وهي عندئذ جزء من مقدرة المستعمل (40)، فهي تبحث في السياق وفي كل الظروف الاجتماعية والثقافية والتاريخية والزمنية والمكانية التي يمكن أن تساعد المستمع، وتحرك كفاءته ومقدرته للوصول إلى معاني المتكلم ومقاصده وأغراض كلامه، ونظرا لارتباط التداولية بعدة ميادين ومجالات فإننا نرى أوستين يهتم بالتعامل اللغوي داخل المؤسسة الاجتماعية، ويرى أنها اتجاه تتلاقى فيه على وجه معين ميادين من المعرفة المختلفة، أهمها علم اللغة الخالص والبلاغة والمنطق وفلسفة اللغة، وكذلك علم الاجتماع وغيرها من العلوم (41)، فالتداولية بحسب رأي أوستن حقل شامل لمجموعة من العلوم والمعارف تتضافر كل هذه المعارف لتوصل المعنى، فهدفها هو الاتصال والتبليغ وما كل تلك الحقول إلا وسيلة تنجح العملية الاتصالية التواصلية، ولعل التداولية بهذا المفهوم تقلقنا إلى المفهوم الذي أشار إليه محمد صلاح الدين الشريف والمستوحى من مفهوم بيرس المرتكز على المنطق حيث يقول: "تقوم البراغماتية على تصنيفها داخل نظام عام وله جذوره في مشروع (بيرس) الهادف إلى وضع علامة ودلالية (سيميوطيقا) تكون نظرية منطقية عامة" (42)، فمفهومها ينطلق من أنها طريقة في التفكير تبحث عن معنى الإشارات والعلامات وكل روابط الاتصال اللغوية وغير اللغوية، مستندة في ذلك على المنطق وإعمال العقل، وربط

الدال بالمدلول، فهي تنقل الواقع، وتكون وسيلة من وسائل الاتصال، وهي تهدف إلى إرساء قواعد عامة للفعل وعلاقته بالمحيط والواقع، وربطه بالفكر لهدف التواصل والاتصال والتبليغ، ولعل من بين من انتهج هذا التعريف وتبناه وتأثر به الباحث امبرتو ايكو والذي ساهم في إثراء نظريات القراءة والأدب من خلال مفهومه للتداولية البيرونية والمرتكزة على القصد والإبلاغ والاتصال، حيث أنه يؤمن بالنص المفتوح، بالنص الذي يحمل دلالات لا متناهية، فالنص الخالد عند امبرتوايكو هو النص الذي يحقق أكبر نسبة تواصلية في كل زمان ومكان، ويحدث تجاوبا لدى القراء عبر العصور وكل الأمكنة ولن يحدث كل ذلك إلا من خلال استخدام لغة تداولية تسهل الفهم وتقرب مساحة النص من القارئ، ولامبرتو ايكو موقف من التأويل القراءات المتعددة "وموقفه نابع من محاولته التوفيقية بين دلالية (بيرس) والنظرية السيميائية ذات الأصل السويسري ونظريات تحليل الخطاب"⁽⁴³⁾، ولقد وجه امبرتو ايكو اهتمامه للقارئ واستجابته مع النص حتى تكون العملية الاتصالية التواصلية ناجحة، وجعل اللغة جانبا من جوانب التحليل، وليست هي الجانب الوحيد، فقد اعتمد على أمور خارجة عن اللغة كالسياق والقارئ والناقل من خلال جوانب متعددة خارجة عن اللغة ذاتها وتجاوز بذلك مقولة دراسة اللغة بذاتها ولأجل ذاتها السويسرية، وجعل الدراسة قابلة لكل ما من شأنه أن يخدم العملية التواصلية لغوية كانت أم دلالية، علامية، ليصبح عنده كل شيء قابلا للتأويل ويكون بذلك الخطاب مفتحا على كل الجوانب، ونظرا لهذا التشعب والتفرع لمفهوم التداولية فقد أدلى الباحث أساكاشير بقوله فيها، وقدّم مفهوما لها مرتبطا بقصد التواصل، فهو يدرس الكيفيات المتعددة لاستعمال اللغة المفضية لإنجاح العملية التواصلية فقد عرفها على أنها "وسيلة لتحديد اللغة بطريقة نفهم منها جيدا ما هو أساسي في اللغة"⁽⁴⁴⁾، فمهمة

التداولية عنده تبحث في كل الكيفيات المنتجة للقول والملفوظ من خلال المواقف، وحالات التواصل والسياق، فالمخاطب هو الذي يسعى إلى فك مقاصد المتكلم من خلال أفعاله الكلامية حتى يصل المستمع إلى تواصل تام، وأما إذا انتقلنا إلى تشالرز موريس فإننا نراه يتحدث عن ثلاث مستويات من الدراسة، تكون اللسانيات التداولية، وهي الدراسة التركيبية والدلالية والتداولية وهي دراسة متداخلة تداخلا شديدا حيث يقول "نفترض اللسانيات التداولية مسبقا كلا من الدراسة التركيبية والدلالية، لأن المناقشة الحصرية السديدة لعلاقات الأدلة بمؤوليتها تستلزم معرفة علاقات الأدلة بعضها ببعض، كذا علاقة الأدلة بالأشياء التي يحيل عليها المؤلفون"⁽⁴⁵⁾، فتصور موريس للتداولية ينطلق من الأدلة الحاملة لمجموعة التراكيب اللغوية، وعلى المدلولات وهي موجودات الواقع لينتقل إلى المؤلفين وكيفيات فهم السامع لخطاب المتكلم، "فقد ميز (موريس) في كتابه أسس نظرية الرموز سنة 1938 بين عناصر ثلاثة تدخل في تحديد الرمزية، الرمز من حيث هو علامة، الرمز من حيث هو دلالة، الرمز من حيث هو محل للتأويل من لذة المستمع..⁽⁴⁶⁾، وإذا انتقلنا إلى فكر الباحث كارل بوهلر فإننا نجده يحاول أن ينقل البحث من اللسانيات الجامدة إلى اللسانيات الحيوية "إن بوهلر يكافح إذن من أجل لسانيات ديناميكية غير سكونية من لسانيات النشاط اللغوي، حيث تتصرف مهمة اللساني إلى دراسة الاستعمال البشري الخاص للدليل"⁽⁴⁷⁾، فبوهلر يحاول أن ينقل اللسانيات إلى مستوى التبليغ والتواصل، واقترح الصيغة التداولية، فأراد أن يكشف عن أغراض المتكلمين من خلال كيفيات استعمالهم للأدلة والرموز حتى يؤثرها على المرسل إليه، وقد وضع بوهلر أربع وظائف تتزامن والنشاط اللغوي فتدعمه، وتحاول إيصال المرسل بالمرسل إليه، وتحقق العملية الإبلاغية هذه الوظائف هي:⁽⁴⁸⁾ وظيفة التمثيل

وظيفة التعبير وظيفة النداء والوظيفة المزدوجة: التعبير والنداء، أما الباحث هابر ماز فإنه يقدم تعريفا للتداولية من خلال الكفاءة التواصلية، فكما أن لكل فرد كفاءة لغوية فإنه يملك هذه الكفاءة الاتصالية التي تجعله يتلفظ بكلمات معينة في سياق معين تؤدي دلالة تواصلية، فقد يتلفظ عكس ما يريد ويفهمه السامع، ويتوصل إلى المعاني التي أرادها من خلال كفاءته التواصلية، لأننا نعني أكثر مما نقول، فالكفاءة التواصلية عنده " لها نواه عالمية كذلك كما هو الأمر بالنسبة للكفاءة اللسانية، إذ تصف النظرية العامة للفعل الخطابي النظام الأساسي للقواعد التي يلم بها الفاعلون، والمتكلمون، والتي تسمح لهم باستيفاء الشروط لاستعمال خاص للجمل"⁽⁴⁹⁾، فالمرسل يحتاج إلى شروط التبليغ ليحقق أفعاله الكلامية، وكان من بين المعرفين لها الأستاذ مسعود صحراوي الذي جعلها علما متداخل الجوانب متشعب الأفاق يدرس الظواهر اللغوية وسياقها في مجال الاستعمال حيث عرفها بقوله: " ليست علما لغويا محضا علما يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية، ويقف عند حدودها وأشكالها، بل هي علم جديد للتواصل الإنساني يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال وتتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي ومن هنا تكون جديدة بأن تسمى علم الاستعمال اللغوي"⁽⁵⁰⁾، جعلها علما يدرس كل الجوانب المساعدة على التواصل اللغوي فهي لا تقف عند حدود الشكل اللغوي ولا العلامات والإشارات بل تستثمر كل ذلك وتتجاوزه بهدف الوصول إلى التواصل الإنساني.

الخاتمة:

يمكن أن نستخلص أن البلاغة العربية القديمة والتداولية يشتركان في عديد من العناصر، ويتداخلان في كثير من القضايا أهمها: السياق والمقام،

المرسل والمتلقي، والرسالة، وعملية التأثير والتأثر، والإقناع والقصد، ولا يكفي أن نبرز التقاطع والتشابه، بل يجب علينا أن نتساءل عن سبل الوصول إلى تداولية عربية منبثقة من التراث العربي، ومستفيدة من الوافد المعاصر، ومنه نقترح جملة من التوصيات تتمثل في :

1_ الرجوع إلى تراثنا البلاغي وقراءته قراءة معاصرة.

2_ حمل التراث العربي البلاغي مقومات تتقاطع مع التداولية المعاصرة وجب إبرازها.

3_ التداولية مقارنة لسانية معاصرة علينا التعرف عليها والاستفادة منها.

4_ استثمار الوافد الغربي بما يتماشى واللغة العربية .

الهوامش:

- 1- سيبويه: الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط3 القاهرة، 1988، ج1، ص69.
- 2- صالح بلعيد: التراكم النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر 1994، ص72.
- 3- سيبويه: المصدر السابق، ج1، ص25 - 26.
- 4- محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها 999، إفريقيا الشرق، المغرب، ص7.
- 5- ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، ج1، ص33 .
- 6- محمد داوود: العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب، القاهرة 2001، ص49 وما بعدها.

- 7- ابن جني: المصدر السابق، ج 1، ص 215.
- 8- المصدر نفسه، ص 215 - 216.
- 9- المصدر نفسه، ج 2، ص 84.
- 10- أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان،1989، ص151.
- 11- ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية، لبنان، 1972ص 48.
- 12- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمد عبدو، دار المعرفة، ط3، بيروت. 2001، ص53.
- 13- عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، ط1، تونس، ص67.
- 14- عبد القاهر الجرجاني: المصدر السابق، ص 180.
- 15- المصدر نفسه، ص 183.
- 16- المصدر نفسه، ص 339.
- 17- المصدر نفسه، ص 201.
- 18- المصدر نفسه، ص 345.
- 19- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم محمد الحبيب بن الخوجة دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان، ص216.
- 20- ابن منظور لسان العرب، لسان العرب، ، طبعة دار صادر، ط3، بيروت، لبنان، 1982، ج11، ص252، 253، مادة "دول" ، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، ضبط يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2003، ص 900 .
- 21- معجم اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار الدعوة، 1989، ط2، اسطنبول، تركيا، ج1، ص304.
- 22- سورة آل عمران، الآية 140.
- 23- تفسير القرآن العظيم، ج3، ص542.
- 24- تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، ص150.

- 25- حامد خليل، المنطق البراغماتي عند بيرس، مؤسس الحركة البراغماتية، دار الينابيع
مصر، 1996، ص196.
- 26- ميجان الرويلي، وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط2،
الدار البيضاء، 2000، ص102.
- 27- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبه للنشر، ط1، الجزائر،
2000، ص158.
- 28- نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، مصر،
2000، ص165.
- 29- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية،
ط1، مصر، 2002، ص13.
- 30- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان
المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص33.
- 31- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص185.
- 32- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص14.
- 33- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص41.
- 34- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص185.
- 35- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص9.
- 36- م.ن، ص11.
- 37- م.ن، ص ن.
- 38- م.ن، ص ن
- 39- عبد القادر المهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية منشورات المعهد القومي لعلوم
التربية، ط2، تونس، 1990، ص95.
- 40- م.ن، 99.
- 41- محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب، 1990، ص118.
- 42- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر سعيد علوش، مركز الإنماء، بيروت،
ص49.
- 43- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص11.

- 44- طه عبد الرحمان: تكامل المعارف، اللسانيات والمنطق، مجلة دراسات سيميائية أدبية، العدد الثاني، المغرب، (87،88)، ص120.
- 45- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص14، 15.
- 46- م.ن، ص، 14.
- 47- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص80.
- 48- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص14.
- 49- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص14.
- 50- مسعود صحراوي "التداولية عند العلماء العرب" دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2005 ، ص22.
- 51- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص14.

طرائق الاستدلال غير الصناعية في رسائل أبي العلاء المصري

نبيل أهقيلي و رشيد شمالال
جامعة باجي مختار - عنابة (الجزائر)

المخلص:

تعدّ الأدلة غير الصناعية (غير التقنية أو الجاهزة...) من أهم آليات الاستدلال الخطابي عند أرسطو، نظرا لما تتسم به في تحقيق التأثير المطلوب في المتلقي وجعله يقتنع بفحوى الخطاب، لذلك سنحاول تتبع هذه الأدلة في رسائل أبي العلاء المعري لتبيين طريقة عرضه لها ودورها في عملية التحايج.

الكلمات المفتاحية: الأدلة غير الصناعية، الاستدلال الخطابي، الحجاج.

Résumé :

Les preuves explicites (technique ou préparé) sont des techniques très importants dans la démonstration rhétorique chez Aristote avec leurs pouvoir commandé pour faire convaincre l'expéditeur, d'ailleurs nous allons essaie d'approcher ces technique sur les lettres d'Abi Elala Elmaarri, au but d'éclairer cette importance.

Les mots clés: les preuves explicites, la démonstration rhétorique ,argumentation.

Abstract:

The explicit proofs (technical or prepared) are very important techniques in the rhetorical demonstration in Aristotle with their ordered power to convince the sender, moreover we will try to approach these techniques on the letters of Abi Elala Elmaarri, to the purpose of illuminating this importance.

Key words: explicit proofs, rhetorical demonstration, argumentation.

تمهيد:

يعتبر فن الترسل أو الرسالة من أهم أشكال تطور الكتابة الفنية في الأدب العربي، والتي أثرت مجال النثر، وطورته حتى أضحت الرسالة شكلا خاصا

له مقوماته، وأسسها التي تميزه من غيره من فنون النثر؛ وحيث إن الفن الخطابي دعت إليه متطلبات حياتية متعددة الأغراض، والمقاصد، فقد سرى في إطار تداولي لتحقيق أكبر قدر من التواصل، وهو ما أسفر على تعدد وظائف الرسالة وعليه إنه من الضروري العروج على الظروف الموضوعية التي أدت إلى نشوء فن الترسل*.

1- نشأة الرسالة وتطورها :

عرفت الرسالة شكلا من أشكال المخاطبات منذ العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام حيث استخدمها النبي ﷺ في نشر الدعوة، كما استخدمها الخلفاء من بعده، خاصة مع توسع الفتوحات في العهد الأموي" وإذا تركنا الكتابة التاريخية إلى الرسائل وجدناها مثل الخطابة التي عاصرتها، فقد كانت هناك رسائل سياسية تصدر عن دواوين الخلفاء، والولاة أو عن خصومهم، ورسائل اجتماعية يتبادلها الناس في أمور حياتهم الشخصية، ورسائل دينية منها ما يأخذ شكل الموعدة، ومنها ما يأخذ شكل الحوار، والجدل"¹.

ولعل ما يميز هذه المرحلة التاريخية هو عدم الاستقرار السياسي، ما انعكس على تطور الرسالة فكانت " النصوص في صدر الدولة الأموية قليلة لا تقدم القدر الوافي من أنواع الترسل، لإقامة دراسة موسعة تطلق فيها الأحكام عن استقراء كاف"² ، وهذه القلة كانت إلى تزايد مع تفاعل فرضه الواقع السياسي والاجتماعي" وقد ظهرت عدة ظواهر تدل على أن كتابة الرسائل تعاني حركة داخلية، وانفعالا عنيقا يشير إلى تطور هذه الكتابة، وسيرها إلى الأمام.ومن هذه الظواهر شيوعها في الأمصار المختلفة، وظهور الكتاب الخاصين بالأمرأ و الولاة، والإطناب بدل الإيجاز، والتجمل، والاقتباس من

القرآن، و الاستشهاد بالشعر، والميل إلى التشخيص، وما إلى ذلك من التجميل الطبيعي الذي لم يبلغ الصنعة³.

ومع استقرار دعائم الدولة العباسية في القرن الثاني الهجري ازدهر فن الترسل، وأصبح أكثر انتشاراً، و اشتهر عدد من كتبت النثر برسائلهم المتفردة التي تناولت مواضيعاً فكرية وأخرى اجتماعية وإنسانية.

ويمكن تقسيم الرسائل إلى ثلاثة أنواع بحسب موضوعها كما يلي:

أ- الرسائل الديوانية: وتسمى كذلك بالرسائل السياسية "إن الرسائل الديوانية هي تلك الرسائل التي تعالج أمور السياسة العامة للدولة من حيث الإدارة، والتنظيم الداخلي، و التشريع، والقضاء، والاقتصاد، وما إليها من مهام تتعلق بالحياة العامة شؤون الرعية"⁴. ومن أشكالها التوقيعات رسائل الولاية والعزل.

ب- الرسائل الإخوانية: وتسمى كذلك الاجتماعية " وهي رسائل يعبر فيها الكاتب عن قضايا خاصة، وأمور شخصية أو تتعلق بشأن من شؤونه في علاقاته مع الأهل، والأصدقاء من قرب مكانه أو بعد مزاره، ويدخل في ذلك التهاني والعتاب والاستعطاف والاعتذار والتعازي والثناء والشكر، وما شابه ذلك من الموضوعات والأغراض"⁵. وقد حصرها صاحب صبح الأعشى في سبعة عشر نوعاً⁶.

ج- الرسائل الأدبية: وهناك من يطلق علي هذا النوع اسم الرسائل الإنشائية، وهناك من قسمها إلى وصفية، وهجائية مدحية.

2- رسائل أبي العلاء المعري :

أثر أبو العلاء العزلة، وفضلها على الاحتكاك بالناس منذ وقت مبكر، ولم تكن عزلته عزلة مألوفة، كعزلة من عرفوا بالخلوة مثل الرهبان مثلاً "شعرُ أبي العلاء وسيرته، يدلان على أنه كان يؤثر العزلة، وإن لم يوفق إليها كما قدمنا. وليس أبو العلاء أول من اخترع العزلة أو رغب فيها، بل هي مذهب قديم معروف، ولاسيما عند أهل الهند. والقول في فضل العزلة أو ذمها معروف مشترك بين الناس"⁷، بل كانت عزلته مركبة قلَّ من اجتمعت له أصنافها عزلة عاهة العمى الذي لزمه منذ سن الرابعة، وعزلة الروح المحبوسة في سجن الجسد، وعزلة المسكن أو المكان الذي اختاره نأياً بكرامته، وعزته أن تهان، وصونا لمروءته من مخازي أهل عصره وزمانه، وفي ذلك يقول:

هذا زمانٌ ليس في أهله إلا لأن تهجره أهـلٌ⁸ [السريع]
حان رحيلُ النفس عن عالم ما هو إلا الغدر و الجهلُ
وأكثر من ذلك قوله:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبـيـث⁹ [الوافر]
لفقدي ناظري و لزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث
وقد كان أبو العلاء صارماً في عزلته حيث "لبث تسعا وأربعين سنة في محبسه بمعرة النعمان لم يغادره إلا مرة واحدة لم تتكرر"¹⁰، بيد أن هذه العزلة لم تكن محكمة "فإنَّ الرَّجُلَ لم يكـد يبدأ سيرته الشاققة بمعرة النعمان حتى أخذ الناس يسعون إليه، والحياء يحول بينه وبين ردِّهم. والحق أن العزلة التامة لم تكن ميسورة لأبي العلاء، إنما كانت أمنية ضائعة"¹¹، فرهين المحبسين وإن اعتزل الناس لم يعتزلوه وكان اتصالحهم به؛ إما عن طريق

الرحلة إليه كالكاتب الوزير أبي الفرج محمد بن أحمد بن الحسن، والرحالة الفارسي ناصر خسرو؛ وإما عن طريق المراسلة، ومن أشهر رسائله رسالة الغفران و(رسائله إلى داعي الدعاة) التي جادله فيها عن موقفه من أكل لحم الحيوان، وإيذائه¹².

والجدير بالذكر هنا أن أغلب المصادر التي أرّخت لحياته تجمع على كثرة الذين طرّقوا بابه، وأقاموا عنده ورحلوا إليه يطلبون علمه على اختلاف مكانتهم، ومنازلهم غير أننا عندما نبحث في رسائله نجد اختلاف الباحثين فيها من حيث القلة، والكثرة فقد صُدّر كتاب (رسائل أبي العلاء)*¹³ بما يلي "هذه رسائل أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التتوخي المعري رهْنُ المحبسين، وأشياء جمعت من كلامه، ولم تكن المراسلة بينه وبين الناس كثيرة، وإنما اتفق له ذلك في بعض الأحيان، فمن ذلك رسالته إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي المعروفة برسالة المنيح"¹⁴؛ إذ يُفهم من هذا القول أن المراسلة بين أبي العلاء، وغيره من الناس كانت قليلة وشحيحة جدا إلا ما ندر منها، في حين نجد من الباحثين من يرى بأن أبا العلاء قد كان أكثرا في رسائله بمختلف أنواعها (الإخوانية والأدبية) كرسالة الغفران، رسالة الملائكة، رسالة الصاهل والشاحج ... حيث تقول عائشة عبد الرحمان " لم نذكر الحشد الكاثر من الأصدقاء الذين تبودلت بينه وبينهم الرسائل الإخوانية أو اللغوية والأدبية على ما مدى ما يقارب نصف قرن"¹⁵. ومهما يكن الأمر، فالرسائل تعتبر من أهم الأشياء التي أسهمت في فشل عزلة أبي العلاء، خاصة من لم يكن في مقدورهم زيارته أو منعهم من الالتقاء به مانع، كابن القارح مثلاً (نقيض أبي العلاء في شخصيته).

1. الاستدلال الخطابي في رسائل أبي العلاء المعري :

إن الخطاب الحجاجي مهما كان نوعه عند أرسطو يمر بثلاث مراحل، وقد رتبها بحسب تتاليها في زمن الإنشاء كما يلي: المرحلة الأولى، مرحلة البحث عن مواد الحجاج (مصادر الأدلة) والمرحلة الثانية، ترتيب أجزاء القول، والمرحلة الثالثة فتتعلق بالأسلوب من حيث اختيار الألفاظ و المحسنات¹⁶، وهذه المراحل مرتبة حسب أهميتها في بناء متانة القول الحجاجي لذلك كانت "أهم مرحلة هي مرحلة البحث عن المصادر، والأدلة ومواد الحجاج، لأن هذه الأخيرة يجب مراعاتها حسب المقام وحالة السامع، وعلى المحاجج الناجح أن يعثر على الأدلة والحجج المناسبة لمستمعه، وموضوعه"¹⁷، والقول الحجاجي يأخذ قوته من قوة الأدلة التي يقوم عليها وقد قسم أرسطو الأدلة إلى قسمين "منها ما هو خارج عن التقنية، ومنها ما هو تقني صناعي"¹⁸، ويقصد بما هو خارج عن التقنية الحجج غير الصناعية أو الحجج الجاهزة وهي التي تكون خارج اجتهاد الخطيب وفوق قدرته "ونقصد بالأدلة غير التقنية تلك التي لا توفرها لنا وسائلنا الشخصية ولكنها تعطى مسبقا مثل الشهود، والاعتراف تحت التعذيب، والوثائق والعقود وغيرها من الوسائل الشبيهة بها"¹⁹.

أما الأدلة التقنية فهي " أهم نوع من الاستدلالات في نظر أرسطو هي تلك القائمة على التصديقات الصناعية les preuves techniques التي يقوم المحاجج بصناعتها، ونحتها اعتمادا على معايير عقلية منطقية لا على معايير عاطفية توجيهية (seductifs) لأن هذه الأخيرة مذمومة وتفسد الضمير"²⁰، وتنقسم الحجج الصناعية "بدورها إلى أدلة ذاتية ترتبط بالمقام حددها في الإيتوس (Ethos) أي أخلاق الخطيب وشخصيته، والباتوس (Patos) أي

أحوال المستمعين ومشاعرهم وانفعالاتهم، وأدلة موضوعية تتعلق بالعبارة نفسها (Logos)²¹، وهي تنقسم كذلك إلى قسمين هما القياس المضمر، والمثل.

وسنحاول تتبع واستكشاف الحجج الجاهزة (غير الصناعية) في كتاب "رسائل أبي العلاء المعري" وتتمثل هذه الحجج في الشاهد الديني والشاهد الأدبي، من خلال إبراز القيمة الحجائية لهما انطلاقاً من جودة التوظيف، ودقة اختيار الشاهد.

1- الحجج غير الصناعية في رسائل أبي العلاء:

تعدُّ الحجة أهم ما يُنصر به المحاجج، وهي كما يرى الجاحظ " إما عيان ظاهر ويعني به المعرفة المتولدة عن المشاهدة الحسية والملاحظة، والتجربة ... وإما خبر قاهر ويعني به المعرفة المنقولة بأحد طرق النقل"²²، حيث تتمثل الحجج غير الصناعية في رسائل أبي العلاء المعري في الشاهد الديني والشاهد الأدبي، "وهي لا تخرج في الجملة عن توظيف الشاهد الديني أو الأدبي من اقتباس من القرآن والحديث وضرب للأمثال واستشهاد بغرر الشعر ومصطفى القصيد، وكل ذلك يؤخذ من سياقه الأصلي ويدرج في سياق آخر بطريقة ما لتحقيق وظيفة ما، فهو أي: الشاهد نقطة تقاطع بين نصين مختلفين... كإدراج الأمثال في الخطب، والرسائل أو اقتباس القرآن الكريم"²³، حيث يعتمد الكاتب إلى أخذ الشواهد من مصادرها، وتوظيفها في رسائله مستثمراً قيمتها التداولية، والحجائية فيما يعرض له "كما أن هذه الشواهد والاستشهاد لها سلطة مرجعية تجعلها قادرة على إقناع المتلقي وإفحام الخصم"²⁴.

أما من حيث قوة الحجة، وقيمتها فالشاهد الديني (القرآن ، الحديث) مقدم على الشاهد الأدبي (الشعر، المثل، الحكمة) حيث "يتفاوت نفوذ سلطة ومرجع هذه الشواهد فالقرآن الكريم كلام الله ووحى يوحى لا تضاهيه حجة لأنه حجة الحجج كما قلنا، والحديث النبوي كلام من لا ينطق عن الهوى ﷺ ثم يأتي الشعر في المرتبة الثالثة باعتباره ديوان العرب، وجامع أخبارهم، وسيرهم وأساس الحضارة العربية الإسلامية... ثم يأتي بعد ذلك دور الأمثال والحكم"²⁵، وكذلك أقوال الفصحاء، والبلغاء في كل عصر بما تحمله من ثقل شهد به الناس وتعارفوا على قيمته. ويمكن تفصيل أنواع الحجج غير الصناعية في رسائل أبي العلاء في ما يلي:

1- الشاهد الديني في رسائل أبي العلاء :

يحتل الشاهد الديني في رسائل أبي العلاء موقعا هاما؛ إذ لا تكاد تخلو رسالة من الرسائل من شاهد ديني مهما كان نوعه خاصة إذا علمنا أن هذه الرسائل قد كتبت منجمة عبر فترة زمنية طويلة حيث تقلب أبو العلاء في توظيف الشاهد الديني - قرآن كريم أو حديث شريف - فيها بين الاستشهاد الصريح المباشر أو بين الاقتباس اللفظي منه، والمعنوي أو بين اللجوء للإشارة والتلميح، والكاتب يستعمل هذه الشواهد لتأكيد رأي أو لتثبيت فكرة أو لطلب شفاعاة أو لتقديم تعزية أو لبيت حزن.

ويعتبر الاستشهاد بالقرآن الكريم في المرتبة الأولى بين الحجج الدينية "لأن آياته برهان صادق وحجة قاطعة ودليل يقيني التأليف قطعي الاستلزام"²⁶، قال تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء|105]، يبدو تأثير أبي العلاء بالقرآن الكريم واضحا جليا حتى في سائر أعماله الشعرية، والنثرية يقول صالح بن رمضان "وقد اخترت هذا

النموذج البسيط لأخلص منه إلى أن استخدام المرجع القرآني في بناء الجملة الأدبية أو توليد الصورة عند المعري ليس خاصا برسالة الغفران أو الهناء أو الصاهل والشاحج أو الملائكة بل يندرج في صلب اختيار إنشائي يخضع لقوانين لا يمكن الكشف عنها إلا بتحويل الاهتمام من النص إلى الأثر²⁷.

وقد تنوع استعمال الشواهد الدينية في رسائل أبي العلاء المعري وذلك حسب ما تقتضيه الوضعية الحجاجية التي يوجد فيها الكاتب، وقد وظف الكاتب الشاهد الديني حسب طرق توظيفه الثلاث (الشاهد الصريح، الاقتباس، التلويح) كما يلي:

أ- الشاهد الصريح :

وهو الشاهد الذي فيه "يمهد الكاتب للآية أو الحديث اللذين يستشهد بهما بعبارة صريحة من قبيل: قال تعالى أو يقول عز وجل في التنزيل أو ما شابهها بالنسبة للقرآن الكريم، ومن قبيل : قال الرسول ﷺ أو يقول عليه الصلاة والسلام أو جاء في الحديث أو ما شابهها بالنسبة للحديث النبوي الشريف"²⁸، ولم يكثر الكاتب من استعمال هذا النوع من الشواهد سواء من القرآن الكريم أو من الحديث النبوي الشريف، ويعتبر هذا النوع من الشواهد الأكثر سلطة، وقوة ما يجبر المحاجج به على التسليم، والإذعان وإن حاول التملص فهو لا يرده بل يعمد إلى إعادة التأويل، والالتفات إلى المعاني البعيدة لعله يجد فيها مخرجا يجعله يخرج من دائرة رفض الشاهد الضيقة، والمحتومة المصير (الزندقة، الكفر).

وقد استعمل أبو العلاء شواهد صريحة من القرآن الكريم في رسائله - وإن لم تكن كثيرة - منها ما جاء في رسالة المنيح²⁹، المرسله ردا عن رسالة

الوزير أبي القاسم المغربي حيث يعبر له فيها عن سعادته بالتحية، والسلام الذي حملته فيقول: "...أحسب سلامه السلام الذي ذكره البارئ جلَّ اسمه في قوله: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ [الحجر|46]»³⁰، هو يريد أن يدرك مراسله بأن فرحته بسلامه، كفرحة أهل الجنة بسلام الرحمان لهم عند دخولها، وهذا مما لا بعده شيء وقد كتب جواباً لأبي الحسن محمد بن سنان " وإنما أخرت الإجابة إلى هذا الحين عجزاً عما يحق عليّ لا أقدر على أحسن منها، قال جلَّ اسمه: ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء|86].

وهو في الآية الأولى التي أستشهد بها صريحة يريد أن يتلطف في تبرير تأخر رده، وعزوّ ذلك إلى شدة حرارة التحية التي وصلته ما جعله يستغرق وقتاً في تخير رد يلق به، وهذا من تواضع أبي العلاء وقد عرف بذلك؛ فما يمنعه من الردّ وهو عالم زمانه؟ ولما جاء رده في هذه الرسالة القيمة تراه يعتذر عن التقصير بذكر الآية الثانية مستشهداً بأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وليس من وسع نفسه أن تأتي بتحية مناسبة.

كما أستشهد أبو العلاء في رسائله بالحديث النبوي الشريف صراحة، وتكاد تكون الأحاديث التي استشهد بها صريحة إلا حديثاً واحداً - على قلة استشهاده بالحديث النبوي في رسائله - إذ لم يتعدَّ عددها ستة أحاديث في كامل الرسائل، ولعل لهذا ما يبرره عند أبي العلاء خاصة إذا علمنا أن السنة مدونة واسعة الجوانب، ومن ذلك قوله " ولا غيرهم من المتقدمين، والمحدثين وإنما قلت ذلك ليعلم أنني لم أناجيه بخطاب صدر عن صدرٍ مريض كما جرت العادة من العامة لقالة القريض، وقد قال رسول الله ﷺ: " ما أنا من ددٍ ولا الدد مني"³¹، والدد اللعب واللهو فالرسول ﷺ في معنى الحديث ينزه نفسه عن

اللعب واللهو، وأبو العلاء لما أستشهد بالحديث يريد أن يتبرأ من موقف العامة، ويثبت أن رسالته قد صدرت صادقة من أعماق قلبه.

وقال معتذرا في رسالة ردا على الأمير عزيز الدولة لما استندناه - إكراما له، واعترافا بعلمه وفضله - فطلب منه حضور مجلسه، وكان ذلك في آخر عمر أبي العلاء المعري " وزاد تقول القوم عليّ حتى خشيت أن أكون أحد الجهال الذين ورد فيهم الحديث المأثور "إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتَرَاعًا يَنْتَرِعُ مِنْ صُدُورِ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا "32، فَغَدَوْتُ حُلْسَ رَبْعٍ"33؛ حيث يطلب أبو العلاء حسن التخلص من طلب الأمير بإظهار التواضع الشديد، وتصغير النفس حيث شبه نفسه بأحد الجهال الذين اتخذهم الناس علماء لدروس العلم وذهاب أهله فضلوا، وأضلوا، وإن كان في مواضع قد تعلل بكبر سنه، وضعف بدنه فذلك عذر مقبول منه أما أن ينسب نفسه إلى الجهال، وهو عالم دهره فلا يفسر ذلك إلا بتواضعه الشديد، وله في ذلك شواهد كثيرة، وشعاره رحم الله امرئ عرف قدر نفسه.

وهذا شاهد آخر حيث يقول " وله - أدام الله عزه - أن يحتج بقول النبي ﷺ لحسان بن ثابت لما أمره بإجابة شعراء قريش: روح القدس معك " فَلِمُدَّعِ أَنْ يَقُولَ إِنْ حَسَانَ، وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُ مِنْ قَالَةِ الْحَقِّ تُعِينُهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى ذَلِكَ"34؛ حيث يستعمل الحديث حجة على الرأي الذي ينتصر له في معرض الحديث عن علاقة الشعراء بالجن كما تزعم العرب ذلك، فإذا كان للشعراء قرناء، وشياطين يذبجون لهم الشعر، ويأتونهم بلطائفه في شتى أغراضه كالغزل الماجن، ووصف الخمر والهجاء بما تحمله من تجاسر على الحدود، وقفزا على حرمة الدين فدليل ذلك هذا الحديث الذي يثبت بالنص الصريح

معية جبريل عليه السلام (الروح القدس) مع حسان في نصره الرسول ودعوته فإذا كانت الملائكة مع قالة الحق فإن الشياطين مع قالة الباطل والزور من الشعراء.

ب- الاقتباس :

ويعتبر الاقتباس من أهم طرق توظيف الشاهد الديني، وهو " أن يضمن المتكلم كلامه من شعر أو نثر كلاما لغيره بلفظه أو معناه، وهذا الاقتباس يكون من القرآن المجيد أو من أقوال الرسول ﷺ أو من الأمثال السائرة أو من الحكم المشهورة أو من أقوال كبار العلماء، والشعراء المتداولة، دون أن يعزو المقتبس القول إلى قائله"³⁵.

ويكثر استعمال الشاهد الديني خاصة المقتبس من القرآن الكريم في رسائل أبي العلاء المعري إذ لا تكاد تخلو رسالة منه حيث يستشهد الكاتب بالآية مباشرة في حديثه دون أن يأتي بالمقدمة لها كالبسمل، أو قال تعالى، أو قال جل اسمه " ويمكن تفسير ذلك بأمرين اثنين:

- أولهما: التعويل على فطنة المتلقي وثقافته وشهرة النص الديني وفرادته .
- ثانيهما: وهو الأهم في اعتقادنا، عدم تكسير إيقاع الرسالة، وأسلوبها بالعبارات الممهدة من قبل قال أو يقول"³⁶. إن اقتباس الشاهد الديني يجعل النص المقتبس من متن الكلام، ومعناه من معنى الكلام فينسحب ثقل الآية الكريمة على ما يريد الكاتب قوله، وهو ما يجده القارئ في نفسه فيسلم بقوة حجية الرأي أو الفكرة انطلاقا من حجية الآية الكريمة مثلا. ومن شواهد ذلك في رسائل أبي العلاء المعري قوله في رسالة المنيح "وألقي إلينا كتاب كريم، صدر عن حضرة السيد الحبر، ومالك أعنة النظم والنثر، قراءته نسكٌ و

ختامه بل سائره مسك ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين|26] أجل عن التقبيل فضلاله الْمُقْبَلَةُ "37 حيث اقتبس أبو العلاء من سورة المطففين ما يعضد به مقدمة رسالته في الرد على رسالة الأمير أبو القاسم المغربي، حين شبه قراءة خطابه بالعبادة، وجعل ختامه بل سائره مسك، وهذا تلميح إلى سورة المطففين التي اقتبس منا الآية الكريمة السابقة؛ فمعنى الآية يجري مع المعنى الذي يريده الكاتب، وهو التنافس في إبقاء المودة والاحترام.

ونجد الاقتباس في رسالته إلى خاله أبي القاسم بن سبيكة بعدما قفل من العراق، ووجد أمه قد توفيت - وهي من أحسن رسائله - حيث يقول " كتابي - أطال الله بقاء سيدي ما طلع صبير ورسا ثبير - من معرفة النعمان، ولكل نباء مستقر، ووردتها بعد سامة، ورود كعب بن مامة ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة|156]. وله الحمد ممزوجا به الدمع"38.

فهو رغم لوعته بفقد والدته، وحرقة عليها لا يعدم عزاء يسليه ويصبر به نفسه ما جعله يورد الآية الكريمة في هذا السياق دون التمهيد بقال تعالى أو ما ينوب عنها فتكون الآية في معناها حجة لأبي العلاء على نفسه تلزمه بحسن الصبر رغم المصائب والاحتساب والرضى بما قدر الله تعالى. دون أن نغفل عن وعي أبي العلاء بسياق الآية الكريمة وتحويله على فطنة مراسله إذ تتوسط الآية قوله تعالى: ﴿ وَنَبَلُونَكُمْ بِشْيَاءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة|155] حيث تعدد الآية الكريمة بعض أنواع الابتلاء التي يمتحن الله بها إيمان عباده وصدقهم وقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ

المُهْتَدُونَ» [البقرة|157]، فجزاء الصابرين، وبشراهم صلوات من ربهم وأجر عظيم، وهذا ما يستشفه المرسل إليه (خال أبي العلاء أبو القاسم) كذلك فيجد فيه سلوة عن أخته الفقيدة كما يجد فيه ما يطمئن به عن حال ابن أخته - خاصة مع غربته وعاهته، وضعفه - ويتضح ذلك أكثر بما ذيل به أية الاقتباس قوله " وله الحمد ممزوجا به الدمع".

ج- الإشارة والتلميح :

والتلويح عكس التصريح، وقد يكون أبلغ منه حيث لا يورد المستشهد الآية ولا الحديث الشريف بمعنى الاستشهاد أو الاقتباس، بل يكفي بالمعنى مع ذكر بعض الألفاظ³⁹. ويحمل التلويح أو الإشارة قوة حجاجية بارزة من حيث حجية الأصل الذي أخذت منه الإشارة (القرآن، والسنة)، واستثمار ذكاء وفتنة القارئ من خلال جعله يربط العلاقة التي بين المعنى الذي يريد الكاتب تبليغه، وبين المصدر الأول الذي وجد فيه الشاهد أو مرجع التلميح، والذي يكون بوزنه الحجاجي نقطة التقاء بين الكاتب، والقارئ فالتواطؤ على المرجع كمنطلق يقود إلى التواطؤ أو الاتفاق على الغاية من استحضار التلميح أو الإشارة، ولذلك قالت العرب " رب إشارة أبلغ من عبارة، ورب قول أبلغ من صول".

وإذا نظرنا إلى رسائل أبي العلاء المعري وجدنا حضور التلميح كبيرا فيها خاصة ما كان منه يعود إلى الشواهد القرآنية، وهذا ما يؤكد العلاقة بين أبي العلاء، والقرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك قوله: "أفبلدتنا جنان ؟ أم وضح لأهلها الغفران ؟ أم نشروا بعدما قبروا ؟ أم جزوا الغرفة بما صبروا ؟ فهم يلقون فيها تحية وسلاما"⁴⁰، فهو في رسالة المنيع يعظم سلام الأمير أبي القاسم المغربي له، ولأهل معرة النعمان، وعندما أراد أن يعرب عن ذلك لجأ

إلى التلميح، والإشارة حتى يظهر وقع السلام الذي اختص به أهل بلده من قبل الأمير دون غيرهم؛ بتلميح يعود إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان|75] فهم بمنزلة أهل الجنة بل هم في أعلى منزلة منها؛ فعندما نعود إلى معنى الآية عند الزمخشري نجده يقول: " المراد يجزون الغرفات وهي العلالى في الجنة، فوحد اقتصارا على الواحد الدال على الجنس"⁴¹، وهذه لفظة لطيفة، ومجاملة بديعة من الكاتب.

كما استخدم التلميح في رسالة الإغريض⁴² كذلك في قوله " وقد تأملت شواهد إصلاح المنطق فوجدتها عشرة أنواع في عدة إخوة الصديق لما تظاهروا على غير حقيق، وتزيد على عشرة بواحد، كأخ يوسف لم يكن بالشاهد"⁴³، وهنا يشير إلى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف|46] فهو يمتدح عمل أبي القاسم ويثني عليه، وعندما علق على شواهد إصلاح المنطق يقول وجدتها عشرة، ولمح بقوله كإخوة الصديق إلى صدق، وأمانة الوزير الكاتب أبي القاسم (صاحب المختصر) فهو قد جمع بهذا التلميح بين موافقة عدد الشواهد، والتزكية لمراسله فكأنما انسحب عليه ما كان خاصا بيوسف عليه السلام في الآية الكريمة.

2-الشاهد الأدبي:

لشواهد الأدبية دور هام في التأثير على المخاطب وتحقيق الإقناع، وتهيئة ظروفه لما يحتويه الشاهد الأدبي من قيمة حاجية عالية، حيث يخاطب العاطفة، والعقل في وقت واحد لاسيما إذا أحسن اختياره وتوظيفه، ويتمثل الشاهد الأدبي في: الشعر، والأمثال والحكم.

أ- الاستشهاد بالشعر :

يُعدُّ الشعر من أهم المصادر التي ينهل منها الأدباء، والكتاب وأهل اللغة فهو يأتي في المنزلة الثالثة بعد القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف و" كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب، والمصور لآمالهم وآلامهم وحياتهم ومشاهد الوجود بينهم، أودعوه وقائعهم، ومفاخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وأيامهم، وآثارهم و ذكرياتهم، وأوصاف بيئتهم"⁴⁴، لذلك نصحوا الشاعر أن يحفظ من شعر غيره ثم ينسج على منواله، وكذلك من تصدى للكتابة، والنثر مع الحرص على فهم المعاني، والوقوف على طرق توظيف الشاهد، وحسن استثماره، وعليه فإن هذه القيمة التداولية تتيح للشعر كي يستوي في الخطاب مشرباً بطاقة حجاجية.

والاستشهاد بالشعر هو إيراد " البيت من الشعر أو البيتين أو أكثر في خلال الكلام المنثور مطابقاً لمعنى ما تقدم من النثر ولا يشترط أن ينبه عليه بقال، ونحوه كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية، فإن الشعر يتميز بوزنه، وصيغته عن غيره من أنواع الكلام فلا يحتاج إلى البينة عليه"⁴⁵، حيث يصبح الاستشهاد بالشعر حجة من جهتين: أولهما المعنى الذي يرمي إليه الشاهد، وما يدل عليه، وثانيهما ما يتركه اسم القائل من تأثير واقتناع، ومن ثم تغيير سلوك المتلقي؛ فبعض الشعراء شاعت حكمتهم، وقوة عقلهم مثلاً.

وقد استعمل أبو العلاء في رسائله عدداً من الشواهد الشعرية ومع كونه شاعرٌ مجيداً لم ينسب بيتاً واحداً منها لنفسه⁴⁶، كما كان يفعل بعض الكتاب في رسائلهم، وحتى نلمس القيمة الحجاجية للشواهد الشعرية عند أبي العلاء في رسائله بشكل عام سنقف على بعض ما لاحظناه فيها :

1- كان أبو العلاء مقلا في استخدام الشعر شواهد في رسائله؛ باستثناء رسالته جوابا عن رجل يعرف بأبي الحسن أحمد بن عثمان النكتي البصري؛ حيث ذكر فيها حوالي (مائة و ثلاثة و خمسون بيتا كاملا وأحد عشر شطرا) لأن هذه الرسالة ذات طابع تعليمي نظمت في علم العروض، ورسالته إلى خاله أبي القاسم بعد وفاة أمه ذكر فيها (أربعة وثلاثون بيتا) يعبر فيها عن حزنه لشديد لفقدها.

2- أكثر ما استشهد به أبو العلاء في رسائله كان استشهدا صريحا، ولم يستخدم التلميح إلا نادرا (يشير إلى البيت الشعري ولا يذكره).

3- لم يستشهد أبو العلاء في رسائله إلا بأشعار الفحول؛ خاصة المخضرمين منهم مثل الأعشى وحسان، والنابعة، والحطيئة .

4- تعدُّ أغلب الأبيات التي أوردها أبو العلاء شواهد لغوية مؤسسة؛ لأنها من شواهد اللسان (لسان العرب).مما يعني أنها جارية في إطار الاستعمال بغرض الإقناع والتأسيس .

5- استشهد أبو العلاء في رسائله بسبعة وأربعين بيتا مجهولة القائل (حسب المحقق).

إن الشواهد التي ذكرها أبو العلاء تدل على رسوخ قدمه في اللغة والأدب، وسعة اطلاعه، وذلك ما عُرف به لدى الدارسين، ومؤرخي الأدب. يقول في رسالته إلى خاله بعدما عاد من العراق، ووجد أمه قد توفيت: "وصلى الله على سيدنا محمد وعترته، صلاة يتقل بها لساني حزنا، وترجح في المحشر قدرا ووزنا، ثم أذكر قصصي بعد ذلك .

أَلَا يَا لَيْتِي وَالْمَرءُ مَئِيْتُ وما تُغْنِي من الحَدَثَانِ لَئِيْتُ⁴⁷
 يَا لَيْتَ عَمْرَأَ وَ لَيْتُ ضَلَّةً سَفَاةً لَمْ يَغْزُ فَهَمًا وَلَمْ يَحُلْ بِوَايِيهَا⁴⁸
 لَوْ أَنَّ صُدُورَ الْأَمْرِ يَبْدُونَ لِلْفَتَى كَأَعْقَابِهِ لَمْ تَلْفَهُ يَتَنَنَّمُ⁴⁹

رحمك الله من ساكنة رسم، وأصبحت حياتك كأمس⁵⁰ فقد استشهد بهذه الأبيات، وتمثلها في بداية رسالته، وقمة حزنه، وهي أبيات مجهولة القائل فأين قائلها؟ ومن هو؟ وفي هذا حجة الواقع، وفحواها أن الخلود غير مكتوب لأحد، كما أن أسلوب التمني، وهو طلب حصول المستحيل فيه دليل على حسرة أبي العلاء وشدة جلده لذاته، خاصة بعدما استشار أمه في أمر الذهاب إلى بغداد (لدار الكتب)؛ فلم تقبل ذلك إلا بعد إلحاح منه وتشدد، ويدل على ذلك البيت الثالث؛ فلو كان يعلم الغيب لم يتغيب عنها، وليس له هنا إلا الدعاء لها "رحمك الله من ساكنة رسم" ويقول في رد على رسالة عزيز الدولة التي استدناه فيها على كبره في السن "لهفي على فوات هذه المنزلة، ومن للورقاء بكوكب الخرقاء، والراقد عند الفرقد، أن يضحى مجاورا الفرقد، من لا يصلح لمجالسة النظراء، كيف ينتدب للقاء السادات والكبراء؟

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا لَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي⁵¹

هل أمل من الله ثوابا؟⁵² فهو عندما أراد التملص من عزيز الدولة، ورفع الحرج عن نفسه قدم له حججا متعددة حتى أنه قد بالغ في الانتقاص من نفسه؛ فهو لا يصلح لمجالسة النظراء فما بالك بالسادات والكبراء؛ ثم تراه يكاد يُعَدِّمُ نفسه لما استشهد بالبيت الشعري الذي سرى مسرى المثل؛ فجعله حجة على عدم أهليته لحضور ذلك المجلس المهيّب .

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا لَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

ب- الأمثال و الحكم :

وهي عبارة عن قول موجز يلخص تجارب الناس عبر العصور، وصار سائرا بينهم يتفقون على مضربه، ويتمثلون به عند مشابهة المورد، ولقد سمي المثل كذلك عند ابن رشيق " لأنه مائل لخاطر الإنسان أبدا يتأسى به ويعظ ويأمر ويزجر به...وفيه ثلاث خصال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه "⁵³ وقد اكتسبت الأمثال مع طول العهد حجية قوية خاصة مع شيوعها، ووقعها في النفس وتأثيرها حيث تستعمل لشحذ الذهن وإثارة الفكر، وتحريك العواطف، والغرائز المختلفة في الإنسان من حب، وكره، وخوف وقد وظف أبو العلاء في رسائله المثل بشكل واسع النطاق إذ لا تكاد تخلو صفحة من رسائله من مثل سائر أو حكمة بالغة بل جعل من حشد الأمثال الغريبة اللفظ، والبعيدة عن الاستعمال، والموغلة في البداوة مادة تميز تعقيده، وبالتالي تحمل حجة يثبت بها تفوقه عن غيره من جهة، ومن جهة أخرى يؤيد بها فكرته ورأيه، وقد كرر مثلين في رسائله وهما " من شابه أباه فما ظلم " حيث كرره ثلاث مرات والمثل الثاني " أعط القوس باريها " حيث كرره مرتين، وهما مثلان سائران متداولان، ويحشد لمضرب واحد عددا من الأمثال الغريبة مثل قوله يخاطب نفسه " لنفسي أقول : أعيبتي بأشر فكيف بدردر؟ وعصيتني من شُبِّ إلى دُبِّ، ليس بعشك فادرجي هذا أحقُّ منزلٍ بترك، الصيف ضيَّعتِ اللين، الربيع أغفلتِ الكمأة، وعلى المقآزة أرقَّتِ السقاء، عودي إلى مباركك، ألحقت الشرَّ بأهلك، فمن أناسٍ ما أنت، ليس النيقُ بموطنِ الظليم، ولا الهَجْلُ بمرتعِ الغُفْرِ. "⁵⁴ فهو يريد بتوالي هذه الأمثال ذات الدلالة الواحدة مباحدة النفرة بينه، وبين هوى نفسه فلا يترك لها مجالا للسيطرة عليه، وقد عُرف ذلك من سيرته حيث ألزم نفسه مالا يلزم معاشاً، وسلوكاً، وفكراً، وفي قوله في رده على عزيز الدولة " وإذا

هي سفيهة رواد، لا يشغف بודהا الفؤاد، والمثل السائر : أن تسمع بالمُعيدي خيراً من أن تراه، ولست أَرْضَى لحضرة مولاي الشيخ بتحية نصيب⁵⁵ وللمثل مورد معروف وقائله هو الملك النعمان بن المنذر والمعيديُّ تصغير المنسوب إلى معد، وهو يقصد نفسه هنا ويبقى المشابهة بين عزيز الدولة والنعمان بن المنذر حتى يقنعه بفكرته ويُعفيه ممَّا طُلب منه فليس ما تسمعه عنى كما تراه منى.

لقد استطاع أبو العلاء المعري استثمار الأدلة غير الصناعية متمثلة في الشواهد الدينية، والشواهد الأدبية لتحقيق البناء الاستدلالي في رسائله، ما يجعل المخاطب يُحْمَلُ على الاقتناع، بما تحركه هذه الشواهد في نفسه من انفعالات وعاطفة، مُساعدةً قوة الحجة ذاتها لجعل التأثير محققاً ومجدياً.

الهوامش:

* قد جاء في تعريف الرسالة لغة: في لسان العرب: "أن الترسل في الكلام يعني التوقر فيه و الترفق من غير أن يرفع الإنسان صوته شديداً ، وراسله مراسلة فهو مراسل ورسيل والرسل والرسالة : الرفق والتؤدة والترسل في القراءة والترسل واحد وهو التحقيق بلا عجلة وقيل بعرضه على اثر بعض" أنظر لسان العرب لابن منظور، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، دت، مج3، ص:1645.

وتعرف الرسالة اصطلاحاً: بأنها " قطعة من النثر الفني تطول أو تقصر تبعاً لمشيئة الكاتب وغرضه وأسلوبه وقد يتخللها الشعر إذا رأى لذلك سبباً وقد يكون هذا الشعر من نظمه أو مما يستشهد به من شعر غيره وتكون كتابتها بعبارة بليغة وأسلوب حسن رشيق وألفاظ منتقاة ومعان ظريفة " ويحدد ذلك كله سياق الرسالة، ومقامها من حال المرسل والمرسل إليه والأوضاع والظروف التي صيغت فيها الرسالة.

¹ - شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر، دار المعارف، مصر، ط1، دت ، ص: 102.

- 2- عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1976، ص: 448.
- 3- حسين نصار، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 2007، ص: 66.
- 4- فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، الأردن، ط1، 2015، ص: 273.
- 5- (م، ن) ، ص: 227.
- 6- (م، ن) ، ص: 100.
- 7- طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، تقديم عبد الله التطاوي مطبعة دار الكتب والوثائق العلمية بالقاهرة مصر، ط4، 2007، ص: 307.
- 8- أبو العلاء المعري، ديوان لزوم ما لا يلزم (اللزوميات) ، تقديم وشرح، وحيد كباية ، وحسن حمد، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان، دط، 2004، ج2، ص: 192.
- 9- ديوان لزوم ما لا يلزم (اللزوميات)، ج1، ص: 226.
- 10- عائشة عبد الرحمان، مع أبي العلاء في رحلة حياته، دار المعارف، مصر، د ط، د ت، ص : 175.
- 11- (م، س، ن) ص: 169.
- 12- (م، س، ن)، ص : 192/191.
- 13- ذكرها مصطفى صالح في كتشاف مصادر ودراسة أب العلاء المعري باسم (ديوان الرسائل) ، ط1، شاهين عطية ، بيروت 1894م ط. مرغليوث، أوكسفورد، 1898، عن مخطوط لايدن ن ط حسين حسنين (بلا تاريخ) ، مخطوطة الظاهرية 5834 عام :التيمورية 735، 227، 328 أدب، دار الكتب ، 1849. ولدى ابن خير الإشبيلي كتاب (ترسيل أبي العلاء).
- 14- حسان طيبي، رسائل أبي العلاء، دار المعارف بيروت، ط2005، 1 ، ص: 25.
- 15- مع أبي العلاء في رحلة حياته، ص 195/194.
- 16- محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008، ص56.

- 17- عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط، 2014، ص:27.
- 18- أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، 2008، ص 15.
- 19- (م، ن)، ص: 15.
- 20- (م، س، ن)، ص : 41.
- 21- الحجاج في الخطاب السياسي ، ص : 149.
- 22- علي محمد سلمان، كتابات الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر لبنان، ط1 ، 2010 ، 225.
- 23- عزيز لدية، نظرية الحجاج تطبيق على نثر ابن زيدون، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2015، ص:49.
- 24- (م، س، ن)، ص: 49.
- 25- (م، ن)، ص: 50.
- 26- الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي، ص : 155.
- 27- صالح بن رمضان، المعري ورسالة الغفران مجاوزة الحدود وحدود المجاوزة، دار اليمامة للنشر والتوزيع، تونس، ط2، ص: 10.
- 28- الحجاج في الخطاب السياسي، ص : 125.
- 29- المنيح: سهم من سهام الميسر، وسمي كذلك لأنه لا نصيب له إلا أن يمنح مسدده شيئا.
- 30- رسائل أبي العلاء ، ص:29.
- 31- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق : محمود محمد الطانحي وطاهر أحمد الزاوي، المكتبة الإسلامية، ط1، 1963، ص : 109.
- 32- أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، رقم 2673، وقد اعتنى بالصحيح، فضبطه ورقمه وذكر مواضعه وشرح ألفاظه دكتور مصطفى ذيب البغا، دار العلوم الإنسانية ، دمشق ، الحلبوني ، 1993 .
- 33- رسائل أبي العلاء ، ص : 121.
- 34- (م، ن)، ص : 134.

- 35- الحجاج في الخطاب السياسي ، ص: 156.
- 36- (م، ن)، ص : 156.
- 37- رسائل أبي العلاء المعري ، ص : 26.
- 38- (م، ن)، ص : 87.
- 39- الحجاج في الخطاب السياسي ، ص : 159.
- 40- رسائل أبي العلاء المعري ، ص : 29.
- 41- جار الله أبو القاسم الزمخشري، الكشاف، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض، مكتبة العبيكان، ط1، 1997، ج4 ، ص : 374.
- 42- رسالة الإغريض رسالة أنفذها إلى الوزير أبو القاسم المغربي بعدما أرسل له مختصر إصلاح المنطق، والإغريض ما ينشق عنه الطلع من الحبيبات البيض، والإغريض البرد، وهو أيضا كل أبيض طري. انظر رسائل أبي العلاء ، ص: 55.
- 43- (م، ن) ، ص : 65.
- 44- محمد عبد المنعم خفاجي، الشعر الجاهلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1973، ص : 195.
- 45- صبح الأعشى نقلا عن قادا ص 162.
- 46- انظر هامش الصفحة: 92 بعض الشواهد شك المحقق في نسبتها لأبي العلاء.
- 47- البيت من بحر الوافر أنظر: ديوان النابغة الجعدي، جمعه وحققه د/ واضح الصمد، دار صادر بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص: 47.
- 48- ينسب البيت لجنوب أخت عمرو ذي الكلب، وهو من بحر الطويل انظر: شرح أشعار الهذليين، لأبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، ضبطه وصححه، خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، دط، 2006، ج2، ص: 67.
- 49- ينسب البيت لابن السلماني ومن بحر الطويل انظر: أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (421هـ-)، شرح ديوان الحماسة، علق عليه وجمع حواشيه، يزيد الشيخ ، ووضع فهرسه العامة ، إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط1، 2003، ص: 539.
- 50- رسائل أبي العلاء المعري، ص : 88/87.

⁵¹- ينسب البيت لبشار بن برد وهو من بحر الوافر ينظر: ديوان الشعر العربي عبر

العصور القصيدة رقم: 8646 ، www.adab.com.

⁵²- رسائل أبي العلاء المعري، ص : 123.

⁵³- أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر، تحقيق: محمد محي

الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط1، 1981، ج1، ص:280.

⁵⁴- رسائل أبي العلاء المعري، ص :93.

⁵⁵- (م، ن)، ص: 124.

الحجاج الضمني في خطاب الإمام إبراهيمي أمام الوفود العربية والإسلامية في الأمم المتحدة

كمال حملاوي
جامعة باجي مختار - عنابة (الجزائر)

الملخص:

يعرض هذا المقال مفهوم الحجاج الضمني، الذي يعدّ أحد القسمين الرئيسيين للحجاج المباشر الشفوي الذي نجده في عدد من المجالات وبالأخصّ منها السياسية والقضائية، أين يسعى من خلاله المحاجج بمكانته الأخلاقية والعلمية، وبمعرفة باحوال الطرف الآخر، وكذا بقدرته على الاستخدام الأمثل لأساليب اللّغة، إلى جعل المتلقي يذعن له ويسلم بفكرته أو أطروحاته، وقد اتخذنا من خطاب الإمام البشير إبراهيمي الذي ألقاه أمام الوفود العربية والإسلامية في هيئة الأمم المتحدة في فرعها بباريس مثالا لإبراز نجاعة هذه الوسائل وقوتها التأثيرية الإقناعية.

الكلمات المفتاحية: الحجاج الضمني، أخلاق الخطيب الإيتوس، انفعالات المتلقي الباتوس، الخطاب، اللوغوس، الإقناع.

Résumé:

Cette article expose une définition de l'argumentation implicite, qui est l'un des deux parties principales de l'argumentation orale qu'on le trouve dans plusieurs domaines comme le domaine politique et juridique, ou l'argumentant utilise sa position scientifique (éthos) et ses connaissances de l'état de récepteur (pathos) et son pouvoir de dire(logos), tous ça pour convaincre le récepteur. pour obtenir notre but on a utilisé un discours de «MOHAMMED ELBACHIR LIBRAHIMI» devant les présentant des gouvernements arabes et islamiques dans les nations unis à Paris.

Mots clés: l'argumentation implicite, les comportements d'expéditeur l'éthos, réactions de récepteur le pathos, discours, logos, convaincre.

Abstract:

This article expose the definition of Implicit argumentation witch is an important part of the argumentation oral, it used usually in different types of discourse; political, juridical... where the argument used his position Scientifics (ethos) and his knowledge about the receptor (pathos) and his good using of language(logos), all these elements to convince

the receptor, a consequent we use the discourse of MOHAMED ELBACHIR ELIBRAHIMI in the united nations in Paris.

Keywords: the argumentation implicit, the comportments of expeditor ethos, reactions of receptor the pathos, discourse, logos, convince.

مقدمة:

يسعى الإنسان المحاجج أو المرافع لأجل قضية من القضايا تشغل باله إلى العمل بكل الوسائل المتاحة له لكي يطيح بالطرف الآخر أو المتلقي، كما أنه لا تمرّ عليه أية فرصة مستجدة إلا وانتهازها لإظهار وجهة نظره واستغلها الاستغلال الأمثل في المحاجة لإقناع المتلقي وجعله يذعن له ولأفكاره، ومن بين الوسائل المتاحة منذ القديم ما تناوله الفيلسوف والمفكر اليوناني أرسطو طاليس في كتابه "فن الخطابة" من أفكار تساعد المحاجج في عرض أفكاره ووجهة نظره بطريقة ناجعة ومؤثرة، هذه الوسائل التأثيرية الإقناعية قسمها إلى قسمين أطلق عليهما على التوالي اسم الحجج الصناعية والحجج غير الصناعية، وما يهمننا منها هو ذلك القسم الأول (الحجج الصناعية) الذي بدوره ينقسم إلى ثلاثة فروع: فرع خاص بالمتكلم أو المحاجج (الإيتوس)، وفرع ثانٍ خاص بالمتلقي (الباتوس)، أما الثالث منها فهو خاص بالخطاب ولغته (اللوغوس)، وانطلاقاً من فكرة أن كل خطاب دافعه العام هو الإقناع بحسب أرسطو، حاولنا أن نقارب هذه الأفكار الأرسطية ونبحث لها عن وصف أو بالأحرى كينونة تطبيقية من خلال خطاب للإمام العلامة محمد البشير الإبراهيمي الذي ألقاه أمام الوفود العربية والإسلامية في هيئة الأمم المتحدة في فرعها بباريس.

مفهوم الحجاج الضمني:

إنّ فكرة الحجاج الضمّني هي فكرة أرسطية خالصة تأتي في مقابل الحجاج غير الضمّني أو الصّريح، فقد أورد أرسطو هاتين الفكرتين أو العبارتين في كتابه "الخطابة"¹، هذا المصنّف الذي تحوّل مع مرور الزمن المصدر الأوّل لكلّ حديث عن أنواع أو أصناف الحجج وطرق الاستدلال في الخطاب بصورة عامّة، وما يهّمنا في هذا المقال هو العبارة الأولى (الحجاج الضمّني)، ولكن قبل الخوض في مفهومها لابدّ بداية أن نعرّج بإيجاز على مصنّف الخطابة المذكور آنفاً، والذي قسّمه صاحبه إلى مقدّمة وثلاث مقالات:

"-المقدّمة: وهي مدمجة في المقالة الأولى، حيث حدّد فيها أرسطو طبيعة الخطابة وعلاقتها بالعلوم والفنون الأخرى، مثل الجدل والأخلاق والسياسة والشعر، وقسّمها حسب المقامات إلى استشارية وقضائية وتقويمية...

-المقالة الأولى: الأخلاق والأدلة المناسبة والوسائل الإقناعية الصنّاعية الخاصة بالخطابة القضائية.

-المقالة الثانية: الأحوال النفسية المؤثّرة في المخاطبين و الأقيسة الخطابية والأمثال.

-المقالة الثالثة: الأسلوب وترتيب أجزاء القول"².

يبدو من الوهلة الأولى أنّ هذا التّبويب له علاقة مباشرة بعملية التّحاجج، والدليل على ذلك هو تعريف أرسطو للخطابة أو البلاغة في بداية مقالته الأولى بأنّها "قوة تتكلّف الطّرق الممكنة للإقناع في أيّ موضوع

كان³، فهي عنده تقوم في الأساس على الإقناع لأنها "بلاغة الحجة والاستدلال"⁴، وهذا الإقناع بدوره يقوم على مجموعة من الحجج والأدلة صنّفها أرسطو صنفين اثنين هي ما ذكرناه أعلاه: حجج وبراهين غير ضمنية (جاهزة) لا دخل للإنسان المحاجج أو المرافع في السيطرة عليها أو التحكم فيها، وحجج ضمنية (غير جاهزة) يكون الإنسان المحاجج من خلالها طرفاً مؤسساً لها بل يتصنع ويتفنن ويحتال في صياغتها والتأثير بها، يقول أرسطو في هذا الصدد: "... فأما التصديقات، فمنها بصناعة، ومنها بغير صناعة، وقد أعني باللاتي بغير صناعة تلك التي ليست تكون بحيلة منّا، لكن بأمور متقدّمة، كمثل الشهود والعذاب والكتب والصكّك وما أشبه ذلك، وأمّا اللاتي بصناعة فما أمكن إعداده وتثبيته على ما ينبغي بالحيلة وبأنفسنا"⁵، وهذا الصنف الثاني هو ما يهمننا في مقاربتنا هذه، "...فالتصديقات التي نحتال لها بالكلام فإنّها أنواع ثلاثة: فمنها ما يكون بكيفية المتكلم وسمّيه (الإيتوس أو أخلاق الخطيب)، ومنها ما يكون بتهيئة للسامع واستدراجه نحو الأمر (الباتوس أو انفعالات المخاطب)، ومنها ما يكون بالكلام نفسه قبل التثبيت (اللوغوس أو لغة الخطاب)..."⁶، وللإشارة فإنّ الخطابة الجديدة مع ميلاد كتاب "مصنّف في الحجاج" لشاييم بيرلمان⁷ و"أولبريخت تيتيكا" كانت قد أعادت الاعتبار للخطاب اللوغوس وجعلته محور التّحاجج، وقللت من شأن حجج الخطيب (الإيتوس) وانفعالات المخاطب (الباتوس) واعتبرتهما من الوسائل الأرسطوية التي ظلّت وفيّة لدراسة الخطاب الشفوي اليوناني- اللاتيني وإهمالها إلى حدّ ما العنصر الثالث وهو الخطاب أو اللغة كما ذكرنا آنفاً⁷.

1- الاحتجاج بالأخلاق والانفعالات (الإيتوس و الباتوس):

1-1- الإيتوس (أخلاق الخطيب):

إنّ البرهنة الأخلاقية أو الإيتوسية تستند على صورة الخطيب وملامحه التي تبعث ثقة المتلقّي، إنّها ضرب من المقبوليّة العاطفيّة حيث يتمكّن الخطيب بسبب هذه الثّقة التي يمكن أن تكون عمياء في بعض الأحيان أن يصنع الأعاجيب بالعامّة⁸، ويبدو أن الإمام الإبراهيمي من خلال أعماله وأيامه ومن خلال ما كُتب عنه وعن سيرته -وما كتبه هو أيضا عن نفسه-⁹ تجلّه محلّ هذه الثّقة العمياء بلا منازع، فمن خلال مواقفه في حياته، ومن خلال آثاره نجد العديد من الميزات والصفات الذّافعة والمؤثّرة حتّى في العدوّ فما بالك بأبناء أمّته ووطنه، وفي هذا الخطاب المائل أمامنا نستطيع أن نستشفّ ولو ضمّنيا بعض الصفات والميزات التي لها وزن وقيمة تأثيرية كبيرة نذكر منها:

1-1-1- صورة الإنسان الأخ المتواضع:

تجلّى هذه الحجّة في لغة الإمام الإبراهيمي الذي استخدمها في خطابه هذا، متمثلة في بعض المصطلحات والكلمات الدالّة على الصلّة القوية والرّابط الوثيق بينه وبين المُخاطب أو المتلقّي، فمن بداية خطابه إلى نهايته استخدم الشيخ كلمة "أخ" أو أحد مُشتقّاتها في مواضع فاقت العشرين 20 مرة، حتّى أنها في أغلب المواضع كانت تأتي في مقدّمة كل فكرة أو فقرة، ومنها ما استهلّ به خطابه فقال: "...حضرات الإخوان: هذه ليلة ارتفعت فيها الكُلف... فاسمحو لي... أن أخاطبكم بما جاء به الإسلام... وهو وصف الأخوة"¹⁰: ، ثمّ يضيف: "فأنا حين أخاطب إخواني الكرام الذين أتاح لي الحظّ السعيد أن أقف أمامهم في هذه اللحظة، لا يحلو لي إلا أن أخاطبهم

بهذا الوصف الجليل، وهو وصف الأخوة الذي منذ فقدناه لم نجد أنفسنا، وكأننا حبات انقطع سلكها فانتثرت فأصبحت كل حبة منها في كف لاقط، فمعدرة إلى إخواني الذين اعتزّ بأخوتهم إن خرجت عن النمط المألوف في رسم الخطاب، وخاطبتهم بيا أيها الإخوان¹¹، كما نجد كلاما عن الأخوة غاية في العمق والبلاغة، حتى وكأنّ موضوع الأخوة هو محور خطابه في هذا المقام فنجده يقول: "هذه الجزائر التي أحييكم باسمها، والتي ترون أبناءها أمامكم بين شيخة وشباب، يلتقيان في غاية واحدة، وإن نزع بينهما الشيطان، فكما ينزع بين الأخوين، ولكنهما في النهاية إلى التّجمّع والاتّحاد، وهؤلاء أبناء الجزائر الذين أحييكم باسمهم يا إخواننا، وأستحي أن أقول: يا ضيوفنا، فإننا جميعا في دار غربة، وكم وددنا لو اجتمعت هذه الوفود في دارنا (الجزائر) فترون ما يشرح صدوركم، ويبهج خواطركم من ارتباط الجزائر بالشرق والعروبة والإسلام"¹²، إلى أن يقول: "...لا يحلو لي إلا أن أخاطبهم بهذا الوصف الجليل، وهو وصف الأخوة الذي منذ فقدناه لم نجد أنفسنا، وكأننا حبات انقطع سلكها فانتثرت فأصبحت كل حبة منها في كف لاقط، ...أيها الإخوان المتلاقون على هوى واحد هو هوى الوطن الجامع، المتعبدون بعقيدة واحدة هي عقيدة تحرير هذا الوطن الجامع..."¹³، فحال العرب المتفرقين دولا وشيعا كحال العقد المنفرط الذي تناثرت حباته في كل اتجاه حيث لا تظهر قيمة تلك القطع ولا يكون لها أي تأثير إلا في اجتماعها واتساقها وانسجامها، كذلك العرب لم ولن يكون لهم أي قيمة ولن يكون لهم أي تأثير فيما يحدث حولهم من أحداث وحوادث إلا بالوحدة ولمّ الصف والكلمة الواحدة، فواجب هذه النخبة الممثلة لأممها في ديار الغربة أن تعمل على إظهار الوحدة في العمل وخاصةً التآخي فيما بينها حتى تكون لها حجة على أعدائها، فصفة الأخوة التي تميّز بها فكر الإمام إبراهيمي هي أصل

من الأصول التي قامت لأجله الحركة الإصلاحية عموماً وجمعية العلماء المسلمين هي جزء لا يتجزأ من هذه الحركة، وبالتالي باستخدامه لها بهذا الكمّ ليس اعتباطياً بل يقصد التأثير وجعل المتلقين يذعنون ويستأنسون لكلامه ويرتاحون لأفكاره وحتماً سيكون لها تأثير بليغ في تغيير سلوكهم.

1-1-2- صورة الثبات والصمود:

إذا تصفّحنا هذا الخطاب عموماً فإننا نجد يتحدث عما أصاب الأمة العربية الإسلامية من ويلات وخراب ودمار جراء هذا المستدمر كما يسميه الإمام الإبراهيمي، لكن إذا عرفنا أنّ هذا الخطاب مع كلّ ما يحتويه من وصف للاستعمار وفضح له كان مقامه العاصمة الفرنسية باريس، فإنه أمر يثير الدهشة والاستغراب ولا يدلّ فيما يدلّ إلا على فكرة أو صورة واحدة، هي صورة الثبات والصمود التي ميّزت فكر وخطاب الإمام الإبراهيمي طيلة حياته المهنية الإصلاحية وطيلة حياته الجهادية ضدّ كلّ ماله صلة بهذا الاستعمار وهذا الوباء، ومن صور هذا الثبات التي نجدها في خطابه هذا أمام الوفود العربية والإسلامية في منظمة الأمم المتحدة في باريس نجد قوله: "أحقّ أنّ باريس -وهي منبع شقائنا، وهي الصّفحة العابسة في وجوهنا- تنزل لحظة عن عاداتها فتتيح لنا أن نجتمع بين حناياها هذا الاجتماع الرائع؟ فلولا حقوق لأوطان في أعناقنا، ولولا عهود يجب أن نرعاها لديارنا، لكننا غفرنا لباريس جميع ما جرّته علينا من جرائم، ونمحو لها بهذه السنة جميع السيئات، ولكن تأبى علينا دماء في تونس تسيل، وشعب في المغرب الثلاثة يعذب، وشباب تُفتح له السجون والمعتقلات، وتغلق في وجهه المدارس والمعابد، ودين في الجزائر ممتهن الكرامة، فهيهات أن نصفح عن باريس أو نصافحها بعد أن جنينا المرّ من ثمراتها،

وهيئات أن يسميها دار العلم، من لم ير منها إلا الظلم، وهيئات أن يدعوها عاصمة النور من لم تغشه منها إلا الظلمات، وهيئات أن يلقبها دار المساواة من لم تعامله إلا بالإجحاف¹⁴، وفي موضع نجد الإمام يتعدى نقد فرنسا الإستدمارية إلى قذح وهجاء منظمة الأمم المتحدة وهو يخطب في مقرها في العاصمة الفرنسية حيث يقول: "رمى الشرق باريس بهذه الأفلاذ، فخطبوا الأمم وخطبوا في منظمة الأمم، هذه المنظمة التي سميت بغير اسمها، وحليت بغير صفتها، وما هي إلا مجمع يقود أقوىؤه ضعفاءه، ويسوق أغنيائه فقراءه، وما هي إلا سوق فيه الأصوات بأعلى مما كانت تشتري به أصوات الغريص ومعبد، غير أن الأصوات القديمة كانت فناً يمتزج بالنفوس وموسيقى تتسرب إلى الخواطر، أما هذه الأصوات فإنها تنصر الظلم وتؤيد الاستعلاء والطغيان، وشتان ما بين الصوتين، وتباع فيه الذمم والهمم بيع البضائع في السوق السوداء، وما هي إلا مجلس نصبوه للشورى فكان للشور وعقدوه للعدل والتناصف، فكان فيه كل شيء إلا العدل والتناصف¹⁵، يبدو أنّ هذا الكلام عن فرنسا الإستدمارية -كما يحلو للإمام وصفها- في عقر دارها، إضافة إلى كلامه عن هيئة الأمم المتحدة وفي مقرها، لا يدلّ فيما يدلّ إلا على الثبات في العقيدة أولاً لأن في مثل هذه المواقف يصبح الرجاء والأمل والوجل أو الخوف إلا من الله وحده والتوكّل عليه من دون الخلائق، وهذا يحيلنا إلى صدق النية والإخلاص في العمل ويجعل من الإمام العلامة محمد البشير إبراهيمي موضع الثقة العمياء كما يجعل من بقية صفاته حجة دون نقاش أو جدل، كما تحيلنا هذه الأفكار إلى أن كلام الإمام هو كلام خبير عالم بما حدث في الماضي وما يحدث الآن ويستشرف ويتنبأ بما سيحدث مستقبلاً، وكأنه يقول لا تنتظروا شيء من

هؤلاء ولا تتوقعوا خيرا منهم، بل الخير كل الخير يأتي من الله الواحد الأحد، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

1-1-3 - صورة الشمول والوحدة ونبذ الفرقة:

وقد تجلّت هذه الصورة في كلام الإمام الإبراهيمي في كلّ مرة وفي كلّ موقف عمّا يهّم الشعب الجزائري وشعوب الأمة العربية الإسلامية في ظلّ هذا الاستدمار العاشم، وممارساته وأفعاله الشيطانية وبالأخصّ ما تعلقّ منها بمحاولة طمس الدين الإسلامي وضرب الهوية الوطنية العربية، فنجدّه يستخدم كلمات وعبارات ذات بعد جامع شامل جاعلا من الشعوب العربية والإسلامية لُحمة واحدة بكلّ أطيافها واختلاف وتنوع تراثها، كما يجعل كل جزء منها قطعة لا يمكن الاستغناء عنها أو سلخها عن جسد الأمة العربية الإسلامية، ومن الأمثلة الدالة على عمق هذه الفكرة وخطورتها في آن واحد نذكر قوله: "...فأنا بصفتي رجلا مسلما دينيا أمثل الإسلام في بساطته وسماحته واعتباراته الروحية، يحلو لي أن أخاطبكم بما جاء به الإسلام في آدابه الراقية، ومثله العليا وهو وصف الأخوة"¹⁶، فنفهم من كلام الإمام أن الأخوة هي الوصف الوحيد الدال على عمق العلاقة بين الإنسانية عموما، فما بالك بالعلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان الذي يشترك معه في الدين واللغة والتاريخ والحاضر والمستقبل، لذلك فإنّ مسؤولية العلماء والدعاة كبيرة وخطيرة جدًا إذا لم يأخذوا على عاتقهم مسؤولية رعايتها وإظهار أهميتها وقيمتها لإعادة كرامة هذه الأمة وعزّتها ومكانتها بين الأمم، هذه الكرامة والعزّة لن تتأتّى إلا بشيء واحد هو جمع الشمل والوحدة التي أساسها الأخوة، وهذا بالضبط ما قامت جمعية العلماء المسلمين من أجله ليس فقط في حدود الدّولة الجزائرية بل تجاوزت حدود كل الدول العربية لنشر هذه

الفكرة بين شعوبها، ولننظر إلى ما يقوله أيضا العلامة الإبراهيمي في موضع آخر عن هذه الفكرة: "...أيها الإخوان المتلاقون على هوى واحد هو هوى الوطن الجامع، المتعبدون بعقيدة واحدة هي عقيدة تحرير هذا الوطن الجامع، الطالعون كالكواكب من أفق واحد هو هذا الشرق الذي اطلعت سماؤه الشمس والقمر، وأطلعت أرضه الأنبياء والحكماء"¹⁷، وقوله أيضا: "...وأحييكم باسم الجزائر العربية المسلمة المجاهدة الصابرة، التي هي غصن فينان من دوحة الإسلام، وفرع ريان من شجرة العروبة، وزهرة فواحة من رياض الشرق، تغربت هذه الزهرة كما تغربت قبلها نخلة عبد الرحمان الداخل، فلم تشنها غربة، وما زالت متصلة بالشرق العربي، تستمد منه القوة والفتوة، وما زالت متصلة بالشرق الإسلامي، تستصبح بأنواره... وهي على صلة بالشرق متينة، كانت ومازالت متمسكة بحبله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..."¹⁸، مهما طال الزمان ومهما بعدت المسافة بين الأقطار العربية فإن الجامع بينها والمشارك بينها أكبر بكثير مما يفرق إن لم يوجد أصلا (فهو من صنع أعداء هذه الأمة)، فالأشياء الجامعة منها التاريخ الواحد والدين واللغة والمصير المشترك تسهل علينا كثيرا من الصعوبات المعترضة في طريق الوحدة، ولجوء الإمام إلى العزف على وتر هذه القضايا التي هي عماد كل وحدة أو اتحاد لا لسبب إلا ليجرد الطرف الآخر من أي حجة لديه تتنافى وما هو مأمول أو منوط به من مسؤولية، لذلك نجده يقول في موقع آخر: "...وإن هذا الشمال الأفريقي كل لا يتجزأ تربط بين أجزائه دماء الأجداد ولسان العرب ودين الإسلام وسواحل البحر في الشمال وحبال الرمال في الصحارى... وإنها لخصائص تجمع الأوطان المتباينة، فكيف لا تجمع الوطن الواحد؟... وإنني متفائل... لعهد جديد واتحاد عتيد ونور من الرحمة والإخاء ينتظم المغارب في سلك... فتكون

هذه أول خيط في نسيج الوحدة الأفريقية... وأن البشير بتحقيق هذا الأمل هو امتزاجنا بإخواننا الشرقيين حول هذه الموائد ومن بركاتهم أن تجتمع حركاتنا كلها في صعيد واحد، وكلها لسان يعبر وقلب يفكر، وآذان تسمع...¹⁹، ثم يضيف: "...إنّ القوم استضعفونا ففرّقونا فأكلونا لقمة لقمة، فأوجدوا هذا الشعب الموحدّ تحيوا وتحياوا العالم به... إن العالم اليوم مريض، وإنه يتلمّس الشفاء، فأروه أن في الإسلام شفاءه، وأنه في خصام منهك، وأنه يلتمس الحكم، فأحيوا الإسلام الصحيح يكن حكما في مشكلة هذا العصر... مشكلة الغنى والفقير..."²⁰، فلا مفر للعرب والمسلمين إذا أرادوا الحياة الكريمة والعزة إلا بالإتحاد وهذا الإتحاد لن تكون له قيمة ولا أثر إلا بالإسلام...

1-2- الباتوس (انفعالات المُخاطب):

المُخاطب أو مُتلقّي الخطاب في هذا المقام هي "الوفود العربية والإسلامية في منظمة الأمم المتّحدة في مقرّها الفرعي في باريس" لذلك عمد الإمام الإبراهيمي إلى مخاطبتهم بما يليق بمقاماتهم ومستواهم الفكري والثقافي دون إغفال ما يستوجبه كلّ هذا من مسؤولية تاريخية وحضارية تجاه شعوبهم وأمتهم العربية الإسلامية التي تعاني وتتنّ تحت وطأة المستدمر، لذلك فإنّ قراءة متأنّية لهذا الخطاب ستجلي جملة الانفعالات التي رام الإمام الإبراهيمي إثارتها في نفوس المتلقين جاعلا منها رافدا من روافد الحجاج وبؤرة من بؤر الإقناع، لاستمالتهم ودفعهم للأخذ برأيه أو فكرته أو نصيحته، ومن هذه الانفعالات نجد التّغرب، ومرارة الواقع وحقيقته المؤلمة... دون فقد الأمل في الغد الأفضل...

1-2-1 - التَّغْرَبُ عَنِ الْوَطَانِ:

لقد حاول الإمام الإبراهيمي منذ بداية خطابه أن يمارس نوعا من الضَّغَط على هذه الوفود فبدأ بإظهار غربتهم وتفرقتهم في كلِّ أصقاع الدُّنيا لا لغاية إلا خدمة لأوطانهم التي هي أيضا ليست بأحسن حالا منهم، فقال: "أحقيقة ما ترى عيناى أم خيال؟ إخوة طوَّحت بهم الأقدار، وفرقتهم صروف الدهر في الأقطار، حتَّى ما يلتقي رائح منهم بمبتكر، ثم يجتمعون في هذه الليلة وفي هذه البلدة على غرة وعلى غير ميعاد... أحق أن باريس... تنزل لحظة عن عاداتها فتتيح لنا أن نجتمع بين حناياها هذا الاجتماع الرائع..."²¹، فهذه الغربة وهذا الانقطاع عن الأهل والأوطان يجعل من المسؤولية مضاعفة والحمل ثقيل، فلا مجال للتَّهاون أو اللُّهو ونسيان أوطانهم وأهلهم وإخوانهم وأبناء جلدتهم وبالأخص أنهم واقعون تحت الاستعمار وما يكابدونه من ويلات، لذلك لا بدَّ لهم من الدِّفاع عن قضيتهم العادلة بكلِّ الوسائل المتاحة، وكلِّ حسب استطاعته ومكانته أو مكانه في هذه الغربة، لذلك نجده يشدّد على أن أبناء الشرق (المشرق العربي) ما تغربوا هباء وإنما كان همّهم إيصال أصوات شعوبهم المستعمرة المستعبدة للعالم، فيقول: "هاهو الشرق رمى باريس بأفلاذ كبده، يدافعون عن حماه بالحق، ويجادلون عن حقّه بالمنطق، وما منهم إلا السيف مضاء، والسييل اندفاعا، وإن وراءهم لشبابا سينطق يوم يسكتون، وسيتكلم بما سيخرس الاستعمار ويسوءه... رمى الشرق باريس بهذه الأفلاذ، فخطبوا الأمم وخطبوا في منظمّة الأمم هذه المنظمّة التي سمّيت بغير اسمها..."²²، ثم يضيف كلاما آخر يصور فيه أبناء المغرب العربي الذين عزّ عليهم تغرّب أبناء الشرق لوحدهم، فتغربوا هم أيضا خدمة لشعوبهم أسوة بإخوانهم وتجرّعوا معهم نفس الكأس ليتحمّلوا نفس الوزر ونفس المسؤولية حيث يقول: "رمى الشرق باريس بأفلاذ من

كبده فعزّ على المغرب العربي أن يبقى بعيدا مع قرب الدار، فرمى باريس بأفلاذ من كبده ليلقى الأخ أخاه فيتناجيان بالبر والتقوى، ويتطرحان الألم والشكوى، ويهشّ وجه لوجه، ويخفق قلب قلب وتصافح يد يداً، وترد تحية عن تحية، ثم يقوى ساعد بساعد ويشتدّ عضد بعضد، ويمتزج ضعف بضعف فينبثقان عن قوّة، وضعيفان يغلبان قويا²³.

1-2-2- مرارة الواقع:

سعى الإمام الإبراهيمي منذ البداية إلى تصوير واقع الحال لهذه الوفود العربية الإسلامية كما هو دون زيادة أو نقصان، فكان حديثه بلا مدهانة ولا مجاملات وبالأخص ما تعلق بحال الأمة العربية الإسلامية التي تسير إلى المجهول بسبب الحالة المعاشة ومواقف أبنائها المتقفين والمتعلّمين، وأصحاب المناصب من أبناء الأمة العربية والإسلامية، فصورَ أسباب الدّل والهوان التي تعاني منها الأمم العربية الإسلامية من انقسام وتشردم مما جعلها لقمة سائغة للاستعمار الغربي الصليبي فيقول: "أيها الإخوان يقول المستعمرون عنا: إننا خياليون وإننا -حين نعتزّ بأسلافنا- نعيش في الخيال، ونعتمد على الماضي ونتكلّ على الموتى، يقولون هذا عنا في معرض الاستهزاء بنا، أو في معرض النصح لنا، وأنا لا أدري متى كان إبليس مذكرا، ما يرمون إليه، أنهم يريدون أن ننسى ماضينا فنعيش بلا ماض... فاندمجنا في حاضرهم وهو كل ما يرمون إليه، وسلوهم... هل نسوا ماضيهم... إن القوم يحتقرون حاضرنا الذي أوصلونا إليه، ويعتقدون أننا صبيان، فيتذكرون ماضيهم ليبنوا عليه حاضرهم ومستقبلهم، وينكرون علينا ذلك... ألا إنهم يذكرون أبناءهم بماضيهم ويلقّونهم سيرَ أجدادهم وأعمالهم، وإنهم يذكرون أبناءنا المتأثرين بعلومهم وصناعاتهم بذلك،

ويأتونهم بما يملأ عقولهم ونفوسهم حتى لا يبقى فيها متسع لذكريات ماضينا وأسلافنا...²⁴، إنها حقيقة مرّة وواقع محزن نراه رأي العين، ولعلّ حجّية هذا الكلام هي محاولة العثور لدى هؤلاء القوم المتغربون ردة فعل أو صدّى يجعل منهم منارة لتجنّب ومحاربة مثل هذه الأعمال الخبيثة التي يمارسها الغرب الصليبي على أبناء الأمة العربية الإسلامية، ثمّ يردف قائلا: "أيّها الإخوان إنّ القوم درسونا وفهمونا، وتيقّنوا أنّنا لن نضيع ولن نفنى ما دمنا متمسكين بالعرى القوية من الإسلام والعربية والشرق، فرمونا بالوهن في مقوماتنا حتى تضععت وبدأوا بالدين... وشجّعوا البدع... ثمّ عمدوا إلى الكبراء فأغووهم بالأموال والألقاب والترتب... فما استفاقوا واستفقنا إلا وأوطاننا مقسمة، وقسمتنا هي القليلة... ثم عمدوا إلى الشباب فرموه بهذه التهاويل من الحضارة الغربية وبهذه التعاليم التي تأتي بنيانه الفكري والعقلي من القواعد، وتحرفّ المسلم عن قبلته...²⁵، وكأنّ كلام الإمام منذ عدّة عقود خلت، يحدث الآن حاضرا أمام أعيننا فالأمة العربية المسلمة لا تعاني مما تعانيه الآن إلا ما زرعه فينا هذا المستدمر من موبقات وما رمانا به من تهاويل، ولم يتمكن من ذلك إلا بضعف ووهن منا وقبولنا بل واستسلامنا للواقع المر، بل ويردّه الإمام إبراهيمي إلى الانقياد والطاعة التي وجدها هذا الغرب الصليبي فينا، مما سهّل عليه الأمر لإتمام مهمته القدرة في تدميرنا واستعبادنا فيقول: "أيّها الإخوان إنّ النقطة التي ابتدأ منها بلاؤنا وشقاؤنا هي أنهم أرادونا على الانقسام، وزيّوه لنا كما يزين الشيطان للإنسان سوء عمله، فاطعنهم وانقسمنا، فوسّعوا شقّة الانقسام بيننا بأموالهم وأعمالهم وعلومهم... ولو أننا تعاسرنا عليهم من أول يوم في تقسيمنا، ولذنا بكعبة الوحدة نطوف بها ونلتزم أركانها، لما نالوا منا نيلا، ولما وصلنا إلى هذه الحالة...²⁶."

2- الحجج الكامنة في القول (اللوغوس):

الحجاج باللغة أو ما يسمّى اللوغوس هو الأغلب الأعمّ على حدّ قول حمادي صمود، والمقصود هنا هو حجاجية اللغة ذاتها الموظّفة في الخطاب، وهي كل ما يظهر من خلاله (الخطاب) من وجوه الاستدلال والاستقراء وما يتضمّنه من التّصديقات²⁷، ويتميّز هذا النوع من الحجج بأنه خاضع تماما للمتكلم وإرادته.

2-1- أشكال الاستدلال الطّبيعيّ:

2-1-1- القياس المضمّر:

يندرج القياس المضمّر ضمن البراهين الصناعية المنطقية، وهو عند أرسطو العمود الفقري للبرهان والحجاج²⁸ لأن هذا الأخير أي الحجاج في أبسط صورته ما هو إلا ترتيبا عقليا للعناصر اللغوية ترتيبا يستجيب لنية الإقناع...²⁹، ويقوم على مقدّمة كبرى تليها مقدّمة صغرى، ثم النتيجة أو الاستنتاج، والأصل في القياس التّصريح بجميع الأجزاء: المقدّمات والنتائج، لكنّ في اللغة الطبيعية يتعرّض للإضمار، هذا المصطلح يعبر عن معنى عدم التّصريح المتعلّق بالدليل فقيل معنى مضمّر وقضية مضمّرة، وقد جرت العادة باستخدام ألفاظ أخرى للدّلالة على نفس الغرض ومنها الحذف في مقابل التّقدير، والتّرك في مقابل الذّكر، والاستتار في مقابل الظّهور...³⁰، ومهما كانت الصّيغة التّعبيرية التي يراد بها القياس فإنّها تربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما، فالقياس هو فعالية استدلالية خطابية تبنى على مسلمات أربع وعلى عمليات ثلاث، فالمسلمات هي: التّباس الخطاب الطّبيعي، والحوارية، وحملية الخطاب، وأخيرا مسلّمة ترتيبية الصّفات، أمّا العمليات فهي: التّفريق، والإثبات، وعملية

الإلحاق...³¹ وقد أدى ارتباط القياس المضمّر أو الضمير باللغة الطّبيعية وبالخطابة -كما أشرنا آنفاً- إلى انتشاره بصورة ملفّقة في التّواصل الإنساني الشفوي والمكتوب، ويزداد توظيفه وترتفع قيمته كلّما كان الخطاب إقناعياً مبنياً على المحاجة، وإذا أتينا إلى خطاب الإمام إبراهيمي في هذا المقام أو في مقامه الإصلاحية عموماً، فإننا نجد في موقع المحاجج المصلح الذي يتعامل مع الوقائع والأحداث بعد وقوعها والنظر فيها، فيكتب عنها إمّا توجيهاً أو تقويماً أو نفيّاً وتفنيداً وغير ذلك مع الأدلة المناسبة لكلّ موقف منها، فكانت خطبه عموماً أو خطابه هذا أمام الوفود العربية غنية بالمضمّرات التي برع في إنتاجها وتوزيعها فتارة يضمّر النتيجة وتارة يضمّر المقدّمة الكبرى أو الصّغرى منها.

فمن أمثلة حذف النتيجة نذكر حديثه عن هيئة الأمم المتحدة فيقول: "...هذه المنظّمة التي سميت بغير اسمها، وحلت بغير صفتها، وما هي إلا مجمع يقود أقويأوه ضعفاءه، ويسوق أغنيأوه فقراءه، وما هي إلا سوق فيه الأصوات بأعلى مما كانت تشتري به أصوات الغريص ومعبد، غير أن الأصوات القديمة كانت فناً يمتزج بالنّفوس وموسيقى تتسرب إلى الخواطر، أما هذه الأصوات فإنها تنصر الظلم وتؤيد الاستعلاء والطّغيان، وشتان ما بين الصّوتين، وتباع فيه الدّم والههم بيع البضائع في السّوق السّوداء، وما هي إلا مجلس نصبوه للشورى فكان للشرّ وعقدوه للعدل والتّناصف، فكان فيه كلّ شيء إلا العدل والتّناصف"³²، وتفصيله كالآتي:

المقدّمة الكبرى: هذه ليست مقوّمات هيئة الأمم المعولّ عليها لإحقاق الحقوق وتطبيق أحكام العدالة بين الأمم.

المقدمة الصغرى: إنها لا تمتلك أية صفة من صفات العدالة أو العدل، إنها مجمع للأقوياء والأغنياء لقيادة الضعفاء وسوق الفقراء، إنها مرتع لهضم الحقوق ونصرة الظلم.

النتيجة: إنها لا تصلح لأن تكون هيئة نحتكم إليها لبسط العدل والعدالة بين الأمم (وهي مضمرة).

ومن الأمثلة الأخرى عن حذف النتيجة نذكر قول الإمام: "أيها الإخوان يقول المستعمرون عنا: إننا خياليون وإننا -حين نعتزّ بأسلافنا- نعيش في الخيال، ونعتمد على الماضي ونتكلّ على الموتى، يقولون هذا عنا في معرض الاستهزاء بنا، أو في معرض النصح لنا، وأنا لا أدري متى كان إبليس مذكرا..."³³

المقدمة الكبرى: الاستعمار لا يصحّ له أن يقول لنا ابتعدوا عن التاريخ والخيال وعيشوا الحاضر والواقع.

المقدمة الصغرى: الاستعمار لا يمكن أن يحبّ لنا الخير سواء أكان في شكل استهزاء، أم نصحا حقيقيا.

النتيجة: لا يمكن أبدا بأي حال من الأحوال الاستماع لكلام الاستعمار مهما كانت طبيعته، لأنه لا يؤتمن كالشيطان (وهي مضمرة).

المثل أو التمثيل:

يختلف المثل أو التمثيل الخطابي عن القياس المضمر بأنه لا ينطلق من فكرة أو قضية عامّة، وإنما ينطلق من فكرة خاصّة لتسويغ فكرة خاصّة، فالمضمر في الخطابة يقوم مقام الاستنباط في المنطق بينما يقوم المثل الخطابي مقام الاستقراء، فهو "استقراء بلاغي وحجّة تقوم على المشابهة

بين حالتين في مقدماتها ويراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها"³⁴، ويقوم التمثيل الخطابي "على رصد علاقات المماثلة بين الوقائع المتناظرة لغايات إقناعية، وهو ما يجعل منه مقومًا حجاجيًا بالنظر إلى المتعة التي يثيرها، والتي لا يمكن أن تكون موضع طعن"³⁵، وفي هذه القضية لا يمكن لأحد -إلا جاحدا- أن ينكر مدى قدرة الإمام الإبراهيمي على التمثيل الخلاب الذي يصور الأفكار تصويرا يزرع الريبة والشك يجعل الصورة اللغوية وكأنها صورة ماثلة حسيّة أمانا، ومنها نذكر قوله: " لا يحلو لي إلا أن أخاطبهم بهذا الوصف الجليل، وهو وصف الأخوة الذي منذ فقدناه لم نجد أنفسنا، وكأننا حبات انقطع سلكها فانتشرت فأصبحت كل حبة منها في كف لاقط، فمعدرة إلى إخواني الذين اعتزّ بأخوتهم إن خرجت عن النمط المألوف في رسم الخطاب، وخاطبتهم بيا أيها الإخوان"³⁶، إنه تمثيل يشد العقل والقلب معا ويلفت الانتباه والنظر فالإمام هنا يجعل الفارق بين الفرقة والإتحاد كالفارق بين حبات العقد الذي ينقطع سلكها فتنتثر فيستحيل جمعها ولمّا إلا بعدد كبير من الناس فتصبح كل حبة من هذا العقد في يد لاقطها وهنا كناية عن الاستعمار والعقد المنقطع هو صلة الأخوة المفقودة والحبات المتناثرة هنا هي الدول العربية المتفرقة، وكذلك نجد التمثيل في قوله: "أحقيقة ما ترى عيناى أم خيال؟ إخوة طوّحت بهم الأقدار، وفرقتهم صروف الدهر في الأقطار، حتى ما يلتقي رائح منهم بمبتكر، ثم يجتمعون في هذه الليلة وفي هذه البلدة على غرّة وعلى غير ميعاد، كما تجتمع أشتات الزهر في أبانها وفي مكانها، تختلف منها الألوان والأشكال، وجمعها الشذى والطيب والجمال"³⁷، إنّها بحق بصورة طريفة ممتعة تشدّ الأذهان إلى صورة حسيّة ملموسة تجمع في تفاصيلها أنواع متعدّدة من الأزهار في مكان واحد مهما اختلفت هذه الأشكال فإنّ هناك قاسم واحد

يجمعها هو عطرها وجمالها في إشارة إلى اجتماع الوفود العربية في هذا المكان مع اختلافها إلا أن المطلوب منها هو تلافي هذا الاختلاف لتقديم الأفضل والأهم لأهمهم...، وهناك تمثيل آخر يبين فيه الإمام حالة حياة الأمم المتّحدة وما آلت إليه من انحراف في أهدافها ومبادئها إذ يقول: "...وما هي إلا سوق تشتري فيه الأصوات بأعلى مما كانت تشتري به أصوات الغريز ومعبد، غير أن الأصوات القديمة كانت فناً يمتزج بالنفوس وموسيقى تتسرب إلى الخواطر، أما هذه الأصوات فإنها تنصر الظلم وتؤيد الاستعلاء والطغيان، وشتان ما بين الصّوتين، وتباع فيه الذّم والهمم بيع البضائع في السوق السوداء، وما هي إلا مجلس نصبوه للشورى فكان للشّر وعقدوه للعدل والتّناصف، فكان فيه كلّ شيء إلا العدل والتّناصف"³⁸، وقوله أيضاً: "أيها الإخوان إنّ النقطة التي ابتدأ منها بلاؤنا وشقاؤنا هي أنّهم أرادونا على الانقسام، وزينوه لنا كما يزين الشيطان للإنسان سوء عمله، فأطعناهم وانقسمنا فوسّعوا شقّة الانقسام بيننا بأموالهم وأعمالهم وآرائهم وعلومهم، ولم يتركوا أداة من أدوات التقسيم إلا حشدوها في هذا السبيل، ولم يغفلوا الأستاذ والكتّاب والراهب والمرأة والتاجر والسّمسار حتّى بلغوا الغاية في تقسيمنا شيعا ودولا وممالك، كما توزّع قطعة الأرض الكبيرة الصّالحة إلى قطع صغيرة لا تصلح واحدة منها ولا تكفي..."³⁹، من القراءة الأولى تتجلى صورة حسية أماننا هي صورة قطعة الأرض الكبيرة التي تمّ تقسيمها عمدا إلى قطع صغيرة لا تصلح الواحدة منها لأيّ عمل ولا تسمن ولا تغن من جوع، هذه هي حال العرب بعدما قسمهم الغرب الذي كان يحتلّ ويغتصب أرضهم ولم يترك ولا أداة أو وسيلة إلّا وسخرها لهذا العمل الدنيء، وكان القصد هو أن تبق هذه الشعوب مقسّمة تئنّ تحت سلطته وجبروته، وتبق خاضعة له، هكذا إذن نجد أن الإمام الإبراهيمي لا يستخدم

التمثيل إلا ليسلب عقول السامعين أو القراء ويدخلهم في عالم من الخيال والتفكير وتحليل المماثلة وفكّ طلاسمها مع ذهول في قدرته على حبكها بهذه الطريقة التي لا تترك مجالاً للإفلات منها وإخفاء تأثيرها في النفس.

خاتمة:

إذن يبدو من خلال ما سبق أنّ الحجاج الضمني بفروعه الثلاث؛ أخلاق الخطيب، ومعرفة أحوال المُخاطب، مع الاستخدام الأمثل للأساليب اللغوية... يمكن الاعتماد والتعويل عليه كأساس من أسس الفعل الحجاجي نظراً لنجاعته ومدى قدرته على التأثير في المتلقي أو المتلقين وجعلهم يذعنون لما يريده المخاطب، فالإمام بأخلاقه وصفاته ومكانته بين الدعاة والمصلحين في ذلك الوقت غني عن كلّ تعريف، وهو من دون كلام أو تصريح إنسان مؤتمن وموضع ثقة فما بالك بوضوح رؤيته وتطابق ما بداخله وما عرف عنه بما يقوله من تواضع وثبات وصمود ممزوجة بأفكار الوحدة والشمول، دون إغفال معرفته بأحوال المتلقين ومحاورتهم من خلال حالاتهم النفسية والشعورية خاصة حالة التّغرب مع مرارة الواقع الذي تعيشه هذه الوفود المتّقفة في الخارج بعيدة عن أوطانها وأهلها، كلها من مواطن الضّعف التي تفتنّ لها الإمام وعزف على وترها وعرف بأنه سيكون لها الأثر البالغ في التوجيه والتأثير مع لغته الفريدة وأسلوبه المتميّز وطريقة عرضه للأفكار والقضايا من خلال عمليتيّ القياس والتّمثيل.

-الهوامش:-

¹ - لقد تعدّدت الترجمات لكتاب أرسطو وتنوعت منذ عقود طويلة خلت واستمرت إلى العصر الحالي، لذلك كان لا بدّ من تعيين المصدر والترجمة المعتمدة بدقة في هذه

- الدراسة وهو الآتي: **أرسطو طاليس: الخطابة**، التّرجمة العربية القديمة، حقّقه وعلّق عليه عبد الرّحمان بدوي، وكالة المطبوعات الكويت ودار القلم بيروت، 1979.
- ² ينظر: المصدر الأصلي السابق، أو ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشّرق المغرب، 1999، دط، ص 271.
- ³ أرسطو طاليس، السابق، ص 09.
- ⁴ رولان بارت، البلاغة القديمة، ترجمة وتقديم عبد الكبير الشّرقاوي، دار الفنك للغة العربية جمهورية مصر العربية القاهرة، 1984، ص 47.
- ⁵ أرسطو طاليس، السابق، ص 09.
- ⁶ نفسه، ص 10.
- ⁷ ينظر: بيرلمان وتيتيكا، مقدّمة كتاب مصنف في الحجاج، ترجمة: رشيد الراضي: ضمن "الحجاج مفهومه ومجالاته"، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، "ج 05 نصوص مترجمة"، عالم الكتب الحديث الأردن إربد، ط 01، 2010، ص 65.
- ⁸ ينظر: محمد الوالي، السبيل إلى البلاغة الباتوسية، ضمن كتاب: الحجاج: مفهومه ومجالاته ج 02، مرجع سابق، ص 60.
- ⁹ ينظر: آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي ج 5، دار الغرب الإسلامي بيروت، (ط 01) 1997، ص 163 إلى 170، كذلك نجد كلاما للشيخ الإبراهيمي نفسه عن حياته في نفس هذا الجزء من آثاره من ص 272 إلى ص 291، وللاستزادة ينظر: أعمال: الملتقى الدّولي للإمام محمّد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، دار الغرب الإسلامي بيروت، (ط 01) 2006. وينظر: باعزیز بن عمر، من ذكرياتي عن الإمامين الرّئيسيين عبد الحميد بن باديس ومحمّد البشير الإبراهيمي، منشورات الحبر الجزائر، (ط 02) 2007، وينظر كذلك: أحمد ظريف، من معارك الحقّ ضدّ الباطل في جهاد الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، دار المجدّد للنشر والتوزيع الجزائر (سطيف)، (دط) 2015، وكذلك ينظر: إبراهيم بن عمر السّكران، الماجرّيات، دار الحضارة للنشر والتّوزيع الرياض، (ط 02) 2015، ص 79 وما بعدها.

- 10- آثار الإمام إبراهيمي، ج 02 السابق، ص 464.
- 11- نفسه، ص 465.
- 12- نفسه، والصفحة.
- 13- نفسه، والصفحة.
- 14- نفسه، ص 466.
- 15- نفسه، والصفحة.
- 16- نفسه، ص 464.
- 17- نفسه، ص 465.
- 18- نفسه، والصفحة.
- 19- نفسه، ص 467.
- 20- نفسه، ص 471.
- 21- نفسه، ص 466.
- 22- نفسه، والصفحة.
- 23- نفسه، ص 467.
- 24- نفسه، ص 468.
- 25- نفسه، ص 470.
- 26- نفسه، والصفحة.
- 27- ينظر: حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن أهم نظريات الحجاج، مرجع سابق، ص 13.
- 28- ينظر محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مرجع سابق، ص 17 و 72.
- 29- ينظر سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنبته وأساليبه، عالم الكتب الحديث الأردن، ط 02، 2011، ص 27.
- 30- ينظر طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط 01، 1998، ص 146.
- 31- ينظر طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط 04، 2010، ص 98 وما بعدها.

- 32- آثار الإبراهيمي السابق، ص466.
- 33- نفسه ص467 و468.
- 34- ينظر محمد العمري، السابق، ص82.
- 35- الغرافي مصطفى، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مجلة عالم الفكر، المجلد40، يوليو- شتبر 2011، ص284.
- 36- آثار الإبراهيمي، السابق، ص465.
- 37- نفسه، ص466.
- 38- نفسه، والصفحة.
- 39- نفسه، ص470.

اليات الاحتفال السجالي في رواية كريماتوريوم هوناتا لأشباح القدس للروائي واهيني الأعرج

سعيد بومعزة
جامعة الجزائر

الملخص:

تمثل رواية كريماتوريوم لواسيني الأعرج أنموذجا خصبا لتمظهرات الخطاب السجالي، الذي يتأسس على مستوى الوعي عند الشخصية الحكائيّة مي الفنانة الفلسطينية التي هجرت من أرضها فلسطين واستقرت في بروكلين. تبدأ مي بإعداد مخطط من أجل إجبار ابنها يوبا على العودة إلى فلسطين، بخاصة بعد إصابتها بمرض السرطان، ولأجل تحقيق القصيدة، تقوم بمجموعة من الإجراءات منها الوصيّة، الكراسية النيلية، الفن...
تعتمد المقاربة التداولية للرواية البحث في الحضور السجالي داخل الخصائص الفنيّة والتداعي التيمي، وطريقة اشتغاله بلاغيا، وقراءة مظاهر الصدام بين القارئ والنص من جهة، والشخص والشمخوص الحكائيّة فما بينها من جهة أخرى.

الكلمات المفاتيح: كريماتوريوم، الخطاب السجالي، مي، يوبا، القصيدة، المقاربة التداولية، الاشتغال البلاغي.

Résumé:

Le roman de **CRÉMATORIUM** du romancier **WASYNI EL AARAJ** représente un model fertile pour les aspects des discours polémiques, sur lequel se fonde sur la base de la conscience du personnage narratif **MY**, l'artiste Palestinienne qui a quitté son pays d'origine la Palestine vers Brookline.

Sur cette base **MY** commence à préparer son plan afin d'obliger son fils **YOBA** pour revenir au pays natal, particulièrement après avoir été touché par un concert. Pour réaliser son intionité, elle envisage plusieurs actions comme le **testament, cahier bleu, l'art ...**

L'**approche pragmatique** de ce roman se base sur la recherche de la **présence polémique** à l'intérieur des caractéristiques artistiques et les conséquences thématique et la méthode de **fonctionnement rhétorique**, et lire la confrontation entre le lecteur et le texte d'une part, et les personnages narratifs entre eux d'autre part.

Mots clés : CRÉMATORIUM, discours polémiques, MY, YOBA , intionité, approche pragmatique , fonctionnement rhétorique .

Abstract:

The crematorium of Wassini Laaredj is a fertile example of the polemic discourse, which is based on the level of awareness of the narrative character of the Palestinian artist Mei who left Palestine and settled in Brooklyn. Mei begins to prepare a plan to force her son Yuba to return to Palestine, especially after suffering from cancer, and in order to achieve this intentionality, she takes a series of actions, including the will, the purple booklet, art ..

The pragmatic approach of the novel of the research depends on the audience's presence within the artistic characteristics and the nature of the deterioration, the way it operates in the rhetoric, and the reading of the clash between the reader and the text, on the one hand, and the characters on the other.

Keywords: The crematorium, polemic discourse, Mei, Yuba, intentionality, The pragmatic approach, the rhetoric.

مدخل:

تتحدّد آليات الاشتغال السجالي داخل النص الإبداعي، عبر قدرته على اختراق حدود الكائن والموجود إلى فضاءات الممكن؛ لأنّ العملية الحجاجية تتعلّق بمجموعة اجتماعية يفترض بها القيام بالفعل السجالي عبر فرد يملك من المؤهلات ما يجعله في طليعة المساجلين، ويضطلع المساجل بضرورة تمرير رسالته وفق ما يقتضيه الفعل السجالي وهذا يتطلّب وجود آليات محددة، ورؤية إيديولوجية، هذه الأخيرة تكون محل وفاق جماعي، هكذا يتحدّد السجال كرؤية ضمن إطار أوسع وهو الخطاب السجالي، فالفعل السجالي وحده لا يكفي لتحقيق الغاية إذا لم يتوفّر فاعل السجال كفعل أولي وإيديولوجية محقّقة لمضامينه، وهنا يكمن الفرق بين السجال والخطاب السجالي، فالسجال هو إجراء أو آلية بلاغية يقصد من ورائها الوصول إلى أهداف وغايات محقّقة، عبر نسق الفعل الكلامي وقوة التلفظ التي تتحدّد في عدد من الإضمارات ... فحضور الإضمار والمحادثات يجب أن يكون قادراً على حل المشكلة¹.

1- المقولات السّجالية من المفترض البلاغي إلى الممكن التيمي:

يأخذنا الحديث عن الخطاب السّجالي، إلى الحديث عن المقولات التي تؤسس لبنية هذا الأخير لتحقيق غاياته واحترازاته، ولأجل ذلك علينا باتباع الخطوات الرامية إلى بناء صورة واضحة وجليّة وليس بالاقتراب منه أو التتويه له، أو حتى تقديم بعض الأفكار الواهية التي تبدو للوهلة الأولى بعيدة عن منطق القبول، فغاية السّجالي تكمن في الظهور على منافسه وتحقيق الغلبة مهما كان نوعها ويتعيّن لذلك "قلب الشفرة وتحويلها إلى شفرة أخرى انطلاقاً من بعض المفترضات التي تحتضن كل المقولات السّجالية"².

يستعين الخطاب السّجالي بمقولة المنطق الحجاجي وتداعياته، ولكن الصيغ التي يتمّ بها تقديم هذه الحجج تختلف من حيث الوسيلة والغاية، فقد تكون موسومة "بمسحة من التعمّد والمغالطة أي تحريف وجهة الحجاج"³؛ وذلك أنّ المساجل شأنه شأن الفرد الذي يتوخّى عملية الإيهام المنطوية تحت فكرة التحريف ويحاول التقرب من الآخرين ليتمّ إيهامهم بما ليس هو موجود، "فهو يسعى إلى استدراجهم للتخلي عن مواقفهم أو تعديلها انتهاء إلى تبني الخطيب".

لا يخلو الخطاب السّجالي من استراتيجيات المعطيات القبلية والبعديّة، فقد تكون تاريخية وثقافية وعقدية، هدفها "بناء صورة بالذات يتوفّر فيها عمل الكفاءة بالشعور لوجوب الفعل والكفاءة المعرفية لتتّبوأ بمقتضى العامل الأول مرتبة فاعل قيمي"⁴ الذي يملك من المؤهلات والمرجعيات السياقية ما يجعله نداءً متمرّساً قادراً على قلب الأوضاع وفق جدلية تجلي وتخفي فعل الكلام التلقّفي.

تتنظم المقولات السّجالية داخل نسق إجرائي معقّد؛ لما تحوزه من خصوصيّة

تداولية ومستويات الخطاب التواصلي اللغوي وغير اللغوي، ولذلك فمن المفترض قراءة الآخر وفق مقتضى الحال، ومعه يجب اعتبار المقولات السجالية المجردة الأساس الأمثل لتحقيق هذه المفترضات.

تنشأ المقولات السجالية من لدن الخطاب السجالي القائم على إجراء محدّد الآليات، إذ يمكن تقسيم المقولات إلى عناصر بحسب طرق ووسائل توزيعها داخل النص الإبداعي ذي المحتوى البلاغي:

1-1- الكفاءة الكلامية (القولية):

تقوم الكفاءة القولية على استحداث طرق ووسائل الكلام أو عملية توزيع الأفعال الكلامية وهي خصيصة ذات قيمة تداولية كبرى؛ لأنّ انتفاءها يؤدي إلى بطلان العملية السجالية بأكملها كون الخطاب السجالي يتأسس داخل " مجموعة ملفوظات أو مواجهات لغوية ذات النمط المتضارب"⁵.

وفق هذا المنظور فإنّ كلّ عملية قولية داخل مناخ خطابي محدّد، يستوجب استحداث آليات ذات كفاءة عالية وتزيد هذه الآليات استيعابا للمضمون السجالي، كلّ ما كان المساجل على قدر كبير من الكفاءة الكلامية وتبرز الكفاءة الكلامية من خلال:

أ- كفاءة التواصل: تتلخّص كفاءة التواصل في مقدرة المساجل على التواصل مع الآخرين فلا تكون اعتباطية أو بشكل تدرجي وإنما تتحرك داخل إطار تفاعلي بين المتخاطبين، بمعنى أن الكفاءة التواصلية تضمن للمساجل الفاعلية والاستمرارية على مدار مدوّنة السجّال، لكون الكفاءة التواصلية قادرة على إبراز القدرات الذهنية والكفاءات السلوكية لدى المساجل عند كل فعل تلفظي "ذلك أن الرغبة في إقناع المتلقين والسعي إلى

استدراجهم لتخلي عن مواقفهم أو تعديلها... يستدعيان بناء صورة مخصوصة للذات"⁶.

ب- كفاءة الإقناع: إن القدرة على التواصل بين المتخاطبين قد لا تكون على درجة كبيرة من الانسجام والاتساق وهذا لكون العملية التواصلية ذات ثغرات دلالية أو معرفية قد يستغلها الآخر من أجل السيطرة أو الرفض والتمرد، وعليه فإن العملية التواصلية لا بد لها من وسائل الإقناع، فهي شرط وإجراء ومقولة من مقولات الكفاءة الكلامية التي تقوم "على تصوير أشكال سياق الكلام التي يساعد في تحديد القضية المعبر عنها بما تعطيه الجملة"⁷.

تستقيم وظيفة الإقناع حسب العلاقة التفاعلية بين المساجل والمدونة السجالية وحسب القدرة على تأثيث هذه المدونة، فعملية الإقناع تستوجب عددا كبيرا من الوسائل البلاغية التي يستند إليها المساجل عند كل عملية، منها التقديم والتأخير والحذف والإضمار... الخ، وهي وسائل بلاغية ومنها أيضاً وسائل التعجب والاستفهام والإنكار... الخ

ج- كفاءة التخلص تعتمد هذه المقولة على مكيفات الانتقال من فعل كلامي إلى فعل كلامي مضاد أو لنقل إن كفاءة التخلص هي بمثابة المخزون الاحتياطي الموجه للاستعمال عند وقوع المساجل في خطر "مما من شأنه سحق العون المستهدف وحرمانه من كل حق في الكلام"⁸؛ لأن آليات التحريك الإجرائي للخطاب السجالي تستوجب مجموعة من المعطيات الأفقية، فللمساجل دائماً خطة بديلة يقوم بتنفيذها في حال فشلت الخطة الأولى، وعليه فكفاءة التخلص قد يكون لها تأثير إيجابي في الوصول إلى عملية إقناع أخرى لدى المساجل، وهذا ما نجده عند السياسيين الذين يمتلكون دائماً خطواً بديلة للهروب من الأسئلة المفخخة أو الإحراجات أو الإشاعات.

يؤدي التعاون الإجرائي بين المقولات الكلامية الثلاث إلى تحقيق الانسجام الذي "يخضع لعملية إعادة سمنطقة تقضي بنقل نص السياق إلى سياق آخر"⁹ وإنجاح العملية السجالية أو على الأقل تمرير الفعل السجالي من الأنا إلى الآخر وتدخل في ذلك مجموعة معطيات "فالشروط الموضوعية لأي حوار حقيقي بين فريقين متناظرين يتم بموجبها تحديد الغالب والمغلوب"¹⁰، وتحصين الفعل السجالي من كل ردة فعل مشكوك فيها.

1-2 - الكفاءة المعرفية:

ترتسم الكفاءة المعرفية* في قدرة المساجل، واستعداده المعرفي للمواجهة والانطلاق مما يحوزه من معارف سابقة، تجعله محل قبول لدى الجمهور المتلقي، ولتحقيق هذه الكفاءة لابد من توفر الشروط المؤدية إلى نجاحها وهي شروط ذات صلة بالمضمون المعرفي في حد ذاته، والحديث هنا سيكون منفصلاً عن الذات الفاعلة أو الفعل الإجرائي وإنما سيكون محددًا بالقيمة المعرفية المكتسبة وخصوصيتها الدلالية:

أ. المصوغات المنطقية: من الواضح أن الاشتغال السجالي - أصبح أكثر مما سبق - يعتمد فرضية اللعبة السجالية القائمة على تحديد القول وتوزيعه و"على إظهار أنه أكثر كفاءة منه وأجدر بتبوء مكانة لا يطولها المنافس أو الخصم"¹¹؛ لأن المقدر المعرفية مبنية بطريقة أفقية واضحة "بحضور مكيفات التلفظ، منها الأوامر والاستفهام والتلاعب بالضمائر"¹².

كما ذهب إلى ذلك عديد الباحثين أمثال موشلر (J.Moeschler) وديكرو (O.Ducrot) فإن المقولات الحجاجية ذات الطابع المنطقي الاستدلالي، تزيد الكفاءة القولية مما يمنح الكفاءة المعرفية إطاراً خصباً للتواصل، أو لنقل قدرة إضافية على تحقيق الإقناع، وبسط النفوذ على جماعة

اجتماعية ذات توجهٍ مخصوص ومنه تبيّن، من خلال التوغل داخل أفكارهم والسيطرة عليها.

الخصوصية المعرفية مطلوبة عند كل فعل سجالي، فكلما كانت العملية التواصلية محدّدة وفق إطار معرفي ذي رافد واحد، كلما اشتغل السّجالي براحة وطمأنينة، وكلّما كانت طرائق الإقناع "واضحة عن طريق ترويض هذا المتلقي الخفي الحاضر في ذهنه والتلاعب في أهوائه"¹³، وبهذا تستوفي الكفاءة المعرفية شرطاً من شروطها.

ب. المصوغات البلاغية: تحقيق الفشل المحتمل عند كل عملية سجالية قائمة على المفترض المنطقي، يستدعي استحضار المساجل خطّة بديلة؛ لإبقائها ضمن نسق التواصل، ومن بينها المقولات البلاغية، ويرى الباحث الفرنسي دومنيك مانقونو (D.Maingueneau) أنّ المقدرة البلاغية عند أيّ مواجهة محتملة تضبط قدرة المساجل على الاتحاد داخل روافد معرفية، من أجل تحقيق التواصل الكلامي، أي أنّه يكون على قدر يزيد أو ينقص من الكفاءة المعرفية وقد يتيح له زعزعة الكفاءة المعرفية لدى الآخر وجعله يتوه في روافده ومن ثم ضرورة انصياحه للمساجل و"إعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي أو إبرام عقد آخر مؤسس على قيم جديدة... ويستدعي ذلك من العون المساجل إرسال هذا الحكم على الخطاب السّجالي"¹⁴.

يتحدّد الخطاب البلاغي داخل كفاءات معرفية مسبوقة تجعل الخيار للمساجل متعدّد الاحتمالات، يسهل الاستعانة بها عند كل تدخل سجالي، من أجل استمالة عواطفهم، والتماس أحاسيسهم وهو ما يعرف بالحجاج العاطفي عند بيرلمان (C.Perelman).

1-3- مرجعيات الخطاب السجالي:

يفترض بالخطاب السجالي أن يحدّد الوعاء القيمي لكلّ عملية سجالية؛ لما له من خصوصيّة محمّلة بمرجعيات، فيقوم بعملية تحصيل الذاكرة لبعض المعارف ذي الأهمية القصوى وتحويلها إلى صيغ سجالية، ويكمن الفرق بين الكفاءة المعرفية والكفاءة السجالية في كون الأولى آلية واضحة المعالم، بينما الثانية نجدها متخفّة داخل نصوص سردية أو آراء أو أفكار أو مبررات... الخ

أ- المرجعية الأيديولوجية: يعدّ الوعاء الأيديولوجي وعاء العمليّة السجالية بأكملها، فكل توجه أيديولوجي مهما كانت خصوصيته هو مطالبه الأول والأخير، واحتضان الآخر داخل هذا الوعاء أكثر ما يتطلّع إليه المساجل "من جهة أن امتلاك الكلام الجميل هو على نحو من الأنحاء السيطرة على الآخرين وإخضاع فكرهم"¹⁵.

لا يحوز الوعاء الإيديولوجي في داخله الكفاءة الكلامية والكفاءة المعرفية فقط، وإنّما إيمان المساجل بكل تلقّطاته وقد يكون ذلك في شكل إيماءات أو إشارات لغوية وغير لغوية، فالسياسي في الحملات الانتخابية يجب أن يكون على صلة وثيقة بمبادئ حزبه، حتى يستطيع تمرير الشحن الأيديولوجية للمجموعات الاجتماعية، وإن اختلفوا من حيث الانتماء والمبادئ، وقد يتحسّس الآخرون من كل كلمة أو إيماءة أو إشارة، فيسقطون المساجل في فخ المهاترات والإدعاءات الكاذبة نظراً لانتفاء الوازع الأخلاقي داخله "وبذلك يتصادم الخطاب الأيديولوجي والأخلاقي بمحاصرته وتضييق الخناق عليه"¹⁶.

ب- المرجعية التاريخية: يمثّل قدرة المساجل على استحضار التاريخ بكل إضماراته وتشعباته، ويظهر إلى أيّ مدى تعلق المساجل بذاكرته التاريخية وارتباطه بالماضي، ويجعله يعول كثيراً على رسم خطوط المستقبل وهذا ما يحدّده الآخرون.

دائماً ما يكون توظيف الخطاب السّجالي للمرجعية التاريخية مصدر سياق مفعم بالأحداث والوقائع الواقعية؛ لأنّه يبحث عن ضرب الآخر في عمق أحاسيسه وعواطفه وجعله جزءاً من العملية التاريخية، فالإنسان تاريخي بطبيعته.

ج- المرجعية اللغوية: يعدّ الجانب اللّغوي عنصراً مكملاً للكفاءة الكلامية؛ لأنّه يحرص على تبيين مدى بلاغة وفصاحة المساجل "بموجب قوانين لغوية داخلية وتداعي عفوي يكسب الخطاب مسحة من المنطق الداخلي"¹⁷.

يفترض أن يراعي المساجل في العمليّة اللغوية آليات التلفّظ، أثناء العمليّة التواصلية، على أساس عدة معطيات محايثة منها: المعطى البلاغي، المعطى المعجمي، والمعطى الأسلوبى... الخ

يأخذ البعد اللغوي عدة أشكال منها ظاهرة المفارقات*، والغموض المراد به البحث عن الحقيقة، والتساؤلات التي تأخذ أشكال التعجب والاستفهام، وهكذا فالمساجل يبدو منذ الوهلة الأولى ذا سلطة متعالية "فهو شخص ليس شريكا في البحث عن الحقيقة بل يعتقد بامتلاكها مسبقاً"¹⁸. وعليه فالمعطى السّجالي هدفه وضع المساجل في أحسن رواق من أجل العمليّة التواصلية.

1-4- الكفاءة القيمية:

يرتبط مفهوم القيمة (valeur) بكلّ العناصر السّجالية الكبرى ويتعلّق الأمر

بحضور الذات (الأنا)، والآخر، والمدونة السجالية (الموضوع) والربط بين هذه العناصر الثلاثة لا يتأتى إلا من خلال مقولتي الانسجام والاتساق من وجهة نظر دلالية.

أ. **كفاءة المساجل:** تتجلى كفاءة المساجل انطلاقاً من عدة معطيات تم توضيحها سابقاً لكن بشكل ضمني أو تكميلي، فالمساجل عند التداوليين هو ذات فاعلة قادرة على إنجاز عملها وهي وجهة نظر لسانية بحتة فالمعطى التخيلي قد قلب جميع الموازين اللسانية وجردها من المعطى الدلالي، فأصبح المساجل داخل النصوص التخيلية، هو كل ذات فاعلة قادرة على تحقيق أكبر عدد ممكن من المواجهات السجالية وتختلف الذات الفاعلة من المعطى اللساني إلى المعطى التخيلي فأبسط مقولة لسانية تجمع بين المتخاطبين وفق إطار تشخيصي، أما المعطى التخيلي فلا يميّز بين الذوات الفاعلة بمعنى أن كل ذات فاعلة سواء كانت مشخصة أو جامدة أو حتى معطى لسانيا محددًا قد تدخل في علاقات سجالية فيما بينها وأيضاً مع المتلقي، وهكذا يمكن القول إن المساجل داخل النصوص التخيلية قد يأخذ أبعاداً مجردة أكثر منها مشخصة، وتحتمي في ذلك بالجانب التأويلي الذي حدده الباحث امبرتو ايكو (Umberto.Eco)، فيتحول العنوان والإهداء والتصدير إلى ذوات فاعلة تحقق الفعل السجالي وهكذا دواليك حتى يفرغ النص التخيلي من جميع عناصره السجالية مع احتفاظ المساجل التقليدي بكامل خصوصياته السجالية.

ب. **كفاءة السجّال:** حرص المساجل على تقديم خطابه السجالي داخل إطار قولِي عالي القيمة - أو ما يعرف بلعبة اللغة عند كاترين كيريلات أوركينيوني (Cathrine.Kerbrat Orecchioni) هو ما يمنح للموضوع قيمته السجالية وهو يتحدّد من خلال رصد الموضوع المحدّد له

انطلاقاً من "المحادثات التي تتميز بطابعها الصدامي"¹⁹.

لا يهّم شكل الصدام الحاصل أو نوع المحادثة الشديدة بين الطرفين، فكل هذه التعارضات قد تمنحه بعداً تصاعدياً ومنظراً متعالياً يبقى أحدهما بمنأى عن أي انزلاق لغوي أو دلالي. هكذا تتحدّد كفاءة السّجال في تجريد الموضوع من كل المعطيات التي قد تضعفه تداولياً، وربطه في سياق محدّد ومقام لغوي منظم وتحيينه وفق المكيّفات التعبيرية.

ج. كفاءة المساجل: يلتقي المساجل والعنصران السابقان وفق تحقيق

الإجرائي للعملية السّجالية، وما يمكن أن يقال عن المساجل، يمكن أن يقال أيضاً عن المساجل، فلا يتجسّد فقط حضوره في شكل مجموعات اجتماعية أو أفراد، وإنما يدخل في صراع سجالي باعتباره قارئاً عارفاً واعياً أو مفترضاً بكلّ التشكيلات الخطائية داخل النصّ التخيلي ومن ذلك العنوان والإهداء والتصدير... الخ

هناك علاقات سجالية يكوّنها المعطى اللساني، وعلاقات سجالية يكوّنها المعطى التخيلي "ومن هذا المنظور فإن كل أجزاء القصص الخيالية يقابلها عالم ممكن بينها أو يتحقّق من خلالها"²⁰.

مثلاً يقابل المساجل آخر، قد يقابل مساجل من نوع ثاني (عنوان)، مساجلاً من نوع آخر (قارئاً) مشخّصاً حسب انتمائه الإيديولوجي، وحضور الخاصية التفاعلية والتواصلية، وعلى هذا الأساس فالمعطيات السّجالية قد تأخذ أبعاداً مختلفة داخل الرواية بالربط بين اللساني والتخيلي.

1-5 - مقصدية المساجل:

ينظر إلى المقصدية كآخر عنصر من العملية السّجالية، ويراد بها مدى تحقيق النتائج التي تم وضعها ضمن جهاز سجالي بأكمله، والمقصدية أساس العملية

التداولية إلى جانب بعض الوظائف اللغوية. ويمكن رصد مقصدية الغاية ضمن أطر معينة حسب روابط التكيف والتبليغ:

أ. **المقصدية الدنيا:** يراد بها البنى الدلالية الصغرى التي تربط بين البنى الموضوعاتية داخل النص الإبداعي وعبره تتشكل المعاني تبعاً أو بمعنى أدق لكل التيمات الصغرى، التي تتبلور في شكل عناصر فنية مترامية بين ثنايا النص الإبداعي، كالعنوان واللون والإهداء، وللمفصلات الموضوعاتية دور مهم في تحديد معايير المقصدية الدنيا.

ب. **المقصدية القصوى:** هو إجراء سجالي عام يتشكل شيئاً فشيئاً وفق تصور الكل لهذه العملية ويتسم بمعايير البنية التي حددها **جون بياجى (Jean.Piaget)** الكلية والشمولية والتنظيم الداخلي، فكل بنية سجالية ما هي إلا رصد لمجموعة بنيات سجالية صغرى تتشكل وفق معايير القولية والتواصلية، ويراد بها رصد أكبر عدد من الإقناعات، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال منظومة مبنية سجالياً، وإعادة تنظيمها داخل بنية عامة شاملة، حتى لا تكون العملية ضرباً من العبث ولعبة من ألعاب التأويل اللامحدود، ولأن النصوص السردية تتسم بعنصر التخيل وبتولها الحكائي، فالمقاربة الحاجية من منظور لساني قد لا تكون ذات قيمة دلالية، إذا لم يرتبط بلاغياً بالجانب التيمي، ومنه قد تتحول كل تيمة إلى أيقونة دلالية، لا تحقق الفعل السجالي فقط بل وتميمه بلاغياً.

2- شعرية العنوان من مفترضات التواصل إلى مقتضيات التاريخ

يرى الناقد الفرنسي كلود دوشي (Claude.Duchet) أن العنوان "العنصر الأول الذي يتجلى على الغلاف بوصفه إعلاناً مكتفياً وإشهاراً أو قولاً جميلاً للنص"²¹، إذ يرى أن قوة العنوان تكمن في قدرته على ولوج عوالم القارئ

وقدرته على تشتيت أفكاره كخطة أولى للنيل منه ومن قراءته ثم تفكيك تلك العوالم لتصبح غير قادرة على مسايرة محتوى المدونة، فالرواية الأيديولوجية تمكّنه من فرض منطقته وبسط ونفوذه على القارئ ونجد أنّ العنوان الرئيسي للرواية كريمةاتوريوم يقمّ لنا سجالية الرواية من نقطتين متناقضتين.

يقوم الغلاف الخارجي في رواية كريمةاتوريوم على معطيات لغوية وميتالغوية تجعله رهينة القراءة والتأويل، فهي موجهة لقراء غير عاديين، قراء عارفين بخفايا الرواية ومضامين العنوان والسياقات التاريخية التي تفرضها القراءة التأويلية والجمالية وعليه فعنوان الرواية كريمةاتوريوم سوناتا لأشباح القدس يحمل القارئ على وضع مجموعة خطط لتجاوزها وولوج عالم المحكي، فلفظة كريمةاتوريوم تعني المحرقة ومع وجود قرينة لفظية مؤسسة للبعد المكاني القدس، نجد أنفسنا أمام مؤشرات دلالية متناقضة فالمؤشر الأول مرتبط بقراءتنا لمحرقة اليهود التي وقعت خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، أمّا المؤشر الثاني فهو، ثم إنّ تدخل العنوان الفرعي سوناتا لأشباح القدس، يجعل القارئ يتحكّم في صدامية التأويل بين المؤشرين، فمحرقة مي جعلها تتحول إلى سمفونية تجتاح من خلالها مدينة القدس لتطمئن بداخلها، وتقاوم من خلالها الأشباح المرابطة بها.

انطلاقاً من هذه القراءة الأولى يتفاعل القارئ مع العنوان ويفجّر طاقاته الدلالية ويجعل من مضامينه مجرد عينة موحية فقط، بأنّ القراءة الواعية لا تتعدى مثل هذه التأويلات، ولكنّ صدام المرجعيات بما فيها التاريخية تفرض نوعاً من قيود السياقي المتأخّم للقراءة التأويلية.

ثم إنّ مرئية الغلاف الخارجي (الصورة الفوتوغرافية) قد لا تجيب كثيراً عن انشغالات وتساؤلات القارئ بخصوص هويتها، ولكن الربط التماثلي

والنفاعلي بين المعطى اللساني والمعطى الفني، قد يتيح لنا الفرصة، لقراءة واعية ومتأنية، فالصورة تبدو محطمة تقريباً مفككة غارقة في معاني الحزن والأمل واليأس.

هكذا تتحول هذه الصورة شيئاً فشيئاً إلى محرقة تجمعها حبات الرماد، فالتداعيات الدلالية قد تحيل أيضاً إلى هو كائن داخل الرواية، وبذلك يتجسد السجال عبر قرائن لغوية وغير لغوية.

تتداخل قرائن المعطيات المرئية في رواية كريماتوريوم لتشكل لنا لوحة دلالية معبرة ومتميزة انطلاقاً من التجليات اللسانية إلى غاية الهندسة اللونية، التي أبانت عن قدر كبير من الذوق الفني وتتجلى سجالية الغلاف من بقايا العلاقات التركيبية أي تحصيل العلاقة بين المعطيين اللساني والفني.

توظيف الذاكرة السجالية من خلال الغلاف الخارجي للرواية، تحقق المقصدية التي تقول بفاعلية قراءة العتبات النصية، وباعتبار الغلاف الخارجي عتبة نصية، فلا بأس من اكتشاف مساراته الدلالية وذلك عبر تطبيق بعض المقولات السجالية.

يعتمد فهم الصراع السجالي في الغلاف الخارجي للرواية على فهم الأبعاد التشاكلية بين أنماط الملفوظات فالعنوان والصورة والغلاف الخلفي والغلاف الأمامي كلها دعائم دلالية تبقى القارئ داخل حدود التأويل وتمنحه صورة وأسبغية موضوعاتيه عما قد يقرأه داخل الرواية، هكذا تتألف سجالية الغلاف الخارجي للعنوان من عدة ترابطات.

3- التصدير في رواية كريماتوريوم ومبدأ التعاون النصي

يقوم التصدير في رواية كريماتوريوم على معطيات تاريخية قبلية، يؤسسها

مقتضى السّجال والذاكرة السّجالية وتتعدى الدائرة السّجالية في كونها مجموعة من المتواليات السردية إلى سجال خارجي قائماً على مدى تماسك الوحدة الدلالية الكبرى للنص الروائي، على هذا الأساس تتبنى سجالية التصدير في رواية كريمتور يوم في شكل مجموعة أقوال من لدن بعض الفنانين العالميين وحتى السياسيين، ودائماً ما يكون التصدير علامة من علامات النص الروائي أو مصاحباً له على هامش القول.

يأخذ التصدير في رواية كريمتور يوم قيمتين اثنتين:

- أولاهما القيمة الفنية ونقصد بها دور الفن في الإحساس بالإنسانية على الرغم من المآسي والآلام والتي قد يصادفها الإنسان في حياته أو شكّلت عقبه في طريقه.

- وثانيهما الإحساس بالحرية وهو إحساس بعيد عن أي معتقد قد يحاصر الإنسان في حياته، كمعتقد الانتماء أو معتقد الهوية.

قام الروائي بعرض ثلاثة تصديرات مختلفة التوقيع متماثلة الانتماء، فهي بالرغم من اختلافها في الزمان والمكان، تجمعها رؤية واحدة، حاول الروائي من خلالها خلق "وظائف نصّية موازية، ينير جلّ عتمات النص ويجيد استعماله"²².

ولرصد ذلك وجب التوغل في حيثيات هذه التصديرات ومحاولة العثور عن مكانة السّجالية التي تدفع بعملية القراءة نحو الأمام.

3-1 - التصدير الأول لفانسون فان غوغ

يمثل التصدير الأول قيمة فنيّة في حياة الفنان فانسون وليام فان غوغ (Vincent Willem. Van Gogh)، فهو إلى جانب إيمانه برسالته الفنيّة

التمثلة في الرسم، يرى أن الفن الإنساني هو أهم تجربة قد يمرّ بها الإنسان خلال حياته "إنّ الألوان القديمة أصبح لها بريق حزين في قلبي هل هي كذلك في الطبيعة أم أن عيني أصبحتا مريضتين ها أنا أعيد رسمها كما أقدح النار الكامنة فيها في قلب المأساة ثمة خطوط من البهجة أريد لألواني أن تظهرها"²³.

فرسالة الفنان ليس فقط تصوير الواقع كما هو، وإنما رسمه كما يجب أن يكون يجب أن تكون ملامح التفاؤل بالمستقبل واضحة، كذلك الألوان لطالما سايرت حياة الفنان وزادته إحساسا بكل ما يحيط به.

يتحدّد مستوى السّجال الخاص في التصدير الأول في كون اللون دائماً عنصراً معبراً عن الآلام والآمال، والحزن والفرح والخوف والطمأنينة وطالما للإنسان القدرة عن التعبير فلا قوة تجبره على التراجع؛ لأن الإيمان بالرسالة الفنية هو الإيمان بقداسة الرسالة الإنسانية .

دائماً ما يتجلى السّجالي في شكل نزاعات بين ثنائيات ضدية كل منهما له منطق وأسسه التي يقوم عليها وهي من وجهة نظر العام والخاص منطقية إلى أبعد الحدود، ولكن ما يصنع الفارق هو رؤية كل منهما للمستقبل، فالأول يراه مظلماً موحشاً مخيفاً مليئاً بالضبابية... الخ، بينما الثاني يراه مشرقاً مليئاً بالحيوية والحب والتفاؤل، بهذا الخصوص دائماً ما تأخذنا الأمور الحميمية الدفينة في أعماقنا إلى ضرورة التكافل والأخذ بآراء بعضنا.

3-2- التصدير الثاني جمانة الحسيني

يمثّل التصدير الثاني لجمانة الحسيني الامتداد السّجالي للتصدير الأول ولكن الاختلاف يكمن في الزمان والمكان.

"إنّ اللون هو ذلك الأسر الرقيق الممتع، بما في ذلك التعبير عن أشد اللحظات المأساوية"²⁴.

إنّ مثل هذا التصدير غارق في الإنسانية المجردة، فهي تصنع من المأساة لوحات فنية رائعة لبناء عالم يسوده الأمل والحب ولا يكون ذلك إلا من خلال اللون الذي يقبع بداخلنا ينتظر منا السماح له بالخروج إلى الأفق العالي وللحرية الإنسانية وبهذه الطريقة يتحوّل اللون إلى كينونة حية ومؤنسنة بمشاعر وأحاسيس، تحاول أن تمنحنا كل ما هو معنوي على حساب الماديات والمساومات.

يتحدّد الخطاب السّجالي في التصدير الثاني من خلال الذاكرة السّجالية لدى الروائي فهو لا يترك للقارئ مجالاً للتخمين وإنما يجبره مباشرة على مسابرة نسق الفنانين والعظماء الذين بنو التاريخ.

تتجلّى العلائقية بين التصديرين ضمن مبدأ الاتفاق الحاصل بين غوغ والحسيني، وهو اتفاق ضمني يحرر الفن من كل تبعيّة ومن كل انغلاق.

3-3 - التصدير الثالث مارتن لوثر كينغ

يمثّل التصدير الثالث للسياسي الأمريكي ذي الأصول الإفريقية مارتن لوثر كينغ (Martin.Luther KING) قمة الاستماتة في الدفاع عن القيم الإنسانية من أوجه العنصرية والذل والهيمنة المادية ومارتن لوثر كينغ معروف بمواقفه المناهضة للعنصرية والتمييز العرقي، يقول "أرفض جازماً أن أسلم بفكرة أن الإنسان ليس أكثر من قطعة خشب رثة في مهب نهر الحياة، تحوطه العواصف من كل الجهات كما أرفض أن أسلم بفكرة أن مآل الإنسانية المفجع هو ليل العنصرية المظلم والحروب بدا نور الفجر والسلام والأخوة"²⁵.

يتحدّد من خلال هذا التصدير العلاقات الإنسانية القائمة على فكرة الشيء والاعتراب والعنصرية... وعليه فإنه يمثّل امتدادا سجاليا للتصديرين السابقين وإضافة جزئية خاصة بالخصوصية العرقية لما يحوزه من أدوات حاجبية تلعب على تكسير المرجعية الفكرية في تلك الفترة، فهو يرفض مثل هذا التمييز ليس من باب العرق والانتماء فقط، وإنما من باب الإنسانية؛ لأنّه يؤمن بأن العالم بمثابة منزل كبير يحوي جميع الناس بمختلف توجهاتهم العرقية والعقدية وتجمعهم قيم إنسانية وأخلاقية، فإذا انعدمت هذه القيم تحولّ المنزل إلى وكر للصراع والعنف والاضطهاد .

تتحرك الأفعال الكلامية داخل تصدير مارتن لوثر كينغ على وتر العلاقة الجدلية بين السلام والعنف، فإنّ الإنسان منزوع بنزعة فطرية وهي فطرة الحب والتعاون ومارتن ينطلق من هذه الفطرة؛ ليؤسس على عتباتها إنقاذ المجموعات الاجتماعية المضطهدة، مجموعة قادرة على "تجاوز الخانة العرقية التي يرغب خصومه في إبقائه فيها"²⁶، إذ يستدرجهم بفعله السجالي نحو دخول بوابة السلام العالمي.

يمثّل التصدير في رواية كريماتوريوم سمفونية الفن واللون والسلام، وهي الطريق الوحيد للخروج من النفق المظلم ودخول عالم تسوده الحرية والمساواة، يتأتى ذلك إلا من خلال الاعتراف بحقوق الإنسان الذي بموجبه يحتضن العالم بعضه.

تمثّل تصديرات الرواية علامات لغوية وأيضاً علامات سياقية تحيل مباشرة على مكونات المتن السردية، فتؤسس بوعيا خطابات سجالية من منطلق أنها تسعى لفرض منطقها الإنساني على حساب مظاهر الانحطاط.

4- التجلي السجالي بين التمثيل الشخصي والتداعي التيمي

تعامل الراوي مع بنية النص السردي لرواية كريمة توريوم بنوع من الخصوصية على مستوى تجسيد الشخصيات الحكائية وتحريكها، بخاصة شخصية مي التي جعلها شخصية مركزية تدور أحداث الرواية وكل ما له علاقة بها، من أمكنة وأزمنة وشخوص حكاية، ولكن اللافت للانتباه من الناحية الموضوعاتية، التمثيل الدلالي لبعض القرائن اللغوية ذات الطابع الموضوعاتي، الدالة على التوجه السجالي الذي يمارس حضوره داخل الرواية ويدفع مي نحو تمرير خطاباتها اتجاه يوبا، وجعله ينصهر داخل أفكارها وأحلامها وأمانيتها، مثل الوصية، الألوان، الكراسي النيلية التي سنحاول في هذا التحليل إظهار مدى سجالية هذه التيمات؛ لإظهار مي في موضع المتعلقة بأرضها، رغم ما أحدثته الأيام من تحولات.

4-1- الوصية:

يتجلى حضور الوصية في رواية كريمة توريوم من خلال العلاقة التواصلية والتفاعلية بين مي والابن يوبا، فالرواية تبدأ تقريباً من خاتمة زمن القصة والمتعلق بعنصر الوصية، لما لهذا العنصر التيمي من قيمة وظيفية، حيث جاء الجزء الأول من الرواية بعنوان "وصايا أمي" ويبيّن جزء من الوصية حالة الضياع التي كانت عليها مي خاصة بعد إصابتها بمرض السرطان "أعرف أنني سأتبعك بأخر أشبّاحي ولكن هذا هو طلي الأخير، إذا استطعت طبعاً، اقرأ الوصية جيداً، فهي عند المحامي، أدرك مشقة الرحلة حتى القدس... قليلاً من رمادي على قبر أمي سيذكرها بوجودها الدائم فيّ، وعلى قبر يوسف وفي نهر الأردن، وفي مزار جدي سيدي بومدين لمغيث وحرّات القدس"²⁷.

من خلال هذا المقطع السردى يتجلى الخطاب السجالي كمكان لسانی من أجل بسط فكرة الانتماء والهوية.

يقدم لنا السارد مجموعة من العلامات اللغوية ذي مرجعيات اجتماعية وثقافية وعقدية، وكلها أبعاد تداولية تشتغل كبوتقة دلالية، تنصهر بداخلها مي، فهي علامات تعبر عن الحنين والطمأنينة وحب والتاريخ... الخ وهكذا تستمر الوصية في سرد علاقاتها لخبية مع مي، علاقات تنسف الموجود لتقيم علاقة حميمة مع المفترض والممكن، فالوصية كانت بمثابة الحلقة المفقودة من بين حلقات أسرار مي المفقودة.

4-2- الألوآن:

يمكن النظر إلى اللون في رواية كريماتوريو من عدة زوايا، ولكن تبقى الزاوية التي قدمها لنا السارد من أعمق الزوايا المتعلقة بمي، فاللون يتواتر ذكره من بداية الرواية إلى نهايتها وبالتحديد من التصدير، إلى غاية آخر مقطع سردي من الرواية.

أفرت مي منذ البداية أنها بصدد البحث عن اللون الذي ظل يؤرقها فهو لون أشبه بالأسطوري أو الخرافي "طبعاً لست نيوتن ولم أكتشف قانون الجاذبية، ولكنني أضفت إلى الحياة الهشة والخائفة من نفسها، لوناً جديداً يضاف إلى ملايين الألوآن الموجودة لم يره الآخرون، ورأيتُه أنا فقط، بل كنت أول من يملأ عينيه به... فراشات القدس"²⁸.

ويتحول اللون من وجهة نظر تداولية إلى نوع من المقولات الحجاجية؛ لأنه يبين مدى تعلق مي بفلسطين (القدس)، ومدى تعلقها باللون الأسطوري، "ألواني كانت رفيقي الأكبر في هذه الدنيا الصعبة والقاسية، وسيلتي الجميلة لمقاومة موت لا أستطيع حياله فعل الشيء الكثير"²⁹، فيتحول هذا اللون

الضعيف والهش، إلى وسيلة مقاومة في حياة مي، فهذه العلاقة التفاعلية بين اللون والفنانة مي هو ما ساعدها على مقاومة المرض والصراع النفسي المرير والدائم حول عديد الإشكالات التي واجهتها في حياتها، في طفولتها وحتى في أوج تألقها الفني.

وهي تردّد كلماتها الأخيرة قبل أن تغفو إلى الأبد "أحاول أن أمد رأسي وأنام.. ثم فجأة يصبح كل شيء لدينا ولذيذاً مثل الإغفاءة الخاطفة، بلا شكل ولا وزن، ولكن بملايين الألوان المتداخلة التي يصعب تحديدها.. أحاول أن أمد رأسي وأنسى أنني أموت"³⁰.

هكذا يتجلى كيف أنّ اللون بمثابة جسر التواصل الذي يربط بين مي في لا وعيها وبين فلسطين الذاكرة والخلود.

تتجلى مواطن الخطاب السّجالي، في هذا المقطع السردي في حقيقة العلاقة الوظيفية للون، باعتباره مدافعاً شرساً عن مي بكل نجاحاتها وإخفاقاتها، بحلاوتها ومرارتها، مبرّرات التجلّي والتخفي، فقد زاد اللون معايير القيميّة في شخصية الفنانة مي، إذ نجدها حاربت من أجل وعيها بحاضرها الوعي الممكن الذي يحارب بشفافية مطلقة طلاسم الوعي الزائف، الذي خلفه المنفى وبذلك قد يتحوّل "المنفى أو المهجر إلى مصدرين للاغتناء الثقافي والجمالي"³¹.

ارتباط اللون بالقدس دليل على علاقة مي بأرضها، ولو بطريقة روحية معقدة، فالقدس اللون تجلى داخل إضمارات مي، وفي تعليقاتها المسكوت عنها.

4-3- الكراسية النيلية:

تكرّر ذكر موضوع الكراسية النيلية في رواية كريماتوريوج بطريقة تكاد تكون اتفاق ضمنى بين السارد والشخصية الحكائية مي، إذ لا يكاد تخلو فصول الرواية من ذكر هذه الكراسية، والسؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن المتلقي: ما هو السر الكامن داخل الكراسية النيلية؟ ولماذا كانت مي تتحاشى بطريقة أو بأخرى الكتابة على الكراسية النيلية؟ هل هو الخوف من استحضار الماضي بكل تفاصيله وجزئياته؟ أم هو الخوف من انبلاجه بكل أسراره الدفينة؟

تعتبر الكراسية النيلية بمثابة الصندوق الأسود لمي، ففيها ذكريات الطفولة، بحماقاتها وبراعتها وخربشاتها، وفيها سحر الشرق بكل تفاصيله، وعلى إثر ذلك أصبحت الكراسية النيلية ملازمة لمي في حياتها وفنها ورسوماتها وحتى مرضها، إذ ذلك يمكن اعتبارها بمثابة مقولة سجالية تحاول إضفاء لمسة حجاجية عن علاقة الفنانة مي بماضيها وبانتمائها، "هذه هي إذن مدونة الحداد كراسية أمي السحرية"³² فهي تحمل سحر الشرق الذي فقدته مي منذ طفولتها وأجبرت على تغيير طبيعتها "كانت الكراسية النيلية مستقلة لوحدها في عمق الكنبه كأميرة خرجت من الماضي العتيق بكل كبريائها وألقها"³³ لتمزج الحاضر بالماضي ولتحقق مقولة الانتماء، فالكراسية النيلية هي أكثر من كونها كلمات وذكريات، بل أكثر من كونها صور لشخص ظلت على الدوام تطارد مي كأشباح، هي تحاول أن تعيد رسم مي من جديد "فتح الكراسية النيلية لأول مرة، شم رائحة الأحياء المقدسية وحرارة الخبازين"³⁴، وسرعان ما فتح السحر أمام الكراسية النيلية لتفصح عما يجول بخاطر الفنانة مي، فالعلاقة بين مي والكراسية أكثر من مجرد تمسك الشخص

بخصوصياته، فهو محاولة الإبحار في هذه الفضاءات الواسعة واللامتناهية، وهو العودة بحرية مطلقة إلى حنين الماضي، ودغدغات الطفولة. يمكن اعتبار الكراسي النيلية بمثابة العسارة الدلالية التي تحيل على أفاق تداولية بين فعلين كلاميين فعل منطوق (مي) وفعل ضمني مجرد (الكراسي النيلية)، واستطاعت الكراسي النيلية أن تقدّم من خلال مي مرافعات سجالية تؤسّس لعلاقة مي بكل ما يخص ماضيها الاجتماعي والعقدي والثقافي وحتى العاطفي.

4-4- المحرقة :

بعدّ خيار المحرقة القرار الأكثر صدقاً في حياة مي؛ لأنها استطاعت بذلك أن تضمن العودة إلى مدينتها (القدس) "رفضوا منحي رخصة الدفن في القدس سهلوا علي مهمة هذه الخيارات.. أكبر محرقة يعيشها المرء هي أن تسرق منه أرضه. ويرمى على الحواف المبهم... أشتهي فقط أن يبعثر رمادي على مياه نهر الأردن... وفي أحياء القدس العريقة التي عجنت طفولتي وعلى قبر أمي وأخي وأخوالي، ويوسف... ومقام جده العظيم.."³⁵ فالمحرقة لم تعد خياراً في حياة مي بعد إصابتها بداء السرطان بل تحولت إلى ضرورة حتمية، يضمن لها التواجد بالمشرق الذي لطالما حلمت به.

تعدّ المحرقة أداة حجاجية ذات توجّه بلاغي، يبرز فكرة الانتماء لدى مي، وتعتبر آخر محاولة للعودة إلى فلسطين، تدافع عن هويتها، تحاول أن ترسم مساراً جديداً لحياتها، يكون مرجعه سحر الشرق، فلا الشهرة ولا المال ولا النفوذ استطاع أن يهدي مي هوية أصلية، فقط هي الذكريات الجميلة داخل الأرض، وسط الأهل والعشيرة.

الخاتمة

تجسد الخطاب السجالي في رواية كريماتوريوم عبر مسارين اثنين: المسار الفني والمسار الموضوعاتي؛ وذلك بفعل الاشتغال البلاغي لبعض المستويات النصية، فأمّا المسار الفني فتجلّى في المعطيات النصية المجسدة لغويا انطلاقاً من الغلاف، ومروراً بالتصدير، ووصولاً إلى التظاهرات النصية داخل الرواية (الشخوص الحكائيّة والبنية الزمنية)، وقد أبانت هذه المعطيات عن تمثّل سجالي في تحريك عجلة الدلالة نحو التلقّي والفهم والتأويل الجمالي لها، كما تجلّت لنا منصهرة في بوتقة العلاقات الوظيفية (التاريخية والإنسانية والأيدولوجية)، وهي بذلك تمثّل عنصر التعاضد الدلالي لموضوع اللاجئين العرب أو عرب 1948، وأمّا المسار الموضوعاتي فتمثّل في كل أيقونات المتن السردي التي تشكّل التمفصلات الكبرى داخل الرواية نحو الكراسة النيلية والوصية والألوان... إلخ، وقد أفضى تحرك هذه التمفصلات، إلى تجلّي التشعب العنكبوتي أو التنشطي الموضوعاتي، الدال على المشروع التاريخي لمي داخل إطار حجاجي تحدّده مقصدية إقناع يوبا بمشروع العودة وإقناع القارئ بأحقية الطلب تاريخياً، وتلتحم هذه التمفصلات الموضوعاتية، والاعتبات النصية، لتشكل سوناتا الحياة والموت عند مي، غايتها استرداد الهوية المسلوّبة، فالرواية من هذا المنظور تحاول أن تجمع بين التاريخي والتخييلي وتصنع منهما قطبا العلاقات الإنسانية الكبرى الداعية إلى الحرية والسلام والتعايش.

قائمة الهوامش والإحالات

¹ عيد بلبع، التدولية البعد الثالث في سميوطيقا موارد، مجلة فصول، الهيئة المصرية لعمل الكتاب القاهرة ع 66، 2005، ص43.

² محمد الناصر العجيمي، اجتياز الحدود، في مساءلة مفهوم الخطاب السّجالي، المطبعة المغربية لطباعة وإشهار الكتاب، تونس، ط1، 2010، ص24.

³ المرجع نفسه، ص26.

⁴ المرجع نفسه، ص 32.

⁵ Jose watunda kangandio :les ressources du discours polemique dans le reman de pius ngandu nkashama . ed l`harmattan paris.2011 p 38

⁶ محمد الناصر العجيمي، اجتياز الحدود، في مساءلة مفهوم الخطاب السّجالي، ص 26.

⁷ علي بلبع، التداولية البعد الثالث في سميوطيقا موريس، ص42.

⁸ محمد الناصر العجيمي، اجتياز الحدود، في مساءلة مفهوم الخطاب السّجالي، ص39.

⁹ المرجع نفسه، ص42.

¹⁰ إبراهيم العجلوني مقدمة أولى في حوار الذات والآخر، مجلة الهاشمية، ع1، 2006، الأردن، ص27.

* نتحدث الكفاءة المعرفية لدى ناقل الخطاب السّجالي مما يحوزه من معارف متنوعة إذ يمكن لهذه المعارف أن تحدد الدور المنوط بفعل الخطاب السّجالي ويؤدي التنوع المعرفي من التاريخي و الانثروبولوجي إلى تحديد الأدوار المعرفية. ويرى دومنيك مانتقونوه أن استدعاء النصوص للاستشهاد يكسب قيمة حاجية انطلاقاً من فكرة السلطة قد تكون دينية أو علمية.

¹¹ محمد الناصر العجيمي، اجتياز الحدود في مساءلة مفهوم الخطاب السّجالي، ص66.

¹² المرجع نفسه، ص71.

¹³ المرجع نفسه، ص93.

¹⁴ محمد الناصر العجيمي، اجتياز الحدود في مساءلة مفهوم الخطاب السّجالي، ص33.

¹⁵ المرجع السابق، ص113.

¹⁶ المرجع نفسه، ص119.

¹⁷ المرجع نفسه، ص 65.

* قد تتخذ المفارقة عدة أشكال أسلوبية أخرى ذات طابع حاجي داخل النصوص الأدبية فهي قد تلبس ثوب السخرية، عندما يكون المساجل في حالة مطاردة خفية للآخر من أجل

جمع أكبر عدد ممكن من نقاط ضعفه، كما قد تتخذ المفارقة صفة الخروج عن الطبيعة أو عادة الجماعة وذلك من أجل تضيق الخناق عليهم وقد تتغلق المفارقة على ذات نفسها داخل اللغة وتتحوّل إلى مجرد ادعاءات ومهاترات قد تأخذ المساجل إلى ما يحمد عقباه.¹⁸ معجب العدواني، ضياء الكعبي: الخطاب السجالي في الثقافة العربية مقاربات تأويلية، الانتشار العربي، بيروت لبنان، ط1، 2014، ص15.

¹⁹ Catherine Kerbrat-orecchione : les interactions verbales approche interactionnelle et structure des conversations . Armand colin. Paris .2010 .t 01.p 175

²⁰ بن قندوز هواري، بنية الخطاب السردي مقارنة تداولية، مجلة اللغة والأدب. علم النص، جامعة الجزائر، ع17، جانفي، 2006، ص102.

²¹ Claude duchet . les élément de titrologie romanesque .la fille abandonnée et la bête humaine. in revue la pensée n12 paris 1973 .p 52 .

²² نبيل منصر، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007، ص58.

²³ واسيني الأعرج، كريماتوريوم سونانا لأشباح القدس، منشورات بغداددي. ص09.

²⁴ الرواية ص09.

²⁵ الرواية ص 09.

²⁶ كاترين هالبيرن : الهوية: الفرد. الجماعة. المجتمع، تر: إبراهيم صحراوي، دار

التنوير، الجزائر، ط1، 2015، ص359.

²⁷ الرواية، ص 382/381.

²⁸ الرواية، ص 74.

²⁹ الرواية ص 142.

³⁰ الرواية ص 415.

³¹ بن علي لونيس :الاستراتيجيات التمثيلية في السرد الروائي العربي المعاصر، لقضايا

الهوية اللغة والآخر ضمن مؤلف جماعي، السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد

والمستقبل: إشراف، البشير ربوح، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،

2016. ص 293.

³² الرواية ص 57.

³³ الرواية ص 85.

³⁴ الرواية ص 93.

³⁵ الرواية ص 120.

مظاهر التناس في رواية "أبناء الديمقراطية" لياسر شعبان

عيسى مباركية
جامعة محمد البشير الإبراهيمي
برج بوعربريج - (الجزائر)
issambarkia@yahoo.fr

الملخص:

يعد التناس تقنية من التقنيات الفنية التي استخدمها الشعراء والروائيون المحدثون والمعاصرون على نطاق واسع، واحتفوا بها بوصفها ضربا من تقاطع النصوص الذي يمنح النص ثراءً وغنى، مما يسهم في إعلاء بنيانه الجمالي في المقام الأول، ومن جملة الروائيين الذين وظفوا هذه التقنية كثيرا في متونهم الروائية "ياسر شعبان"، خصوصا في روايته "أبناء الديمقراطية"، إذ يتعدّد ويتنوّع التناس في هذه المدونة (التاريخي، الأدبي، الديني...). وتسعى هذه الدراسة للكشف عن مظاهر التناس المهيمن في هذا النص، وتبيان رؤية الكاتب من خلال هذا النسيج من العلاقات التناسية الواردة في هذا النص.

الكلمات المفتاحية: التناس (التاريخي، الأدبي، الديني)، رواية أبناء الديمقراطية

L'intertextualité dans le roman "les fils de la démocratie"

De Yasser Shaaban

Résumé :

L'intertextualité est une technique utiliser par les romanciers est les poètes modernistes à grande échelle, elle a été célébrée comme une coupe transversale de textes qui lui donne toute sa richesse et sa splendeur, ce qui contribue à l'élévation de sa structure esthétique en premier lieu, et parmi les romanciers qui ont employé cette technique beaucoup dans leur forme narrative "Yasser Shaaban" et surtout dans sa version "les fils de la démocratie", car il existe une multiplicité et une diversité dans ce code d'entrelacement (historique, littéraire et religieux).

L'étude que nous proposons cherche à détecter et à découvrir l'intertextualité qui se manifeste et domaine dans les textes de proses et vise aussi à montrer la vision de l'auteur à travers ce tissu et les relations de rivalité contenues dans ce texte.

Mots clés : L'intertextualité (historique, littéraire et religieux) Roman "les fils de la démocratie".

Aspects of Intertextuality in the Novel of "Sons of Democracy" of Yasser Shaaban

Abstract:

Intertextuality is considered as an artistic technique that is widely used by recent and modern poets and novelists, it gives the text such abundance and enrichment and highlighters its beautiful structure as well, "Yasser shaaban" is one of such novelists who dealt with intertextuality in their blogs, especially in his novel entitled: "Sons of Democracy" where (history, literature and religion ...).

This study seeks to reveal the dominant manifestations of intertextuality in this narrative text, and to show the writer's vision through the existing intertextual relations in the text.

Key words: Intertextuality (historical, literary; religions), "Sons of Democracy" novel.

- مقدمة:

إن النص الروائي فضاء واسع ومجال رحب تلتقي فيه مجموعة من النصوص وكذلك الأجناس الأدبية الأخرى والمظاهر الثقافية غير الأدبية، فهو يستوعب كل ما يتصل بحياة الإنسان وبفكره من دين وفلسفة وتاريخ وأسطورة وسياسة... مما يجعله سيفساء من تلك الحقول المتجاورة والمتداخلة والمنسجمة، وهذا ما سمي بالتناسل.

وقد هيمن هذا الأخير وتعددت أشكاله في رواية "أبناء الديمقراطية" وذلك راجع لتنوع ثقافة الكاتب وشساعتها، وإطلاعها على ثقافة الآخر، لذلك تنوع التناسل وتعدد، وقد أخذنا من الرواية بعض التناسلات الواضحة من بينها:

1 - التناسل التاريخي :

استطاع الراوي أن يستحضر تاريخا حيا داخل شبكة من العلاقات الجديدة لذلك تعتبر المادة التاريخية من أهم الروافد السردية التراثية المتعاقبة مع النص الروائي، فهي تحدث تفاعل نصي تاريخي تقدم الأحداث والوقائع

المتزامية عبر الأزمنة القديمة والساحقة لإضفاء النص الروائي أكثر شرعية ومصداقية من حيث وجوده، كما أن تجسيد المادة التاريخية يساهم في استحضار الخطاب التاريخي لمواجهة الواقع المعاش وانتقاده.

ففي رواية "أبناء الديمقراطية" يعلن الكاتب في بدايتها بأنه: "متناص مع رواية أخرى في الجانب التاريخي الساخر"¹.

وأمثلة هذا النوع من التناص ماثورة في مواضع قليلة من الرواية، وسنحاول تسليط الضوء عليها وكشف علاقتها بالرواية.

فقد ورد التناص التاريخي في الصفحات الأولى من الرواية، بل يمتد إلى آخرها، حيث يسرد المؤلف قصة غزو أمريكا للعراق، فيقول: "وحكايتي تبدأ ليلة إعلان الحرب على العراق" فعليا كان ذلك ليلة اصطدام الطائرتين ببرجي التجارة في أمريكا، ولكنني الآن أعتبر أن هذا الحادث كان تمهيدا ليس فقط لضرب أفغانستان بل لغزو العراق واستعمارها.²

فالكاتب باستحضاره هذا النص إنما يريد أن يبين الوجه الحقيقي لأمريكا وأهدافها ونواياها من الحرب وكشف المخططات الاستعمارية، والألاعيب السياسية الممارسة على الشعوب العربية، فبعد أحداث 11 سبتمبر 2001، رأت الإدارة الأمريكية أن هناك علاقة بين "صدام حسين" و"أسامة بن لادن"، واستعملت هذا التبرير لتوجيه التهمة إلى "صدام حسين" بضلوعه في هذه الأحداث، وباعتباره مصدر تهديد لهم، وأنه خطر على الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد النجاح الذي حققه الغزو الأمريكي لأفغانستان، والذي كان الهدف منه إسقاط نظام طالبان وزعيمه "الملا عمر" والقضاء على "بن لادن"، مما جعل الإدارة الأمريكية تتصور أن لها التبريرات العسكرية والإسناد العالمي الكافيتين لإزالة مصادر الخطر على أمن واستقرار العالم في منطقة الشرق الأوسط مما جعلها مصممة على الإطاحة بحكومة "صدام

حسين" خاصة في ضوء وجود سبب أساسي للحرب على العراق، وهو أنها تمتلك أسلحة دمار شامل. ويقول الراوي في حديثه عن هذه الحرب وأهميتها لدى الشارع الأمريكي والرأي العام العالمي باعتبارهما من المؤيدين لهذه الحرب وبشرعيتها، فيقول: "تعجلت الحكومة الأمريكية، بضغط من الهياج الجماهيري والبلاغة الخطابية المؤثرة وقامت بالدعوة إلى تحريك جيشها وقواتها الجوية والبحرية ووسائل الإعلام ودفعت بها إلى المعركة..."³

فالحكومة الأمريكية تطمح وتسعى إلى "الهيمنة على سوق النفط العالمية وضمان عدم حصول أزمة وقود في الولايات المتحدة بسيطرتها بصورة غير مباشرة على ثاني أكبر احتياطي للنفط في العالم"⁴.

كما يستحضر الكاتب "حرب الفيتنام" في روايته؛ فيوقعنا في تناص تاريخي مع هذه الحرب، يحملنا به ثقل ذلك التاريخ، وكل ما حمل من صراع ومشاحنات فيقول: " فعند اصطدام الطائرتين ببرجي التجارة ظن الناس ذلك انتصارا وعندما بدأت الحرب على العراق قالوا ستكون فيتنام أخرى"⁵، فالتناص هنا ظاهر من خلال الإشارة إلى حرب الفيتنام الشهيرة، ووظيفته الفنية بارزة من خلال الصورة المتخيلة لما سيحدث في هذه الحرب، باعتبار الناس يعلمون بنتائج حرب الفيتنام والخسائر المترتبة على هذه الحرب، وبالتالي فهذا التوظيف ينسجم مع النص الذي استعان بالتناص لفتح باب التخيل والتصوير والمثابفة، فمضمون التناص هنا يتضح في مثابفة تلك الحالات التاريخية للحالة الراهنة في النص ومن هنا يأتي هذا التناص منسجما مع الأحداث معززا لصورتها .

كما يستحضر الراوي تناصا تاريخيا آخرًا يتمثل في نبأ استسلام ألمانيا في الحرب العالمية الثانية فيقول: " هبطت مدينة الإسكندرية ظهر اليوم الثامن من شهر مايو 1945، وكان نبأ استسلام ألمانيا في الحرب العالمية

الثانية قد أعلن في اليوم السابق على هذا التاريخ /.../ فقد وجدتها تموج بعشرات الآلاف من جنود الدول المتحالفة.⁶

فالراوي لم يستحضر هذا النص جزافا وإنما غرضه من استحضار هذا التناص أن يبين مدى قوة الدول المتحالفة (فرنسا، إنجلترا، الولايات المتحدة الأمريكية، الاتحاد السوفياتي) في السيطرة على دول المحور (ألمانيا، إيطاليا، اليابان) فهو من جهة يستحضر هذا التناص ليصور مدى قوة الولايات المتحدة الأمريكية والدول المتحالفة معها باعتبارهم سيواجهون العراق، ومن جهة أخرى يريد أن يبين أداة الحرب التي تستعملها الدول المتحالفة في الحروب والمتمثلة في الجنود، فيقول: " كانوا يسبغون في الطرقات على غير هدى، ينشدون بلغات مختلفة وبعضهم يرقص على نغم الأكف ويخيل لمن يراهم أنهم قد حصلوا على عفو بعد حكم قضى بإعدامهم.⁷ فهؤلاء الجنود كما يوضح الراوي في ثنايا الرواية خاصة في الفصل الثاني من الرواية المعنون "بسجن العظماء" أنهم مجموعة من المساجين والمجرمين والمحكوم عليهم بالإعدام، أطلق عليهم تسمية "أبناء الديمقراطية" لإيهام الشعوب العربية بنشر الديمقراطية التي يفتخرون لها، فالراوي وظف هذا التناص للتعبير عن مدى قوة أمريكا وحلفائها وكشف أداة الحرب المستعملة .

"وياسر شعبان" باستحضاره للتاريخ واستلهامه معطياته الدلالية في نصه الروائي أنتج تمازجا وخلق تداخلا بين الحركة الزمنية، مما سمح باستنطاق الواقع المعيش.

2 - التناسل الأدبي : (مع نصوص سردية)

هذا النوع من التناسل يعني تداخل نصوص أدبية مختارة، قديمة وحديثة، شعرا أو نثرا مع نص الرواية الأصلي بحيث تكون منسجمة وموظفة ودالة قدر الإمكان على الفكرة التي يطرحها المؤلف أو الحالة التي يجسدها ويقدمها مع روايته، فالرواية لا تخلوا من التناسل الأدبي، فقد وظف الكاتب عدة علاقات تناسلية، وتحديدًا مع رواية (المحاكمة) "لكافكا".

يأتي التناسل مع رواية المحاكمة في معرض حديث الراوي عن إيجاد شيء ما يسهم به في تخفيف ما يعانیه، فقد صرح بأن اللحظة التي كان يعيشها في تلك الفترة: " لحظة كابوسية لا تخلو من هزل /.../ لحظة كابوسية تذكرك برواية المحاكمة لكافكا"⁸، فنص الروائي يدفع قارئه لدراسة التناسل بينه وبين نص "كافكا" من خلال تناص الأفكار المحيل على كل ما هو واقعي، وهذا التناسل يحمل في طياته رياح التغيير والتبديل في المواقف والرؤى الأيديولوجية والسياسية.

ومن أهم جوانب تناص الأفكار بين الروائيتين، فكرة رؤية الإنسان مقيد ومجبر على أفعاله، فقد وضعت له حدود لا يستطيع تجاوزها، "كافكا" في المحاكمة " يريد أن يصور الإنسان غريبا معلقا لا يدري من أين جاء وإلى أين يمضي /.../ كما لا ينكر وجود القوة القاهرة المدبرة، ولكنه لا يعرف كيف يتصل بها"⁹.

كما يكمن التناسل بين الروائيتين في أن الشخصيات في كلتا الروائيتين تجد نفسها في صراع مع قوى لا تستطيع مجابهتها، وما يرمي إليه "ياسر شعبان" في تناصه مع "كافكا" في المحاكمة، إنما هو تبيان حالة الإنسان في مطلع القرن العشرين وشعوره بالعجز والضياع، وأنه مجرد نسخة قد حددت لها أفعالها، وأن هناك قوى تسيطر عليها، وفي هذا السياق يقول الراوي: "

لحظة لا تخضع فقط لمنطق الحلم، بل تتجاوزه بفعل آليات نسخ تكاد تكون لا نهائية لتجد نفسك أمام آلاف النسخ/.../ حالة تتجاوز استخدام الأقنعة فالقناع يشير إلى وجود وجه أسفله، أما النسخ فتوهم بأن الوجوه حقيقية ولأشخاص حقيقيين¹⁰.

كما أن مضمون رواية (المحاكمة) هو تبيان: " محنة الإنسان وحيرته أمام العدالة وإن العدالة موجودة والجميع يتكلمون عنها، ولكن الوصول إليها غير ممكن"¹¹.

ورواية (أبناء الديمقراطية) دخلت في علاقة تناصية مع الأفكار التي تدور حولها رواية (المحاكمة) والراوي يسعى من خلال روايته إلى محاولة تحقيق العدالة وكشف الوجه الحقيقي للشعوب الغربية تجاه نظرتها للشعوب العربية، فهذه الشعوب ترتدي أقنعة تخفي وراءها الحقيقة التي لا تريد أن يطلع عليها الآخرون، فهو بقوله هذا يرمي إلى أن أمريكا لا تريد أن تبين صورتها الحقيقية، وأنها لا تعندي على الشعوب العربية، وإنما تحميها من أعداء الديمقراطية أو بالأحرى "الإرهاب" الذي ينشر الرعب ويخلف الدمار، وأنها تحاول أن تنتشر السلام والمحبة، وتحقيق العدالة وإصلاح ما فسد منها، وهذا نقيض ما تخفي تماما، "قياسر شعبان" عبر تناصاته مع رواية (المحاكمة)، يكشف عن كيفية تمثله لها، إذ ينطلق من الواقع بهدف الإيضاح والتغيير والتبديل.

– التناص مع "جان جينيه": يرتبط أفق التناص في (أبناء الديمقراطية) بعالمية النص أو دنيا النص التي يروج لها "إدوارد سعيد" فهو يرى: " أن كل نص أدبي متقل بمناسبته التي تفرض عليه علاقاته النصية، أي بالوقائع التجريبية البسيطة التي انبثق عنها فالنص يعقد علاقاته في إطار

عالميته، فالنصوص توجد في أشكال دائمة التشابك مع الوسط الاجتماعي والثقافي والسياسي ومع الزمان والمكان¹².

و(أبناء الديمقراطية) متقلة بمناسبتها، فهي تحاول أن توقظ الضمير العربي وذلك بذكرها "للمخططات الأمريكية لإعادة استعمار المنطقة العربية تحقيقاً للحلم الصهيوني "من النيل إلى الفرات" واستنزاف ما تبقى من ثروات نفطية¹³.

فكان من الطبيعي أن تدخل هذه الرواية في علاقات تناصية مع نصوص أخرى، تدور في فلكها ولها حضورها في ذاكرة الروائي، وما يجيش فيها من خزين معرفي ووجداني، وقد استشهد "ياسر شعبان" في روايته بـ "جان جينيه" حيث يقول: "وثمة مقولة مدهشة لـ "جان جينيه" : — الفيلسوف والصلعوك — بشأن التمرد والخروج على قواعد الجماعة وقوانينها...¹⁴، فهو يوظف هذه المقولة، ويسعى من ورائها لإنتاج الدلالة، فتبرز لتعزیز ما يرمي إليه الكاتب، ويحاول أن يبين أن "جان جينيه" شارك في حركة التحرر العربي من خلال نصوصه الصارخة في وجه المستعمر، فقد آمن بالقضية الفلسطينية لذلك كتب حبا بالفلسطينيين ودفاعا عنهم، لذلك صرح بقوله: " إنني فرنسي غير أنني كليا، ودون حكم، أدافع عن الفلسطينيين، إنهم محقون فيما يطالبون به"¹⁵، فالأمر الذي جعله صلعوكا ومتمردا هو: "أنه عاش حياة صاخبة، فهو ابن غير شرعي، ونزير دار الأيتام، التلميذ المجتهد، السجين في مقتبل العمر، الصلعوك ذائع الصيت، المتشرد، صديق المقهورين المثلي العسكري في الليف الأجنبي، صديق الجزائريين في ثورتهم، المتمرد على المركزية المغربية، عدو إسرائيل"¹⁶.

فقد كان من أشهر اللصوص والهاربين من يد العدالة في تاريخ فرنسا المعاصر فحياته تحولت إلى أيقونة إلى التمرد عندما جال العالم

ليتحول إلى صوت للمضطهدين من ذلك مناصرته للفدائيين الفلسطينيين فقد تبنى قضيتهم إلى آخر يوم في حياته، فلم نجد كتابات "جان جينيه" (أسير عاشق وأربع ساعات في شاتيلا، ونظرات خاطفة على أمريكا، ومؤتمر ستوكهولم والإخوة كارامازوف ...) تطفو على رواية (أبناء الديمقراطية) بصيغة مباشرة، بل كانت هذه النصوص حاضرة في مضمونها على متن هذه الرواية فهو " إن كان لم يشهد حرب الخليج الثانية التي غزت فيها القوات العراقية للكويت، ولا احتلال القوات الأمريكية للعراق بعد أحداث 11 سبتمبر التي انعكست تبعاتها على العالم أجمع بما فيها الوطن العربي، ولم يتابع المجازر الدموية التي يرتكبها الكيان الصهيوني ولا الممارسات اللاإنسانية التي تقتربها الإمبريالية العالمية التي يتزعمها اللوبي الصهيوني بحق الشعب العربي من أجل السيطرة على موارد النفط، لكن نبؤة صاحب "عذراء الزهور" و "الخادمت" و "الأسير العاشق" و"شعائر الجنازة" بتاريخ دموي سيبقى يعصف ببلادنا العربية قاطبة مادامت آبار النفط تضخ الذهب الأسود الذي يسفح مقابل كل برميل منه دم مواطن عربي"¹⁷.

فهذه النصوص بمثابة مرافقة لحركاته وأفعاله أكثر منها قائمة بذاته وهي: " مذكرات ومشاهدات وآراء في لحظات محددة في تاريخ معارضته، أو في الأصح مناوئته للرأي العام الغربي، هذه المناوئة وإن اتخذت شكل المعارضة والانتقاد حد التمرد، إنما تكشف عن طابع من رد الفعل الحاد الذي اتخذته الكاتب نصا وسلوكا بوصفه الطرف المهمش من معادلة المجتمع"¹⁸.

أخيرا يمكننا القول واعتمادا على تأويلنا للتناص غير المباشر بين "ياسر" و "جينيه"، أن "ياسر" سعى من خلال هذا التناص إلى توضيح وكشف تمرد "جينيه" على قوانين الجماعة وذلك من خلال مساندة "جينيه" الغربي

للغرب، وهذا يدخل ضمن منطق رفض الهامش للمتن، أي هي صورة لانتقاد المركزية النظرية الغربية التي تجسدت في إقامة إسرائيل وحلفائها وإسنادهم على حساب العرب، كما أراد أن يبين من خلاله صورة المجتمع الغربي الظالم، وهذا ما نلمحه على متن الرواية.

3 – التناص الديني : يتناص النص الأصلي للرواية مع نصوص دينية مختارة، بشكل ضمني من خلال بنيات نصية صغرى مضمنة في المتن الروائي، تحيل إلى مرجعيتها الدينية، وتكون متضمنة في النص الروائي، بعد أن انتزعت من سياقها الديني لتأخذ في النص الروائي أبعادا سياسية أو أدبية أو أيديولوجية مرتبطة بالواقع التاريخي أو الاجتماعي أو التخيلي الذي تطرحه الرواية، كما أن حضور النص الديني في الخطاب الروائي يضيف عليه سمة التأثير سواء كان ذلك على مستوى البناء الفني للرواية، أو على مستوى المتلقي، ويتحدد ذلك في تعميق الفكرة التي جاءت في سياقها.

وفي رواية (أبناء الديمقراطية) كثرت نماذج التناص الديني، سواء كان ذلك مع التراث الإسلامي (القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف) أو مع التراث المسيحي.

– التناص مع القرآن الكريم: يتطلع النص الروائي إلى تناصاته مع النص المقدس ولكن ليس بصورة مباشرة، فالتناص هنا جاء بشكل ضمني، والغرض منه ترقية أبعاده اللغوية والفكرية، وإعطاء الخطاب الروائي قيمة فنية خاصة ذات تأثير عميق في نفس المتلقي بعد أن يمنحها رؤيته الخاصة وأيضا لتفجير طاقات دلالية خاصة، بحيث يكون الاتكاء عليه في تشكيل عمله الروائي، ومن هنا تأتي الحاجة إلى النص القرآني بوصفه نصا "عجازيا" مشتركا بين القارئ والكاتب.

وإذا تأملنا رواية (أبناء الديمقراطية) ستظهر لنا تناصات الكاتب مع الفضاء القرآني ليس بالمساحة الكبيرة، تشيع في روايته معان قرآنية من شأنها تعميق دلالات الرواية والتأثير على القارئ بانشغالاتها الفكرية والنفسية، سنكتفي بذكر بعض النماذج للتمثيل، فمن ذلك قول الراوي: " باسم من قضى نحبه وباسم من ينتظر...¹⁹، ففيه إحالة إلى قول الله تعالى وهو يصف المؤمنين بأنهم مستمرين على عهدهم وميثاقهم في الجهاد، فيقول عز وجل في محكم تنزيله: " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا "²⁰، وكان سبب ذلك كما ورد في تفسير "بن كثير" أن الله عز وجل: " لما ذكر المنافقين، أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأديار وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق (وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه) يعني موته على الصدق والوفاء ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك "²¹.

وما نلاحظه أن "ياسر شعبان" في استحضاره لهذا النص، واستلهامه للنص القرآني إنما أراد أن يعبر من خلال تداخل النصوص عن الوضع الحاضر، فكما عرفنا في التفسير السابق في "من قضى نحبه ومنهم من ينتظر" أي مات على الصدق و الوفاء ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك، فهذا النص لدى "ياسر شعبان" يخرج من دلالة هذا المعنى الذي عرفناه ويكون (من قضى نحبه) ذلك الذي جدد مبادئ الديمقراطية (ومن ينتظر) الذي سيموت لأنه جاهد لهذه المبادئ، ولعل ما يؤكد صحة قولنا هو الكلام السابق لهذا النص، قوله: " باسم الذين كتب عليهم الموت لأنهم جددوا مبادئ الديمقراطية "²² ومناسبتها هي التحذير من "أبناء الديمقراطية" باعتبارهم مجموعة من المساجين والمجرمين الذين يكونون جيوش خاصة بالدول

الغربية الذين جاؤوا إلى الشعوب العربية لنشر مبادئ الديمقراطية، هذه المبادئ الزائفة والتي باسمها تزهد أرواح رافضيها وتحنت الشعوب وأراضيها، فيكون هذا لونا من ألوان الإيهام بالاستشهاد القرآني، بينما الحقيقة نقول عكس ذلك، وقد جاء استدعاء الآية مناسبة جدا للسياق ومتسقا معه.

ومن ذلك أيضا قوله: "باسم يوم الوعيد المنتظر الذي تخشع فيه الأرض رهبة وتفتح السماء أبوابها لتستقبل الملايين من أرواح البشر..."²³، فهذا القول فيه تناص غير مباشر مع أكثر من آية في القرآن تتحدث عن يوم الحساب والجزاء للعباد، مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾²⁴، فحسب ما جاء في تفسير هذه الآية أنه "اليوم الذي توعد الله فيه المجرمين بالعقاب وسوء الجزاء"²⁵، وقوله تعالى: " وفتحت السماء فكانت أبوابا"²⁶، وقيل معنى ذلك " وفتحت السماء فكانت قطعاً كقطع الخشب المشققة لأبواب الدور والمسكن وقالوا: ومعنى الكلام وفتحت السماء فكانت قطعاً كالأبواب"²⁷، فقد جاءت النصوص القرآنية منسجمة مع سياق الحدث الروائي، كأنه جزء من بنيته، إلا أن "ياسر شعبان" يقصد (بيوم الوعيد) ذلك اليوم الذي تغزو فيه قوات الاحتلال الأمريكي وتسيطر على مقدرات الشعوب بحجة الديمقراطية، هذه الديمقراطية الوهمية الزائفة، والتي لم تجلب إلا الدمار وحصاد الأرواح، كما يقول الراوي: "ذلك هو يوم حصاد الأرواح على يد أبناء الديمقراطية"²⁸.

ويبدو أن النص السابق (باسم يوم الوعيد..) انزاح نسبيا عن صيغته الأصلية في القرآن الكريم، مع بقاء بنيته العميقة مشعة، فيوم الوعيد كما ورد في القرآن هو يوم الحساب الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه، ويوم الوعيد كما جاء في الرواية هو يوم الحساب الذي سيكون على يد أبناء

الديمقراطية للشعوب الراضة لمبادئ الديمقراطية، لذلك ستفتح السماء أبوابها لتستقبل الملايين من أرواح البشر الراضين لها.

فهذا الحديث يقودنا إلى اعتبار علاقة المحاكاة التي تحكم هذا التعالق النصي الذي تم على صعيد استرجاع النص القرآني الغائب ودلالاته في النص الروائي لتعميق التماثل والتشابه المضموني بين الحالتين، حالة الناس يوم الحساب وحالة الشعوب الراضة للديمقراطية يوم الاحتلال.

ويأتي نموذج آخر للتناص الضمني من خلال علاقة تناصية يستحضر فيها الراوي آية من القرآن الكريم، في سياق حديثه عن فكرة غياب العدل والمساواة بين الناس يقول: "لا فرق بين الحاكم والمحكوم والقاضي والمتهم فهذا وذلك بشر..."²⁹، فهذا القول فيه إحالة إلى قول الله عز وجل: "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"³⁰، فكما جاء في التفسير الشامل للقرآن الكريم بخصوص هذه الآية أن الله عز وجل: "يخاطب بذلك على وجه الخصوص الحكام والأمراء والولاة، وقيل إن الخطاب موجه في معناه لجميع الناس فهم مدعوون للحكم بالفعل إذا ما حكموا"³¹، لذلك نجد الراوي يستحضر هذا النص ليبين فكرة غياب العدل والمساواة والظلم السائد بين الناس، وكشف وجه الباطل الذي تسام العباد من خلاله ألوان الشقاء والبلاء.

وتحضر علاقة تناصية أخرى يستحضر فيها الراوي نصا قرآنيا، وذلك من خلال وصف الأحوال التي بدا عليها المساجين بعد رفض تلبية طلباتهم من قبل وزارة الخارجية، ففي هذا الصدد يقول: "وبدا المساجين كأنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن الدهشة أذهلت عقولهم"³²، وهذا القول يحيلنا إلى قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾³³، فقد جاء في تفسير هذه الآية (وترى الناس...): " أي ترى

الناس يا محمد من عظيم ما نزل بهم من الكرب سكارى وذلك من فرط ماغشبيهم من الذعر والفرع وهم ليسوا سكارى من شرب الخمر ولكن عذاب الله شديد³⁴، و"ياسر شعبان" إنما يوظف هذا التناص ليبين زعر المساجين وحيرتهم من فظاعة الحيل المستخدمة من قبل وزارة الخارجية، بل ومن فظاعة هذا الحكم والظلم الجائر وشدته وهول ما ينزل بهم من القوارع والبلايا ولذلك جاء استدعاء الآية مناسبة جدا للسياق ومتسقا معه.

مما سبق نلاحظ أن آليات التناص مع النصوص القرآنية عند "ياسر شعبان" قد ارتكزت على التناص غير المباشر مع المفردات والتراكيب القرآنية والتي حاورها الراوي ليستحضر دلالتها في نصه، لذلك استعار بعض هذه المعاني لتكون معلما له يهتدي به في الرواية.

– التناص مع الحديث النبوي الشريف: يعد الحديث النبوي الشريف

المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، فكما عكف الكتاب على النصوص القرآنية ينهلون منها مادتهم، فإن الحديث كان أحد المناهل والمصادر التي رقد منها الرواة والشعراء.

وفي رواية (أبناء الديمقراطية) لم يرد تناص مباشر مع الحديث النبوي الشريف، ونقصد بذلك أن يرد قبله ما يدل على أن النص التالي هو حديث شريف، فقد استحضره في نصه الروائي وأعاد كتابته وفق تجربته الشعرية، ووفق منطق نصه بإشراق عبارته وبلاغته، واستطاع أن يستوعب مضامين الحديث الشريف ودلالاته وأن يذبيها في نصه.

وهذا التناص غير المباشر أمثله قليلة في الرواية، فمن ذلك قول الراوي: "لا فرق بين الحاكم والمحكوم والقاضي والمتهم فهذا وذاك بشر/.../ فالناس جميعا يخرجون من بطون أمهاتهم وكلهم يبغون المجد ويضل منهم

من أعد العدة لقطع الطريق"³⁵، فهذا القول فيه إحالة إلى قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي ولا أبيض على أسود، ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى"³⁶، فالمقصود من الحديث أن الناس جميعا سواسية كأسنان المشط، لأنهم من أب واحد وأم واحدة، وإنما يفضل الفاضل منهم بتقوى الله وحده، فكلنا أبناء تسعة أشهر وكلنا إخوة وأخوات، والكاتب استحضر هذا الحديث ليبين حقيقة العدل والمساواة المفقدة بين الناس، وأن هذا الحاكم أو القاضي بحكم منصبه يقترب للذنوب ويفعل أي شيء لأنه لا يوجد من يردعه ولا يساوي نفسه بغيره لذلك قال: "وقد يكون القاضي مقترفا لذنوب أعظم من جرم هذا الذي يكون تحت رحمة قضاائه، وقد يكون الحاكم على خطأ لا يغفر له ويحق الموت على من اقترفه من رعاياه"³⁷.

وما نتبينه من هذا القول إنما هو عدم تطبيق مبدأ المساواة والعدل في الحكم، فالتناص جاء متناسبا مع المعنى المراد من الحديث.

وفي نفس السياق أي عد تطبيق العدالة والمساواة بين الناس يقول في هذا الصدد: "إذا ارتكب رجل قوي جريمة ضد آخر ضعيف، لا يحاكم الرجل أقوى على جريمته بل يحاكم ظله..."³⁸، ويقصد هنا بالرجل القوي ذلك الرجل الذي له مكانة مرموقة وصاحب نفوذ وسلطة فهو لا يعاقب على أفعاله وتصرفاته، بينما ذلك الرجل البسيط الذي ينتمي إلى الطبقة الكادحة تسلط عليه أبشع العقوبات وهذه المقولة السابقة تحيلنا إلى الحديث النبوي الشريف " فعن عائشة رضي الله عنها، دخل علي رسول الله - صلى الله عليه وسلم وهو يقول: "يا عائشة قومك أسرع أمتي بي لحاقا"، قالت فلما جلس قلت: "يا رسول الله جعلني الله فداك لقد دخلت وأنت تقول كلاما ذعرتني؟" فقال: وما هو؟"، قالت: "تزعم أن قومي أسرع أمتك بك لحاقا" قال:

"نعم"، قالت: "وعم ذاك؟"، قال: "تستلحيهم المنايا فتتفس عليهم أمتهم، قالت: فقلت: "فكيف الناس بعد ذلك أو عند ذلك؟ قال: "دبى" يأكل شداده ضعافه حتى تقوم عليهم الساعة"³⁹.

فالروائي باستحضاره لهذا النص أو التلميح له، إنما يريد أن يبين بنصه هذه السياسة المطبقة في عصرنا الراهن، أي سياسة أكل القوي للضعيف، وطغيان روح الكراهية وحب النفس وغياب العدالة والمساواة، سواء كان ذلك من قبل الشعوب الغربية باعتبارها هي الشعوب القوية، والتي تمارس هذه السياسة على الشعوب العربية، أو على الشعوب العربية نفسها (أي بين حكامها ومحكومياتها) باعتبارها الأولى (القوي) والثانية (الضعيف). وعلى العموم فإن "ياسر شعبان" في تلميحه أو في تناصه الضمني مع الحديث النبوي الشريف، ومن خلال تلاعبه بتوظيف المعاني والمفردات استطاع أن ينقل من حيث الدلالة من النص الغائب ليرسخ النص الحاضر.

— تناص مع الديانة المسيحية : تدخل رواية (أبناء الديمقراطية)

في عدة علاقات تناصية مع الديانة المسيحية فقد وظف "ياسر شعبان" التراث المسيحي في روايته وذلك من خلال الأدوار والمشاهد التي تؤديها شخصياته المختلفة خصوصا في الفصل الثاني من الرواية (سجن العظماء)، فالديانة المسيحية في (أبناء الديمقراطية) وظفت عبر عدة علاقات تناصية، توحى بوجود تماثل قوي بين النص الديني والنص الروائي، فتأتي بعض النماذج لهاته العلاقات التناصية عبر بنى نصية صغرى تحيل إلى النص الديني (الديانة المسيحية)، وذلك في سياق سرد الراوي عن الدعاية للاستعمار باسم الدين. وكان ذلك بعد المفاوضات التي أجراها كل من الوفد الذي يمثل المساجين، والوفد الذي يمثل الوزارة الخارجية البريطانية، ورفض مطالب

المساجين المتمثلة في المناصب المرموقة، وتعيينهم آباء مبشرين، وهم لا يعرفون عن الدين شيئاً من ذلك ما جاء في الرواية " كيف يحدث هذا وسواد المساجين الأعظم لم يظاً أعتاب الكنائس من تاريخ مولده عدا اليوم، الذي حمل فيه رضيعاً كي يعمد، كما أن معظمهم لا يعرف القراءة والكتابة"⁴⁰، فعبر هذه البنية النصية الصغرى يقيم النص الروائي علاقة تناصية مع نص العهد الجديد تدفع القارئ باستحضار فكرة التعميد " التي هي شعيرة من شعائر النصارى ويقصدون بها غمس الجسم أو جزء منه في الماء أو رشه، وحكوا أن يحيى بن زكرياء عليهما السلام قام بتعميد المسيح عيسى عليه السلام"⁴¹.

فقد استحضر النص الروائي مجموعة من النصوص التي تجعله في تناص مع الديانة المسيحية، من ذلك (فكرة التعميد، واللعب بالأدوار بين القسيس والمعتزف، والآباء المبشرين ...) كل هذا يبرز التعالق النصي مع التراث المسيحي.

ومناسبة هذه النصوص إنما هي التخطيط للاستعمار باسم الدين، فهؤلاء الآباء المبشرين ليسوا مبشرين تابعين للكنيسة وإنما مبشرين سياسيين، فقد جاء على لسان أحد شخصيات الرواية "مستر سميث" الذي يعد رئيس الوفد التابع للوزارة الخارجية البريطانية بأن هؤلاء المساجين سيظلون آباءً مبشرين تابعين لوزارة الخارجية بوصفهم قسسا مدنيين/.../ ومن ثم ستكون رسالتهم في التبشير سياسية، أي دعاية للاستعمار باسم الدين"⁴².

ثم تأتي مشاهد أخرى لها علاقة تناصية مع العهد الجديد عبر المشاهد التي أدى أدوارها المساجين متقمصين شخصية كل من القسيس والمعتزف "فبعضهم يلد القس في إلقاء الموعظة ومنح البركة"⁴³، كما

يستحضر الراوي كيفية التعبير في الصلاة التي كان يؤديها الصالحين، فيقول: "وأحاط نفر منهم بـ"جون" طالبين منه أن يعلمهم الصلاة التي يحفظها ولما لم يستطع التملص منهم لقناها لهم وكانت قصيرة يرددها على روح الأموات وفي كل مناسبة لم يكن يعرف صلاة سواها وهي (اللهم اغفر لنا خطايانا)...⁴⁴، وفي ذلك إحالة لكيفية الصلاة عند المسيحيين، فكما جاء في (إنجيل لوقا) أن الصلاة تكون كالآتي: "أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء، كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم، وأغفر لنا خطايانا لأننا نحن نغفر لكل من يذنب إلينا ولا نتدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير"⁴⁵، فهذا الحديث يقودنا إلى التعالق النصي الذي تم على صعيد استرجاع النص المسيحي الغائب الخاص بكيفية التعبير في الصلاة، ودلالته في النص الروائي لتعميق التماثل والتشابه المضموني بين الحالتين.

ويأتي نموذج آخر في مشهد آخر، حيث يقف سجين يمثل دور المبشر وأمامه سجين آخر يمثل دور الوثني الذي يستعطف المبشر كي يهديه للدين،" فيقول له المبشر وقد أمسك بأذنه: عليك أن تتبع رسالة وزارة الخارجية البريطانية فهي وكيلة عن آلهة السماوات في الأرض حتى ترسل اسمك إلى السماء كي يحجز لك مقعدا في الجنة، وإذا لم تنفذ تعاليم وزارة الخارجية البريطانية فترسل لك عددا من الشياطين يحيلون حياتك جحيما حتى تهلك على أيديهم وتخلد بعدها في النار"⁴⁶.

صحيح هذه المشاهد تدفع القارئ باتجاه استحضار الديانة المسيحية من خلال دور المبشر وهدى المعترف... ولكن خلفها (المشاهد) معاني ضمنية تستحق التأويل، فثمة علاقة بين التبشير والاستعمار فهما وجهان لعملة واحدة فالمبشرون هم الواجهة الدينية للمستعمر، والاستعمار هو الحقيقة

الاقتصادية والسياسية للمبشرين، فهذا النص يعيد صياغة النتاج المسيحي القولى من جديد وجعله ينبني على فكرة إتباع المبشرين ووزارة الخارجية في هذه الحياة، لأن وزارة الخارجية وكيلة لآلهة السماوات في الأرض والآلهة هي من تقرر حياة الناس وتحجز المقاعد في الجنة، ويقصد الراوي بالآلهة هنا تلك الشعوب الغربية، أما الوثني يقصد به ذلك السجين أو أداة المستعمر التي ينبغي عليها إتباع هذا المستعمر وإلا يكون مصيره الهلاك ويخلد في الشقاء .

"قياسر شعبان" بتوظيفه بعض الرموز المقدسة في الديانة المسيحية إنما أراد أن يوضح الوسيلة التي تتخذها الشعوب الغربية، في خداع وإيهام الشعوب الأخرى، وذلك من خلال خط السياسة بالدين فهو يريد أن يوضح في نصه أن المبشرين لم يستعملوا لمصلحة دينية وإنما لخدمة الاستعمار والعبودية .

وهكذا يلاحظ أن النص الروائي يدفع القارئ عبر علاقاته التناسية المتنوعة والمتعددة باتجاه إعادة تشكيله وصياغته من جديد ، وذلك بالبحث عما هو خارج النص من معرفة وربطها، مع ما هو داخله وفتحه آفاقا تأويلية واسعة .

وهكذا تبدوا العلاقات التناسية مع النص الديني سواء مع القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو الديانة المسيحية، كما رأينا مثلت المرجعية الثقافية والمخزون الثري الذي رجع إليه الراوي، فالموضوعات الدينية كما نعلم تغني الفكرة لما تمتاز به من الثراء في مدلولاتها الرامزة، فقد منح النص الروائي أكثر خصوبة وثراء وإضاءة من خلال منح ما تحمله من الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة ومن طاقات إيحائية وإشارات تخدم

غرض الروائي وتكشف عن محور رؤيته الأساسية وتجعل القارئ متفاعل مع النص.

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن العلاقات التناصية التي وظفها الكاتب على مستوى روايته، سواء كانت تاريخية أم أدبية أم دينية كان مفادها الكشف عن الوجه الحقيقي للشعوب الغربية تجاه نظرتها للشعوب العربية، وتوضيح فكرة العدالة والمساواة المفقودة لدى هذه الشعوب، كما كان من أهدافه أيضا إيقاظ الضمير العربي من غفوته.

- الهوامش:

- 1- ياسر شعبان: أبناء الديمقراطية، دار الهلال، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص: 06.
- 2- المصدر نفسه، ص : 07 .
- 3- المصدر نفسه، ص، ص: 27، 28.
- 4- المنتدى العربي للدفاع: حرب العراق - أسبابها ونتائجها - ، 14 سبتمبر 2009، بتوقيت 11:10 عن موقع: www.defense-arab.com
- 5- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص: 07.
- 6- المصدر نفسه، ص : 14 .
- 7- المصدر نفسه، ص : 14 .
- 8- المصدر نفسه، ص : 53 .
- 9- عبدة عبود: الرواية الألمانية الحديثة - دراسة استقبالية مقارنة - د.ط ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق سوريا، 1993، ص، ص: 129، 130.
- 10- ياسر شعبان: أبناء الديمقراطية، ص، ص: 53، 54.
- 11- عبدة عبود: الرواية الألمانية الحديثة - دراسة استقبالية مقارنة- ص: 141.
- 12- ادوارد سعيد: العالم والنص والناقد، تر: عبد الكريم محفوظ، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000، ص : 41 .
- 13- ياسر شعبان: أبناء الديمقراطية، ص : 71 .
- 14- المصدر نفسه، ص : 46.

- 15- جان جينيه: أربع ساعات في شاتيل، تر : محمد برادة ، مجلة الكرمل ، بيسان
للصحافة والنشر ، قبرص ، ع7 ، 1983 ، ص : 160 .
- 16- حميد عبد القادر :مع جان جينيه صعلوكا ومتقفا ،31جانفي 2013، بتوقيت :
22:23 ، عن موقع : www.elkhabar.com .
- 17- أنس زرزور : جان جينيه المتمرد الذي اختصر تاريخنا العربي بجملة واحدة 30
أوت 2009 بتوقيت : 22:13 ، عن موقع: www.teshhreen.news.sy
- 18- سهام جبار : جان جينيه — شعرية التمرد والتوثيق السيري ، 30يناير 2013
،بتوقيت : 22:24 ، عن موقع: www.fobyaa.com .
- 19- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص : 05 .
- 20- سورة الأحزاب : الآية 23 .
- 21- ابن كثير الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، ج3، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان،
2002، ص، ص : 1473 ، 1474 .
- 22- ياسر شعبان: أبناء الديمقراطية ، ص:05 .
- 23- المصدر نفسه، ص: 05 .
- 24- سورة ق: الآية 20 .
- 25- أمير عبد العزيز: التفسير الشامل للقرآن الكريم ، مج6 ، ط1 ، دار السلام،
القاهرة، مصر 2000، ص : 3191 .
- 26- سورة النبأ : الآية 19 .
- 27- أبي جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آية القرآن، (تفسير
الطبري) تع: محمود شاكر الدرستاني، تصحيح: علي عاشور ج29، ط1، دار إحياء
التراث العربي، بيروت، لبنان، 2001، ص: 13.
- 28- ياسر شعبان: أبناء الديمقراطية ، ص : 05 .
- 29- المصدر نفسه ، ص : 51 .
- 30- سورة النساء : الآية 58 .
- 31- أمير عبد العزيز : التفسير الشامل للقرآن الكريم ، مج2 ، ص : 731 .
- 32- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص : 87 .
- 33- سورة الحج : الآية 02 .

- 34- أمير عبد العزيز : التفسير الشامل للقرآن الكريم ، مج4 ، ص : 2239.
- 35- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص : 51 .
- 36- الطحطاوي: العقيدة الطحطاوية ، شر وتع : محمد ناصر الدين الألباني، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت ، لبنان ، 1414هـ ، ص : 406.
- 37- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية، ص: 51.
- 38- المصدر نفسه، ص: 54 .
- 39- محمد ناصر الدين الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، مج4 ، د.ط ، مكتبة المعارف ، الرياض ، السعودية ، 2000 ، ص : 596 .
- 40- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص ، ص : 79 ، 80.
- 41- منتديات حراس العقيدة : كيف يتم تعميم النصارى ، 11 نوفمبر 2014، بتوقيت : 21:32، عن موقع : www.hurras.org
- 42- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص : 80.
- 43- المصدر نفسه، ص: 83.
- 44- المصدر نفسه، ص: 83.
- 45- محمد أحمد الخطيب: مقارنة الأديان، ط1، دار المسيرة، عمان، الأردن، 2008 ، ص: 352.
- 46- ياسر شعبان : أبناء الديمقراطية ، ص، ص: 83، 84.

وظائف الخطاب اللساني: دراسة في الساووين والمقدمات

يوسف منصر
جامعة باجي مختار - عنابة

الملخص:

درج دارسو الخطابات على الاهتمام بالخطاب الأدبي أو ما كان متاحا للدراسة التداولية كالخطاب الإشهاري أو السياسي وغيرهما، ولم يكن إلى عهد قريب الخطاب العلمي محط اهتمام هؤلاء لاعتبارات شتى من بينها أن لغة الخطاب العلمي جافة، وقد لا تعتمد على اللغة في بعض الأحيان.

بيد أن هذا التصور قاصر عن إدراك حقيقة الوضع اللغوي للخطابات العلمية والتي من بينها خطاب اللسانيات أو الخطاب اللساني كما سنصطلح على تسميته في متن المقال، فلغة العلم التي بها يدون العلماء أفكارهم هي سلوك لغوي وتعبير عن طريقة هؤلاء في تشكيل الخطاب وفق أساليب وصيغ وبنى تميز لغتهم عن بقية الاستعمالات اللغوية الأخرى. وهذا المقال محاولة لدراسة الخطاب العلمي من خلال أحد أهم أنواعه وهو الخطاب اللساني، بالتركيز على وظائف هذا الخطاب.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات - الخطاب - الوظائف .

Résumé:

Le discours littéraire a toujours attiré l'attention des chercheurs, ainsi que tous les autres types de textes qui se prêtent à l'étude pragmatique, tel le discours publicitaire, le discours politique...etc. Alors que le discours scientifique n'a pas bénéficié du même intérêt de la part des chercheurs pour des raisons diverses, comme le problème de la langue scientifique trop rigide, qui ne s'appuie pas quelque fois sur la langue.

Mais cette vision n'a pu déceler la réalité linguistique des discours scientifiques, dont le discours de la linguistique ou le discours linguistique, la langue qu'utilisent les scientifiques est un comportement linguistique, et l'expression de la méthode avec laquelle ils forment le discours, selon des styles, des morphèmes et des syntagmes qui caractérisent leur langue. Cet article est une tentative d'étudier le discours scientifique, à travers l'un de ses types, en l'occurrence le discours linguistique, en mettant l'accent sur les fonctions de ce discours.

Mots clés: la linguistique — Discours — Les fonctions .

Abstract:

The literary discourse attracted the attention of researchers, as well as other types of texts which are based on pragmatic study, as advertising and political discourse. While the scientific discourse has not taken the same interest by the researchers because is too rigid, and sometimes not focused on the language. But this vision prevent to detect his nature, including the discourse of linguistics or linguistic discourse.

The language used by scientists is a linguistic behavior, and their expression which they formulate is done according to the morphological and phrases formulas that characterize their language. This article is an attempt to study the scientific discourse by emphasizing the functions of this discourse.

Key words: linguistics - discourse – functions.

تقديم:

تركز هذه المقالة على وظائف الخطاب اللساني، وذلك خلافا لما درجت عليه أكثر الدراسات التي تتبع الوظائف في صلب الخطابات الأدبية في المقام الأول، ثم التداولية في مقام ثان، دون الاهتمام بالقدر الكافي بمعاينة الوظائف ذاتها في الخطابات العلمية – والتي منها الخطاب اللساني – وقد يكون مرد ذلك إلى التصورات القبلية التي قد نحملها عن الخطاب العلمي من حيث كونه خطابا جافا لا يتوافر على مؤشرات أدبية وفنية كافية. والحقيقة أن هذا النوع من الخطابات كغيره من الأنواع الأخرى، هو فعل تواصلية علمي يتوسل باللغة لتحقيق ذلك الفعل، وسنعمد في تحديد جمل الوظائف على نقطتين أساسيتين هما:

أ- الإفادة من التحديد الوظيفي السداسي للغة والمنسوب لرومان جاكبسون دون أن نقصد بذلك الإقحام القصري لوظيفة قد لا تظهر في الخطاب اللساني، وإن كنا نسلم مبدئيا «بتشابك الوظائف اللغوية وتماسكها في عملية الكلام»⁽¹⁾.

ب- التعامل مع الخطاب اللساني كبنية كلية من حيث الوظائف التي يفرزها، ويعني هذا أننا لا نركز مثلاً على وظائف العنوان في استقلال عن وظائف مقدمات الخطاب أو متته، بل ستكون الإشارة إلى مدى ملامسة الوظيفة الواحدة أو ظهورها في الأجزاء الثلاثة المذكورة (عنوان الخطاب/مقدمات الخطاب/متن الخطاب).

1- الوظيفة الإحالية أو المرجعية:

تتحقق هذه الوظيفة على مستوى عناوين الخطاب اللساني ومقدماته بشكل خاص، وهي الوظيفة التي «تحدد العلاقة بين المرسل والمرسلة، وموقفه منها، فالمرسلة في صدورها تدل على طابع مرسلها، وتكشف عن حالته فضلاً عما تحمله من أفكار تتعلق بشيء ما»⁽²⁾.

فأما على صعيد العناوين فتهدف هذه الوظيفة إلى «تعيين موضوع الكتاب -الخطاب اللساني- وتحديد غاياته، فتشكل هذه الوظيفة بذلك نوعاً من التعاقد بين المؤلف والقارئ والعقد مرجع»⁽³⁾.

إن بعض الخطابات اللسانية تتضح لنا مرجعياتها أو تعلن عنها، من خلال ما تتطرق به عناوينها، ويعتبر هذا الإفصاح بالمرجعية جراً للمتلقي إلى الدائرة ذاتها التي أسسها الباحث، ويضاف إلى ذلك أن بروز هذه الوظيفة على مستوى عنوان الخطاب، هو تأسيس لوظيفة أخرى لا تقل أهمية عنها وهي وظيفة إقامة الاتصال، فالعنوان هو الواجهة أو المنصة التي يلتقي عليها الباحث والقارئ على حد سواء، وتتعدد صور إحالات العناوين على مرجعياتها، بحسب مقاصد الباحث اللساني، غير أنه يمكن - من خلال معاينة بعض الخطابات - حصرها في الصور الآتية:

أ- المرجعية اللسانية العامة:

أي الإحالة على اللسانيات بصفة عامة، والشاهد في ذلك العتبات الخطابية الآتية(4):

- مبادئ اللسانيات: خولة طالب الإبراهيمي.
- مدخل إلى اللسانيات: صالح الكشو.
- اللسانيات وأسسها المعرفية: عبد السلام المسدي
- مباحث تأسيسية في اللسانيات: عبد السلام المسدي
- اللسانيات: النشأة والتطور: أحمد مومن

ب- المرجعية اللسانية المدرسية أو المذهبية:

وفيها تحيل العناوين على مدرسة أو تيار لساني معين، من ذلك ما يأتي:

- اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري: أحمد المتوكل.
- اللسانيات البنوية: محمد الحناش.
- اللسانيات التوليدية التحويلية: عادل فاخوري.

ج- المرجعية اللسانية التخصصية:

- أي الإحالة على مجال من مجالات اللسانيات أو قطاعاتها، من ذلك:
- السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها: سعيد بنكراد.
 - علم الدلالة: عبد الجليل منقور.
 - الأسلوب والأسلوبية: عبد السلام المسدي.
 - دروس في السيميائيات: حنون مبارك.

د-المرجعية اللسانية النقدية:

- أي الإحالة على تتبع التحولات في الخطاب اللساني العام أو المتخصص، وتمثيلاً نذكر:
- اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية: مصطفى غلفان.
 - اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة: حافيظ اسماعيلي علوي.
 - اتجاهات البحث اللساني: ميكايفيتش.
 - الدرس السيميائي المغاربي: مولاي علي بوخاتم.

كما تتجلى الوظيفة ذاتها عبر مقدمات الخطاب اللساني، من خلال ما يصرح به الباحث من أطر نظرية ومنهجية تسور خطابه، خاصة في بعض الخطابات التي لا تفرز الوظيفة المعنية على مستوى عناوينها، وأيا كانت كفاية هذه الأخيرة في الإحالة على الواقع المقصود، فإن المقدمات عموماً تظل مالكة لمساحة أكبر في معمارية الخطاب اللساني، مما يمكن المرسل من الإحالة الكافية على مصادره ومراجعته، «بهدف كسب ثقة المتلقي واستدراجه...ذلك أن مراجع الكتاب ومصادره تكسب الكتاب مصداقية أكبر عند القارئ، لأن أهمية المؤلف وقيمه تتحدد غالباً بالمصادر التي اعتمدها منطلقاً في دراسته»⁽⁵⁾.

وسنجزئ من بعض المقدمات المقاطع الآتية التي تتجلى فيها الوظيفة المرجعية التي تحدد للقارئ المنطلقات العامة للخطاب المقروء:

- «تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن جذور النظرية التبليغية في التراث اللساني العربي، من خلال محاولة استنطاق نصوص بعض أعلامه المشهورين بدءاً من القرن الثاني للهجرة وانتهاءً بالقرن الثامن للهجرة،

وذلك من أجل الدعوة إلى إعادة قراءة التراث اللغوي العربي قراءة جديدة في ضوء النظريات اللغوية الحديثة، ومناهج البحث المعاصرة»⁽⁶⁾.

- «أما مصادر هذا الكتاب فهي مجموعة من المصادر الأجنبية المترجمة إلى العربية، ومجموعة أخرى من مصادر عربية لغوية متنوعة منها ما هو ذو منحى لساني عام متأثر بالدرس الأجنبي، ومنها ما هو ذو منحى خاص بالعربية وعلومها، إضافة إلى جملة من الكتب القديمة والحديثة مما كان مجالاً لاستمداد الأفكار الجزئية أو الأمثلة والشواهد المتعددة، وهناك أيضاً مجموعة من الدوريات العربية التي حوت دراسات مهمة وكتب أجنبية موضوعة باللغتين الانجليزية والفرنسية»⁽⁷⁾.

- «... لذلك نسارع إلى القول: إن الهدف من هذا البحث ليس التعرض لهذه الدراسات ولا تقويتها، وإنما الهدف منه بالأساس تمحيص مدى ورود أطروحة سيمون ديك الأخيرة القائمة على فكرة أن بنية النص تشاكل إلى حد بعيد بنية الجملة... غايتنا إذن اعتماداً على هذه الأطروحة هي معرفة مدى إمكان استكمال وضع نحو وظيفي يكفل وصف وتفسير ظواهر اللغة العربية»⁽⁸⁾.

تضمنت المقاطع المأخوذة من مقدمات مختلفة، ثلاث وظائف مرجعية متباينة هي على التوالي: مرجعية تراثية، مرجعية عامة، مرجعية وظيفية. ومما سبق نخلص إلى أن الوظيفة الإحالية أو المرجعية عموماً ذات تجليات موقعية مختلفة في الخطاب اللساني، والكشف عنها يمكن القارئ من إنجاز قراءة أكثر فاعلية، علاوة على إمكانية مراقبة متن الخطاب بمقتضى المرجعية المصرح بها.

2- الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية:

نعتبر في سياق حديثنا عن وظائف الخطاب اللساني أن الوظيفة التعبيرية تصاحبها ضمنا الوظيفة التأثيرية، ومنه فهما وظيفتان متلازمتان، لذلك فإن أي حديث عن الأولى يستدعي -على الأقل في الخطاب اللساني- حدوث الوظيفة الثانية، «فأثناء التواصل يعبر المتكلم عن ذاته ويسعى إلى التأثير على المخاطب، فيكون الخطاب بذلك مؤديا بالإضافة إلى الوظيفة المرجعية الوظيفتين التعبيرية والتأثيرية»⁽⁹⁾.

والوظيفية التعبيرية هي كل وظيفة « تبرز موقف المتكلم وحالته النفسية، إذ يبحث المرسل على خلق الإحساس بحال واقعية أو متخيلة»⁽¹⁰⁾، ومعنى هذا الكلام أن الوظيفة التعبيرية «محورها الفرد المرسل من خلال ما ينتجه من عبارات تدل على حالته النفسية ومشاعره الانفعالية»⁽¹¹⁾، ويتلاءم ورود هذه الوظيفة أو الوظيفتين في الخطاب اللساني بشكل أوضح في العناوين والمقدمات، وهي بذلك تتقاطع مع الوظيفة المرجعية، ومرد ذلك إلى أن المواقف والحالات اتجاه موضوع الخطاب، أو التأثيرات التي تستهدف المتلقي، لا بد وأن يدرجها منشأ الخطاب في بدايات استراتيجياته الخطابية.

وبالعودة إلى تتبع حضور الوظيفة المعنية على مستوى بعض العناوين المختارة، فإننا نلاحظ في البداية أن الصياغة اللغوية لتلك العناوين، تعكس من خلال بنيتها التركيبية، المسافة بين المؤلف وموضوعه، والقوة التي يضعها في العنوان بغية شد المتلقي، والتأثير عليه بكسبه وجره إلى متابعة خطابه، إلا أن الخطاب اللساني لا تتسحب عليه هذه الوظيفة في مستوى عناوينه، إلا في نمط من أنماطه بحسب ما عاينت من خطابات لسانية، والنمط المقصود هو الدرس اللساني التمهيدي أو التبسيطي، من باب أن متلقي الكتابة اللسانية التمهيدية قارئ مبتدئ غايته التعرف على مبادئ

اللسانيات باعتبارها علما جديدا، لذلك يتوجب على من يؤلف في هذا اللون من الكتابة أن يختار ما يراه مناسباً لجلب القارئ وإثارة انتباهه، وإغرائه بعبارات محبوكة توحى بالتبسيط والتسهيل، وتروم الانتفاع، لخلق نوع من التفاعل والانسجام بين النص والقارئ، وتؤدي عناوين الكتابة اللسانية التمهيدية هذه الوظيفة بدرجات مختلفة ومتفاوتة كما يتم التركيز على كلمة مفتاح تشكل بؤرة العنوان وهدف الكتاب الأسمى⁽¹²⁾.

وتأخذ الوظيفة التأثيرية المصاحبة للوظيفة التعبيرية شكلا آخر تعلن من خلاله حضورها حين نمعن النظر في داخل الخطاب أو منته، أين نعثر على التأثيرات الحجاجية، والمقصود بذلك أن وسائل المحاججة والإقناع هي بحد ذاتها مولدة للوظيفة التأثيرية التي تهدف إلى تغيير السلوك العلمي للمتلقى أو تبديل وجهة نظره إزاء فكرة أو تصور لساني معين. ومن بين العناوين التي استقر الرأي عليها، لجلاء الوظيفتين على مستواها، ما يلي⁽¹³⁾:

العنوان	المؤلف	الوظيفة التعبيرية	الوظيفة التأثيرية
توطئة لدراسة علم اللغة	التهامي الراجي	تتمثل الوظيفة التعبيرية في إبراز المخاطب للمسافة بينه وبين الموضوع، إذ أنه يتحرك في محيطه اللغوي المحبوك، أو على هامشه، ولا ينتج نحو مركزه	تتجسد في الكلمة المبترة: "توطئة"، والتي تمارس على المتلقي فعل التأثير
		وتسهيل	

مدخل في صالح تشيير الصياغة لعبت اللفظة "مدخل"

اللسانيات الكشوف اللغوية، إلى تعمد دورا محوريا في
 المخاطب تصدير لفظ التركيب العنواني،
 "مدخل"، وهو ما إذ تتطوي في
 يبعث على افتراض دلالاتها على فعل
 نيته في التحرك على تأثيري استرجاعي.
 مستوى المبادئ
 العامة للسانيات.

دلائل اكتساب بشير إبرير يشير المحتوى اللغوي تمارس لفظة "دلائل"
 اللغة في للعنوان إلى موقف في صيغتها
 التراث منتصر للمنجز الجمعية، تأثيرا
 اللساني القديم، لعلة ذهنيا في المتلقي،
 العربي توفره على الدليل لأن الدليل حجة،
 الحديث/القديم. والحجة الدامغة
 تؤثر وتغير(نلاحظ
 هنا استعمال لفظ
 دلائل بدلا عن لفظ
 أدلة رغم الدلالة
 الجمعية لكليهما،
 غير أن الأولى أكثر
 تأثيرا).

أما على مستوى المقدمات، فقد لاحظنا اتساع رقعة عمل
 الوظيفتين، بحكم الفارق النوعي بين حجم العناوين وحجم المقدمات، علما أن

مقدمات الخطابات اللسانية تضمن حضور الوظيفتين دونما اعتبار لنمط الخطاب أو نوعيته.

ومن الأمثلة المأخوذة من عينات مقدماتية أفرزت الوظيفة التعبيرية، التي تتجلى فيها علاقة اللساني بخطابه وموقفه من مضمونه، ما يلي:

- «والدراسة التي تقدم في هذا الكتاب، ليست سوى مساهمة أولية لرصد بعض الجوانب التاريخية والنظرية المتعلقة بالتجربة اللسانية في العالم العربي، سواء من حيث العوامل الفاعلة فيها سلبا وإيجابا، أو من حيث إمكاناتها وحدودها»⁽¹⁴⁾.

- «...وثبوت أهمية بحث تعامل الواقع المعرفي العربي مع اللسانيات حملنا على مثل هذا البحث، وقد شجعنا على القيام به غياب الكتابات المخصصة له، وندرة الإشارات المحيلة عليه»⁽¹⁵⁾.

- «وهذا الكتاب محاولة لتقريب القارئ من بعض القضايا اللغوية، ومساهمة في التعريف بأفكار جملة من المذاهب اللسانية»⁽¹⁶⁾.

يجسد المقطع الأول الوظيفة التعبيرية من خلال إعلان صاحبه عن موقفه من الخطاب المنجز، إذ حكم على عمله بالأولي والتقويمي في آن واحد.

أما المقطع الثاني فيتجلى موقف الكاتب من خطابه، في إقراره بغياب الكتابات التقويمية للحركة اللسانية العربية، زيادة على ثبوت تراكمات خطابية عربية في مجال المعرفة اللسانية، تبرر قيام العمل التقويمي.

أما المقطع الأخير فنلاحظ فيه الوظيفة التعبيرية، من خلال تصريح المؤلف بأن ما يحرره لا يعدو أن يكون محاولة لتقريب اللسانيات في خطوطها العامة من القارئ العربي.

ومن أمثلة حضور الوظيفة التأثيرية في العتبات الأولية للخطاب اللساني اخترنا بعض المقاطع التي نلمس فيها توجهها للقارئ بقصد التأثير فيه.

يقول أحدهم محاولا استدراج القارئ، إلى مطالعة ما كتبه، وبلغته متقنة، اختيرت ألفاظها بعناية تفضح القصد التأثيري: «هدفنا الوحيد الجدوى التربوية، والإبلاغ التعليمي، وبهذا الصنيع يغدو الكتاب أداة تنقيفية، إذ بوسعه أن يمكن القارئ من الاسترسال مع صفحاته، متتبعا قصة اللسانيات في يسر، وعلى غير تراكب فني»⁽¹⁷⁾.

ويقول آخر في مقدمته، جاعلا من المتلقي أو القارئ السبب المباشر في تصنيفه لهذا الكتاب- وهذا فعل تأثيري مقصود- «إلا أن هذا الاقتضاب في التعريف بمبادئ النحو الوظيفي المنهجية، جعل مجموعة من قرائي يطرحون أسئلة عديدة... وللرد على هذه الأسئلة، وعلى أسئلة أخرى، أفترض في واضعيها حسن النية، وحب المزيد من الإطلاع، فعزمت على تأليف هذا المدخل، الذي أتوخي تمكين القارئ العربي من تعرف المبادئ النظرية والمنهجية، الثابوية خلف الدراسات الوظيفية بوجه عام»⁽¹⁸⁾.

ولا نبرح مقدمات الخطاب اللساني، دون الإشارة إلى خصوصيتها، في الخطاب اللساني المترجم، حيث تزداد فيها قيمة الوظيفة التأثيرية، فتارة بالإشارة إلى أهمية المجال اللساني، الذي انتقى منه المترجم عملا معيناً وسعى في ترجمته، وتارة من خلال تأكيد المترجم على دقة الترجمة وسلامتها وسلاستها، والشاهدان الخطابيان الآتيان يثبتان ذلك:

- «أحدثت اللسانيات ثورة هامة في دراسة اللغة، وكان لها بالغ الأثر على العلوم الإنسانية، سواء على مستوى النتائج أو مستوى البحث. هذه الثورة

انطلقت شرارتها الأولى مع دروس في اللسانيات العامة لفردينان دي سوسير»⁽¹⁹⁾

- «ولقد اجتنبت الترجمات الغامضة، أو غير الوافية لهذه المصطلحات، ففككتها إلى ما تدل عليه بدل استعمالها جوفاء، مما قد يضر القارئ أكثر مما يفيد»⁽²⁰⁾

3- الوظيفة الأيديولوجية:

ونعني بها الاستراتيجيات التي يضعها منشأ الخطاب اللساني و يتحرك بمقتضاها، والتي يهدف من ورائها إلى ضم القارئ أو كسبه لصالح غاية معينة، «ومن ثمة فخلفية الكاتب ونواياه المبيتة عادة ما تفسر بهذه الوظيفة الأيديولوجية»⁽²¹⁾.

وتتجلى هذه الوظيفة بحسب ما رصدنا من خطابات- في سياقين مختلفين هما: حديث اللساني عن خطابه، و تأسيس الخطاب اللساني على موقف فكري، مغاير لمواقف فكرية أخرى، كإشكالية التراث والحداثة في الخطاب اللساني العربي مثلاً.

ففي السياق الأول يعمد المخاطب إلى الإشادة بعمله وقيمه العلمية، والقصد من وراء ذلك «الإقبال على قراءة الكتاب وتبني أفكاره»⁽²²⁾.

جاء في مقدمة خطاب لساني متخصص، ما نصه «صفوة القول، فإن هذا الكتاب جديد في موضوعه ومنهجه، ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى خدمة السيميائية العربية، والكشف عن جانب مغبون منها وهو الجانب المصطلحي، وإذا ثمة أمنية لنا فهي أن يحظى هذا الكتاب بتتبع القارئ العربي ومحبيه»⁽²³⁾.

وجاء في خطاب لساني آخر «لقد نشرت هذه الدراسة منذ أكثر من عشر سنوات، ونعود لنشرها بعد نفاذ الطبعة الأولى، التي لقيت قبولا واستحسانا لدى المتخصصين وغير المتخصصين، وقد أضفنا فصلا رابعا في الباب الثاني بعنوان: دلالة الزمان والسياق اللغوي»⁽²⁴⁾

أما في السياق الثاني فيسعى المخاطب إلى توجيه القارئ إلى أفق معين يهدف إليه، كأن يبين له أصالة التراث اللغوي وسبقه إلى الكثير من المسائل اللسانية المعاصرة، وغالبا ما يتم التبيين عبر خطاب يعج بأسماء تراثية مقرونة بمقولاتهم، ومقارعتها بالمقولات اللسانية الحديثة، كما قد يتخذ الأمر اتجاها معاكسا يثبت دعوة المخاطب قارئه إلى الاطلاع على منجزات الفكر اللساني المعاصر من حيث فاعليتها ونجاعتها في مقارنة الظاهرة اللغوية، وفي كلتا الحالتين يتعالى المؤلف بقارئه عن المضمون العلمي - أو فنقل لا يعتبره الغاية الوحيدة- لصالح تبنيه لبعض القناعات الفكرية، ومن شواهد ذلك نورد ما يأتي:

- «كان مطمحي إذن، من وراء هذا الكتاب الصغير شيئا أكبر من مجرد التعريف بعلم الأسلوب، بل أكثر من علم الأسلوب كله ومن النقد كله، أردت أن أثبت بهذا العمل الضئيل أننا إذا نظرنا إلى تراثنا بعيون مفتوحة على ثقافة العصر أمكننا أن نعرف قيمة ذلك التراث بلا مبالغة، وأن ننقده بلا خجل، وأن نعيشه بلا جمود»⁽²⁵⁾

- «هكذا إذن فكر العلماء العرب القدامى في لغتهم وأخرجوها من مستوى الموجود بالقوة إلى مستوى الموجود بالفعل، فكانت المعاجم والدلالة...، مما يؤكد بأن هذا التراث ما يزال وردا تتناصر إليه بغية فهمه وتحليله ومحاولة توظيفه واستثماره، ولعل أفضل ميادين الاستثمار...»⁽²⁶⁾

- «وكان من المفروض أن تساير اللسانيات الوصفية العربية، أو ما أسميناه بلسانيات الظواهر، الطرق العلمية المتبعة في اللسانيات النظرية أو في اللسانيات الخاصة بأي لغة طبيعية، وأن نتجه في برنامج مستعجل إلى بناء نحو جديد للغة العربية الفصيحة...ولانقصد بذلك ما يقصده القدماء أو بعض المحدثين القدماء(*)»⁽²⁷⁾. (الموقف الداعي إلى القطيعة مع الممارسات اللغوية القديمة).

- «إن طرح النقطتين: الأولى مسألة تعريف التمييز عند النحاة العرب، والثانية مسألة العامل في التمييز، ليس إلا جزءا صغيرا جدا من جملة ما تطرحه بنية التمييز في العربية، وبمعالجتها معا سنتين بعض المشاكل التي تعتري وصف النحاة العرب لهذا المركب، مما يجعل البحث عن بديل وصفي وتفسيري لساني أمرا لا مناص منه، وهذا يطرح السؤال الكبير الذي يؤدي إلى التعامل مع التراث النحوي، ومدى مصداقية الفرضية الداعية إلى تجاوزه واعتماد اللسانية الحديثة التي أبانت عن قدرتها التفسيرية في عدة لغات أخرى»⁽²⁸⁾.

4- الوظيفة الشارحة أو الواصفة:

تتحقق هذه الوظيفة في الخطاب اللساني بامتياز، على اعتبار أنه حديث باللغة عن اللغة، مما يجعل منها الوظيفة الأكثر بروزا، ولا يعني هذا الكلام أن الوظيفة الواصفة يفرزها الخطاب من أوله إلى آخره وبكل مكوناته اللغوية، بل تتجلى من خلال كيانات لغوية تحيل على كيانات لغوية أيضا «كلغة النحاة على سبيل المثال، فالمصطلحات "فاعل" و"مفعول به" مثلا عبارتان ميتالغويتان لكونهما تدلان لا على واقعين في العالم الخارجي، بل على نمطين من العبارات تتوافر فيهما خصائص معينة»⁽²⁹⁾.

إن تمركز الوظيفة الماوراء لغوية بشكل خاص في عناصر لغوية مبنوثة في الخطاب اللساني، قد يثير التساؤل عن طبيعة هذه العناصر اللغوية الخاصة، والإجابة عنها لا تعدو أن تكون مصطلحات الخطاب نفسه، لأنها تعاقد بين المشتغلين بمجال معرفي معين تحيل بموجبه على وقائع مخصوصة.

وتمثيلا لا حصرا للوظيفة الشارحة نورد المقاطع الآتية:

- « لقد تناول النحاة واللغويون العرب قديما قضية الكلمة من عدة جوانب، من أبرزها ما يتصل بالتعريف والتحديد والمقابلة بين السماع والقياس، و ما يتصل في ذلك بالاشتقاق وبناء الكلمة العربية بجميع أبعادها»⁽³⁰⁾.

- « يعتبر الترتيب إجراء تركيبيا عاما يتحكم في إجراءات تركيبية فرعية هي: التقديم والتأخير والتوسيط، وتعتمد هذه الإجراءات التركيبية على مفاهيم لسانية، هي: الرتبة والموقع والمركز والأصل والفرع والصدارة»⁽³¹⁾.

لقد حاولت من خلال هذا المقال أن أكشف عن وظائف الخطاب كما درجت عليه اللسانيات البنوية (بخاصة جاكسون)، ولكن على نمط من أنماط الخطاب العلمي وهو الخطاب اللساني، ولعلنا إلى زمن قريب لم نعتد الاهتمام بما كان خطابا غير أدبي، مقارنة بالخطاب الأدبي سواء كان أدبيا خالصا أو قريبا منه كالخطاب النقدي، ولتحقيق الغاية المعلنة اخترت مجموعة من الفقرات والعبارات والعناوين التي اقتطعتها من خطابات تنتمي إلى حقل اللسانيات وأصحابها ممن اهتموا بهذا المجال، فكانت النتيجة أن استجاب هذا النمط من الخطاب العلمي إلى نظرية الوظائف اللغوية كما عهدناها عند جاكسون ومن تلاه. ولعل هذا من شأنه أن يغير النظرة للخطاب العلمي من

حيث اللغة التي يبني بها أفكاره وتصورات، إذ هي لغة تتسحب عليها الوظائف ذاتها التي يمكن أن نرصدها في غيره من الخطابات والشأن نفسه إن نحن قاربنا الخطاب اللساني أو أي نوع آخر من الخطابات العلمية من خلال ظاهرة الاستعارة إذ سنجد به قدرا من الاستعارات تدفعنا إلى عدم المبالغة في وصف الخطاب محل البحث بالجافمن ناحية، وإلى وجوب إعادة النظر في جزئية لغة الخطابات غير الأدبية من ناحية أخرى.

الهوامش والإحالات:

- ¹-فاطمة الطبال بركة: النظرية الألسنية عند رومان جاكيسون، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1993، ص68.
- ²- المرجع نفسه، ص 66.
- ³-حافظ إسماعيلي علوي: تجليات تلقي اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة، أطروحة دكتوراه، (مخطوط)، ص 457-458.
- ⁴- سعيت ما أمكنني إلى الاستشهاد بعناوين خطابات لسانية اشغلت على قضايا تهم الظاهرة اللغوية دون سواها.
- ⁵- المصدر السابق، ص 142.
- ⁶- بشير إيرير: مفهوم التبليغ وبعض تجلياته التربوية في التراث اللساني العربي، مجلة التواصل، منشورات جامعة عنابة، الجزائر، العدد 11، 2003، ص 60.
- ⁷- أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، ط3، 2008، ص 8 (المقدمة).
- ⁸-أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ب ط، 2001، ص10.
- ⁹- أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، منشورات عكاظ، الرباط، دط، 1987، ص47.
- ¹⁰-إلمار هولنشتاين: رومانياكيسون أو البنية الظاهرانية، ترجمة: عبد الجليل الأزدي، دار تانسيفت للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص120.

- 11- مصطفى غلفان: اللسانيات البنوية: منهجيات واتجاهات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2013، ص.231
- 12-انظر: حافيظ اسماعيلي علوي: تجليات تلقي اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة، ص.131
- 13- لم نشر في المتن إلى نوعية أخرى من العناوين التي توسم بها الخطابات اللسانية، وهي ذات منحى غرائبي أو استنفازي، حين يكون العنوان من حيث صياغته اللفظية ممارسا لتأثيرات معينة على المتلقي وبشكل مباشر، من ذلك مثلا عناوين الخطابات اللسانية التالية:
- لتحيا اللغة العربية، ويسقط سيبويه/ شريف الشوباشي.
 - الاستعارات التي تقتل/ جورج لاكوف.
 - من عبادة الأحجار إلى عبادة الأنظار/ أحمد علوي
 - لسانيات هبل/ أحمد علوي
- 14- مصطفى غلفان: اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، المقدمة.
- 15- ألفة يوسف: المساجلة بين فقه اللغة واللسانيات عند بعض اللغويين العرب المعاصرين، دار سحر للنشر، تونس، ط1997، 1، المقدمة، ص.5.
- 16- ابن رشد المعتمد وخريص محمد: مدارس علم اللغات، المكتبة الثقافية، الدار البيضاء، دط، 1993، المقدمة، ص4
- 17- عبد السلام المسدي: اللسانيات من خلال النصوص، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1984، المقدمة، ص 6.
- 18- أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، ص5 و6.
- 19- روجر فاوولر: اللسانيات والترجمة: ترجمة لحسن أحمامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط:1، 1418-1997، ص 7.
- 20- سارة ميلز: الخطاب، ترجمة: يوسف بغول، منشورات محبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة منتوري - قسنطينة-، الجزائر، ب ط، مقدمة المترجم.
- 21- حافيظ اسماعيلي علوي: اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة، ص 133.
- 22- المصدر نفسه، ص 143.

- 23- مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميائي المغربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2005، ص.8
- 24- حسام الدين زكي: الزمان الدلالي: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 2002، ص.8.
- 25- شكري محمد عياد: اتجاهات البحث الأسلوبي، أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع، مصر، ط3، 1999، ص.5
- 26- بشير إبرير: دلائل اكتساب اللغة في التراث، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية، كلية الآداب، جامعة عنابة، دط، 2007، ص 15.
- (*-) لنلاحظ في هذا المقطع لفظة القدماء "الثانية" المستعملة من طرف صاحب الخطاب، وما تحمله من أبعاد أيديولوجية، وهذا يجعلنا نسلم بإمكانية استجلاء الوظيفة المعنية من خلال الدوال المنفردة أو المحورية في خطاب معين، وهذا يؤكد: «أن الكلمات في صراع الخطابات تغير معناها، أو لنقل إن الكلمات تأخذ معانيها من خلال الخطابات المتعارضة وليس في اللغة المشتركة العامة».
- أنظر: ديان مكدونيل: مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة: عز الدين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية، مصر، ط1، 2001، ص 14.
- 27- عبد القادر الفاسي الفهري: ملاحظات حول الكتابة اللسانية، مجلة تكامل المعرفة، المغرب، العدد: 9، 1984، ص.16
- 28- عبد القادر كركاي: الملحقات في العربية بين التصور النحوي والتصوير اللساني، ضمن: مكانة الأنحاء التقليدية في اللسانيات الحديثة، منشورات كلية الآداب، جامعة مولاي اسماعيل، مكناس، سلسلة الندوات، رقم: 10، 1997، ص.99
- 29- أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، ص.48
- 30- الطيب البكوش وصالح الماجري: في الكلمة، دار الجنوب للنشر، تونس، دط، 1993، ص.17
- 31- عبد العزيز العماري: أدوات الوصف والتفسير اللسانية، سلسلة من النحو إلى اللسانيات، مطبعة أنفو برانت، فاس، ط1، 2004، ص.56.

الكتابة اللسانية العربية الحديثة إبراهيم أنيس نموذجاً

نوارة بحري

جامعة عباس لغرور - خنشلة (الجزائر)

الملخص:

يسعى هذا المقال إلى استظهار أهم الآراء التي نبعت من واحد من أعلام الدرس اللساني ومؤصلي الدراسات اللغوية المعاصرة في الوطن العربي، ألا وهو الدكتور إبراهيم أنيس الملتسبج بالثقافة اللسانية الغربية، والمطلع على التراث اللغوي العربي الأصيل، والذي كانت له محاولات جادة تهدف إلى إعادة النظر في دراسة اللغة العربية في ضوء مستجدات البحث اللساني جامعا بين التقديم العام للفكر اللساني الحديث والتعريف به لدى القارئ العربي ومحاولة التطبيق على اللغة العربية قصد إثراء البحث اللساني العربي بعد التلاحح الإيجابي بين ثقافتين مختلفتين.

الكلمات المفتاحية: الكتابة - اللسانيات الحديثة - إبراهيم أنيس - اللسانيات الوصفية

Résumé:

Le présent article vise à répertorier les avis les plus importants de l'une des sommités en linguistique et études linguistiques contemporaines dans le monde arabe, en l'occurrence le Dr. Ibrahim Anis spécialiste de la culture linguistique occidentale et familier avec le patrimoine linguistique inhérent à la langue arabe, dont les tentatives sérieuses visent à reconsidérer l'apprentissage de la langue arabe à la lumière de l'évolution de la recherche linguistique, en combinant la présentation générale de la pensée linguistique contemporaine et sa présentation au lecteur arabe et en essayant son application à la langue arabe dans le but d'enrichir la recherche linguistique arabe suite à la cohésion positive entre les deux cultures.

Mots clés: écriture -linguistiques modernes- Ibrahim Anis- linguistiques descriptives.

Abstract:

This article seeks to show the most important opinions that came from one of the figures of the linguistic studies and brings the modern linguistics studies to the Arab world , he is Dr. Ibrahim Anis imbued with Western linguistic culture and familiar with the original Arabic linguistic heritage, which had serious attempts to reconsider Studying the Arabic language in light of recent linguistic research combining the general introduction of modern linguistic thought and introduce it to the Arab reader and the attempt to apply it to the Arabic

language in order to enrich Arabic linguistic research after the positive cross-fertilization between two different cultures.

Keywords: Writing, modern linguistics, Ibrahim Anis, descriptive linguistics.

– مقدمة:

شكّل القرن التاسع عشر نقطة تحول حاسمة في تكوين الفكر العربي الحديث، مما استوجب ضرورة مواكبة التطور الحاصل في الغرب، هذا الوعي الذي وضع العرب أمام نموذجين حضاريين: الأول عائد إلى الماضي بعده امتدادا للهوية العربية الواجب المحافظة عليها بتكريسها كروية صالحة لكل زمان ومكان، والتي يعدّ تجاوزها شكلا من أشكال الانسلاخ، والثاني التّشذُّقُ بكلِّ ما هو جديد والانبهار به فـ: « تراثنا أحد رجلين فإما ناقل لفكر غربي، وإما ناشر لفكر عربي قديم، فلا النقل في الحالة الأولى ولا النشر في الحالة الثانية يصنع مفكرا عربيا معاصرا، لأننا في الحالة الأولى سنفقد عنصر العربي وفي الحالة الثانية عنصر المعاصرة، والمطلوب هو أن نستوحي لنخلق الجديد سواء عبرنا المكان لننقل عن الغرب أو عبرنا الزمان لننشر عن العرب الأقدمين»¹. وفي خضم هذه الظروف، وفي فوضى هذه التقاطعات تبنّى البحث اللساني العربي الحديث لنفسه هيكلا مستقلا يصف اللغة العربية معتمدا على كل الأصول النظرية مع تطعيمها بنتائج المقولات النظرية الغربية خدمة للغة العربية، وفي هذا المضمار يقول تمام حسان: « وتشعبت المسالك أمام الشعب بعد أن تئاءب وتمطى ونفض عن نفسه غبار الموت، فوجد أمامه طريقا في الماضي يقوده إلى التراث العربي الخصب، ورأى أنه لو بعث هذا التراث وأحياه لكان دافعا لعزة جديدة لا تقل روعة عن التأريخ العربي نفسه، ووجد أمامه طريقا في المستقبل معالمه ما في أيدي الأمم من علوم ومعارف ... ثم رأى أنه لو سلك الطريق الأول فحسب

لانتقطع به التاريخ عن الحياة، ولو سلك الثاني فحسب لانقطعت به الحياة عن التاريخ، ففضل أن يأخذ بنصيب من التراث العربي يوحى إليه بالاعتزاز ونصيب من الثقافة المعاصرة يمنحه العزة»². فتمام حسان يرى أن أفضل طريق تسلكه الدراسات اللسانية العربية الحديثة هو الجمع بين الاثنين. ففي هذا المقال سنركز على واحد من أعلام الدرس اللساني العربي الحديث محاولين إمطة اللثام عن فكره اللساني وإضافاته في هذا المجال الرحب.

ويعد الدكتور إبراهيم أنيس الفذُّ واحداً ممن حملوا لواء الإصلاح اللغوي في العالم العربي، فهو من الأوائل الذين عرفوا القارئ العربي بأساسيات اللسانيات الغربية، وذلك بعد الاتصال الفعلي والتعرف على المناهج والنظريات اللسانية العربية التي عرفت تطوراً كبيراً في أمريكا وأوروبا حيث عمد إلى انتهاج اللسانيات الوصفية وإسقاط إجراءاتها على اللغة العربية، ومن الأسباب الداعية إلى ظهور اللسانيات الوصفية العربية تلك « النتائج الإيجابية التي حققتها اللسانيات الوصفية في الغرب»³ ومع شروع « بعض أفراد البعثات الطلابية إلى الجامعات الأوروبية في العودة إلى أوطانهم... والذين تتلمذوا خصوصاً على يد فيرث» في مدرسة لندن»⁴، وما أن ظهر الإتجاه الوصفي حتى « انبهر العديد من اللغويين العرب بالإنجازات التي حققتها الوصفية في الغرب، فكان ذلك حافزاً لتطبيق هذا المنهج على اللغة العربية»⁵. فالدكتور "إبراهيم أنيس" يعد من مؤسلي الدراسات اللغوية المعاصرة في العالم العربي. فهو أبرز من يمثل الدراسات اللغوية الحديثة، بما وضع في ذلك من بحوث قيمة اعتمد فيها على نتائج العلم اللغوي المقارن، والعلم اللغوي التاريخي، وما هياها التطور من استخدام الآلية في العلم اللغوي، لذا «فإن الرجوع إليه في المسائل الرئيسية يمثل شيئاً من فكرة التقويم المعقود لهذا الباب»⁶. فالأستاذ له الكثير من الكتب اللغوية

القيمة منها: "الأصوات اللغوية"*، "في اللهجات العربية"، "موسيقى الشعر"، "من أسرار اللغة"، "دلالة الألفاظ"، "اللغة بين القومية والعالمية". إلى جانب الكتب والمؤلفات نجد له الكثير من المقالات والبحوث المنشورة والتي ركز فيها على دراسة البنية الصوتية، والصرفية، والنحوية، والتركيبية، والدلالية، بمنظار المفاهيم اللسانية الغربية الوصفية منها، والتاريخية، وكانت له مجموعة من الآراء في اللسانيات وأبرزها:

- في النحو العربي:

1 - التقسيم الثلاثي للكلم:

على الرغم من التأليف العزيز في مادة النحو العربي الذي دام قرونا عديدة إلا أن «قصور النحو العربي القديم عن الاضطلاع بوظيفته الرئيسية التي نشأ من أجلها، وهي صون اللسان من اللحن في القرآن، وتعليم قواعد اللغة العربية لأصحابها ولغيرهم من المسلمين الناطقين أصلا بلغات أخرى»⁷ أدى إلى البحث عن الجديد وقبول أسسه ومبادئه «لأن فائدة كتب اللغة العربية التقليدية محدودة... ولأنه مضى على وضعها زمن طويل أحلّ فيها السقم والعقم، فنقدم العلوم عامة والعلوم الألسنية خاصة أتاح للباحثين فرصة اتباع طرق علمية جديدة لوضع الكتب والمؤلفات القيّمة»⁸.

فإبراهيم أنيس أعاد النظر في التقسيم الثلاثي للكلم عند نحاة العربية في ضوء معرفته بالنحو الأوروبي، فالتقسيم الثلاثي (اسم وفعل وحرف) يرى أنها تبعية لفلاسفة وعلماء المنطق اليونانيين، الذين جعلوا أجزاء الكلام ثلاثة هي (اسم وكلمة وأداة)، وأشار إلى أن علماء اللغة العرب عندما حاولوا تحديد المقصود لهذه الأجزاء شق عليهم الأمر، ووجدوا تعريف الاسم لا ينطبق عليه تعريفهم للأفعال، أما الاسم فقد ذكر "أنيس" أنهم حاولوا تحديده

على أساس معناه، فقالوا عنه: «هو ما دلَّ على معنى وليس الزمن جزءاً منه، فلما اعترض عليهم بأسماء مثل "اليوم" و"الليلة" وبالمصدر الذي رغم اعترافهم بإسميته لا يشك أحد في أنه يشير إلى الزمن، أخذوا يجوزون تعريفهم ويفسرونه تفسيراً خاصاً ينسجم مع فهمهم للاسم على أن منهم من لم يكلف نفسه تعريف الاسم، مكثفياً بالتمثيل له مثل سيبيويه الذي قال: «والاسم رجل وفرس» ومع ما في ذلك من نقص أدركه بعض النحاة القدماء»⁹.

وعلى غرار الوصفين حاول أنيس من خلال أعماله في المجال النحوي ربط الصلة بين القديم والجديد « وسيرا على نهج الوصفين الغربيين في تقديم للنحو التقليدي، وجد الوصفيون العرب في ما صح من نقد الأوربيين لتراثهم النحوي ينسحب أيضاً على التراث النحوي العربي»¹⁰. فالوصفيون « انتقدوا النحاة القدامى أشد ما يكون الانتقاد وعابوا عليهم إفسادهم للنحو بإدخال أدوات ومفاهيم منطقية فيه، وانتصارهم للقياس، واصطناع أمثلة وتراكيب كثيرة لم تكن موجودة في اللغة، ولم تسمع عن العرب»¹¹.

فإبراهيم أنيس يرى أن تعريفات الاسم والفعل والحرف عند القدامى ناقصة قاصرة، لذلك اقترح أسساً جديدة كبديل بنى عليها تقسيمه للكلم، وهو تقسيم يحاول من خلاله تدارك النقص الذي شاب أعمال النحاة¹²، فقد ذكر أنه يجب أن تأخذ ثلاثة أسس في تحديد أجزاء الكلام وتعريفها هي: المعنى، الصيغة، ووظيفة اللفظ في الكلام، ويطرح وفق هذه الأسس تقسيماً رباعياً أضاف فيه الضمير حيث قال موضحاً أقسام الكلم حسبه: « ولا يصح الاكتفاء بأساس واحد من هذه الأسس؛ وذلك لأن مراعاة المعنى وحده قد يجعلنا نعدّ بعض الأوصاف مثل: قائل وسامع ومذيع أسماء وأفعالاً في وقت واحد، ومراعاة الصيغة وحدها ، قد يلبس الأمر علينا حين نفرق بين

الأفعال، وبين تلك الأسماء والصفات التي وردت في اللغة على وزن " أحمد ويثرب ويزيد وأخضر"، بل حتى وظيفة الكلمة في الاستعمال لا تكفي وحدها للفرقة بين الاسم والفعل... فإذا روعيت تلك الأسس الثلاثة معا، أمكن إلى حد كبير التمييز بين أجزاء الكلام»¹³، وجاء تقسيمه كما يأتي:

- أولا : الاسم وينضوي تحته ثلاثة أنواع تشترك إلى حد كبير في المعنى والصيغة والوظيفة وهي: الاسم العام ، العلم ، والصفة .

- ثانيا: الضمير ويضم ألفاظا معينة في كل لغة تستعويض بها اللغات عن تكرار الأسماء الظاهرة ويقسمها إلى أربعة أقسام: الضمائر- ألفاظ الإشارة - العدد - الأداة.

- ثالثا: الفعل وركز فيه "أنيس" على وظيفة الإسناد التي يؤديها في الجملة، مؤكدا على أن ربط الزمن بصيغة الفعل لا يبرره الاستعمال اللغوي.¹⁴

- رابعا: الأداة يتضمن ما تبقى من ألفاظ اللغة، ومنها ما يسمى عند النحاة بالحروف، سواء كانت للجر كما يقولون، أو للنفي أو للاستفهام أو للتعجب، ومنها ما يسمى بالظروف زمانية كانت أو مكانية¹⁵، ويبقى التقسيم الرباعي الذي وضعه إبراهيم أنيس في مقابل التقسيم الثلاثي، الذي وضعه القدماء قاصرا باعتدافه حيث يقر بصعوبة التفريق بين أقسام الكلام ولعل ذلك راجع إلى طبيعة المنهج المتبع أين اكتفى بالوصف الغالب الأعم.

2- القياس :

عرف ابن منظور القياس فقال: « قاس الشيء يقيسه قَيْساً وقياسيا، واقتاسه وقيسه إذا قدره على مثاله، والمقياس: المقدار»¹⁶ فمصطلح القياس في عمومه واحد من الأذرع التي يعول عليها في تنمية اللغة، وذلك بمقارنة كلمات بكلمات أو صيغ بصيغ، أو استعمال باستعمال، رغبة في التوسيع

اللغوي، وحرصاً على اطراد الظواهر اللغوية، حيث يرى "أنيس" أن القياس من أساسيات تقعيد القواعد وتنظيم مسائل النحو، كما يشير إلى أن آراء النحاة واللغويين في كل الأزمنة تكاد تجمع على الأخذ بالمطرّد قياساً وسماعاً، ورفض الشاذ في القياس والسماع¹⁷، ثم يشير إلى القياس الذي كثيراً ما يتحدثون عنه من مثل قولهم: أعرب المضارع قياساً على اسم الفاعل، أو قولهم نصبت لا النافية للجنس الاسم ورفعت الخبر قياساً على إنّ لمشابقتها إياها في التوكيد وغيرها من القضايا، حيث يسمي "أنيس" هذا النوع من القياس باسم (القياس المصنوع)، ويعتبره صناعة نحوية لا تمت للقياس اللغوي الحقيقي بصلة ما، أما القياس الطبيعي الذي نعهده في كل اللغات، والذي تنمو به مادة اللغة، وذلك كأن نعم المعنى بعد أن كان خاصاً¹⁸. ويقول أنيس: « لست أعرف مصطلحاً من مصطلحات الدراسة اللغوية العربية قد أسئى فهمه وأسئى استعماله بقدر ما أسئى فهم واستعمال مصطلح " القياس اللغوي"، فالقياس في شكله الحالي الداعي إلى استنباط كلمات جديدة من صيغ قديمة، لا يسهم بقسط وافر في هذا المجال لأنه لا يتعدى مجال الحروف إلى التراكيب والدلالات»¹⁹، كما يرى أن هذا الذي نسميه بالقياس الخاطئ وقع بين العرب القدماء كما يقع بيننا الآن، ولا فرق بين قياسنا وقياسهم سوى أن عملهم قد تقدم به الزمن فاعتبره العلماء صحيحاً مقبولاً ودونوه في معاجمهم ، في حين أن قياسنا الخاطئ الآن ياباه اللغويون ويعدونّه من الأخطاء التي يجب أن نتحاشاها ونتجنبها²⁰، وفي هذه الفكرة قال محمد الخضر حسين: «القياس وسيلة تمكن الإنسان من النطق بآلاف من الكلم والجمل دون أن تفرع سمعه، أو يحتاج إلى الوثوق من صحة عربيتها إلى مطالعة كتب اللغة أو الدواوين الجامعة لمنثور العرب أو منظومها»²¹.

فالقياس يضمن للغة العربية نموها وحيويتها، واحتوائها للمستجدات، ومواكبتها للتطورات الحاصلة، فهو لون من ألوان الإبداعية اللغوية، ولقد وافق أنيس المحدثين وذهب إلى ما ذهب إليه المجددون من الباحثين الذين ينادون بإباحة القياس اللغوي للموثوق بهم من أدبائنا وشعرائنا، لا إلى جعل القياس في اللغة بأيدي الأطفال وعامة الناس، وكما هو الحال في كل لغة يترك أمرها لسنة التطور.²²

كما ركز على ضرورة تصحيح الانحراف الذي لحق بدراسة القياس، وربطه بنظام العربية الشامل الذي ينأى عن الخلط الشديد الذي نجده في كتب النحو وأصوله.

3- الإعراب :

تعد مسألة الإعراب من المسائل القديمة الجديدة التي انشغل بها العلماء قدماء ومحدثون ، حيث اعتبرها إبراهيم أنيس من القصص المخترعة فيقول: « ما أروعها قصة! لقد استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية، ثم حيكت وتمّ نسجها حياكة في أواخر القرن الأول الهجري أو أوائل القرن الثاني على يد قوم من صنّاع الكلام »²³. فأنيس اعتبر أن النحويين اخترعوا بعض قواعد الإعراب، وبعد بحث عميق في تاريخ الحركات الإعرابية ووظيفتها داخل الأبنية اللغوية أقر أنه « لا مناص لنا من أن نعدّ ظاهرة الإعراب من الظواهر التي لا يمكن أن تمتّ للسليقة اللغوية بصلة، وذلك لأن صاحب اللغة التي يتكلمها بالسليقة يستحيل عليه الخطأ في ظواهر تلك اللغة دون أن يدرك أنه خطأ »²⁴.

فظاهرة الإعراب حسبه ليست سليقة، ولو كانت كذلك لما وقع العرب في أخطاء نحوية ودلالية كثيرة، لذلك يعتبر أن الإعراب لصيق فقط باللغة

الأدبية فحسب، وبعد بحثه العميق عن آثار الإعراب في اللغات السامية الأخرى وركز اهتمامه خاصة على اللغة العبرية، ونظر أيضا في فصيلة اللغات الهندية الأوروبية، واستعرض إعراب اللغة اللاتينية باختصار وتوصل إلى بعض النتائج موضحا إياها بقوله: « ولعلّ أهم فرق بين رموز الأسماء في اللاتينية، وبين حركاتنا الإعرابية، أن الرموز اللاتينية لا تسقط مطلقا من نهاية الأسماء حين الوقف عليها، كما يحدث غالبا للحركات الإعرابية في لغتنا مما يجعلنا نرجح أن حركاتنا الإعرابية ليست رموزا لغوية، تشير إلى الفاعلية أو المفعولية أو غير ذلك»²⁵.

- آراء إبراهيم أنيس في المجال الصوتي:

كانت البدايات الأولى لظهور اللسانيات العربية مع عودة البعثات الطلابية العربية -المصرية منها تحديدا - من الغرب، و« إذا افترضنا أن لحظة نشأة اللسانيات العربية هي تأريخ صدور أول كتاب تبنى المناهج اللسانية الغربية...، ما بين 1941 و1946 وهي المدة التي يرجح فيها صدور كتاب الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس، الذي يعدّ أول كتاب عربي يحاول تطبيق النظرية البنوية في وصف أصوات اللغة العربية»²⁶.

ويعد كتابه هذا « أول محاولة عربية لوصف أصوات العربية وصفا جديدا، أفاد فيها من جهود القدماء، والمحدثين كليهما»²⁷، وهذا ما يؤكد في مقدمة كتابه الأصوات اللغوية بقوله: « فهذا كتاب في دراسة قد تبدو حديثة في بلادنا ولكنها ازدهرت وتأصلت بين من يُعَنونَ بالبحث اللغوي في أوروبا»²⁸.

فهذا الكتاب الصوتي الرائد (الأصوات اللغوية) أراد فيه صاحبه الجمع بين آراء القدماء والمحدثين في مجال الدراسة الصوتية، وحاول « أن

يؤسس للدرس اللساني العربي الحديث من خلال الوقوف على آراء علماء اللغة العربية في هذا المجال وتأكيد أسبقيتهم فيه»²⁹، ومن بين مواقفه إزاء الدرس العربي القديم في المجال الصوتي:

1 - عدم الدقة في وضع المصطلحات، حيث يقرّ أن «المصطلحات التي أطلقها القدماء على بعض مخارج الأصوات وصفاتها جانبها التوفيق، وتنقصها الدقة»³⁰. فتقسيم سيبويه لمصطلحات مخارج الأصوات «قائم على أساس الفصل بين المخرج والصفة، على حين مضى اللغويون المحدثون إلى عدم الفصل بينهما باعتبار الصوت وحدة متكاملة»³¹.

2 - عدم إدراكهم لوظيفة الأوتار الصوتية في التفريق بين الصوت المجهور والصوت المهموس³².

3 - دور الرئتين في عملية النطق مُغَيَّب عندهم؛ حيث يقول: «فبغير الرئتين لا تكون عملية التنفس، وبغير التنفس لا يكون الكلام بل لا تكون الحياة نفسها، فبعض الأعضاء التي سبقت الإشارة إليها قد يصيبه اضطراب أو خلل، ومع هذا فتظل عملية النطق تؤدي دورها في صورة من الصور ولكن الرئتين لا يمكن الاستغناء عنهما في النطق»³³.

4 - يرى أن تصنيفات القدماء للأصوات (الصامتة والصائتة) قائمة على أساس وجود اعتراض لتيار الهواء في مجراه أو عدم وجوده، غير أنهم اهتموا بالصوامت على حساب الصوائت (القليلة العدد مقارنة بعدد الصوامت وخاصة الصوائت القصيرة).

5 - صنف إبراهيم أنيس صوتي القاف والطاء ضمن زمرة الأصوات المهموسة، في حين صنفها القدماء ضمن زمرة الأصوات المجهورة، وأرجع ذلك إلى التطور (التغيير) الذي أصابهما، «فاختلف نطق

بعض الأصوات في زماننا على مستوى النطق الفصيح عنه في زمان أولئك القدماء الذين وصفوا ما سمعوه، وأصابوا في هذا الوصف»³⁴.

6 - عدّ القدماء صوت الهمزة من الأصوات المجهورة، أما أنيس لم يصنفها لا في زمرة الأصوات المهموسة ولا الأصوات المجهورة، وعاب عليه عبد الرحمن أيوب هذا قائلاً: «ومن ثم فإن وصف أنيس للهمزة، بأنها ليست مجهورة ولا مهموسة وصف غير دقيق»³⁵.

7 - أقر بأن وصف القدماء لصوت الواو يشوبه النقص، فهو « ليس من الشفتين فقط كما ظن القدماء، بل هو في الحقيقة من أقصى اللسان حين يقترب من أقصى الحنك»³⁶.

8 - كان صنيع علماء العربية القدماء يتفق في قضايا كثيرة مع نتائج البحث الصوتي الحديث مع اختلاف في بعض المصطلحات، فوصف أنيس للأصوات المجهورة والمهموسة، والشديدة والرخوة، وكذا الأصوات البينية (المتوسطة) لا يخرج في الغالب عما قال به الأولون رغم افتقارهم للوسائل والتقنيات التي تسهل عليهم الوصول إلى ما توصلوا إليه من نتائج مبهرة، وعليه كانت المباحث الصوتية في اللسانيات العربية الحديثة تستند إلى « متن نظري ذي أصلين : البحث الصوتي العربي القديم، والفونتيك الحديثة، فقد كان وصف اللسانيين العرب لأصوات العربية يمزج المفاهيم المطروحة في التراث، من قبيل الجهر والهمس، والحركة والسكون، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، بما يماثلها في البحث الفونتيكي الحديث»³⁷. وعلى هذا المنهج سار إبراهيم أنيس حيث لم يفصل في دراسته للأصوات اللغوية بين الفونتيك والفونولوجيا حيث يرى « أن الفرعين قد يلتقيان في ميدان واحد، ويشاركان معا في عدة نقاط، فحدودهما متشابكة، يصعب تحديد الفواصل بينهما تحديدا دقيقا»³⁸. ويقول في هذا الشأن حلمي خليل: « ويبدو

أن اتجاه د. أنيس في عدم الفصل بين الفونتيك والفونولوجيا لأنه كان يسعى لدراسة أصوات اللغة العربية في المقام الأول، وهي دراسة تتصل بالفونولوجيا أكثر منها بعلم الأصوات العام»³⁹.

9 - يعد إبراهيم أنيس من الأوائل الذين كتبوا قواعد النبر متتبعا مواضع النبر في قراءة القرآن في اللهجات المعاصرة⁴⁰. حيث عرفه بمعنى "الضغط" على مقطع من مقاطع الكلمة وهذا وجه الاختلاف بينه وبين قدامى اللغويين العرب « ولعل ذلك راجع إلى كون النبر لا يقوم بوظيفة دلالية في العربية الفصحى سواء أكان ذلك عن طريق الضغط أم المطل أم الإشباع، وهذا يعدّ في نظر إبراهيم أنيس ميزة في اللغة العربية»⁴¹. كما تحدث عن التنغيم، فإبراهيم أنيس أول من أشار لهذا الموضوع من المحدثين، مستخدما مصطلحا آخر له هو موسيقى الكلام "Intonation"⁴²، غير أن حديثه عنه جاء مقتضبا، وهنا يتضح الجانب الحدائي، كما نجده تحدث عن ظاهرتي المماثلة والمخالفة⁴³؛ حيث يرى أن الأصوات اللغوية تتأثر ببعضها البعض في المتصل من الكلام، وأن نسبة التأثير تختلف من صوت إلى آخر، والهدف من هاتين الظاهرتين الصوتيتين المتعاكستين في العمل تحقيق الانسجام الصوتي داخل البنى اللغوية، ليؤكد بعد عرضه لمجموعة من الأمثلة « أن الأصوات في تطورها تهدف إلى الإقتصاد في الجهد العضلي، فالمماثلة تقرب بين الأصوات المتجاورة في الصفة والمخرج، وقد يصل هذا التقريب بين الصوتين المتجاورين إلى أن يصبحا متمائلين تمام التماثل، وهنا قد تبدأ عملية المخالفة التي تهدف أيضا إلى التقليل من الجهد العضلي»⁴⁴. فالمواضيع الصوتية المطروقة في كتاب "الأصوات اللغوية" كثيرة حدّد أنيس الغاية المتوخاة منها في نقطتين أساسيتين: « أولهما رفع اللبس عن كثير من المفاهيم والآراء التي أتى بها المتقدمون من علماء اللغة، والتي تكررت عند

المتأخرين دون فهم أو نظر فيها، وثانيهما ترتبط بمشروع تبناه اللسانيون العرب جميعهم، وهو نشر ثقافة لسانية في أوساط المشتغلين بالدراسات اللغوية»⁴⁵. وفي مؤلفه الجاد (الأصوات اللغوية) كان إبراهيم أنيس يوازن آراء اللغويين العرب القدماء بآراء المحدثين، ويوضح السبب في أنه يهدف للوقوف على مدى ما تتفق فيه آراء علماء اللغة العربية القدماء مع النظرية الحديثة في هذا الميدان⁴⁶، مبادرا إلى توضيح موقفه من جهودهم قائلا: «... فدراستنا هنا هي دراسة المحايد المنصف المعترف بعلم هؤلاء القدماء وفضلهم وليس القصور أو التقصير فيما رواه سيبويه»⁴⁷، مقرا بأن «المتأخرين لم يحاولوا فهم ما وصل إليهم في مجال الدراسات الصوتية، بل اكتفوا بتكرار آراء القدماء دون الوقوف عليها وتأمل مواطن القوة والضعف فيها»⁴⁸، وهذا ما أدى إلى ركود البحث في المجال الصوتي وتعثره. وعليه يمكن القول أن كتابات إبراهيم أنيس في الدراسات اللسانية النحوية والصوتية... «شكلت رافدا أساسيا في الحركة اللغوية العربية الحديثة مساهمة بنصيب وافر في التعريف باللسانيات الوصفية»⁴⁹. غير أن ما يعاب على الكتابة الوصفية العربية وهو ادعاء المنهجية والعلمية وربطها بالوصفية وحدها، ونفي ذلك عن سائر المناهج. وترى الوصفية أن المنهج العلمي «يُعدى أولا وأخرا بالإجابة عن "كيف" تتم هذه الظاهرة أو تلك، فإذا تعدى هذا النوع من الإجابة إلى محاولة الإجابة عن "ماذا" تتم هذه الظاهرة أو تلك، لم يعد منهجا علميا... إن النظرية العلمية يجب أن ترقى إلى مستوى تفسيري، ولا تكتفي بالملاحظة الخارجية في جميع الأحوال، بل تبحث في كيف وفيما وراء كيف»⁵⁰.

- خاتمة:

حاول إبراهيم أنيس من خلال مؤلفاته بعث الحياة اللغوية ودفع الدراسات اللغوية العربية قدماً وتحريرها من قيود التبعية والتقليد والجمود، أين تبنى المنهج الوصفي في إعادة وصف اللغة العربية من خلال النظرية اللسانية الغربية الحديثة، فاللغة العربية حسبه لا يمكن فهمها بدقة إلا من خلال اللسانيات الحديثة حتى تواكب المستجدات الثقافية والحضارية.

- أعاد النظر في التقسيم الثلاثي للكلم في العربية ونفى أصالة النحو العربي مؤكداً تبعيته للتقسيم الأرسطي. كما اقترح أسساً وبدائل جديدة بنى عليها تقسيمه للكلم.

- يعتبر أن القياس اللغوي صناعة نحوية، ونادى بإباحة القياس اللغوي للموثوق بهم من الشعراء والأدباء.

- الإعراب في اللغة العربية لصيق فقط باللغة الأدبية حسبه.

- أضاف الشيء الكثير في الدراسات الصوتية (أعاد تصنيف الأصوات اللغوية، وضع مصطلحات ومفاهيم جديدة في مقابل المصطلحات التراثية...)، كما تحدث بإسهاب عن النبر والتنغيم.

الاحالات والهوامش:

(1) زكي نجيب محفوظ: تجديد الفكر العربي، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1973، ص 254.

(2) تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د. ط، 1986، تقديم المؤلف.

(3) مصطفى غلفان: اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب، 1998 م، ص 175.

- (4) حافظ اسماعيل علوي: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص 44.
- (5) المرجع نفسه، 260.
- (6) محمد حسين آل ياسين: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 394.
- (7) محمد الأوراعي: نظرية اللسانيات النسبية دواعي النشأة، العربية للعلوم ناشرون، ط1 2010، ص 63.
- (8) ريمون طحان: الألسنية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1972، ص ص 11 ، 12.
- (9) إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1993، ص 279.
- (10) حافظ إسماعيلي علوي: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، ص 206.
- (11) عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985، ص 52.
- (12) حافظ اسماعيل علوي: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، ص 230.
- (13) المرجع نفسه، ص 231.
- (14) إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، ص 293.
- (15) المرجع نفسه، ص 294.
- (16) ابن منظور: لسان العرب، ج8، مادة (قيس).
- (17) إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، ص 14.

- (18) المرجع نفسه، ص ص 15 . 16.
- (19) المرجع نفسه، ص ص 17 . 18.
- (20) المرجع نفسه، ص 44.
- (21) محمد الخضر حسين: القياس في اللغة العربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط ، 1986، ص 28.
- (22) انظر ابراهيم أنيس: من أسرار اللغة، ص 44
- (23) المرجع نفسه، ص 198.
- (24) المرجع نفسه، ص ص 202، 203 .
- (25) المرجع نفسه: من أسرار اللغة، ص ص 206، 207.
- (26) فاطمة الهاشمي بكوش: نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، دراسة في النشاط اللساني العربي، ص 18.
- (27) المرجع السابق، ص 32.
- (28) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط4، 1971، ص30.
- (29) فاطمة الهاشمي بكوش: نشأة الدرس اللساني العربي الحديث ، دراسة في النشاط اللساني العربي، ص 32.
- (30) هنري فليش: العربية الفصحى دراسة في البناء اللغوي ، ترجمة عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، مصر، ط2، 1997، ص 20.
- (31) انظر: ابراهيم انيس: الأصوات اللغوية، ط4 ، ص ص 88 ، 94 .
- (32) ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص 19.
- (33) انظر: المرجع نفسه: الأصوات اللغوية، ص ص 38 ، 39.
- (34) رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2 ، 1985م، ص 62.

- (35) عبد الرحمن أيوب: أصوات اللغة، القاهرة، 1968، ص 183، الهامش 02.
- (36) ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص 43 .
- (37) فاطمة الهاشمي بكوش: نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، دراسة في النشاط اللساني العربي، ص 105.
- (38) ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص 04 .
- (39) حلمي خليل: العربية وعلم اللغة البنيوي، بدون دار النشر 2001 م، ص 149.
- (40) انظر ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص ص 99 . 100.
- (41) محمد بوعمامة: الصوت والدلالة دراسة في ضوء التراث وعلم اللغة الحديث، التراث العربي، دمشق، سوريا، 2002، العدد 85، ص 21 .
- (42) ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص 103 .
- (43) المرجع نفسه: الأصوات اللغوية، ص ص 178، 210 .
- (44) المرجع نفسه: الأصوات اللغوية، ص 214 .
- (45) المرجع نفسه، ص 03.
- (46) انظر المرجع نفسه، ص 03.
- (47) المرجع نفسه، ص 105.
- (48) المرجع نفسه، ص 105.
- (49) مصطفى غلفان: اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، ص 281.
- (50) عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، ص 58.
- * كتاب الأصوات اللغوية: يعد أول كتاب عربي حاول تطبيق النظرية البنيوية في وصف أصوات اللغة العربية، انظر: فاطمة الهاشمي بكوش: نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، دراسة في النشاط اللساني العربي إيتراك للنشر، مصر، ط1، 2004، ص 18.

لهجة (القومان) في مدينة عنابة بين الإبداع اللغوي والتداخل اللغوي

نوار عبيدي
جامعة العربي بن مهيدي الطارف

المخلص:

يعرف الاستعمال اللغوي (للغة العربية) في الجزائر - وكذلك بقية الدول العربية - تنوعاً عجباً يستدعي من الدارسين والمهتمين باللسانيات البحث في خصائصه وتحليله، وإن كان هذا التنوع له أسباب تاريخية وجغرافية قديمة مشتركة؛ إلا أنّ هناك كثيراً من الظواهر اللغوية التي تحتاج إلى تفسير، فقد تجد مدينتين أو بلديتين قريبتين لا يفصل بينهما أي حاجز جغرافي لكنهما تختلفان في نطق أو استعمال بعض الألفاظ والتراكيب، ومثل هذه الظاهرة يمكن أن نجد لها تفسيراً مقبولاً، العجيب هو أن تجد في المنطقة الواحدة استعمالاً لهجية عديدة؛ وهذا ما لاحظناه في مدينة عنابة حيث توجد طائفة من الشباب يسمون أنفسهم (القومان) يستعملون لهجة خاصة بهم فيها كثير من الظواهر اللسانية (صوتية ولفظية وتركيبية) تحتاج إلى اهتمام اللغويين.

الكلمات المفتاحية: لهجة، القومان، استعمال لغوي، خصائص صوتية

Le Dialecte du GOUANE de Annaba Entre Créativité syntaxique et interférence linguistique

Résumé:

L'usage linguistique de la langue arabe en Algérie est connue par sa diversifié et ce le nécessite une analyse de la part des chercheurs, en particulier des linguistes. Chaque région d'Algérie a son dialecte. Il y a beaucoup de raisons historiques et géographiques qui expliquent cette variété. Mais il y a aussi d'autres phénomènes linguistiques qui ont besoin d'explication; par exemple, vous trouverez deux villes proches et sans barrières géographiques, mais elles ont des dialectes différents qui peuvent être justifiés scientifiquement. Ainsi, nous pouvons trouver de différents usages du dialecte dans la même région et ce que nous avons constaté à Annaba où il y a un groupe de personnes qui s'appelaient "Goumane". Ils utilisent leur dialecte spécial composé de nombreuses caractéristiques linguistiques; phonologiques, syntaxiques et sémantiques. Ces caractéristiques ont vraiment besoin de profonds études par les linguistes.

Mots clés: Le Dialecte, Goumane, L'usage linguistique, caractéristiques phonologiques.

Goumane Dialect in Annaba: Syntactic Creativity and linguistic Interference

Abstract:

The linguistic usage of the Arabic language is very diverse that requires analysis from the researchers especially the linguists. Every region in Algeria has its dialect. There are lots of historical and geographical reasons that explain this variety but there are also other linguistic phenomena that need explanation; for example, you will find two close cities without any geographical barriers but they have different dialects which can be justified scientifically. So, we will find different dialect usage for the same object and that what we have noticed in Annaba in which there is a group of people who called themselves "Goumane". They use their special dialect that consists of many linguistic features; phonologically, syntactically and semantically. Those features really need the care of the linguists.

Key words: The Dialect, Goumane, The linguistic usage, phonological features.

تمهيد:

تكتسي دراسة اللهجات العربية القديمة والحديثة أهمية كبيرة لدى اللغويين، والظاهر أن هذه الدراسات بإمكانها رد كثير من اللهجات إلى أصولها الأولى ومعرفة السبل التي سلكتها من تطور وتغير حتى وصلتنا في صورتها الحالية، فدراسة اللهجات تكشف للباحث والدارس المراحل التي مرت بها العربية وخط سيرها¹.

وتعرف الجزائر كباقي الدول العربية تنوعا لهجيا كبيرا نتج معظمها لأسباب تاريخية وجغرافية، وبعضها ظهر بسبب تلاقح الثقافات والشعوب نتيجة النشاطات التجارية أو العسكرية أو التوسعية الاستعمارية كاللغة الفرنسية على الخصوص.

وسنحاول في هذا المقال عرض لهجة متميزة في مدينة عنابة (مدينة ساحلية تقع شمال شرق الجزائر) لا يستعملها كل سكان المدينة، وإنما بعض شبابها يسمون أنفسهم بـ (القوم أو القومان)، ولهجة هؤلاء صورة من صور

الاستعمال اللغوي العامي، يمكن أن نطلق عليها لغة أدب الحياة اليومية². وقبل التطرق لهذه اللهجة يجدر بنا أن نعرف أولاً بـ (القومان).

القوم و(القومان) والقومستي والرجلة؛ مصطلح واحد:

(القوم) برفع القاف ومدھا مع الواو، هو الاسم الذي يطلق على جماعة معينة تتصف بصفات متميزة، وأساليب حياتية خاصة تختلف عن تصرفات السواد الأعظم من الناس في مدينة عنابة، وتطلق لفظة (القوم) على كل من ينتمي إلى هذه الجماعة، ويستعملون أيضاً لفظة (القومان)، ويجمعونها على (قومانة) بثلاث نقاط فوق القاف.

ويبدو للوهلة الأولى أن أصل اللفظة من (القوم) بفتح القاف وإسكان الواو، وهم "الرجال دون النساء، قال الله جلّ وعزّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾³، وقال زهير:

وما أدري، وسوف إخال أدري ... أقوم آل حصن أم نساء؟!⁴

ويشير الخليل بن أحمد الفراهيدي (280 هـ) إلى مصدر آخر هو (القومية) إذ يقول "فلان ذو قومية على ماله وأمره. وهذا الأمر لا قومية له، أي: لا قوام له، ورجال قِيَامٍ، ونساء قِيَمٍ... وَقِيَمُ الْقَوْمِ: من يسوس أمرهم وَيَقْوِمُهُمْ. ورمح قَوِيْمٍ، ورجل قَوِيْمٍ. والقائمُ في الملك ونحوه: الحافظ. وكل من كان على الحق فهو القائمُ الممسك به"⁵.

ويطلق (القومان) على نفسه لفظة أخرى وهي (القومستي)، والظاهر في الوهلة الأولى أن هذه اللفظة مركبة من لفظتين هما: القوم - ستي، لكن المتأمل سيجد أنها مركبة من قومس - تي، وإذا كان الجزء الثاني من اللفظة يقترب من (النسبة)، فإن الجزء الأول له معنيان:

1- قَوْمَسُ الْبَحْرِ وَقَاموسُ الْبَحْرِ، وَهُوَ مُعْظَمُ مَائِهِ.⁶

2- الْقَوْمَسُ، وَهُوَ الْأَمِيرُ. قَالَ الشَّاعِرُ:

1- وعلمت أني قد مُنيتُ بِنَطْلٍ... إذ قيلَ كَانَ من آلِ دَوْقَنَ قَوْمَسُ⁷
وذكر الفيروزأبادي أن "القَوْمَسُ: الأميرُ، ومُعْظَمُ ماءِ الْبَحْرِ،
كالقَامُوسِ. والقَمَامِيسَةُ: الْبَطَارِقَةُ، والقَوَامِيسُ: الدَّوَاهِي."⁸

أما مصطلح (الرجلة) بضم الراء وإسكان الجيم - فهو مصطلح شائع ليس في الجزائر فحسب بل في معظم بلدان العالم العربي - فأصله من لفظة الرجل الذي هو الإنسان الذكر، قال الخليل "هذا رجلٌ أي ليس بأنثى، وهذا رجلٌ أي كاملٌ، ولغة طيء: هذه رجلةٌ وهذا رجلٌ أي راجلٌ، وهي رجلةٌ أي راجلةٌ، وقال في الرجلة التي المرأة:

خَرَفُوا جِيبَ فَتَاتِهِمْ ... لم يُبَالُوا سَوَاءَ الرَّجْلِ

وهذا أَرَجَلُ الرَّجَلَيْنِ أي فيه رَجُولِيَّةٌ ليست في الآخر"⁹.

ويمكن أن نستنتج من كل تلك التعريفات أن لفظة (القوم) بالضم أو القومستي؛ تعني ذلك الرجل القوي، القوام على نفسه والأمير على غيره.
ولفظة (القومان) ليست غريبة عن التراث والأدب الشعبي الجزائري فقد ورد في قصيدة حيزية¹⁰ لابن قيطون¹¹ قوله في البيت السادس:

جَاب الْعِسْكَرَ مَعَاهُ، وَ(القمان) وراه *** طلبت لقاءه كل الآخر بهديا¹²

ويقصد بـ (القومان) هنا ذلك العميل الخائن المعروف في العامية الجزائرية باسم (القواد) والذي تستغله فرنسا وتستعمله ضد الشعب الجزائري، أما الدكتور عز الدين مناصرة فقال إن معنى (القومان) الحاشية والأعيان¹³ وهذا في رأينا بعيد.

(القوم) في مدينة عنابة:

والشباب (القوم) في مدينة عنابة منتشر في كل الأحياء، وهم معروفون تقريبا كلهم، وقد انتشر صيتهم وانتشرت عاداتهم وسلوكاتهم في كثير من أنحاء الوطن، وشباب المدن الأخرى يعرفون جيدا (القوم العنابي) وهم قريبون من شباب بعض الولايات الجزائرية خاصة شباب الجزائر العاصمة في حي باب الواد والحراش، حيث يطلق عليهم لفظة (المصاغر)، ويمكن فهم هذه الطائفة الشبانية من خلال الفيلم السينمائي (عمار قتلاتو الرحلة)، الذي أخرجه مرزاق علواش سنة 1976، وللعنوان دلالات كثيرة يفهم منها على الخصوص إلى أي درجة انغمس الشاب الجزائري في سلوك (الرحلة). ويمكن أن نرجع سبب ظهور (القومان) إلى ثلاثة أسباب رئيسية وهي: السبب النفسي، السبب الاجتماعي، السبب الفني.

1- السبب النفسي:

تتكون شخصية (القومان) في بداية الأمر نتيجة دافع نفسي يريد الشاب من خلاله إثبات رجولته كأبي مراهق، فيحاول إظهار قدرته باحتراف الصعلكة وقطع الطرقات، فحين يبرهن على ذلك بتحدي المخاطر يتسلل إلى طائفة (القومان) وينضم إليهم، وهكذا يصل إلى ما كان ينتظره وهو ذكره في مجالس الشبان الشطار، ويكون هذا الدافع هو الذي أنشأ منه الشاب (القومان) في خطواته الأولى.

2- السبب الاجتماعي:

لاحظنا أن معظم الشباب (القومان) يعيش أوضاعا اجتماعية صعبة، مما يضطر (القومان) إلى الاعتماد على نفسه، فلا يجد بابا مفتوحا أمامه

غير السرقة والصعلكة. فيجد نفسه بين السهرات الليلية والملاهي، وبالتالي يلتجئ إلى طائفة (القومان) لينتمي إليهم. ليجد راحته الاجتماعية بين أقرانه.

3- السبب الفني:

وهذا السبب من أهم العوامل والدوافع لظهور (القومان) وتكوين شخصيته، بل إن القومان لا تكتمل رجولته إلا إذا تشبع بهوى القومان الفني. ويعد الفن الشعبي أو الغناء الشعبي من أقوى وأشهر الفنون التي تستهوي الشباب (القومان)، والمصطلح في حد ذاته يدل على شعبية هذا الفن المستمد أصلا من التراث الشعبي الجزائري، وهو شعر ملحون يؤدي بلهجة مفهومة، مصحوبة بنغمات الطابع الأندلسي (كالمالوف والحوزي)¹⁴. ومن أشهر رواد هذا الفن: الحاج محمد العنقاء، الشيخ مريزق، الشيخ الناظور، الحاج العنقيس، الشيخ القروابي، وغيرهم كثير جدا. غنوا لكبار شعراء الملحون منهم الشيخ ولد خلوف، المغراوي، العلامي، ابن مسايب وغيرهم.

وحين بحثنا عن سبب تأثر (القومان) بالغناء الشعبي دون غيره من أنواع الفنون؛ وجدنا أن الغناء الشعبي هو الوحيد تقريبا الذي يحمل معاني الرجولة والشرف والكرم بالإضافة إلى المعاني الدينية. ولأن بعض الأغاني الأخرى عبارة عن حكايات فيها الكثير من المغامرات مثل أغنية (عويشة والحراز)، فهذا النوع من المغامرات العاطفية محبوب جدا عند (القومان).

هذا ويتميز (القومان) عن باقي الناس بصفات معينة تتمثل في مشيته ولباسه وكلامه وحتى عمله، حيث يمكن معرفته بظواهره فقط، فلو غير مثلا في مشيته وملبسه وكلامه، فمعرفته تكون صعبة على الذين يجهلهم¹⁵.

لهجة (القومان) وخصائصها:

في البداية يجب أن نجيب على السؤال الآتي: هل للقومان لهجة خاصة؟

واللهجة في أبسط تعريفها هي " طريقة معينة في الاستعمال اللغوي توجد في بيئة خاصة من بيئات اللغة الواحدة".¹⁶ ولهجة (القومان) في نظرنا مظهر استعمال للغة العربية ينتمي إلى العامية الجزائرية، وهو مظهر لهجي لا يمكن أن يستهان به، والعامية الجزائرية ككل تحتاج إلى عناية علمية خاصة، وقد اعتبر عبدالمالك مرتاض أن دراسة العامية أو التراث الشفوي ليس "من ترف القول أو البحث، ولا من بذخ التفكير، ولا من عقيم النتائج، وإنما هي ضرورة لطلاب فقه اللغة لكي يعرفوا كافة أصول لغتهم بما فيها اللهجات العامية الشائعة"¹⁷. ونميل نحن إلى وسم لغة (القومان) باللهجة العامية العناية.

بعض الظواهر اللغوية في لهجة (القومان):

1- السياقات الصوتية المصاحبة للأداء الكلامي: ونقصد بها ظاهرة التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم¹⁸، وهذه المصطلحات الأربعة ذكرها صاحب الخصائص، وهي التي تعطي الكلام أثناء استعماله دلالات أخرى أعمق وأبين، دون أن ننسى النبر والتنغيم.

ففي تعليقه على قول العرب (سير عليه بليل) - وهم يقصدون الليل الطويل - قال ابن جني: " وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك. وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأملتّه، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً، فنزيد في قوة اللفظ بـ "الله" هذه الكلمة، وتتمكّن في

تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها، أي: رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً، وتمكّن الصوت بإنسان وتفخّمه فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك. وكذلك إن ذمّمته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً أو لحزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك¹⁹. ونص ابن جني هذا في غاية الأهمية لو تأملناه.

فـ(القومان) لا يتكلم ككل الناس، بل إن لغته وصوته وحركاته تجعله ينفرد بطريقة في الكلام لا يعرف أحياناً إلا بها، أما الصوت فهو خشن فخم عند معظمهم، ويتكلف الكثير منهم في جهره، ولا تجد من يتكلم بصوت عادي أو رقيق مثلاً.

والكلام أثناء النطق يكون بطيئاً فيه مدود كثيرة، وإمالات أحياناً يصاحبها اعوجاج في الفم، وكأن (القومان) عندما يتلفظ يبدو لك أنه يخرج أصواته من إحدى زوايا فمه، ويصحب كلامه حركات كثيرة خاصة بالأيدي وبكامل جسده، وكأنه يروي لك معركة حاسمة، وإن كان الموضوع الذي يتكلم فيه تافهاً.

ولا يخفى على أحد أن اللغويين يعرفون أثر المصاحبة الحركية لجسم الإنسان، وهي تدخل في السياقات الكلامية التي يتناولها التداوليون بالإضافة إلى أهمية وخصائص تلك الحركات في عملية الاتصال. أما الدراسة الصوتية الوظيفية فهي ضرورية لفهم النصوص الشفوية، ذلك لأن الأصوات "تكتسب أثناء الكلام صفات جديدة، وخصائص لفظية، وذلك نتيجة عادات نطقية متوارثة... وانفعالات نفسية... تؤثر في جهر أصوات الكلام، والتنغيم في مقاطع الكلام صعوداً وهبوطاً. كما تؤثر في ترتيب النغمات المتتابعة في المجموعة الكلامية..."²⁰.

2- الإبدال: والإبدال نوعان مطرد وغير مطرد. وقد تكفل علم الصرف بالأول، لأنه مطرد عند جميع العرب، أما الإبدال غير المطرد فذلك الذي يحدث في الألفاظ وينتج عنه أصل وفرع في اللفظة²¹.

ويظهر الإبدال في لغة (القومان) في الأمثلة الآتية:

- إبدال الجيم زايًا:

2- (دزازة) أي دجاجة

(زراية) - بتثديد الراي- أي جراية وهي لفظة تطلق على السيارة.

(رازل) أي راجل خلاف المرأة.

- إبدال الشين سينا:

(السمس) أي الشمس.

(وس بيك)؟ أي وش بيك؟ بمعنى: ما بك؟

وهذا الاستعمال معروف في لغة العرب، وقد ذكر ابن السكيت في كتابه القلب والإبدال في (باب السين والشين)، وأن الأصمعي قال "يقال جاحشته وجاحسته وجاحفته إذا زاحمته، قال وبعض العرب يقول للجحاش في القتال الجحاش"²².

وحسب رأي ابن جني فإن مثل هذه الصيغ من الإبدال العربي مادامت اللفظتان متفتتان في المعنى، إلا أننا لم نفهم السبب الحقيقي لهذا الإبدال في لغة (القومان) سوى محاولة للتطريح في اللفظ والتميز في استعمال الصوت. وسهل ذلك التقارب الشديد في مخارج الأصوات بين (الجيم والزاي) وبين (السين والشين).

وإذا كان ابن جني يرى هذا من الإبدال؛ فإن أبا الطيب اللغوي لا يعده كذلك حيث قال: "وليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف بحرف، وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة تتقارب اللفظتان في لغتين

والمعنى واحد²³. والظاهر أن رأي ابن جني أقرب للصواب؛ فليس شرطاً أن تكون اللفظتان الحاملتان للإبدال لغتين مختلفتين.

3- القلب: وهو من سنن العرب في الكلمة كقولهم: جَذَبَ وَجَبَذَ وَضَبَّ وَبَضَّ وَبَكَلَ وَلَبَكَ وَطَمَسَ وَطَسَمَ²⁴.

وجاء في لغة (القومان) قولهم: بالاس والقصد لابس. أي لا بأس بمعنى بخير.

وقولهم: العقيلة فاسدة، والقصد العقلية فاسدة. أي العقل أو التفكير الفاسد.

وقولهم: الحبارش، وهي الحرايش. وهي الأقراص الطيبة. تلكم بعض الظواهر الصوتية عند القومان.

المعجم اللفظي عند القومان:

تتميز لهجة (القومان) بثراء لغوي كبير، نذكر هنا بعضاً من معجمه اللفظي للتعريف بهذا التنوع في الاستعمال، فللقومان مئات الألفاظ ذات الأصول العربية التي لها معنى دارج في اللسان، كما لديهم عشرات الألفاظ ذات الأصول الفرنسية والإيطالية دخلت الاستعمال وعربت، ونحن هنا سنعرض بعضاً من معجم القومان اللغوي والذي لا يحتاج إلى شرح كبير وعودة إلى المعاجم العربية، لكن نؤكد أن هذا المعجم يحتاج إلى دراسات لغوية أعمق.

1. تسمية بعض الأشياء:

- الجداب: وهو (القوم) و(القومان) هو المجدب. وأصل اللفظة من جذب يجذب، أي جذبه (القوم). ويقال له أيضاً (لومبوش) وهو من

- الكلمة الفرنسية l'embauche أي التوظيف، ودلالاتها الدخول في صف (القومان).
- الخدمي: وهو السكين، ويطلق عليه (المضى) من كلمة ماض أي حاد. أو (كرون داري) نسبة إلى cran d'arrêt وهو سكين فرنسي الأصل. ويطلق عليه (بوسبعة) لاحتوائه على سبع درجات أثناء فتحه.
- الكحة: السجن.
- دم السبع: والسبع هو الأسد ودم الأسد كناية عن الخمر، ويطلق عليه أيضا (تقريعة الحلوف)، والحلوف هو الخنزير، ويسمى أيضا (الديفان).
- الزميريطو: وهو مشروب غازي مخلوط بالكحول الطبية. يستعمل كالخمر.
- الزطلة: وهي المخدرات أو الشيرة، (ومعناها تزطل أي تفقده الوعي)، وتسمى الدوخة.
- زبايطي: وهو رجل الأمن أو الشرطي، ويسمونه أيضا (البريد) بتسكين الباء، و(الحنش) أي الثعبان. وجمعها زبايطية، وبردوات، وحنوشة.
- الحرابش: وهي الأقراص المخدرة، (نسبة إلى الحبارش) ويسمونها (القفالي) جمع قفلة.
- العط: النقود، وتسمى (العقاب).
- القروم: بثلاث نقاط فوق القاف مفتوحة، وتشديد الراء وهو كبير السن.
- طالوشة: الحذاء وهي لفظة إيطالية.

- معفط: وهو الشيء القبيح.
- الجراية: السيارة. وتتطق (الزراية).
- المددق: بثلاث نقط فوق القاف وتعني المتعب.
- المتتوي: الغاضب.
- خاليس: وهو نداء بمعنى خالي وأضيفت السين.
- المبزق: بثلاث نقط فوق القاف وتعني المخدر.
- المذرح: المزور.
- المبورخ: رخيص الثمن.
- قافل واو: أي في حالة سكر شديدة.
- المحلب: الذكي.

2- تسمية القيم المالية والنقدية:

عند (القومان) اسم لكل قيمة نقدية (من النقود الجزائرية)، فإنك لا تفهم إن قيل لك مثلاً: أعطني نص تخميمة ودفرة ودوامة، وهو يقصد 61 دج. وذلك أن معنى:

- دوامة: دينار واحد.
- قيس: 5 دنانير.
- دفرة: 10 دنانير.
- نص تخميمة: 50 دينار.
- تخميمة: 100 دينار. وذلك نسبة إلى الورقة النقدية الجزائرية ذات الفئة 100 دج التي تحمل صورة الشيخ عبد الحميد ابن باديس وهو يضع أصبعه على صدغه في حالة تفكر (يختم).
- زربية: 500 دينار.

- طورو: 1000 دينار. و(الطورو) لفظة فرنسية taureau تعني الثور وهو مرسوم في الورقة المالية وهي تسمية جديدة.
- بركة: بكسر الراء أي 10000 دينار.

3- ألقاب الأشخاص:

كما يعرف (القومان) بتسمية بعضهم بعضا بألقاب غريبة، وهذه الألقاب هي عبارة عن عنوان شخصية (القومان)؛ لأنها مستمدة من شخصيته معبرة عن حاله مثل:

- صالح Petit main أي اليد الصغيرة كناية عن خفة السرقة.
- Kader loup (الذئب).
- رمضان قحة بثلاث نقاط فوق القاف.
- فوزي Renard (الثعلب).
- صالح Crocodile (التمساح).
- مجيد الغول.
- عبد السلام L'araignée (العنكبوت).
- فوزي حلوفة أي (أنثى الخنزير).
- فوزي Tigre (النمر).
- صالح (قرنيط) أي الأخطبوط البحري.
- صالح (الراقادان) أي ذو القرون الكبيرة.
- محمد Moustique أي الناموسة.
- محمد mousse à lame أي شفرة الحلاقة.
- محمد Super.
- عبد المجيد Barou.

- عمار Tonton.
 - محمد Passe par là. وهو من أكبر (قومانة) مدينة عنابة.
 - رزاق Flambeau أي المشعل.
 - محمد Danger.
 - عبد الحميد (فيرايور) Ferrailleux.
 - محمد الشريف (طايباس) Taille basse.
 - محمود دجاجة.
 - داندراوي سلطان القوم.
 - عبد السلام صرصور.
- ولو تأملنا جيدا في هذه الألقاب لوجدناها تشير إلى ما يلي:
- 1- أن معظمها دالة على أسماء حيوانات مشهورة بالشجاعة والقوة وتحدي المخاطر وكذلك الذكاء والحيلة.
 - 2- وألقاب أخرى صفات للقومان (Tay basse، Super، Petit سلطان القوم).
 - 3- يغلب على الألقاب اللغة الفرنسية لاستعمالها الكثير من قبل كبار القومان).

الأمثال الشعبية عند (القومان):

للقومان مجموعة مهمة من الأمثال كثير منها من إبداعاتهم، وبعضها مأخوذ من الثقافة الشعبية الجزائرية أو العربية، ولا يخفى على أحد ما للأمثال من قيمة في الاستعمال اليومي فهي وشي الكلام وزينته. ومن أمثالهم:

✓ لو كان جيت (قوم) راني مربوط بحزام من ثوم

- ✓ (القوم) في البحر يعوم
- ✓ الرحلة دتها الحجلة، والحجلة داها الصياد، والصياد داه الواد
- ✓ ياك تعرف اللي صافي والزوخ ما يزيد في الرحلة
- ✓ اللي فاتاتو الرحلة يلحقها بالتوشام
- ✓ الرجال بالرجال والرجاء بالله
- ✓ في خاطر لحباب نخش لجهنم
- ✓ الفرخ في يد من زوا
- ✓ الوقت في زمانه يفنى، والبحر يبهر موجاته
- ✓ اللي عينه في الحوت يدير قصبة وخيوط
- ✓ كي يعطيك العاطي لا تشقى لا تباطي
- ✓ فيقوا يا نايمين، اللي شاح يلبس
- ✓ يا من زار وخفف وكانت زيارته مخفوفة، ويا من زار وطول وكانت زيارته مشومة، وديمة زيارة الضيف مقبولة
- ✓ ما بقات حتى عشرة، ارفد صباطك وامشي
- ✓ أي توالي ونغرسو الدوالي
- ✓ الرجال تتلاقى والجبال ما تتلاقش
- ✓ عينين الفنار في كل حومة داير غار
- ✓ الطعيز للمعيز، الطوايش للهوايش، والسمير للحمير، والبردعة للبعير
- ✓ حط لبرة تلق الخيط
- ✓ حل الباب تلق الطاقة
- ✓ البكاء عند رأس الميت
- ✓ باز (صقر) وإلا رخمة (طير ضعيف)
- ✓ عسلامة باللي جاء وجاب، واللي ما جاب ما نردولوا جواب

- ✓ كخ يا بقرة ما فيك حليب
- ✓ وينكم يا خرفان كي كنا ززارة (جزارة)
- ✓ وينكم يا حيوط كي كنا سباغة
- ✓ طار الحمام وحط الزاوش
- ✓ كي غيب البلبل يخلفه الهازار
- ✓ عيش يا بلارج في بلاد الحيوان
- ✓ قيس قبل ما تغيص وإذا غصت ما بقاش قياس
- ✓ شد في الحكمة واقرا في حروف الميزان
- ✓ زردح بردح واللي ما يصليش على محمد عمره ما يربح

ونلاحظ:

- 1- لغة المثل عامية، يفهمها الجميع إلا أننا نجد بعض الألفاظ الخاصة بالطائفة فقط كقولهم: السمير، زردح، بردح، الطوايش، الطعيز...
- 2- هناك بعض الأمثال المتداولة بين عامة الناس ومنتشرة كثيرا في مجتمعنا، منها: (اللي يبيعك بالفول بيعو بقشور)، (من اللي دفنوه ما زاروه)، أو (كل طير يلغي بلغاه) وغيرها ولكن ركزنا على المتداول عندهم فقط.
- 3- توظيف حسن للأراء الدينية في أمثالهم كقولهم: (الرجال بالرجال والرجاء بالله)، (زردح بردح واللي ما يصليش على محمد عمره ما يربح)، (كي يعطيك العاطي ما تشقى ما تباطي).
- 4- استعمال التشبيهات والكنائيات وبعض الاستعارات.

الخاتمة :

تقد حاولنا في هذا المقال أن نرصد بعض الظواهر اللغوية للهجة (القومان)، فبالإضافة إلى القلب والإبدال فهناك الغنة والإمالة وخاصتي النبر والتنغيم وكلها من المباحث اللسانية الحديثة المهمة خاصة ضمن المنهج الصوتي الوظيفي.

أما من حيث المعجم فإن لغة (القومان) فيها إبداع لفظي بديع وكنائيات واستعارات جميلة بالإضافة إلى استعمالات منقولة عن الفرنسية الناتجة عن تأثير تاريخي أو تداخل لفظي ناتج عن تلاقح اللغتين.

ونشير في الأخير إلى أن هذه الطائفة من المجتمع الجزائري تحتاج إلى أكثر من دراسة ومنهج خاصة فيما تعلق بالدراسات الثقافية الشعبية، فقد أحصينا لها أكثر من مئة شكل في الوشم، بالإضافة إلى نصوص كثيرة في الحكاية والخرافة وهي جديرة بالدراسة أيضا ضمن مناهج الأدب الشعبي والأنثروبولوجيا والميثولوجيا، فضلا عن علمي الاجتماع والنفس.

الإحالات والمصادر والمراجع:

¹ عبدالغفار حامد هلال، اللهجات العربية نشأة وتطور، مكتبة وهبة القاهرة، ط2، 1992، ص7.

² محمد عيلان، التراث الشعبي الجزائري مفاهيم وممارسات، مجلة التواصل عدد4، جامعة عنابة، ص167.

³ سورة الحجرات/ الآية 11.

⁴ الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بغداد 1985. (ق و م).

⁵ م ن، (ق و م).

⁶ ابن دريد، جهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1987. (ق و م).

⁷ م ن، (ق و م).

⁸ الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2005. مادة (ق و م).

⁹ العين، (ق و م).

¹⁰ حيزية هي امرأة جزائرية صحراوية جميلة توفيت حسرة لأنها لم تتزوج بابن عمها سعيد، فأراد زوجها سعيد أن يخلدها فطلب من صديقه الشاعر ابن قيطون أن يكتب عنها فكانت هذه القصيدة الرائعة التي مطلعها:

عزوني يا ملاح في رايس لبنات * سكنت تحت اللحد ناري مقديا

¹¹ ابن قيطون شاعر جزائري من كبار شعراء الملحون ولد سنة 1843، وتوفي سنة 1907، قصيدته حيزية من أروع ما كتب في الشعر الملحون وقد غناها كبار المطربين مثل خليفي أحمد، عباسة، درياسة، وغيرهم.

¹² (معاه) أي معه، و(القمان) هكذا في الأصل دون واو، والأصح أنها بالواو، و(بهديا) أي بهدية.

¹³ انظر عز الدين منصور، حيزية عاشقة من رذاذ، دار البهاء، قسنطينة، الجزائر، ط 1، 1986، ص 160. وهذا ديوان للشاعر الفلسطيني عز الدين منصور غنى فيه عن حيزية ونشر قصيدة حيزية لابن قيطون ملحقة بديوانه.

¹⁴ وينقسم هذا الغناء إلى: مدائح، وقصائد، وربيعيات. فالمدائح هي الأغاني التي فيها مدح للنبي صلى الله عليه وسلم وذكر مآثره وأخلاقه، ومن المدائح المشهورة (يا صاحب الغمامة) و(يا محمد أي سيدي) التي يؤديها الحاج محمد العنقاء ومطلعها:

أحسن ما يقال عندي بسم الله وبيك نبدا

حبك في سلطان جسدي نعزك يا عين وحدة

أما القصائد فهي الأغاني غير المدائح ولو كان مضمونها دينيا مثل: (سبحان الله يا اللطيف) التي أداها الحاج محمد العنقاء ومطلعها:

سبحان الله يا لطيف أنت اللي تعلم
كايين شي ناس من ستحاهم يقولوا خاف

ومثلها (المكناسية) ، و(يا الوجداني).

أما الربيعيات فنسبة إلى الربيع، وهي الأغاني الغزلية كأغنية (مال جفني) التي مطلعها:

ما لجفني بيكي بالدمع ليل ونهار ÷ ما لجفن حبيبي صاحي من الدموع

ومثلها (يوم الجمعة خرجوا لريام) التي أداها بامتياز الحاج (قروابي).

¹⁵ يجب أن نشير إلى أن الأخلاق العامة للقومانة ليست حسنة، فمعظمهم مدمن على الخمر والمخدرات، والكثير منهم يعيش على السرقة والصعلكة، وهم مشهورون بخصوماتهم وأعمالهم المنحرفة، لكن لديهم بعض المظاهر الإيجابية المتمثلة في صفات الرجولة والوفاء والكرم والاحترام خاصة مع الآخرين. وقد اشتهر بعضهم ببيع اللباس والسك، ومعظمهم بطل يحترف السرقة، علاوة على حبهم للغناء الشعبي وحضورهم للأعراس والحفلات.

¹⁶ اللهجات العربية نشأة وتطورا، م س، ص32

¹⁷ عبد المالك مرتاض، العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981. ص5.

¹⁸ وتَطَوَّحَ إِذَا ذَهَبَ وَجَاءَ فِي الْهَوَاءِ، انظر ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة 3، 1414 هـ. (ط و ح). وابن جني يقصد التلاعب بالكلام. والتطريح من طَرَحَ بِالشَّيْءِ وَطَرَحَهُ يَطْرَحُهُ طَرَحًا وَاطْرَحَهُ وَطَرَّحَهُ: رَمَى بِهِ، وَطَرَّحَهُ تَطْرِيحًا إِذَا أَكْثَرَ مِنْ طَرَّحِهِ. انظر لسان العرب، (ط ر ح). ومنه مطارحة الكلام، وأما التفخيم والتعظيم فمعروفان.

¹⁹ ابن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ت، ج2 ص373.

²⁰ عصام نور الدين، علم وظائف الأصوات، الفونولوجيا، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1992، ص88.

²¹ اللهجات العربية، م س، ص 115.

²² انظر ابن السكيت، القلب والإبدال، باب السين والشين، ص12.

- ²³ السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1998، ج1 ص356. وقد ذهب هذا المذهب أيضا ابن السكيت، والبطلانوسي، وابن خالويه، وأبو علي الفالي.
- ²⁴ الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة 1، 2002، ص 263.

التوحد تحت مجهر اللسانيات

زينب خلاف وخليفة صدراوي
جامعة باجي مختار - عنابة

الملخص:

سجلت اللسانيات حضوراً بارزاً في كثير من الميادين، حيث أظهر استثمارها، وتعاونها مع معطيات مختلف العلوم الأخرى مدى أهميتها في حلّ المشكلات ذات الصلة باللغة، خاصة مع أحد فروعها الذي اصطلح عليه "باللسانيات التطبيقية" Applied Linguistics. لذا، سنناقش ومن منظور لساني موضوع "مرض التوحد" الذي يُعدّ من اهتمامات علم أمراض الكلام، كما يعتبر من أكثر الأمراض انتشاراً وسط الأطفال؛ مسلطين الضوء على مدى تأثيره على الطفل من الناحية اللسانية، خاصة، وأنّ من تأثيراته السلبية إحداث عطل في الخاصية التواصلية للطفل، إضافة لما يحدثه على المستوى النفسي، والجسدي، والتعليمي، والاجتماعي من مشاكل متنوعة؛ ساعين بذلك إلى تحقيق جملة من الأهداف أهمها الكشف عن علاقة "مرض التوحد" -الذي يحتلّ مساحة كبيرة في أبحاث علم النفس على وجه الخصوص- باللسانيات، وذلك بصفتها علماً ثرياً بالبيادئ اللسانية القابلة للاستثمار تشخيصاً، وعلاجاً.

الكلمات المفتاحية: التوحد، اللسانيات، الأسس اللسانية، التشخيص، العلاج، الإرشاد.

Résumé:

La linguistique a enregistré une présence significative dans de nombreux domaines dans lesquels elle a démontré influence et sa coopération avec divers autres pertinence des données scientifiques dans la résolution de la langue privée pertinente avec l'une de ses branches, ce qui a été appelé <<La linguistique appliquée>> dont elle a traité beaucoup de problèmes avec la dimension linguistique.

Dans cet article il sera question de la maladie d'autisme et ses effets négatifs dans le dysfonctionnement communicative chez l'enfant, en plus de qui a causé au niveau physique, psychologique, éducatif et social.

Ainsi, en cherchant à atteindre un certain nombre d'objectifs de la divulgation la plus importante sur la relation de l'autisme, qui occupe une grande partie de la recherche en psychologie, en particulier, avec la linguistique et ses principes pour aboutira un diagnostic et au traitement de cette maladie.

Mots clés : L'autisme, la linguistique, les fondements linguistique, le diagnostic, le traitement, l'orientation.

Summary:

Linguistics had marked a significant presence in many fields. Its investment and collaboration with other sciences contributed in solving problems that are related to "language". Especially with one of its branches that has been termed "Applied linguistics" which dealt with lots of lingual dimension's issues.

In this research paper and from a linguistic approach we are going to discuss a delicate and controversial topic which is "Autism", which is quiet popular among young children, we will focus on its impact on children's cognition, especially its major side effects on the communicative aspect, moreover to its various problems on psychological, physical, educational and social levels.

Through this study we're seeking to achieve a set of goals, most importantly to incoher the relation between Autism – which occupies a huge area in psychological studies - with linguistics as a discipline rich of linguistic principals that can be invested in the diagnosing and the therapy of autism.

Keywords: Autism, Linguistic foundations, Diagnostic, Therapy, Instruction.

مقدّمة:

يبلغ الطفل من الرقة ما يسعد المحيطين، ومن الجمال ما يريح العيون، ومن التعقيد والاعجاز ما يثير العقول ويخضع القلوب والأرواح... قدومه إلى الحياة رمز للتجديد، والوجود، ولعظمة الخالق الذي أنعم به على عباده زينة للحياة الدنيا، وجعل مراحل نموّه آية من آياته في الأرض¹؛ معه يتسلل شعاع من الأمل ودفق من السعادة إلى الحياة فيزيدها قيمة وأهمية وما تأهب الوالدين لاستقباله إلا دليل على ذلك؛ فيهتمان به جنينا ويزداد هذا الاهتمام بعد أن يرى النور ليصبح قطب الرّحى في حياتهما وشغلها الشاغل، يتأملانه في غفوته ويستمتعان بكل لحظة من صحوته، يفزعان لبكائه ويطربان لابتهاماته، معه يعود بهما التاريخ فيتعلّمان المناغاة ويجربان مجددا نطق الكلمات الأولى ويخطوان معه أيضا الخطوات الأولى، أمّا

التحاقه بالمدرسة فحدث ينطبع في الذاكرة والوجدان ... إذا كانت محطات الحياة بعد الطفولة تُختصر في الشباب والكهولة والشيخوخة فإنّ قدوم الطفل يخلّ بهذا التنظيم ليجعل الطفولة تبعث في النفوس من جديد ولو بلغ العمر أشده؛ فكثيرا ما يتكرر في أذهاننا مشهد لشيخ يركع على قدميه ليداعب طفلا ويكلّمه بلغته الطريفة ويقضي معه ساعات طويلة مجردا من وسام الوقار والحكمة والجديّة مسافرا في تلك اللحظات إلى طفولته الأولى؛ لذا ألا يبدو أنّ داخل كلّ إنسان طفل صغير؟ وما توازن الأسرة والمجتمع والحياة إلا امتداد لتوازن هذا الكائن!...

لكن -في الحقيقة- ليست كل الأسر تتعم بهذا الوضع الطبيعي؛ فلحكمة من الخالق قد يُرزق البعض بطفل يختلف عن أقرانه إما من الناحية الجسدية أو الذهنية أو النفسية، وفي هذه الحالة يصنّف ضمن فئة من "الفئات الخاصة" التي تستدعي رعاية واهتماما مختلفا؛ فهذا المصطلح يعني أنّ أفراد هذه الفئة "يختلفون عن عامة أفراد المجتمع ويعزو المصطلح السبب في ذلك إلى أنّ لهؤلاء الأفراد احتياجات خاصة يتفرّدون بها دون سواهم ، وتتمثّل تلك الاحتياجات في برامج وخدمات أو طرائق أو أساليب أو أجهزة وأدوات أو تعديلات تستوجبها كلّها أو بعضها ظروفهم الحياتية"².

ومن بين هذه الفئات التي شهدت اهتماما كبيرا نجد "المصابين بالتوحد"؛ فئة يسيطر عليها مرض يوصف بمرض العصر.

يؤثر مرض التوحد Autism على حياة الطفل من كلّ النواحي بما فيها الناحية اللسانية؛ فالطفل كما نعلم كائن يندمج في مجتمعه اعتمادا على اللغة بدرجة أولى لذا سنعمل في هذه الورقة البحثية على الاجابة عن الاشكالية التالية وما يلحقها من تساؤلات: ما مفهوم وسبب هذا المرض؟ وما مدى تأثيره على الناحية اللسانية عند الطفل؟ وما هي مظاهر هذا التأثير؟ وما

هي الإرشادات اللسانية التي يمكن تقديمها للمصاب وأسرته وهم يصارعون هذا الطيف الصامت؟

❖ أولاً- التوحد الماهية والأسباب³:

يعدّ المختص في الطب النفسي للأطفال كانر Leo Kanner أوّل عالم اهتمّ بدراسة التوحد عند الأطفال عام 1943، وأطلق عليه " التوحد الطفولي المبكر Early infantile autism, وقد وجد أنّه يصيب الذكور بنسبة تفوق الإناث (من 2 إلى أربع أضعاف) ويمكن اكتشافه بعد أن يبلغ الطفل ما يقارب ثلاثين (30) شهرا .

نستشف مما سبق ثلاثة مظاهر، أو مستويات رئيسة تتمركز فيها أعراض هذا المرض وهي:

- المستوى التواصلية.
- مستوى التفاعل الاجتماعي.
- المستوى السلوكي.

لقد أكدت "الأبحاث العالمية الحديثة أنّ التوحد يصيب 1 من بين كل 150 طفلا، بخلاف ما كان يُعتقد سابقا من أنه يصيب ما بين 4 حالات إلى 5 حالات لكلّ 10.000 طفل، دون أن يعرف سبب لهذه الزيادة"⁴، فإن كان المرض نفسه لم يُكتشف بعد سببه المباشر والرئيسي كيف سنتوصل إلى معرفة أسباب تفاقمه وانتشاره؟ وعملا بمقولة إن عُرف السبب بطلّ العجب قام الباحثون بإرجاع مرض التوحد إلى العديد من العوامل، وهذا دليل على مدى تعقيدته وتداخل أعراضه، وتأثيراته على كل النواحي النمائية للطفل، لكن تبقى تلك الأسباب -على تنوعها- ولحدّ الآن محض افتراضات لم يتمّ ترشيح

أحدها بصفته سبباً رئيساً في افتعال المرض، بل معظمها ينصهر معا في بونقة واحدة تجعل التطرق لأحدها متبوعا بغيره من العوامل المتنوعة منها النفسية كعلاقة الطفل بأمه والخلط بين الهدوء الطبيعي والمرضي أي ظهور سلوك الانسحاب الجزئي أو الاختياري عند الطفل، ومنها البيولوجية ذات الصلة بالجهاز العصبي الناتجة عن تضرر المخ وتعطل وظائفه وعن التأخر في نضج الجهاز العصبي وإصابة الجهاز المناعي وانتقال العدوى للطفل (الفيروسات)، ومنها الكيميائية (الناتجة عن خلل في الأجهزة العصبية البيوكيميائية) والعوامل الجينية والوراثية التي تنتقل من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة والكروموسومية أي ما يطرأ على الكروموسومات من تغييرات.

نلاحظ أنّ هذه العوامل تتداخل مع بعضها، وتتنوع بتنوع تركيبية الكائن البشري: من جسد ونفس ومجتمع ووراثة ولغة وكل عامل منها يتأثر بالبقية ويؤثر فيها لذا لا يمكن عزل اللغة عن النفس أو المجتمع أو عزلها عن الجسد والوراثة، فالفصل بينها يتم لأجل تعميق الأبحاث وتسهيل التشخيص والعلاج.

❖ ثانيًا- التوحد ملتقى التخصصات:

لأنّ التوحد يؤثر على المصاب من كل النواحي، فإنّ تشخيصه وعلاجه يستدعي تضافر الكثير من التخصصات كل منها يعاين ما ينطوي ضمن حدوده فللمختص الاجتماعي رؤية على اعتبار أنّ الطفل كائن اجتماعي، وللطبيب أيضا دوره فكثيرة هيّ التدخلات العلاجية باعتماد الأدوية التي توصف عادة لمعالجة سلوكيات الأطفال المتوحدين أدوية مضادة للاكتئاب وأدوية مضادة للاختلاج وأدوية مضادة للدّهان Neuroleptic or

antipsychotic ومسكّنات ومنبّهات⁵، وللتربوي دوره أيضا؛ فالطّفل عليه أن يندمج في المجتمع ويحتاج إلى تدريب ليتمكن من خدمة نفسه وتقليل اعتماده على غيره قدر المستطاع، وكذلك نجد دورا رئيسيا للمختص النفسي الذي ينطلق من المداخل النفسية للمصاب إضافة لإسهام المختصين في العلاج الحسي لأنّ طفل التّوحد يعاني عطلا في مدخلاته الحسية يجعله يفقد ترابطه مع ما يحيط به، كما نجد دورا لمختص التغذية إذ ليست كل الأطعمة تناسب هذه الفئة فكثير منهم يبدي تحسسا من بعضها، ولا يقتصر الأمر على هؤلاء، بل لأنّ هذا المرض يضرب البنية التواصلية عند الطّفل -فيرديه فاقدا للكلام نهائيا أو متكلّما بشكل مشوّه بحيث يعجّ كلامه بمختلف الأمراض الكلاميّة- فإنّ هذا الأمر يمنح شرعيّة التّدخل -علاوة على تدخل علم أمراض الكلام- لعلم اتّخذ من اللّغة مركزا له ومن وظيفتها التواصلية شعارا وهو "اللسانيات" Linguistics؛ هذا العلم الذي "أخذ يشقّ طريقه في مطلع القرن الماضي بين زحمة العلوم الإنسانيّة حتى كاد أن يكون في طليعتها؛ وما ذاك إلاّ لأنّ موضوعه اللّغة"⁶؛ لذا لا يمكن أن نعالج قضية تمسّ اللّغة دون أن نجد لهذا العلم حضورا قويا؛ كيف لا وهوّ الدراسة العلميّة الموضوعيّة للّغة دراسة تتمّ في ذات اللّغة ولأجل ذاتها هكذا عرفه من وُصف برائد اللسانيات فرديناند دوسوسير Ferdinand de Saussure⁷.

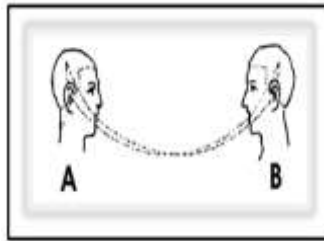
لقد شهد هذا العلم انتشارا وتلاقحا مع العديد من العلوم المتنوّعة في مشاربيها النظريّة مفرزا وجوها عدّة للانتفاع بالمعرفة اللسانية تمثّلت في استثمار ذلك المزيج في إيجاد حلول عمليّة لما تواجهه اللّغة من عوائق في ميادين تكون فيها (اللّغة) بمثابة العصب الحي فيها وذلك كله يتم تحت لواء فرع من فروع اللسانيات اصطلح عليه باللسانيات التّطبيقيّة .

ولأنّ مرض التوحد -كما سبقت الإشارة - يؤثّر سلبا على نمو الطّفل وقدراته من كل النواحي ليست اللسانية منها في معزل عن موجة التأثير تلك على اعتبار أنّ الكائن البشري كائن اجتماعي تواصل ي بدرجة أولى، وفقدانه لهذه الصّفة يحدث شرخا في كيانه.

❖ ثالثا- مشاكل طفل التوحد من منظور لساني:

تعدّ كلمة enfant المقابل الفرنسي لكلمة طفل وتعني الذي لا يتكلّم⁸، غير أنّ هذا الكائن يندمج في المجتمع من خلال خاصيّة التواصل الذي قُسم -كما هو معروف- إلى: تواصل لفظي (لساني) Verbal Communication مادّته اللغة المنطوقة وهوّ من اهتمام اللسانيات وتواصل غير لفظي (غير لساني) Non-Verbal Communication وهوّ ما يتم استقراؤه وتحويله من مصادر متنوّعة إلى رسائل مفهومة مثل ما تنتجه تعابير الوجه والجسد والألوان والاشارات ...

- وإذا تتبعنا آليّة التواصل نجد أنّ اللسانيين يرون أنّ العمليّة التّواصلية هيّ عمليّة تبادليّة (ترميز وفك الترميز) وهذا ما يلخّصه الشكل التالي⁹:



A و B شخصان يتواصلان معا حيث يتبادلان الأدوار ضمن ما يعرف بدارة التّواصل، فلكلّ منهما دوره من متكلّم إلى مستمع -والعكس صحيح- والفيصل في كلّ ذلك هوّ توفّر مجموعة من العوامل: منها ما يتّصل بالمتكلّم كوضوح الكلام وأفكار الموضوع، ومنها ما يتّصل بالمستمع كسلامة حاسّة

السمع والانتباه للمتكلم والقدرة على التحليل والربط والاستنتاج، ومنها ما له علاقة بالرسالة بأن تكون سليمة من كل الشوائب التي تُفقدُها هدفها... كل هذه العوامل تتصهر معا لتحقيق ثنائِيَّة الفهم والإفهام.

ماذا لو افترضنا أنّ أحد الشخصين (A أو B) مصاب بالتوحد هل ستتحقق دارة التواصل؟ طبعا لا؛ لأنّ التوحد يواجه أحد الأمرين، إمّا أن يكون مفتقدا للكلام بشكل نهائي أو أنه يعاني أمراضا كلامية تؤثر سلبا في إنتاجه للرسالة، وبذلك سيجد المستمع صعوبة في فهمها، إمّا إذا كان مستمعا فإنّه سيعاني بعض المشاكل أيضا منها مشاكل في السمع كضعفه، أو الحساسية الزائدة اتجاه الأصوات، أو صعوبة فهم المسموع ويبدو ذلك في عدم تجاوبه مع المتكلم.

يظهر التوحد " بشكل فجائي بين عمر سنتين وثلاث سنوات بعد أن يكون الطّفل قد نما في سنواته الأولى نموًّا طبيعيًّا"¹⁰، إذا ما مدى تأثيره على عملية اكتساب اللغة؟ وتطورها في مختلف المراحل كونها "العامل الحيوي والمهم لعملية التفاعل والتواصل مع الآخرين، وباكتسابها يحدث تغيير كبير في عالم الطّفل، في ضوء ما يحرزه من تقدّم عند حديثه مع الكبار، فاللغة وسيلة التعبير عن أفكارنا ومشاعرنا وذواتنا وقوميّتنا"¹¹، وهذا ما اشار إليه العرب في التراث حيث عرفها ابن جني بأنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"¹².

وقد أثارت فكرة الاكتساب أيضا بعض اللسانيين على غرار تشومسكي Noam Chomsky الذي أوعزها إلى ما أسماه جهاز اكتساب اللغة Language Acquisition Device " (L.A.D) وهوّ جهاز فطري يمكن الطّفل من فهم وإنتاج الجمل دون اللّجوء إلى تدريب مركز أو مقصود"¹³، فالتوحد يصيب الطّفل في بدايات مرحلة الطّفولة المبكرة، وهنا يمكننا أن نتخيّل مدى

تأثير هذا المرض عليه وكيف سيكون مستقبله اللغوي والتواصلية عموماً، فهو سيعطل آلية اكتساب اللغة ابتداءً من عامين إلى ما بعدها "فقد تجد طفلاً مصاباً بالتوحد ويبلغ من العمر خمس سنوات وحصيلته من المفردات لا تتعدى 25 مفردة، وهو أقل من عدد المفردات التي يمتلكها طفل في الثانية من عمره"¹⁴، فهو برصيده هذا يقارب ما يحصله الطفل السليم في عمر ثمانية عشر (18) شهراً؛ أي ما يعادل اثنتين وعشرين (22) مفردة، وهي حصيلة فقيرة جداً، فمن المفروض أن يحصل في نهاية العام الثاني مئتين واثنين وسبعين (272) مفردة، بينما يحصل في سن أربع سنوات ألف وخمسة وأربعين (1540) مفردة، وفي سن الست سنوات ألفين وخمسة واثنين وستين (2562) مفردة¹⁵.

لا تحصر مشاكل الطفل في المفردات فقط ككم بل توجد مشاكل أخرى سنستعرض بعضها ونربطها بمجموعة من المبادئ اللسانية¹⁶ على النحو التالي:

1- اللغة واللسان والكلام (language, langue and speech): اللغة

خاصية عامة فطرية، واللسان عام بعمومها إذ يمثل جانبها القواعدي، أما الكلام فهو استعمال فعلي واقعي لتلك الخاصية الفطرية العامة لذا فهو خاص يختلف من فرد لآخر؛ وهنا نقول أن التطورات اللغوية تقاس اعتماداً على المنتج الكلامي لأنه المعبر عنها فعلاً فالكلام يتأثر بعوامل عديدة نفسية تاريخية اجتماعية بيولوجية... وهنا نجد أن الأعراض البادية على التوحد تختلف من طفل لآخر فنجد منهم من "ربما لا يستطيعون الكلام بينما يتمتع البعض الآخر بقابلية على التحدث من خلال امتلاك ثروة مفردات لغوية كبيرة حول موضوعات يهتمون بها كثيراً [...] وأولئك القادرين على الكلام

غالبا ما يتفوّهون بأشياء تفتقد إلى المحتوى أو المعنى¹⁷، وإضافة لسوء تشكيل الجمل والكلمات من ناحية النحو، والمعنى كذلك نجد بعض الأمراض على مستوى الصوت، حيث يصعب عليه التحكم في درجة صوته (الانخفاض، والارتفاع) وأيضا أمراض نطق كالحذف حيث لا ينطق أواخر الكلمات.

نلاحظ أنّ أكثر الأعراض وأولها ظهورا يكون على مستوى اللّغة المنطوقة والتي أولتها اللسانيات اهتماما بالغاً مقارنة باللّغة المكتوبة التي اعتبرتها فرعا من الدّراسة اللسانية.

2- يعتبر سوسير اللّغة نظاما (System): تتربط فيه مجموعة من الوحدات على أساس اتّحاد الهويّات واختلافها بدءاً بأصغر الوحدات غير الدّالة إلى الدّالة منها، فتتشرك في بعض الصفات وتختلف في البعض الآخر ولا تكتسي قيمتها إلّا بتجاورها مع بعضها البعض؛ فهيّ بذلك "منظومة لا تعرّف ولا تعرّف إلّا بترتيبها الخاص..."¹⁸، وبالنسبة للطفّل التّوحدّي نجد أنّ نظامه يتميّز بالاختلال حيث يجد صعوبة في تنسيق وحداته؛ فمثلا لو نلاحظ النّسق الصّوتي فإنّ المصاب قد لا يتقن التّفريق بين كلمتين تختلفان في صوت واحد فقط سواء أثناء تمييزها سمعيا أو أثناء تركيب الوحدات الدالة، مثلا: قلب، كلب... وغيرها من الوحدات التي تحوي أصواتا متقاربة.

3- الدّال والمدلول (Signifier and Signified): يمثل الدال الصّورة السّمعية أو الصوتية بينما يمثل المدلول الصورة الدّهنية التي تقابلها؛ قد يجد طفل التوحد صعوبة في الجمع بين الصورتين أي بين الدال ومدلوله المناسب أو بين دال معيّن وما يمثله من مدلول فنجد منهم من يبدو عدم فهم للمسموع وعدم الاستجابة لدرجة أنهم يظهرون كالصّم رغم أنّ قدراتهم

السمعية سليمة، ولا يتوقف الأمر عند الصورة السمعية بل كذلك الصورة البصرية حيث يجد بعضهم صعوبة في التعرف على الأشياء التي يرونها لذا يتأخرون في الانتباه للصور في كتاب ما مع الانتباه الجزئي فقط لتلك الصور كما لا يمكنهم المطابقة بين صورة وما تشير إليه، أو لا يستطيعون استيعاب الصور المتنوعة للدال الواحد، مثلا لو طلبنا من الطفل أن يعين صورة الكرة الحمراء سيتعرف عليها لكن لو طلبنا منه صورة الكرة الزرقاء سيتعذر عليه التعرف عليها وكذلك لو علمناه كلمة قلم وربطناها بنموذج مادي له مثلا قلم حبر، سيتعرف على النموذج الذي عرفناه به أما لو غيرنا قلم الحبر بقلم الرصاص سيتعذر عليه تعميم ما تعلمه، والأمر لا يتوقف على اللغة فقط بل يتعذر عليه تعميم التصرفات كذلك حيث لا يتمكن من تعميم ما ينبغي القيام به في موقف معين ومشابه لموقف آخر كنا قد علمناه إياه، وما يزيد المشكل حدة هوّ عدم القدرة على التخيل الذي يؤثر أيضا على اللعب التخيلي الذي يظهر عند الطفل السوي بدءًا من بلوغه عمر العام والنصف وهذا ما يخلق فيما بعد مشاكل في علاقة الطفل بأقرانه كعدم التفاعل والتنافس بل نجده لا يفهم الغرض من الألعاب التي تبدو له أشياء عادية، وفي المقابل نجده يتمسك بشكل هستيري بأمور غريبة كسلك معدني أو حبل أو ورقة... ولا يمكنه الاستغناء عنها. وهناك من إذا أراد شيئًا ما فهو لا يطلبه اعتمادًا على اللغة بل يعمد إلى وضع يد والديه مباشرة على الشيء المستهدف، والأمر لا يتوقف عند الكلمات والأشياء فقط، بل يعاني التوحدي من عدم القدرة أيضا على استيعاب التعليمات والاستجابة لها مما يخلق عنده مشاكل في التواصل الاجتماعي مع الآخرين فيفضل الانعزال، وإن وضع في موقف حتم عليه التواصل فإنه لا يستطيع تشكيل حوار سليم ولا يراعي مبدأ أخذ الدور أو احترام السياق والموقف الاجتماعي.

4- المحور العمودي والأفقي (syntagmatic and paradigmatic relations)

(relations): الطّفّل عندما يشرع في تكوين عبارة ما فإنّه يكون أمام قائمة من الوحدات التي ينتقي منها ما يناسبه (من المحور العمودي)، ثم تأتي مرحلة رصف تلك الوحدات بشكل تسلسلي منطقي يؤدّي إلى معنى واضح (في المحور الأفقي)، غير أنّ الطّفّل التّوحدّي قد يواجه مشكلة إمّا على مستوى الانتقاء باختياره لوحدة غير مناسبة مثلا نسأل طفل: هل تريد حليب؟ فيرد: أنت تريد حليب، لقد اختار الطّفّل من قائمة الضّمائر الضّمير أنت للتعبير عن نفسه -خاصة وأنّ الطفل المتوحد إما يحذف أو يخلط كثيرا بين الضّمائر والروابط وهو يتقاطع في هذه النقطة مع المصاب بحبسة بروكا¹⁹ - أو قد يواجه الطّفّل مشكلة على مستوى محور الأفقي بقولية الوحدات المختارة في سلسلة مشوشة في تركيبها، ومشوّهة في مفهومها.

وينبني هذا المبدأ على معيار الفهم في حين أنّ طفل التوحد لديه القدرة على التعبير أسبق من الفهم كما يتسم بقدرة جيّدة على التذكر لذا ينتج جملا تتنوّع فيها الأخطاء النحوية والدلالية، ونتيجة لغياب الفهم أيضا قد يكرّر إعلانات أو عبارات سمعها في برنامج تلفزيوني ما غير أنّ تكرارها أو استظهارها يتم دون فهم لمضمونها، لكن مع سن الخمس سنوات يبدأ الطفل المتوحد باكتساب بعض من القدرة على الفهم المحدود للكلام؛ فنلاحظ أنه يطيع بعض الأوامر البسيطة بينما يعجز عن الاستجابة للأوامر المعقّدة والمركبة؛ فنجده يفهم عبارة "افتح الباب"، ويتعذّر عليه فهم "اذهب إلى الغرفة وأحضر القصّة ثمّ ضعها في محفظتك" فهوّ فعل مركّب يحتاج فهمه وانجازه لمراحل مما يربك الطّفّل ويحول دون انجازه له. ويعرف طفل التوحد

بمقاومته لتعلم المهارات الجديدة وتقل هذه المشكلة كلما ازداد فهم الطفل للغة.

5- الأنية والزمنية (Synchronic and Diachronic): أقرّ سوسير

بضرورة دراسة اللغة وفق منهج آني أي لحظة إنتاجها بوصف جزئياتها دون الاهتمام بما يحدث فيها من تغييرات؛ مبتعدا بذلك عن المنهج الزماني الذي يعتمد على دراسة ما يحدث في تلك الجزئيات من تطوّر (سبب التغيير ونتائجه)، ويرى سوسير أنه من غير المعقول أن ندرس التطور اللغوي ونقارنه بغيره عبر الأزمنة ونحن نجهل طبيعة ذلك اللسان في فترة بعينها.

وفيما يخص لغة طفل التوحد فإننا نحتاج في التعامل معها للمنهجين معا حيث يمكننا المنهج الآني من البحث في طبيعة استعماله اللغوي وتعيين المشاكلات الحاصلة لحظة إنتاجه لها، أمّا الزمانية فنعمل من خلالها على رصد طبيعة المستوى اللغوي للطفل ومدى تطوره أو تراجعها في مختلف الفترات حيث يمكننا ذلك من تحديد نقاط القوة عند الطفل ونقاط الضعف عنده والعمل على إيجاد بديل لها مع الحكم على التدخلات العلاجية المتبعة إن كانت مناسبة أم تحتاج إلى تغيير.

إنّ المتتبع للغة الطفل عموما -اكتسابها وتعلّمها- سيلاحظ مدى اعتماده على آليتين مهمّتين هما: التكرار والتقليد.

يعتمد علي التكرار ليرسخ في ذهنه مفهوما معينا، غير أنّ الطفل التوحدي يستخدم تكرارا يصح أن يوصف بالتكرار الهستيرى الأتوماتيكي لكلمة أو حتى لصوت مفرغ من الدلالة مثل: (رررررر) أو (لالالالالا)، (سامي سامي سامي سامي...)، (بم بم بم بم بم.....) أو نغمة موسيقية معينة. وبما أنّ التوحد مقابل عربي للمقابل الفرنسي Autisme فإننا نجد في هذا

المقام الدكتور عبد السلام لمسديّ قد قابل المصطلح الفرنسي Autisme بـ"اجتراريّة"²⁰، ونقول "يجتر الكلام" أي يعيده ويكرّره دون فائدة، فالاجترارية من هذا المنطلق سمة من سمات التوحّد.

التقليد: وهوّ من مميزات الطّفّل الصّغير الذي يحترفه بغية اكتساب اللّغة أو السلوكات المختلفة إلّا أنّنا قد نجد المصاب بالتوحّد يقلّد دون أن يفهم بل ويجمع بين التقليد والتكرار؛ مثلاً قد نقول له ما اسمك؟ فيجيب ما اسمك، كم عمرك؟ فيجيب كم عمرك. واصطّح على هذا السلوك بالمصاداة الكلامية حيث تظهر في 80% من التوحديين الناطقين.

أمّا التواصل غير اللفظي، فهوّ الآخر ليس في غنى عن هذه المشاكل؛ فالتوحدي لديه مشاكل في استخدام الإشارات إمّا باستخدامها بشكل خاطئ أو عدم فهمها وتوظيفها تماماً إذ "أنّ تعبيرات وجهه وتلميحاته لا تتوافق مع نبرات صوته ولا تتسجم إيماءاته مع كلامه"²¹، كذلك يغيب مع هذه الفئة التواصل البصري فإنّ حدّثته لا ينظر في عينيك مباشرة وهذا ما يزيد الهوّة بينه وبين مخاطبيه، وكما يجد صعوبة في توظيف لغة جسده يجد صعوبة أيضاً في قراءة لغة جسد الآخرين فلا يفهم بعض تعابير وجوههم أو إشاراتهم أو قد لا يعير لذلك أيّ انتباه مما يؤدّي به إلى عدم الإحساس بالآخر فلا يفرّق الحزين من المتألّم من الغاضب...

وتجدر الإشارة إلى أنّ مشاكل الطّفّل التوحدي لا تقتصر على اللّغة المنطوقة فحسب بل للكتابة منها نصيب؛ حيث لا يمكنه التركيز؛ لذا لو رسمنا له مجموعة من النّقاط على ورقة وطلبنا منه الوصل بينها بالقلم فإنّه يجد صعوبة كبيرة في السّيطرة على آليّات الكتابة كمسك القلم وتركيز البصر في مكان واحد لمدّة طويلة، أمّا القراءة فهناك منهم من لا يجد مشكل في قراءة المكتوب بل تتمركز مشاكله في فهم المقروء.

كما أنّ حالات الغضب، أو اللامبالاة التي يتميّز بها هذا الطفل تحول دون خلق ترابط مع غيره فنجده مع غير المختصّين - ونقول غير المختصّين لأنّ المختص يملك أساليب وطرائق تؤهّله لأن يحتوي تلك الانفعالات - يبدو عدائياً بشكل كبير وربّما يعود ذلك إلى عدم تمكن المحيطين به من مراعاة خصائصه، وحاجاته.

ولأنّ " العلاقة بين التواصل اللفظي باللّغة والكلام، والتواصل غير اللفظي: هي بمثابة علاقة تبادليّة، ربما يؤكّد بعضها على البعض أو يحلّ بعضها مكان الآخر، ويكمل بعضها البعض الآخر وقد يتعارض بعضها مع بعض"²²، فتعاقب اللساني مع ما هوّ " غير لساني شجّع فرديناند دو سوسير أو أوحى له على الأقل بجعل اللسانيات منضوية تحت الرّاية السيميولوجيّة"²³ التي تضم مختلف العلامات، وفي حال إنتاج سلاسل كلامية مشوّهة بفعل تأثير أحد الأمراض الكلاميّة أو في حال انعدام الكلام نهائيّاً؛ فإننا بحاجة لنظام يطورّ القدرات اللّغوية أو بحاجة لنظام بديل يحلّ محلّ الكلام المفقود، وفي هذا الإطار ظهر برنامج يعرف بنظام التواصل بمبادلة الصّور أو نظام التّواصل بمقايضة الصّور Picture Exchange Communication System (PECS)²⁴، يقوم هذا البرنامج بتعليم الأطفال التعبير عن حاجاتهم بمبادلة صوّر تعبّر عنها، ويتمّ التدريب على اتقان هذا البرنامج على مراحل متسلسلة تصل بالطفّل إلى تشكيل جمل (برصف الصور جنباً إلى جنب)، ويتسم هذا البرنامج بمجموعة من المزايا:

- تقوية وتنميّة القدرات اللّغوية، وعدّ البرنامج أسلوباً تواصلياً يحلّ محلّ الاستعمال الفعلي للغة (الكلام)
- سهل في التدريب والتطبيق.

- موجه للجميع:مختصين ،أفراد الأسرة ،أطفال... ويستعمل في كل مكان ومع أيّ شخص كان.
- متاح لكل الفئات على عكس بعض البرامج التي تعجّز الأولياء بكلفتها المادّية الباهظة جدّا.

❖ رابعا- الطفل المصاب بالتوحد مسؤولية الجميع:

لطالما كانت الأسرة منبعاً للراحة والأمان والتشجيع؛ وهذا ما يحتاجه كل طفل لذا على أسر المصابين بالتوحد "التّمسك بفكرة مبدئيّة مفادها أنّ هناك مقدرة لدى كل طفل للفهم والتواصل، مهما كانت إعاقته، أمّا إذا ابتعدوا عن مثل هذه التوقعات فقد يتضاءل الأمل في أنّ يحقّق الطّفل ذلك التقدّم"²⁵، ولاسيما وأننا نعلم أنه لا يوجد علاج نهائي لمرض التوحد إلى غاية أيامنا هذه، لكن ذلك لا يعني أن نهمل المصاب به فالفرق بين مصاب تم التكفل به ومصاب مهمل فرق كبير وواضح، لذا نُشيد بأهميّة وضرورة التّدخل المبكر في إسعاف الطفل المصاب، والأخذ بيده لمواجهة مشاكله؛ فالتّدخل المبكر يقدّم لهؤلاء الأطفال "نتائج ملموسة، وواضحة في تقدّم وتطور قدراتهم الخاصّة إذا تمّ التّدخل في مرحلة ما قبل المدرسة لأنّ ذلك يسهم في توفير العديد من الخدمات التّربويّة، كما وأنّ برامج التّدخل المبكر تسهم في تدريب الطّفل المتوحد على الاستقلالية الفرديّة، وتنميّة قدرته على التمييز بين الأشياء ومنحه حريّة أكثر في الحركة ومزاولة النّشاط الاجتماعي"²⁶، وإضافة لذلك فإنّ "لتطور اللّغة دوراً أساسياً في التّنبؤ بمستقبل الأشخاص ذوي التّوحد الذين تطوّرت مهاراتهم لغويّاً حيث سيحقّقون بمرور الوقت تحسّناً هاماً في تطوّرهم العام، الاجتماعي والعاطفي"²⁷، أو ليس بين اللّغة

والتفكير علاقة محفوظة متبادلة؟ وعلاوة على ذلك فالهدف الأسمى للغة هوّ تحقيق التواصل الذي يحفظ توازن الفرد ومجمعه.

إنّ مهمّة مساعدة هؤلاء الأطفال هيّ في الحقيقة موكلة لنا جميعا كأفراد مجتمع لا يمكن أن نضع كل الحمل على عاتق الوالدين فقط؛ فالأمر يتعدّاهم إلى الأقارب والمحيطين والمعلّمين، والمختصّين من نفسانيين واجتماعيين وأرطوفونيين ولسانيين...؛ من خلال ابتكار "طريقة أو بدائل للتواصل إذا كان الطّفل غير ناطق، أو تحفيز اللّغة وتوظيفها لدى الأطفال النّاطقين وزيادة مفرداتهم، وكذلك تدريبهم على إتباع التّعليمات وتطوير المهارة التّقليد ليستطيع الطّفل التّكيف مع المجتمع واكتساب الكثير من المهارات وأهمّها الكلام واللّعب والتّفاعل الاجتماعي والاستقلالية"²⁸.

خاتمة:

بعد هذه الجولة مع موضوع "التوحد تحت مجهر اللسانيات"، والذي يتصل بأحد مجالات اللسانيات التطبيقية، توصي الباحثة بما يأتي:

- ضرورة تزويد الطّفل بالتّدرّيبات اللّسانية المتنوّعة، والمناسبة لحالته؛ ومنها ما يخصّ:

- مستوى الصّوت: من خلال تدرّيبات التمييز السّمعّي، وتدرّيبات تمييز الأصوات المختلفة، سواء أكانت معزولة أو ضمن كلمات، إضافة لتدرّيبات تساعده على الاستخدام المناسب لجهازه النطقّي.
- مستوى الكلمة: مد الطّفل برصيد لغوي يغطّي حاجاته، وتدريبه على توسيع حصيلته، و تمييز الكلمات المترادفة، والمتضادّة، والكلمات المنتميّة للحقل الدلالي الواحد، و تسميّة الصّور.

▪ مستوى الجملة: من خلال تدريبات الترتيب، وسد الفراغ، ومدّه
بالعبارات اليوميّة الأكثر تداولاً في الحياة اليوميّة.

▪ المستوى البراغماتي: من خلال فتح المجال للطفل، وإثارته لإقامة حوار حول مواضيعه المفضّلة، واعتماد هذه الأخيرة كمدخل تنطرق من خلالها لمواضيع أخرى، ويمكن أيضاً أن نستخدم بعض معطيات أدب الطفل مثل: الأناشيد، والقصص الشائقة.

- يمكننا الاعتماد على الوسائل التكنولوجيّة الحديثة كالحواسيب، وما تقدّمه من ميزات في مجال الصّوت، والصّورة، والحركة، والألوان.
-عدم ترك الطفل ساعات طويلة وحده أمام شاشة التّلفاز، لأنها تجعله يكتفي بمجرد الاستقبال فقط دون تجريب اللّغة وتميمتها من خلال الاحتفاظ بالمدخلات السليمة وتعديل الخاطئة منها، وهذا لن يتمّ في معزل عن المشاركة " لذلك كانت العلاقة بين مشاهدة التلفاز والنمو اللّغوي عند الأطفال علاقة عكسيّة، وفي أحدث الدّراسات أظهر الأطفال الذين شاهدوا التلفاز بكثرة مستويات لغوية متدنّية حيث فقدوا السّاحة الأساسيّة لنمو اللّغة عن طريق الحديث الواقعي، والإصغاء...²⁹، ثمّ إنّ التلفاز في الحقيقة يقدّم لنا عالماً افتراضياً وكأنّ الطفل التّوحد لم يكتف بعد من مرارة الوحدة الداخليّة التي يعانها في عالمه الخاص حتى نزيده نحن مرارة من نوع رقمي أو تكنولوجي.

- تدريب الطفل على التركيز والانتباه لفترات أطول .
- تنمية وتقويّة التواصل البصري، حيث ينبغي الإلحاح على الطفل بأن ينظر مباشرة في اتجاه مخاطبه.

- تدريب الطفل على التحكم في جسده، وتحسيسه بمرونته، وقابليته للتعبير عن أمور كثيرة، ويمكن في هذا الصدد الإفادة من حصص الرياضة، واللعب والرسم، واستخدام وسائل بسيطة من البيئة كالرمل، والطين، والماء...

- قطع الشرود الذي يعيشه الطفل، وكسر حاجز العزلة، والوحدة، التي تسيطر عليه بالمرافقة، والدعم، وبتحفيزه للتقرب من أطفال في مثل سنه.

- تكثيف الجهود، وتبادل الآراء، والنظر لاحتياجات الطفل من كل الزوايا ورعايته من خلال تحفيزه، ورفع معنوياته، فالدعم النفسي العاطفي يعدّ أول الخطوات من أجل احتواء الطفل.

يعدّ التوحد أحد الأشباح التي تطارد طفل هذا العصر، وتهدد سلامته بل وأكثرها خطورة، وغموضاً؛ خاصة وأن نسبة المصابين به في تزايد مستمر ومخيف، ونظراً لتأثيراته المتنوعة فهو يستدعي تكفلاً متعدد الجوانب: اجتماعية، نفسية، جسدية، لسانية...؛ وفيما يخص التدخل اللساني فإنه يولد من رحم اللسانيات وما تزخر به من مبادئ متنوعة من شأنها أن تقدّم حلولاً للكثير من الأعراض اللسانية غير الطبيعية، ويزداد الأثر الإيجابي لهذا التدخل -الذي يشرف عليه اللساني التطبيقي- في حال تضافره مع تدخلات من لدن مختلف المختصين - في إطار فريق متكامل للتشخيص والعلاج- ، ويستحسن أن يكون هذا التدخل في المراحل العمرية المبكرة وبإشراك الأسرة؛ فهي حلقة مهمة لا يمكن أن يحقق التكفل نتائج دون مساندتها وتوعيتها.

ليس "التّوحد" شرّاً لأبَدٍ منه؛ بل هو مرض يستدعي منّا جميعاً دعم المصاب به، كما علينا أن نؤمن بأنّه في يوم ما ونتيجة للأبحاث المتنوعة والمعتمّقة والجادّة للمهتمّين بهذا المجال، سنصل إلى فك شفرات هذا المرض وحلّ لغزه وليس الأمر مستبعداً؛ فالهالة التي تحيط به تشبه هالة بعض الأمراض التي كان ينظر إليها فيما مضى على أنها عصيّة لا ولن تحل... فعسى أن يكون ذلك اليوم قريباً.

الهوامش:

- 1- يزخر القرآن الكريم بآيات تدلّ على ذلك منها على سبيل المثال:
 - ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصّالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ [الكهف، الآية 46].
 - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرَّبُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج، الآية 6].
 - ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ [نوح، الآية 13-14].
 - ﴿اللَّهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِائاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنِائاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (سورة الشورى، الآية 49-50).

1- ناصر الموسى، مصطلحات التربية الخاصّة بين التوضيح والتّصحيح، مجلّة هذا أنا هذا عالمي، وزارة الشؤون الاجتماعيّة، إدارة رعاية وتأهيل المعاقين، العدد الأوّل، ماي 2008، ص 26.

2- ينظر المراجع التالية:

- سوسن شاكر مجيد، التوحد- أسبابه، خصائصه، تشخيصه، علاجه-، دييونو للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ط2، 2010، ص23،
- Norbert Sillamy, dictionnaire de psychologie, Larousse-vuef, 2003, p31
- مصطفى القمش و خليل المعاينة، سيكولوجية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة - مقدمة في التربية الخاصة-، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2007، ص297.
- إبراهيم محمود بدر، الطّفّل التوحدي -تشخيص وعلاج-، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004. ص24.
- التوحد اللغز الذي حير الأطباء (قضية العدد)، مجلّة التّخصّصي، تصدر عن مستشفى الملك فيصل التّخصّصي ومركز الأبحاث مؤسّسة عامّة، العدد9، يناير 2008، السّنة الثالثة، ص5.
- مصطفى نوري القمش، اضطرابات التّوحد- الأسباب، التّشخيص، العلاج، دراسات عمليّة-، دار المسيرة للنشر والتّوزيع والطّباعة، عمان، ط1، 2011، ص31-ص42.
- 3- سوسن شاكر مجيد، التوحد- أسبابه، خصائصه، تشخيصه، علاجه-، مرجع سابق، ص23.
- 4- كامبيون كوين، 100 سؤال وجواب حول التّوحد، ترجمة: إلفيرا نصور، أكاديميا إنترناشيونال، لبنان، 2009، ص139.
- 5- التواتي بن تواتي، مفاهيم في علم اللّسان، دار الوعي، الجزائر، ط2، 2008، ص13.
- 6- ذكر ذلك في كتابه الذي نشره طلبته بعد وفاته سنة 1916، والمعنون بمحاضرات في اللسانيات العامّة أو كما ترجم أيضا دروس في اللسانيات العامّة Course in General Linguistics، ولهذا العلم (اللسانيات) إطاره الاستيمولوجي له مبادئه وأعلامه، ونظرياته، وفروعه، وله مسيرته التاريخيّة والتطوّريّة التي شكّل فيها التراث العربيّ محطة مهمّة -لكن لا يسعنا المقام هنا لاستعراض تفاصيلها-.
- 7- ينظر: ديديه بورو، اضطرابات اللّغة، ترجمة أنطوان إ. الهاشم، منشورات عويدات بيروت-لبنان، 2000، ص19.
- 8- F.De Saussure, Cours de linguistique générale, Editions TALANTIKIT, Béjaia, 2002, p20.

- 9- عبد الرحمان سيد سليمان، محاولة لفهم الذاتوية إعاقاة التّوحد عند الأطفال، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة، ط1، 2000، ص27.
- 10- معمر نواف الهوارنة، اكتساب اللّغة عند الأطفال، منشورات الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب، وزارة التّقافة- دمشق 2010، ص7.
- 11- ابن جيّ، الخصائص، تحقيق: علي النّجار، القاهرة، 1952، ج1، ص33.
- 12- معمر نواف الهوارنة، اكتساب اللّغة عند الأطفال، مرجع سابق، ص118.
- 13- حازم رضوان آل اسماعيل، 100 سؤال وجواب حول اضطرابات النطق واللّغة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2014-2015، ص63.
- 14- ينظر مصطفى فهمي، أمراض الكلام، دار مصر للطباعة، 1998، ط5، ص48.
- 15- للاستزادة ينظر على سبيل المثال:
- خولة طالب الابراهيمى، مبادئ في اللسانيات، دار القصبه للنشر، الجزائر، ط2، ص11، ص21.
 - حازم رضوان آل اسماعيل، 100 سؤال وجواب حول اضطرابات النطق واللّغة، مرجع سابق، ص63، ص65.
 - جيهان أحمد مصطفى، التّوحد، السّلسلة الطّبيية، العدد رقم 280، يناير 2008، دار أخبار اليوم، القاهرة، ص11، ص23.
- 16- هدى هاشم المحمداوي، التّطور اللّغوي لدى الأطفال التّوحيدين: نظرة عامّة، مجلّة المنال، مدينة الشارقة للخدمات الإنسانيّة، السنة24، العدد 253، أبريل2011، ص35.
- 17- تظهر الحبسة Aphasia نتيجة تضرر حاصل على مستوى مراكز اللّغة في الدّماغ أو بشكل أدق في النصف الأيسر للدماغ، أما عن أنواعها فهي كثيرة لا يتسع المقام لحصرها جميعا لذا يمكن التعرّيج باختصار على نوعين أساسيين هما حبسة بروكا وحبسة فيرنيك. حبسة بروكا: تعرف أيضا بالحبسة الحركيّة أو النحويّة، مكتشفها بول بروكا Paul Broca وتظهر نتيجة إصابة الفص الجبهي الثالث الأيسر من الدماغ وهي أكثر الأنواع دراسة وتحليلا، ويقابلها النوع الثاني الذي اكتشفه كارل فيرنيك Carl Wernicke وهو حبسة فيرنيك التي تعرف أيضا بالحبسة الحسية

وهي ناتجة عن إصابة الفص الصدغي من الدماغ ومعلوم أن هذا الفص هو مركز حاسة السمع.

تتفرع من هذين النوعين حبسات كثيرة تلتقي في بعض النقاط وتختلف في أخرى لكل منها تاريخ وأعلام وأساليب كشف وأعراض مختلفة وبرامج علاج متنوعة للاستزادة ينظر: أحمد حابس، الحبسة وأنواعها - دراسة في علم أماض الكلام وعيوب النطق، تقديم مختار الأحمدى، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2005، ص84- ص107، وينظر أيضا على سبيل المثال لا الحصر:

- Nacira Zellal, protocol du MT Algerien, version plurilingue 1999, Université d'Alger et Laboratoire Sciences du Langage et de la Communication. 2000.
- Sophie Chomel-Guillaume et autres, Les aphasies -évaluation et rééducation-, Elsevier Masson SAS, paris, 2010.

18- خليفة بوجادي، اللسانيات النظرية -دروس وتطبيقات-، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2012، ص31.

19- عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات -عربي فرنسي، فرنسي عربي، مع مقدمة في علم المصطلح-، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص107.

20- عبد الفتاح عبد المجيد الشريف، التربية الخاصة وبرامجها العلاجية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 2011، ص224.

21- أسامة فاروق مصطفى سالم، اضطرابات التواصل بين النظرية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط2، 2015، ص36.

22- عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل - اقترابات لسانية لإشكالية التواصل للتواصلين الشفوي والكتابي-، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص91، ص92.

وتجدر الإشارة بأن السميولوجيا: مصطلح يقصد به علم العلامات semiology وهو يختص بدراسة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، المعجم الموحد لمصطلحات

- التواصل اللغوي -انجليزي، فرنسي، عربي-، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، 2011، رقم المصطلح 1698، ص143).
- 23- ينظر كامبيون كوين، 100 سؤال وجواب حول التّوحد، ترجمة: إلفيرا منصور، مرجع سابق، ص 129، ص130.
- 24- بامبلا بارترام، كيف نفهم أطفالنا -الطفّل ذو الاحتياجات الخاصّة-، ترجمة: رائد القاقون، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، 2008، ص66.
- 25- عبد الفتاح عبد المجيد الشريف، التّربية الخاصّة وبرامجها العلاجيّة، مرجع سابق، ص230.
- 26- حازم ضاحي شحّادة، التّوحد وآفاق المستقبل بين الاختصاصيين وأولياء الأمور _تحقيق_، مجلّة المنال، مدينة الشارقة للخدمات الإنسانيّة، السنة24، العدد 253، أبريل 2011، ص31.
- 27- فاطمة محمّد آل عايض، الأساليب التعليميّة والتربويّة للطفّل التّوحيدي، مجلّة التّخصّصي، تصدر عن مستشفى الملك فيصل التّخصّصي ومركز الأبحاث -مؤسسة عامّة، العدد9، يناير 2008، السنة الثالثة، ص13.
- 28- سعد رياض، تنمية المهارات اللّغويّة واللّفظيّة، دار الفنار للعلوم والآداب، بومرداس، ص84.

أهمية الأسئلة في تعليمية النصوص الأدبية - دراسة تحليلية نقدية لكتب اللغة العربية للتعليم الثانوي -

وليد بركاني
جامعة 8 ماي 1945 - قالمة (الجزائر)

الملخص:

تحتل الأسئلة مكانة متميزة في التدريس، كونها آلية أساسية لتحقيق الأهداف التعليمية، وفي إطار إصلاحات وزارة التربية، عرف التعليم الثانوي في الجزائر ابتداءً من الموسم 2005-2006 هيكلية جديدة، واكبها إنجاز مجموعة من الكتب التي أصبح التعامل فيها مع النص الأدبي من خلال ضبط مفاتيحه ضبطاً وفق المقاربة النصية، ومن ثم تُحدد أسئلته تماشياً مع هذه المفاتيح. يعالج مقالنا هذا بالتحليل والتقد بناء الأسئلة التعليمية في هذه الكتب، ومدى ملاءمتها لخطوات التحليل التي حددها منهاج اللغة العربية.

الكلمات المفتاحية: السؤال - التعليم الثانوي - النص الأدبي - المقاربة النصية.

Résumé:

Dans le cadre des réformes du ministère de l'Éducation, l'enseignement secondaire en Algérie à partir de la saison 2005-2006 a été caractérisé par une nouvelle structure, accompagnée de la réalisation d'une série de livres, dans lesquels le texte littéraire a été traité en contrôlant ses clés. Basées sur l'approche textuelle, puis déterminent ses questions en fonction de ces clés. Cet article analyse et critique la construction de questions éducatives dans ces livres et leur pertinence pour les étapes d'analyse décrites dans le programme de langue arabe.

Mots clés: La question, l'enseignement secondaire, le texte littéraire, l'approche textuelle.

Abstract:

In the context of the reforms of the Ministry of Education, the secondary education in Algeria from the 2005-2006 season was characterized by a new structure, accompanied by the completion of a series of books, in which the literary text was dealt with by controlling its keys. Based on the textual approach, and then determine his questions in line with these keys. This article analyzes and critiques the construction of educational questions in these books and their relevance to the analysis steps outlined in the Arabic language curriculum.

Key words: The Question, secondary education, literary text, the textual approach.

مقدمة :

الإنسان كائن متسائل، يتأمل في داخله كل يوم العديد من الأسئلة، ويطرح على الآخرين كما يطرحون عليه الكثير منها في كل شأن من شؤون الحياة؛ فهي تلعب دوراً مركزياً في جميع أحوال حياته. أما في العملية التعليمية التعليمية على وجه الخصوص فلاسئلة مكانة متميزة، تجعلها جوهر هذه العملية ومحورها الرئيس لما لها من تأثير في معظم المواقف التدريسية، حتى أصبح السؤال فناً وأداة لها قيمتها في شحذ ذهن المتعلم، ومقياساً لاختبار صحة الأفكار وتقبلها، وهي وسيلة فعالة للتقويم البنائي أو النهائي الذي يُعين المعلم على إيجاد تفاعل منتج، ويُمكنه من معرفة مدى تحقق الأهداف التربوية والتعليمية، إذ لا يكاد يخلو موقف تدريسي فعال من الأسئلة. فصار من المستحيل أن نتصور تدريساً فعالاً من دون وجود الأسئلة مهما اختلفت طرائق التدريس وتنوعت المناهج التربوية. وتعدّ الأسئلة التي يطرحها الكتاب المدرسي من الأمور المهمة التي يستعين بها المتخصصون للحكم على جودة هذا الكتاب وقدرته على ترجمة الأهداف المحددة له، بغية تقويمه وتطويره. من أجل ذلك اهتمت الدراسات التربوية المعاصرة بالأسئلة منذ مطلع القرن الماضي بعدها حقلاً بحثياً متخصصاً، وتناولت بالدراسة النظرية والتطبيقية جوانبها المختلفة، وقضاياها الكثيرة والمتشعبة. وهذا ما انتهت إليه المناهج التربوية الجديدة في الجزائر في إصلاحاتها الأخيرة، فجاءت مقررات كتب اللغة العربية لسنوات التعليم الثانوي الثلاث (منذ سنة 2005)، مبنية أساساً على مهارة السؤال. والملاحظ في الواقع أن المعلمين يعتمدون على أسئلة الكتب المقررة، وينقيدون بها نقيداً كبيراً، سواءً عند تكليفهم التلاميذ بالواجبات المنزلية، أو تحضير الدروس، أو التطبيق، أو

التقويم، لذلك فإن أيّ قصور في إعداد هذه الأسئلة ستتعدى آثاره السلبية إلى مجمل العملية التعليمية التعلّمية.

والمتنبّع للأسئلة الواردة في هذه كتب التي تأتي بعد كل نص (أدبيّ أو تواصلّي)، يلاحظ أنّها بحاجة إلى تقويم من حيث بناؤها، على المستوى اللغوية، والفكرية، والتربوية، ممّا تعطيها كفاءتها العلمية، فتكون أداة إيجابية وفعّالة تخدم المتعلّم ولا تعيق تحصيله. وقبل خوض غمار التحليل والنقد، نحاول التأسيس لمفهوم السؤال لغة واصطلاحاً.

1- حدّ السؤال:

1. أ/ لغة:

اتفقت جلّ المعاجم العربية على معنى السؤال لغويّاً، فورد في اللسان: "سألته الشيء، وسألته عن الشيء، سؤالاً ومسألةً، سألته الشيء بمعنى استعطيته أيّاه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ (محمد/36). وسألته الشيء استخبرته... ورجلٌ سؤلةٌ كثيرُ السؤال، والفقير يُسمّى سائلاً"¹.

وجاء في الصحاح: "السؤالُ ما يسأله الإنسان، وقرئ ﴿أوتيت سؤلك يا موسى﴾ (طه/36) بالهمز وبغيره، وسأله الشيء وسأله عن الشيء (سؤالاً ومسألةً) - قوله تعالى: ﴿سأل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ﴾ (المعارج/1)، أي عن عذاب واقع، قال الأخفش: يُقال خرجنا نسأل عن فلان و بفلان .

وقد تخفّف الهمزة فيقال سأل يسأل، والأمر منه سلّ ومن الأول اسأل، ورجل سؤلةٌ: كثير السؤال، وتساءلوا: سأل بعضهم بعضاً"².

وفي القاموس المحيط: "سأله كذا و بكذا بمعنى سؤالاً و مسألةً وتساؤلاً، والأمر سلّ واسأل، والسؤال (والسؤلة ويترك همزها) ما سألته..."³. ممّا سبق نلاحظ من الدلالة المعجمية لكلمة (سؤال)، أنّها لم تخرج عن أحد

معنيين وهما: الاستخبار والاستعطاء، غير أننا نجد في بعض المصادر تستعمل بمعنى أعمّ وأوسع، متجاوزة طلب الخبر أو طلب ما عند الغير في خضوع، لتشمل كل أنواع الطلب، ولا غرابة حينئذٍ إن تقاطع استعمالها أو امتزج بغيره من المصطلحات الخاصة بالأفعال الأخرى كالاستفهام والأمر...⁴.

ب/اصطلاحاً:

السؤال معنى قابل للتشكّل في صيغ مختلفة، ويشمل كل أنواع الطلب مهما يكن المطلوب، وقد يوجد السؤال بالمعنى دون أن يتشكّل لفظاً، مع بقاء تأثيره في الخطاب⁵، وهذا ما يُسمّيه البلاغيون (السؤال المقدّر أو السؤال بالفحوى)⁶. هذا على مستوى التشكّل، أمّا على مستوى الغرض فإنّ السؤال طلبٌ يختلف فيه المطلوب باختلاف المسألة، فيكون لطلب المعرفة، أو طلب الدليل والحجّة، أو الاعتراف. وقد ارتبط السؤال بالاستفهام أكثر من غيره من أنواع الطلب الأخرى بسبب استعماله الواسع، إلى درجة أن لفظ (السؤال) استعمل مرادفاً للفظ (الاستفهام) عند كثير من العلماء.

2- مفهوم السؤال التعليمي:

يُعدّ السؤال التعليمي الطريقة التي يتعرّف المتعلّم من خلالها على العالم المحيط به، كما أنّه يقدّم الكثير من المنافع للمتعلّم ويقوّي صلته بالموضوعات التي يدرسها، حيث "تعتبر الأسئلة التعليمية من الوسائل الإدراكية المعرفية التي تعمل على تنشيط المعلومات في ذهن المتعلّم واسترجاعها، والإفادة منها بطريقة فعّالة..."⁷. ويُعرّف السؤال التعليمي أيضاً بأنه "عبارة عن مثير يستدعي ردّ فعل أو استجابة، ويتطلّب من المتعلّم قدراً من التفكير و فحص المادّة التعليمية التي بين يديه، ثمّ استرجاع المعلومات المخزونة في ذاكرته

بطريقة تساعده على الإجابة بشكل صحيح⁸. فالسؤال التعليمي إذاً هو كلّ عبارة تتطوي على مطالبة المتعلّم بإجابة ترتبط بهدف تعليمي محدّد.

3- أهميّة السؤال التعليمي:

أولت الدراسات التربوية الحديثة اهتماما كبيرا للأسئلة التعليمية، وكانت آراء جلّ التربويين تركّز على ما للأسئلة الجيدة من دور في تحسين عملية التعليم، واعتبروا أنّ التدريس الرّاقى يكمن في مهارة الأسئلة على اعتبارها المنفذ الأساس إلى الفكر الحيّ، وأجمعت هذه الدراسات على أنّ السؤال هو كلّ شيء، فهو روح العملية التعليمية ولبّها، ومن هنا تتجلى أهميّة الأسئلة بالنسبة للمتعلّم، والمعلّم، والدّرس، وطريقة التدريس.

4- المقاربة النصّية:

المقاربة لغة هي الدّنو والاقتراب، مع السّداد وملامسة الحقّ، فيقال: قارب فلان فلانا إذا داناه، كما يقال: قارب الشّيء إذا صدق وترك الغلو ومنه: قرب، أي: أدخل السيف في القراب⁹.

أمّا اصطلاحاً فالمقاربة النصّية تعني "الدّنو من النصّ والصدّق في التّعاطي معه بعيداً عن الحكم المسبق عليه"¹⁰. فهي طريقة لتناول النّصوص، وتدريس أنشطتها باعتبار النّصّ بنية كبرى تظهر فيها كلّ المستويات اللّغوية (صوتية، صرفية، نحوية، دلالية، أسلوبية)، و تتعكس فيه مختلف المؤشرات السياقية¹¹.

يقوم مبدأ المقاربة النصّية على الانطلاق من النّص كمحور لكلّ التّعلّمات، تدور حوله جميع الأنشطة من مطالعة وتعبير، ونقد، وكذا الأنشطة اللّغوية، من أجل تحقيق كفاءات ثلاث هي: الفهم، والاستماع، والتّعبير (الشفويّ والكتابي). فالنّظرة الجديدة لتعلّم اللغة العربية تنطلق من كونها كلّ

متكامل، ذات نشاط لغوي ثلاثي الأبعاد: مشافهة، وقراءة، وكتابة؛ إضافة إلى التعلّات الأخرى التي تمكّن المتعلّم من التّحكم في أدوات اللّغة واكتسابه القدرة على تحليل هيكل النّص لبناء المعنى وتنمية الرّصيد اللّغوي والمعرفي، والثّقافي. وتستدعي المقاربة النّصية في تدريس أنشطة اللّغة العربية توظيف جملة من مفاهيم لسانيات النّص.

5- الدّراسة:

لم يعد النّص في كتاب اللّغة العربية للتّعليم الثّانوي-حسب المنهاج الجديد- يحلّ بالطريقة التّقليدية المعهودة في النّظام القديم، فالأمر اختلف اليوم، لأنّ النّص الأدبي(شعرا أو نثرا) لا يمكن التّعامل معه إلّا بعد ضبط مفاتيحه ضبطا محكما ودقيقا، ومن ثمّ تضبط أسئلته وفق هذه المفاتيح، ومتى نجح واضع الأسئلة في حصرها انطلاقا من حيثيات النّص وتجربة صاحبه وما صاحبها من ملابسات وتراكم خبرات كان موقّفا في إخراج الموضوع، وفي ذات الوقت يكون قد وضع التّلميذ في وضعية يجب التّعامل معها بحذر، وبالتالي لا تكون يده طليقة يتصرّف في النّص كيفما شاء، بل يتعامل معه مرحلة بمرحلة وخطوة بخطوة وفق الاستراتيجية المتبناة في تحليل النّصوص وهي المقاربة النّصية. ولا يخفى أنّ الأسئلة التّعليمية التي تأتي في أعقاب شرح الدّرس تختلف في نوعيتها وأهدافها عن الأسئلة التي تأتي في بداية الحصّة أو في أثنائها. والأكيد أنّ المعلّم في تجسيده لهذه المراحل سيستند في أغلب الأحيان إلى الأسئلة الواردة في الكتاب المقرّر، ويتبنّى منهجيتها، التي تنبني على سبع مراحل متدرّجة وهي:

تقديم النص. 2- إثراء الرّصيد اللّغوي. 3- اكتشاف معطيات النص. 4- مناقشة معطيات النص. 5- تحديد بناء النص. 6- تفحص الاتّساق والانسجام في النص. 7- إجمال القول في تقدير النص.

هذا البناء من النّاحية المنهجية معقول جدّاً، لاسيما أنّ كلّ عنصر من هذه العناصر مزيّلٌ بمجموعة من الأسئلة، ممّا يعطي الانطباع بأنّ هذه الأخيرة تمتاز بالتدرّج وتراعي مراحل الدّرس. وهنا نتساءل: هل استطاعت هذه الأسئلة أن تحقّق الأهداف المرجوة من هذه الخطوات الإجرائية؟، هل غطّت الأسئلة فعلاً كلّ خطوة على أكمل وجه؟

للإجابة على هذا السّؤال نحلّل نماذج من أسئلة كتب اللّغة العربية الثلاثة حسب المراحل الثلاث الأولى (تقديم النص- اكتشاف معطيات النص- مناقشة معطيات النص) ونرجي المراحل الأخرى إلى دراسة لاحقة.

أ- الأسئلة ومرحلة تقديم النص:

تعتبر مرحلة تقديم النص (حسب تأكيد المنهاج والكتب الثلاثة) خطوة مهمّة في فهم معطيات النصّ لوضع التّلميذ في إطاره العامّ، وذلك بقراءته قراءة سليمة بمراعاة جودة النّطق وحسن الأداء وتمثيل المعنى¹²، ومبرّر هذا التّقديم لموضوع النصّ، في سياق الدّراسات الأدبية من وجهة النّظر التّعليمية، يوصف بالضرورة الملحة، "لأنّه من شأن العرض أن يتضمّن كلّ ما له علاقة بمحتوى النصّ الأدبي المدرّس، وبالشكل الذي انتظم بنية هذا النصّ والسّمات (الأدبية) فيه، لاسيما أنّ المعرفة بموضوع النصّ (thème du texte) تساعد لا محالة على تفكيك العمل الأدبي وتشريحه، ولا تخفى العلاقة بعد ذلك بين كلّ الجوانب المتبادلة بين الجنس الأدبي ونوعه وبنيتّه الفنّية"¹³. فقد سجّلنا على هذه الخطوة ملاحظتين: الأولى أنّها جاءت غير

ثابتة في الكتب الثلاثة، حيث حُذفت من كتاب السنّة الأولى (المشوق) أربع مرّات¹⁴ من النصّ الأدبي، وحُذفت من كتاب السنّة الثانية (الجديد) ثماني مرّات¹⁵ من النصّ الأدبي أيضاً، بينما التزمها كتاب السنّة الثالثة في جميع النصوص الأدبية وأسقطها من جميع النصوص التّواصلية وكذا نصوص المطالعة الموجهة. ولا ندري سبب هذا التذبذب في استعمال هذه المرحلة، ولكنّ الأکید أنّ هذا الحذف سيؤثر سلباً على فهم معطيات النصوص عامّة (سواء النصّ الأدبي أو النصّ التّواصلية أو نص المطالعة الموجهة)، ويلحق خلا بطريقتي التّدریس المتبّعة في هذه الكتب، على اعتبار أنّ هذه الخطوة من الخطوات الثّابتة في المنهاج. أمّا الملاحظة الثّانية فتتمثّل في خلوّ مرحلة تقديم النصّ من الأسئلة التي قد تفتح للمتعلّم منافذ أوليّة لاختراق عالم النصّ وفهم مداخله. ويمكننا أن نعرض هنا نماذج مختارة عشوائياً من الكتب الثلاثة من باب التّمثيل لا الحصر وتحليلها.

أ- من كتاب السنّة الأولى (المشوق) أخذنا أنموذج تقديم موضوع لنصّ المطالعة الموجهة (أرضنا الجميلة)¹⁶ جاء فيه: "إنّ الجزائر بحكم وجودها بين عوالم ثلاثة عالم البحر المتوسّط، والعالم الإسلاميّ والعالم الإفريقيّ، تعدّ لؤلؤة شمال إفريقيا بما تزخر به من آثار تاريخية ومناظر طبيعية مختلفة، الأمر الذي جعلها محطّ أنظار السّياح". إنّ تقديم موضوع النصّ من وجهة النّظر التّعليمية يعتبر ضرورة ملحة لاختراق أفق انتظار المتعلّم ووضعه في إطار النصّ العامّ لما في هذا التّقديم من علاقة بمضمونه، وما تضمّنه الأنموذج السّابق لم يتعدّ كونه عرضاً بسيطاً ومباشراً، لم يحاول واضعه ربط ذهن المتعلّم بموضوع النصّ من خلال تجاهله لعنصر مهمّ جدّاً وهو عنصر التّشويق الذي يثير دافعية التّلميز ويهيّؤه للنّص، وتحقيق هذه الغاية لا يتأتّى إلاّ باعتماد طريقة السّؤال التي تستثير فضول التّلميز في

ترصد الإجابات فيما بعد من خلال فهم وتحليل مضمون النص. إن الأولوية في المثال السابق أن تتحوّل الجملة الخبرية الأخيرة منه إلى جملة إنشائية تحمل مجموعة استفهامات لا تتطلب إجابة فورية من التلميذ، بل هدفها ربط ذهنه بمحتوى النص وتركه في حالة انتظار وتشوق، فيأتي التقديم على الشكل الآتي: "إنّ الجزائر بحكم وجودها بين عوالم ثلاثة، عالم البحر المتوسط، والعالم الإسلامي، والعالم الإفريقي، تعدّ لؤلؤة شمال إفريقيا بما تزخر به من آثار تاريخية ومناظر طبيعية مختلفة. فما هي أهمّ هذه المعالم التاريخية والطبيعية في الجزائر؟ وما نظرة السياح الأجانب لها؟. لنتعرّف على الجواب من خلال النص".

ب- ومن كتاب السنة الثانية أنموذج تقديم النصّ التواصلي (حياة اللّهُو والمجون)¹⁷ لمصطفى صادق الرّافعي هذا نصّه: "منح العباسيون المزيد من الحرّية للشّعوب غير العربيّة بعد أن كانت محدّدة في العصر الأموي، وقد شملت تلك الحرّية كلاً من العقيدة والتّفكير والتّعبير، ما لم تُمسّ سلطة الحاكم، ولم يراع بعضهم حدود تلك الحرّية ممّا نشأ عنه الانحلال الخلفي والاجتماعي وضعف الوازع الدّيني".

فهذا التّقديم (أيضاً) جاء بطريقة مباشرة وسطحية لا يمكن أن يثير فضول التّلميذ تجاه النصّ ولا يشوّقه إلى ما سيأتي فيه، والسبب ببساطة هو تجاهل قيمة ودور السّؤال في تحقيق هذه الغاية. وعليه نقترح تغيير الفقرة الأخيرة من التّقديم السابق إلى أسئلة تحمل استفهامات مؤجّلة، تتحقّق الإجابة عنها من خلال مضمون النصّ، ويكون ذلك على النحو الآتي: "منح العباسيون المزيد من الحرّية للشّعوب غير العربيّة بعد أن كانت محدّدة في العصر الأموي، وقد شملت تلك الحرّية كلاً من العقيدة والتّفكير والتّعبير، ما

لم تمس سلطة الحاكم. فهل راعى كلّ الناس حدود تلك الحرّية؟ وماذا نشأ عن ذلك على المستوى الخلقى والاجتماعي؟ لنرّ ذلك من خلال هذا النصّ ".
ت- وأخذنا من كتاب السنّة الثالثة تقدّما للنصّ الأدبي (أغنيات للألم)¹⁸ لنازك الملائكة: "الألم شعور إنساني يعبر عن الإنسان في حالة المعاناة جسمية كانت أو نفسية، وقد تكون المعاناة فردية أو اجتماعية. فما طبيعة معاناة الشاعر؟ ما حقيقة ألمها؟ هل الألم عندها شعور فردي أم جماعي؟ هل هو عارض أم مزمن؟ فلنتعرّف على ذلك من خلال النصّ ". من خلال هذا النموذج نجد أنّ كتاب السنّة الثالثة شعبة الآداب والفلسفة واللغات قد انتبه لأهمية مرحلة تقديم النصّ، وتدارك النقص المسجّل في الكتابين السابقين (المشوق والجديد)، حيث أعاد مؤلّفوه النظر في صياغة هذه المرحلة بما يتلاءم وتحقيق الكفاءة المرجوة منه، انطلاقاً من تقديم عرض مباشر مختوم بأسئلة متعدّدة تغطّي الأفكار المراد الوصول إليها من خلال تحليل النصّ، ولكن ما يلام عليه كتاب السنّة الثالثة هو عدم التزامه هذه المنهجية مع كلّ النصوص الأدبية، حيث انعدمت صيغة السؤال في بعضها، وكذلك عدم ثبات مرحلة تقديم النصّ مع النصوص التّواصلية ونصوص المطالعة الموجهة، ممّا يشكّل تعارضاً مع المنهاج الذي أقرّ هذه الخطوة.

ب- الأسئلة ومرحلة اكتشاف معطيات النصّ:

تمثّل هذه الخطوة (حسب المنهاج) هدفاً وسيطياً مدمجاً يتمّ فيها "تركيز البنية المعرفية على المعنى والفهم عن طريق الاكتشاف الاستقرائي والاستيعاب الاستنتاجي"¹⁹. وتعتبر هذه المرحلة أرضية انطلاق أساسية في دراسة النصّ، لأنها تمكّن المتعلّم من اكتشاف "ما يتوافر عليه النصّ من المعاني والأفكار، من المشاعر والانفعالات والعواطف، من التّعابير الحقيقية

والمجازية، من الأساليب التي يتخذها الأديب وسيلة للإقناع والتأثير، من موقع الأديب وغرضه من إنشاء النص. وعلى العموم، من كل ما ورد في النص من وسائل استعان بها الأديب لنقل أفكاره ومشاعره إلى الآخرين، بمنطق أن العاطفة هي الغاية الأولى والفكرة سند لها، أي اكتشاف العناصر الفنية بالتعرف تدريجياً على الأدوات الجمالية²⁰. وتسعى هذه المرحلة إلى تحقيق جملة من الأهداف أوردها المنهاج بشكل متداخل مع أهداف مرحلة (أناقش معطيات النص)، وكذا أهداف مرحلة (أحدّد بناء النص)، وقد أوجزناها في النقاط الآتية²¹:

- يتعرف على موضوع النص وعلى الجوانب المعالجة فيه (يكشف المعنى العام).

- يتعرف على المجموعات الإنشائية (العناوين، الفقرات...).

- يعين التعبيرات الغامضة وينقد الأساليب نقداً يبين فيه مواطن غموضها.

- يحدّد أفكار النص الرئيسية.

- يستنبط القيم الفكرية والاجتماعية والسياسية الواردة في النص.

- يعين الرمز ويفسر مدلوله. - يوازن بين عمليتين أدبيين من نوع واحد.

هذه هي المعطيات التي يستوجب على المتعلم (عموماً) اكتشافها ويسعى إلى تحصيلها. ويرى المنهاج أن الوسيلة الناجعة لإنجاز هذه الأهداف هي اعتماد "طائفة من الأسئلة تمكّن التلميذ من فهم النص"²²، واستيعاب معطياته. حيث اعتبر المنهاج وتبعته الوثيقة المرافقة أن طريقة التدريس بالأسئلة هي عماد الفعل التربوي وهي السبيل للتدريس في ظل المقاربة بالكفاءات، حتى أصبحت ظاهرة الأسئلة في كتاب اللغة العربية للتعليم الثانوي (نظام جديد) ظاهرة تجديدية منشودة في العملية التعليمية. علماً أن طريقة التساؤل ليس وليدة هذا المنهاج، ولا صفة تجديدية خاصة به، بل هي

طريقة ظلت لصيقة بالعملية التعليمية وستبقى. وما يهمنا هنا هو فاعلية هذه الأسئلة في انجاز الهدف التعليمي المعلن في هذه الخطوة. وعليه نطرح سؤالاً مهماً: هل حققت الأسئلة الواردة في كتاب اللغة العربية أهداف هذه المرحلة²³، وساعدت (فعلاً) المتعلم على اكتشاف معطيات النصوص؟ وهل هي فعلاً وجه من وجوه تحقيق المقاربة بالكفاءات؟. سؤال تجيبنا عنه نماذج الأسئلة الخاصة بهذه المرحلة التي اخترناها من النصوص ذاتها التي اعتمدناها في مرحلة "أثري رصيدي اللغوي" من الكتب الثلاثة، من باب الحرص على إعطاء نظرة متكاملة عن واقع هذه الأسئلة من جهة، والتزاماً بموضوعية الطرح من جهة أخرى.

من (المشوق) أخذنا نموذج أسئلة هذه المرحلة من النص السابق لزهير بن أبي سلمى "في الإشادة بالصلح والسلام والتحذير من ويلات الحرب" حيث جاءت في أحد عشر سؤالاً، والقصيدة المختارة فيها اثنا عشر بيتاً²⁴، (ونشير بأننا قد قمنا بإحصاء عدد الأسئلة التي واكبت هذه المرحلة وقدرنا النسبة المتوسطة بثمانية أسئلة للنص). حيث وردت أسئلة (اكتشاف معطيات النص) في النص المذكور أعلاه على النحو الآتي:

1. مَنْ هُمَا السَّيْدَانِ اللَّذَانِ يَتَحَدَّثُ عَنْهُمَا الشَّاعِرُ؟
2. علام يدلّ فعل "نعم"؟ وما الجانب الذي يكشفه في نفسية الشاعر؟
3. لماذا جاء الفعل مقروناً باللام؟
4. ما المعنى الذي يرمز إليه لفظاً "سحيل، مبرم"؟
5. ماذا وقع بين قبيلتي عبس وذبيان؟ وما التعبير الدال على ذلك؟
6. بم خصّ الشاعر السيدين اللذين أصلحا بين المتحاربين؟
7. حدّد الأبيات التي وردت فيها صيغة صرفية متكرّرة، ما أثر هذه الصيغة على المعنى؟

8. غيّر الشاعر خطابه من صيغة صرفية إلى أخرى، من المقصود بالمخاطبين في الصيغة الصرفية الثانية؟ وما المراد بالأحلاف؟
9. ماذا يفيد التعبير "ألا أبلغ الأحلاف؟"، وعلام أقسمت ذبيان؟
10. فيم حصر الشاعر الحرب؟ ولماذا؟
11. لخص مضمون النص.

بالعودة إلى مضمون نص زهير بن أبي سلمى (ونشير هنا بأنّ النص مأخوذ من كتاب النظام القديم حور فقط في عنوانه الذي كان "في مدح دعاة السلام")، نجد أنّ أول سؤال طرح في هذه المرحلة (من هما السيدان اللذان يتحدّث عنهما الشاعر؟) هو المدخل الذي اختاره الكتاب لولوج عالم النص، على اعتبار أنّ "مداخل النصوص متعدّدة... والنص الواحد قد يحتمل أكثر من مدخل ولهذا الأمر فائدة بيداغوجية كبيرة، لما يتيحه من تعدّد القراءات"²⁵، والملاحظ في المدخل المختار أنّه يعارض تماما ما أكدّ عليه المنهاج في ضرورة اختيار المدخل المناسب للنص، لأنّ ما طُلب من التلميذ في السؤال (من هما السيدان؟)، لا يوجد ما يُحيل على اسميهما في النص ولا في مرحلة تقديم النص على الأقل، وإذا سلّمنا (على حدّ قول المنهاج) بتوظيف المعارف المكتسبة التي يتوافر عليها المتعلّمون، وذلك بتحريك ما لديهم من معلومات أو معارف لها علاقة بالنص المدروس²⁶، فمن غير المنتظر (عموما) أن يكون في ذخيرة تلميذ السنة الأولى ثانوي اسما "الحارث بن عوف، وهرم بن سنان"، وحتى إن فرضنا أنّ التلميذ يعرف الجواب، فكيف يجب أن يُستثمر الاسمان في إطار المقاربة النصّية كي تشكل منهما مدخلا للنص ولا يكتفي التلميذ بمجرد الذكر؟، ويكون ذلك (مثلا) بأن يُعيّن منهما رمز للسلام يُفسّر مدلوله بما يخدم المعنى. وعليه فإنّ هذا الأمر (في رأينا) يمثّل تهميشا لهذه الخطوة المهمّة في فهم النص، وبذلك يصبح المدخل

أهمية بالنسبة للتلميذ إن لم يتدخل الأستاذ في حلها. وهذا ما نسجله في عموم نصوص كتاب "المشوق" وليس حصرا في النص السابق فقط، لأن أسئلة مداخلها ذات طابع تقليدي، وجاءت على شاكلة ما كان معروفا في النظام القديم حتى وإن تَمَصَّت ثوب حداثة المقاربة النصية شكلا. وعلى مستوى "بناء المعنى" ننوه بكفاءة الأسئلة (في المشوق) في إنجاز هذا الهدف، حيث عكست رؤية المنهاج وتوجهه في منطلقه "أنّ الفهم لا يحدث دفعة واحدة"²⁷، فعملت الأسئلة على تجميع معلومات جزئية لا تلبث أن تجعل معالم النص تتضح تدريجيا وتكشف عن معناه العام، حيث تجسد إنجاز الهدف مثلا في هذا النص في السؤال الأخير (لخص مضمون النص). ومع ذلك فالأسئلة يعوزها شيء من إعادة الترتيب والتدرج بما يتلاءم ومراحل النص.

ومن نقائص أسئلة (المشوق) في هذه المرحلة، عدم إثارته للمعارف السابقة للمتعلّمين (الخاصة بالنص) بطرح أسئلة مركزة حول قضايا يعرفونها ولها علاقة بالنص المدروس، لأن ذلك من شأنه (في رأي المنهاج) أن يمدّ جسور الاتصال بين التلاميذ والنص، ويحقّق مبدأ الإدماج الذي تقوم عليه المقاربة بالكفاءات. والنقطة الثانية التي لاحظناها هي إغفال أسئلة "المشوق" لمرحلة (تحديد أفكار النص الرئيسية) على الرغم من تأكيد المنهاج والوثيقة المرافقة على أنها من صميم الاكتشاف، حيث أرجأها "المشوق" إلى آخر خطوة من خطوات دراسة النص الأدبي (أجمل القول في تقدير النص)، مما يشكل تناقضا صريحا بين المنهاج والكتاب، حيث يعتبرها الأول عاملا مهما في بناء المعنى، بينما يراها الثاني من النتائج المحصّلة في نهاية الدرس. وهكذا تبقى طريقة تدريس النص الأدبي تتخبط بين منهج التحليل القديم بالبحث عن الأفكار الرئيسية للنص وبين منهج التجديد الحائق على النمطية

القديمة، المتخفّي وراء المصطلحات اللسانية الجديد، لأنه لا ينفكّ يذكر الأفكار ويحرص على تحديدها، حتّى وإن غيّر موضعها.

* من كتاب السنّة الثّانية(الجديد) نواصل عرض أنموذج النّصّ الأدبي حول "تشاط النثر" للجاحظ في مرحلة (أكتشف معطيات النّص) :

1. يذهب الكاتب إلى تقسيم العالم إلى ثلاثة أقسام حدّدها.
2. قارن ما ذهب إليه الكاتب وما يراه العلماء والحكماء في تقسيمهم.
3. ما موقف الكاتب من الاختلاف الحاصل حول العالم الخارجي ومسمّياته؟
4. ما الفرق بين الأرض الجامدة والميتة في نظر الكاتب؟
5. حدّد أركان الحياة في الكون.

إنّ متوسط عدد أسئلة اكتشاف معطيات النّصّ في (الجديد) يقدر بستّة أسئلة للنّصّ الواحد، أي أقلّ من (المشوّق) بسؤالين، وهذا ربّما ينعكس سلباً في بناء المعنى العام للنّصّ في ذهن المتعلّم. ولم ينأ (الجديد) بنفسه عما جاء في (المشوّق) فجاءت أسئلة هذه الخطوة على نفس النهج نفسه السّابق وسجلت النّقائص ذاتها. بل إنّنا نسجّل ملاحظات أخرى في(الجديد) تُضاف إلى سابقتها في (المشوّق) وهي:

في كثير من الأحيان نجد أنّ الأسئلة غير شاملة للنّقائص الرّئيسة في النّصّ (مثلاً هو حاصل في الأنموذج أعلاه)، بحيث لم يتم توزيعها بشكل يحقّق هدف بناء المعنى العامّ، وبالتالي فهي تتأى بالمتعلّم عن "القراءة الاستكشافية الأولى"²⁸ التي تمكّنه من اكتساب "خبرة نصّية" يدخل من خلالها إلى مرحلة التّعمّق ورصد مؤشّرات النّصّ، حسب ما يطالب بذلك المنهاج. وهناك ملاحظة أخرى نضيفها فيما يخصّ مداخل النّصوص التي يعتبرها المنهاج "متعدّدة" بتعدّد النّصوص بل النّصّ الواحد قد يحتمل عدّة مداخل، ومن ضمن المداخل التي يقترحها المنهاج ((عنوان النّص)) باعتباره العتبة الأولى

من عتبات النص، وهو بمثابة الرأس للجسد. على الرغم من هذه الأهمية التي أُعطيت للعنوان (نظرياً) في المنهاج لكن واقع حال (الجديد) يؤكد عدم استعمال هذا المدخل ولوفي نصّ واحد من نصوص الكتاب، ولم يرد أيُّ سؤال حوله، وهذا راجع (في رأينا) إلى أنّ لجنة التأليف في (الجديد) وحتى في (المشوّق)، لم تورد النصوص بعناوينها الأصلية من مصادرها، بل عمدت إلى اعتماد عناوين عامّة تعود على الوحدة التعليمية كاملة، كما هو واقع في النصّ أعلاه (نشاط النثر: للجاحظ)، وأيضاً مثال آخر من باب التمثيل لا الحصر: (من قضايا الشعر في عهد الدولة الرستمية: لبكر بن حمّاد). فهذه العناوين لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تكون مداخل فعلية للنصوص التي رافقتها، لأنها لا تعبّر عن مضمونها الفعلي، ولا يتعدّى كونها عناوين للمحاور العامّة المقرّرة فقط.

*من كتاب السنة الثالثة نعرض أسئلة خطوة "أكتشف معطيات النصّ"

لنصّ الأدبي السابق من المحور السابع (أغنيات للألم) لنازك الملائكة²⁹:

1. بلسان من تحدّثت الشاعرة؟ وما هي القضية التي تشغلها؟
2. من تحمّل الشاعرة أسباب هذه الحالة النفسية؟ أهى الإرادة الحرّة أم الحتمية القاهرة؟
3. ما هي دلالة الاستفهام في: "من أين يأتينا الألم؟" و"كيف ننسى الألم؟"
4. استخرج من النصّ المعجم الدلالي لهذه المعاناة.
5. تعرض الشاعرة سرداً قصصياً خيالياً عن بداية معايشة الألم للحياة اليومية للنّاس. فما هي الرّسالة التي أرادت إيصالها؟
6. تتغيّر القافية بعد كلّ مجموعة من الأسطر. هل لذلك دلالة على المعاني المعروضة؟ وضح.
7. استخرج تفعيلات الأسطر الأربعة الأخيرة.

يمثل متوسط المعدل العام للأسئلة في كتاب السنة الثالثة بالنسبة لخطوة (أكتشف معطيات النص) سبعة أسئلة للنص الواحد، وبذلك فهو يتوسط معدلي الكتابين السابقين، مما يوحي بطابع الاتزان في هذا الكتاب عكس سابقه. لأن طبيعة الأسئلة الواردة فيه تختلف من حيث الصيغة والمضمون عما سبق التعرف عليه في النماذج السابقة، بحكم أن هذا الكتاب تم تأليفه بعد مرور سنتين على بدء الإصلاحات في التعليم الثانوي، مما أعطى الفرصة للجنة التأليف لمراجعة الأخطاء التي وقع فيها كل من (المشوق والجديد)، وكذلك الأخذ ببعض الانتقادات التي وجهت لهما. ونوه هنا بمحاولة أسئلة الكتاب تحقيق أهداف المنهاج المطلوب إنجازها في هذه المرحلة إلى حد كبير، ولوعدنا إلى الأنموذج أعلاه لوجدنا من أسئلته ما يحقق مشروع القراءة الاستكشافية الأولية عند التلميذ، ويحقق لديه الفهم العام من خلال "الوقوف على بعض أفكار النص ومعانيه"³⁰، ويتضح ذلك في الأسئلة التالية:

- بلسان من تحدثت الشاعرة؟

- وما هي القضية التي تشغلها؟

- من تحمّل الشاعرة أسباب هذه الحالة النفسية؟

- أهي الإرادة الحرة أم الحتمية القاهرة؟

فهذه الأسئلة تحاول - قدر الإمكان - أن تتمثل مطلب المنهاج في تطبيق المقاربة النصية على مستوى الوظيفة التربوية الأولى المتعلقة بالتلقي والفهم من خلال الوقوف بصورة عامة على محتويات النص وقصدية صاحبه. وفي مستوى أكثر تجريدا حاولت الأسئلة إدراك الآليات المتحكمة في تعالق بنيات النص من خلال اتخاذها لدلالة الاستفهام مدخلا وأسلوبا لصوغ كل تلميذ لفرضياته الخاصة حول النص، وتمثل ذلك في السؤال:

- ما هي دلالة الاستفهام في: "من أين يأتينا الألم؟" و"كيف ننسى الألم؟".

وهذا يدخل في إطار التعرف على موضوع النص من خلال التعرف على المجموعات الإنشائية الواردة فيه (حسب ما نصّ عليه المنهاج). ويأتي السؤال الموالي: (استخرج من النص المعجم الدلالي لهذه المعاناة) كملاً لما ورد في مرحلة (أثري رصيدي اللغوي) في خطوتها الثالثة: في الحقل الدلالي، حيث حاول السؤال توسيع الأفق اللغوي والمعرفي للتلميذ بربط جسر عبور بينه وبين النص جعله يحتك مباشرة به ويستكشف ما يبوح له به من معاني المعاناة من خلال ألفاظه المنتشرة في فضائه.

أمّا السؤال الخامس: تعرّض الشاعر سرداً قصصياً خيالياً عن بداية معايشة الألم للحياة اليومية للناس. فما هي الرسالة التي أرادت إيصالها؟ حاول هذا السؤال أن ينجز مطلب المنهاج المتمثل في استنباط القيم الفكرية والاجتماعية الواردة في النص، من خلال عبارته (فما هي الرسالة التي أرادت إيصالها؟)، على الرغم من التعارض الحاصل بين مقدّمة هذا السؤال ومطلبه، حيث لا نجد علاقة معنوية بينهما ولا يستطيع التلميذ بأيّ حال أن يستثمر هذه المقدّمة في بناء إجابته، لأنّ قارئ مقدّمة السؤال يظنّ أنّه سيُسأل عن (السرد القصصي الخيالي) بحكم تصدره عبارة السؤال، وليس عن معايشة الألم للحياة اليومية للناس. ولذلك من الضروري إعادة النظر في هكذا أسئلة لتتلاءم في صيغتها مع طبيعة أهدافها التربوية ومقاصدها الفكرية. أمّا السؤال السادس: تتغيّر القافية بعد كلّ مجموعة من الأسطر. هل لذلك دلالة على المعاني المعروضة؟ وضّح.

فحاول أن يستثمر في الموسيقى الخارجية للنص وعلاقتها بالمعنى، على اعتبار أنّ القافية هنا مؤشّرٌ نصّي يعمل المتعلّم على رصده وتفسيره من أجل الوصول إلى استنتاجات معيّنة، ودراسة مدى ملائمة الوزن والقافية لموضوع النصّ وهذا (في رأينا) يتجاوز حدّ القراءة الاستكشافية التي ليس

لها من هدف سوى الدّخول في النّص³¹ والوقوف على المعنى العامّ، والأجدر بمثل هذا السّؤال أن يكون في المرحلة التّالية (مناقشة معطيات النّص)، وهذه الملاحظة ليست حصراً في الأنموذج أعلاه فقط، بل تكرّرت كثيراً في كتاب السنّة الثالثة إذ سجّل تداخل كبير بين أسئلة مرحلتي اكتشاف المعطيات ومناقشة المعطيات، ممّا يضع صعوبات كبيرة أمام المتعلّم الذي يجد نفسه في ذهاب وأياب بين القراءة الاستكشافية والقراءة النّاقدة التي تتمثّل في التحليل والتّجاوب المرحلي للقارئ مع النّص. وبناء على ما سبق ذكره فإنّ أسئلة هذه المرحلة يجب أن تقتصر على المحتوى اللّغوي المقدّم للمتعلم في النّص المقرّر ولا تتعدّاه إلى محاولات التّأويل والتّفسير، وتكون متدرّجة بحيث تعالج ما ورد فيه كاملاً، وأن تدور فقط حول الأشخاص والأشياء والأحداث المشار إليها في هذا النّص، والتفاصيل التي ورد ذكرها فيه، بحيث تتمّ صياغتها من الكلمات والتّراكيب الواردة في النّص قدر الإمكان، مع وضوحها وسهولة الإجابة عنها.

ث- الأسئلة ومرحلة (أناقش معطيات النّص):

تعدّ هذه المرحلة (حسب المنهاج) أهمّ مراحل الدّراسة الأدبية، وهي خطوة مكّمة للقراءة التّمهيدية التي حصلها التلميذ في اكتشاف المعطيات، حيث يتمّ فيها "التعمّق في النّص من أجل تأكيد أو دحض الفرضيات حول بعض معاني النّص التي توصل إليها المتعلّمون في المرحلة السّابقة. والهدف منها تحديد معاني النّص بأكبر قدر ممكن من الدّقة والموضوعية"³²، اعتماداً على القراءة المفسّرة المؤولة للنّص، حيث "يوضع المتعلّم في وضعية تسخير مكتسباته ليسلّط ملكته النّقدية على المعطيات الواردة في النّص، سواءً تعلق الأمر بالمعاني والأفكار أم بأساليب التّعبير المختلفة أم بجماليات اللّغة، على

أن يكون النقد إبداعا يعتمد تعيين الظاهرة ثم تقييم مختلف أبعادها الفكرية والفنية في ضوء الرصيد القبلي للمتعلم، والمهم ألا يكون النقد وصفيًا، نمطيًا، يغلب عليه طابع النمذجة³³، ومن شأن هذا النقاش "أن يدفع التلميذ إلى المزيد من التمعّن في النصّ بجميع مستوياته: الصوتية والمعجمية والتركيبية"³⁴، ما يسمح لهم بأن يتأوّلوا ويتوغّلوا باقتراحاتهم في طرح أكبر قدر ممكن من البدائل والمعاني المخترنة في أنساق النصّ، ومجازاته بما يفيد انفتاح النصّ على ما لا يُحصى من الدلالات والمعاني³⁵. لقد حولت هذه الخطوة التلميذ من باحث عن المعنى إلى ناقد إبداعي متسلّح بكفاءته اللغوية والأدبية والعلمية التي تمكّنه من "الحفر في طبقات النصّ"³⁶. وهنا نفتح قوسا لنطرح سؤالاً مهماً: من التلميذ المستهدف بما يطلبه المنهاج في هذه الخطوة؟ وهل تستطيع (فعلاً) نوعية التلاميذ الموجودة في مدارسنا إنجاز هذه المطالب؟، وهنا يقع المنهاج في تعارض صارخ حين يعتبر التلميذ قارئاً عارفاً يتوسّم فيه تشكيل النصّ من خلال فعل القراءة انطلاقاً من نظرة نظريات التلقي التي تقول "إنّ النصّ هو القارئ نفسه"³⁷، في حين يعترف (المنهاج) "باختلاف النقاد في وصف هذا القارئ (نظراً للدور الحيوي الذي يقوم به) ما بين القارئ الضمني والقارئ المقصود والقارئ العارف والقارئ المتميّز"³⁸. لكنهم اتفقوا على أنّ لكلّ مؤلّف قريناً من القراء يكون بمثابة مؤلّف مشارك يؤثّر في خطاب الكاتب الذي يحضره ويستتطقه ويحاججه ويناقشه، وأنّ عدم وضوح هذا القارئ المبيّت في نيّة المؤلّف في النصّ لا يعني عدم وجوده. فهل يمكن أن يكون التلميذ القارئ المبيّت؟. ويمكننا أن نسارع بالقول أنّ المنهاج هنا يروم المحال من الطّلب (ليس تقليداً من شأن تلاميذنا)، ولكن بسبب انتفاء طريقة تعليمية واضحة عند المنهاج، وكذلك واقع حال التلميذ الذي يفترق لهذه الآليات النقدية. (من دون الخوض في هذه النقطة لأنها ليست أولوية اهتمام

مقالنا)، وما يهمننا هنا هي الأسئلة المؤطرة لهذه الخطوة ومدى إنجازها للأهداف المنوطة بها؟ على اعتبار أن "الأسئلة هي عماد العمل التربوي، وهي التي تمكن المتعلم من الاكتشاف والاستيعاب وترسيخ أحكام الدرس في ذهنه"³⁹. فهل مهارات صياغة السؤال في هذه المرحلة كانت فعالة بما يمكن التلاميذ من مناقشة معطيات النص تبعاً لمستوى امتلاكهم للمعارف اللغوية والمعلومات العلمية والمدارك العقلية؟

نتوضح الجواب من خلال مواصلة عرض نماذج الأسئلة من الكتب الثلاثة حسب النصوص السابقة الذكر، وقد ارتأينا أن نعرض أنموذجي (المشوق، والجديد) متتاليين ونقدم لهما نقداً مشتركاً لأننا لاحظنا أن أسئلة الكتابين تسير على وتيرة واحدة ولها الخصائص نفسها عكس كتاب السنة الثالثة الذي يختلف عنهما قليلاً، وهذا اجتناباً للإطالة.

* أسئلة "أناقش معطيات النص" من المشوق حول نص زهير، (ويقدّر متوسط عدد الأسئلة بالنسبة لهذه المرحلة في كتاب السنة الأولى بأحد عشر سؤالاً):

1. ماذا تفيد كلمة "يمينا"؟ من هو صاحب اليمين؟ وعلام يدلّ قسمه ؟
2. ما المعنى الذي يفيدُه -صرفاً- الفعل "تفانوا"؟ وأثر هذا المعنى على المتحاربين؟
3. ما المراد بقول الشاعر "دقوا بينهم عطر منشم"؟ وما الدلالة الاجتماعية التي يحملها؟
4. بم أدرك الرّجلان الصلح بين القبيلتين المتنازعتين؟
5. ماذا يفيد جواب الشرط "تسلم"؟
6. ماذا نتج عن إفشاء السلم بين القبيلتين المتنازعتين؟
7. علام يدلّ اللفظ "هُديتما"؟ وما دلالاته المعنوية؟

8. من يقصد الشاعر بتعبير "من يستبح كنزا من المجد يُعظم"؟
 9. ماذا تفيد "هل" في قول الشاعر "هل أقسمتم"؟
 10. ما إعراب "كل" في قول الشاعر "هل أقسمتم كل مقسم"؟ ما المعنى الذي تفيد في البيت؟
 11. ما المراد بتشبيه الحرب بالرّحى؟ كيف صور الشاعر نتائج الحرب؟
 12. اذكر التعبير المجازي في البيت الثالث، وبيّن غرضه الأدبي.
 13. ما أثر عقيد الشاعر الدينية في ميله إلى السلم؟ ما خصائص هذه العقيدة؟
 14. ما مشاعر زهير إزاء حديثه عن المصلحين والحرب؟
- * أسئلة "أناقش معطيات النصّ "من" الجديد" حول نص الجاحظ، (علما أنّ متوسط عدد الأسئلة بالنسبة لهذه المرحلة في كتاب السنة الثانية يقدر بستّة أسئلة):

1. ما صحّة تقسيم الجاحظ العالم إلى ثلاثة أقسام في نظر العلم الحديث؟
2. ما الدوافع التي دفعت الكاتب إلى تناول هذا الموضوع بهذا الطّرح؟
3. ما موقف الكاتب من الاختلاف الحاصل حول العالم الخارجي ومسمّياته؟
4. ما الفرق بين الأرض الجامدة والميتة في نظر الكاتب؟
5. حدّد أركان الحياة في الكون.

تمّ التّوضيح في سياق سابق أنّ وضع السّؤال بالنّسبة للنّصّ الأدبي رهين أمرين: أولهما الكفاءة التحليلية الكفيلة بالوصول إلى المدخل البلاغي للنّص، وثانيهما الكفاءة التّفسيرية المستندة إلى ذخيرة معرفية نسميها ذخيرة القارئ أو القراءة (كما حدّد المنهاج)، وتبدأ العملية إجرائيا بتحديد المدخل البلاغي للنّص، لأنّ العنصر أو العناصر المهيمنة هي التي تهيكّل النّص، وهذا لا يعني أنّ نهمل فاعلية المكونات الأخرى بل المقصود هو وجود عنصر بارز قادر على استيعاب هذه المكونات. وما نسجّله في الأسئلة

السابقة هو عدم وصول واضعيها إلى ذلك المدخل بتحديد عنصر بارز في هذه النصوص يكون أداة فعالة في يد المتعلم ليكون نقده إبداعا مثلما أراد المنهاج، فحاولت الأسئلة السابقة (ادعاءً) الاستثمار في معطيات النص اللغوية والفكرية والأسلوبية (مثلما هو واضح في الأسئلة: 1-2-3-5-7-8-10) من أنموذج (المشوق) سعيًا للتغلب على طابع النمذجة الذي أرقّ المنهاج، وإذا اعتبرنا أنّ السؤال عن المكونات النصية والخارج نصية، أو الوصفية والتفسيرية، هو سؤال في القواعد البلاغية والذخيرة المعرفية، فيجب أن يُستثمر ذلك "بما يفيد في انفتاح النص على ما لا يحصى من الدلالات والمعاني"⁴⁰، انطلاقًا من تشابك وتفاعل مستوياته الدلالية والنحوية والصرفية والإيقاعية، فيما بينها⁴¹، وليس أن تُقصد لذاتها بحيث لا تربط إجابات أسئلتها علاقةً قوية بمعنى النص، فقد جعلت أسئلة هذه المرحلة (في المشوق والجديد) البنية اللغوية للنص مجرد وسيط شفاف يُنسى مع الوصول إلى مُفترضٍ مَخْبُوءٍ وراءها، مقصود لذاته، لا يعمل على تعميق الفهم الأولي الذي اكتسبه التلميذ في المرحلة السابقة (أكتشف معطيات النص)، ولا يتيح الفرصة للمتعلّمين أن يتأولوا ويتوغّلوا.. وعليه نستخلص أنّ الأسئلة المؤطرة لمرحلة "أناقش معطيات النص" في (المشوق والجديد) لم تخرج عن إطار النقد الوصفي النمطي المنمذج المؤلف في المناهج القديمة، والذي دعا المنهاج الجديد إلى تجاوزه وطَيّ صفحته. وحتى إن سعت الأسئلة إلى التّمظهر في شكل جديد، فقد غابت عنها الكفاءة العلمية، وظل الشكل فارغا يملأ المكان بدون وظيفة. ولاحظنا -أيضا- أنّ أسئلة المناقشة تحوّلت في كثير من الأحيان إلى أسئلة اكتشاف المعطيات، يُكتفى فيها بالسؤال عن معلومات معينة في النص (المعنى العام) دونما يُطلب من المتعلم استنتاج معلومات ليست موجودة فيه (طبعا في حدود معرفة التلميذ)، كأن يُطلب منه تحديد

خصائص الشخصيات التي ورد ذكرها في النص القصصي مثلا، أو أساليب حدوث شيء ما، والنتائج المتوقعة لشيء حدث، (وهذا ما نلاحظه في الأسئلة: 4-6-14 من المشوق، و3-4-5 من الجديد). لأنها باختصار أسئلة لا تعالج الأفكار التي يمكن تخمينها واستنتاجها أو استقراؤها من النص، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى الخلط والتشويش في مستوى التحليل وتوظيف المعرفة.

* وإذا عدنا إلى كتاب السنة الثالثة فإن متوسط عدد أسئلة هذه المرحلة فيه يقدر بخمسة أسئلة، نستعرض ما أطر منها نصّ نازك الملائكة "أغنيات للألم":

1. ما رأيك في موقف الشاعرة من الألم؟
2. هل ترى أنت - ما تراه هي، على كونه مرتبطا بماضينا السحيق وأنه لا نستطيع التخلي عنه؟ إلام تردّه علل.
3. علل سبب تكرار مفردة "الألم"، مبينا علاقته بالحالة النفسية وبالموقف.
4. حلل الاستفهامات الواردة في النص، مبينا مدى مساهمتها في تكريس الموقف الشعري لصاحب النص وحالته النفسية، باعتبارها تمثل الضمير الجمعي.
5. وازن بين بناء الفقرة الأولى في المقطع الأول ونظيرها في المقطع الثاني من حيث: الصورة الشعرية، الموسيقى الشعرية، الموقف الشعري.
6. أين ترى الفروق وأين ترى الاتفاق؟ ماذا تستنتج؟

إنّ الفكرة الكامنة وراء هذه الخطوة هي التكامل والاشتغال النقدي بين النص والكفاءة اللغوية والمعرفة المحايدة. وقد حاول كتاب السنة الثالثة اكتشاف بعض مداخل النصّ اللغوية والفكرية ثمّ وجّه الأسئلة إلى مكونات ملموسة يدركها التلميذ ويهتمّ بها (مثل ظاهرة التكرار في السؤال (3))، وظاهرة

الاستفهام وعلاقتها بالموقف الشعري في السؤال(4)، والموسيقى الداخلية والخارجية وانعكاسها على النص في السؤال(5)...)، وبعد تعيين الظاهرة تدفع الأسئلة التلميذ إلى محاولة تقييم مختلف أبعادها الفكرية الفنية في ضوء رصيده القبلي. وهذا شيء ننوّه به، ولكن لا يمكن تعميمه على جميع نصوص الكتاب، حيث لوحظ في كثير منها غياب هذه الرؤية واكتفت أسئلة هذه المرحلة باجترار ما جاء في الخطوة السابقة، واقتصرت على تناول الأفكار السطحية في النص ولم تذهب إلى أعماق منها، على اعتبار أنّ هذه المرحلة تتطلب من التلميذ تفكيراً أعمق وقدرة على التخيل، من أجل تحقيق الفهم التام للنص، وتمكينه من الاستمتاع به. وهذا ما يعني ضياع الهدف التربوي لهذه الخطوة، ممّا خلق عجزاً واضحاً في وضع الأسئلة المناسبة لمناقشة معطيات النص في كثير من نصوص هذا الكتاب.

عموماً يمكن أن نستنتج أنّ أسئلة كتب اللغة العربية الثلاثة قد تخلفت من مسابرة المنهاج في دعوته إلى جعل "دراسة النص الأدبي بما يدعو إلى المبادرة والتفعل وإعطائه شكلاً ينبض بالحياة من أجل تحويل المعرفة الأدبية إلى عمل، والدّرس الأدبي إلى إبداع.

خاتمة:

خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:
 - إنّ دراسة النصّ من خلال الخطوات التي رسمها المنهاج، تكون عن طريق التحليل الذي يأبى الدخول إلى النصّ بأحكام مسبقة، ولا يخضع للنمطية المألوفة، بقدر ما يتمّ عبر مناقشات موجهة تُطرح فيها أسئلة هادفة، تلتزم حدود النصّ حيناً، وتتخطاه أحياناً لتطلّ على موضوعات تتصلّ بواقع المتعلمين وتثير اهتمامهم.

- واقع الحال في كتب اللغة العربية للمرحلة الثانوية يبيّن أنّ المقاربة النصّية لم تشكّل اختياراً حقيقياً في تدريس النصوص، لأنّ الأسئلة المؤطّرة لهذه بعيدة عن أدبيات هذه المقاربة، ويلفّها في كثير من الأحوال الغموض والقصور.

- لقد تمثّل كتاب السنة الثالثة مطالب المنهاج في إنجاز أهداف مراحل المقاربة النصّية أكثر من غيره، من خلال كفاءة الأسئلة المؤطّرة لها.

- تؤكّد الدراسة على ضرورة فهم مصطلحات لسانيات النصّ المعتمدة في أسئلة الكتب الثلاثة بشكل أعمق من أجل أن يمتلك التلميذ الأدوات الإجرائية اللازمة التي تمكّنه من التعاطي مع النصوص الأدبية.

الهوامش:

¹ ابن منظور، لسان العرب، مج 11، دار صادر، بيروت ط2، 1992، (مادة: سال)، ص319.

² الرازي، مختار الصحاح، تح أحمد إبراهيم زهوة، دار الكتاب العربي، بيروت 2005، باب السين

³ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الجيل بيروت- دت، ج3، مادة: سال، ص403.

⁴ بسمة بلحاج رحومة الشكلي، السؤال البلاغي الإنشاء والتأويل، دار محمد علي للنشر، صفاقس، تونس، ط2007، 1، ص8.

⁵ بسمة بلحاج رحومة الشكلي، مرجع سابق، ص8.

⁶ يقول السكاكي (ت626هـ) عن السؤال المقدر: "فيتنزّل ذلك منزلة الواقع.. وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يُصارُ إليه إلاّ لجهات لطيفة" - السكاكي، مفتاح

العلوم، شرح نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1983، 1، ص252

⁷ دروزة، أفنان نظير، الأسئلة التعليمية والتقييم المدرسي، دار الشروق، عمان، الأردن،

ط1، 2005، ص47

- ⁸ دروزة، المرجع السابق، ص 48
- ⁹ المنجد في اللغة والأعلام، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثلاثون، مادة (قرب)
- ¹⁰ الطاهر مرابعي، الحوار المتمدن، العدد: 2074 - 20/10/2007 - 12:29 المحور: التربية والتعليم والبحث العلمي <http://www.ahewar.org/debat>
- ¹¹ ينظر: المقاربة النصية لنشاطات اللغة العربية، موقع عيون البصائر، www.elbassair.com. 2013/07/07
- ¹² المشوق، مرجع سابق، ص 5.
- ¹³ الطاهر لوصيف، تعليمية النصوص والأدب في مرحلة التعليم الثانوي الجزائري، رسالة دكتوراه دولة (مرقونة)، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر 2008/2007. ص 273
- ¹⁴ ينظر: المشوق، الصفحات: 37-59-67-99.
- ¹⁵ ينظر: الجديد، الصفحات: 11-32-102-120-132-150-170-208.
- ¹⁶ المشوق، مرجع سابق، ص 61
- ¹⁷ الجديد، مرجع سابق، ص 60
- ¹⁸ اللغة العربية وآدابها، السنة الثالثة من التعليم الثانوي (آداب / فلسفة ولغات أجنبية)، مرجع سابق ص 142.
- ¹⁹ المناهج والوثائق المرافقة، السنة الثانية من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي، اللغة العربية وآدابها، وزارة التربية الوطنية 2006، ص 26
- ²⁰ المشوق، مرجع سابق، ص 6.5.
- ²¹ ينظر: المنهاج، ص 13
- ²² الجديد، مرجع سابق، ص 4
- ²³ "إنّ ما يلاحظ على الأهداف التعليمية التي حددها المنهاج (لهذه المرحلة) أنّها تتوزّع بين ما يستوجب التفسير المعنوي وبين ما يستوجب التفسير النقدي، لكن دون أن توفر الطريقة التعليمية - الآليات والكيفيات القرائية - المؤدية لذلك. ممّا يجعل تحقيق كثير من الأهداف المذكورة معلقاً". - ينظر: الطاهر لوصيف، المرجع نفسه، ص 280
- ²⁴ المشوق، مرجع سابق، ص 16.17

- 25 الوثيقة المرافقة لمنهاج السنة الثالثة، مرجع سابق، ص5
- 26 نفسه، ص5
- 27 نفسه، ص5
- 28 الوثيقة المرافقة لمنهاج السنة الثالثة، مرجع سابق، ص7
- 29 اللغة العربية وآدابها، مرجع سابق، ص143
- 30 المنهاج، مرجع سابق، ص6
- 31 المنهاج، مرجع سابق، ص6
- 32 المنهاج، مرجع سابق، ص6
- 33 المشوق، مرجع سابق، ص6
- 34 المنهاج، مرجع سابق، ص7
- 35 المشوق، مرجع سابق، ص6
- 36 دليل الأستاذ، اللغة العربية وآدابها، السنة الثالثة ثانوي (جميع الشعب)، الديوان الوطني
للمطبوعات المدرسية، ص5
- 37 دليل الأستاذ، نفسه، ص6
- 38 نفسه، ص6
- 39 دليل الأستاذ، اللغة العربية وآدابها، السنة الأولى ثانوي، الديوان الوطني للمطبوعات
المدرسية، ص37
- 40 المشوق، مرجع سابق، ص6
- 41 دليل الأستاذ، مرجع سابق، ص5

النص والنص المترابط دراسة في المصطلح والمفهوم

زغودة ذياب/مروش
جامعة باننة 1

الملخص:

يطرح المقال قضية النص الورقي والنص المترابط، فيتناول: مفهوم النص الورقي، والفرق بينه وبين الخطاب، وأنواع النصوص. ثم يركز على النص المترابط، فيحدد المفهوم، و يبين الخصائص، ويعدد الأنواع. وينتهي إلى أن النص المترابط هو نص فرضته التقنية الحديثة، وهو امتداد للنص الورقي، وشكل من أشكاله، يعتمد وسائلًا تختلف وتتنوع عن تلك التي يعتمدها النص الأول.

الكلمات المفتاحية: النص — الخطاب — النص المترابط — التفاعل — الوسائط المتعددة — الشبكة.

Résumé:

L'article soulève la question du texte et hyper texte; traite: le concept de texte, la différence entre le texte et le discours, et les types de textes. Et puis se concentre sur le hyper texte; identifie le concept, et montre les caractéristiques et les espèces inscrites. Et il conclut que le hyper texte est le texte imposé par la technologie moderne, et qui est une extension du texte et de ses formes, En utilisant des moyens différents de ce qui est utilisé par le premier texte.

Mots-clés: Texte, discours ,Hypertexte, interaction, Multimédia, _réseau.

Abstract:

The article raises the question of text and hypertext; Deals with: the concept of text, the difference between text and speech, and types of text. And then concentrates on hypertext; Identifies the concept, and shows the characteristics and species listed. And he concludes that hypertext is the text imposed by modern technology, and that is an extension of the text and its forms, using different means from what is used by the first text.

Keywords: text, speech, Hypertext, interaction, Multimedia, network .

مقدمة :

تحاول هذه الدراسة أن تتطرق لمصطلح "النص الورقي"، ومصطلح الشبكي أو الرقمي الذي نجحت التكنولوجيا الحديثة في إرساء دعائمه؛ حيث لم يعد النص مجرد متتالية من الرموز اللسانية، أو سلسلة من الحروف والكلمات والجمل، ولم تعد اللغة وحدها تكفي، بل تخلص النص من شكله المطبوع المسطور، وصار ساحة تتداخل فيها تقنيات اللغة، مع الوسائط المتعددة، والإيحاءات النفسية، والسياقات الاجتماعية. وترجع القارئ على عرش منظومة القراءة، فصار مبحرا أحيانا ومتجولا أحيانا أخرى، مشاركا للمؤلف، منتجا للمعارف. يعتمد الشاشة والفأرة وسيلة، بدلا من الورقة والقلم. لذلك جاء المقال ليتطرق بالبحث في النص الورقي والنص الشبكي (الرقمي)، مبينا مفهومهما وخصائصهما، وأنواعهما.

مفهوم النص :

جاء في لسان العرب التعريف اللغوي للنص في مادة "نصص": النص هو أقصى الشيء وغايته، ومنه نص الناقة أي استخرج أقصى سيرها، يقال في اللغة نص الشيء، رفعه وأظهره، وفلان نص أي استقصى مسألته عن الشيء حتى استخرج ما عنده، ونص الحديث، ينصه نصا إذا رفعه، ونص كل شيء منتهاه⁽¹⁾. جاء في أساس البلاغة: النص رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصا، رفعه إلى⁽²⁾. والنص "هو ما دل على معنى سيق الكلام لأجله، دلالة تحتمل التأويل أو التخصيص أو النسخ"⁽³⁾، بحسب ما تستقسيه القرائن والمساقات؛ فهناك نص يقبل التأويل، وهناك نص ظاهر لا يقبل التأويل. وفي معجم "لاروس" النص جاء من الفعل نص، ومعناها نسج⁽⁴⁾، فالنص هو نسيج من الأفكار وتوالي الألفاظ. ويحدد محمد عمارة المعنى

اللغوي العام للنص، فيقول: "إن النص من حيث اللغة إنما يشتمل مطلق الملفوظ والمكتوب، فكل عبارة مأثورة أو مُنشأة هي نص". ومن اللغويين من خصصه فقال: "النص هو الإسناد إلى الرئيس الأكبر. والنص: التوقيف، والنص التعيين على شيء ما". ومنه قولهم: "لا اجتهاد مع النص". وجمعه: نصوص. والنص عند الأصوليين: الكتاب والسنة.

والنص: صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلف. والنص: ما لا يحتمل إلا معنى واحداً، أو لا يحتمل التأويل⁽⁵⁾. والنص بمعنى الظهور، يقول العرب نصت الظبية رأسها إذا رفعت وأظهرت⁽⁶⁾. يقول الرازي: "نص الشيء معنى رفعه، ومنه منصة العروس، ونص الحديث إلى فلان رفعه إليه"⁽⁷⁾. نلاحظ أن المعنى اللغوي للنص يدور حول: الرفع والإظهار، ضم الشيء (النسيج)، وأقصى الشيء ومنتهاه.

فالنص (كلام) يبدعه فرد ينتمي إلى جماعة معينة، ويوجهه إلى مجموعة من القراء، فهو المحور الذي تدور حوله كل العلوم.

أما تعريف النص من الناحية الاصطلاحية فقد تعدد، بتعدد التوجهات النظرية والمعرفية والمنهجية. وتأتي صعوبة القبض على النص وتحديد ماهيته وأبعاده من تعدد الرؤى، ولكونه فضاء لأبعاد متعددة ومتنازعة، إضافة إلى كونه شحنة انفعالية تحكمها قواعد انفعالية لغوية، ومعايير أخلاقية، وقيم حضارية، وخصائص اجتماعية⁽⁸⁾.

عند تودوروف (Tzvetan Todorov) فإن مفهوم النص لا يقف على نفس المستوى الذي يقف عليه مفهوم الجملة، أو القضية، أو التركيب؛ وكذلك هو متميز عن الفقرة التي هي وحدة منظمة من عدة جمل⁽⁹⁾. فالنص عنده نظام خاص، يمكن أن يكون جملةً، كما يمكن أن يكون كتاباً بكامله، وإن تعريفه يتم بالنظر إلى مدى استقلاليته أو انغلاقه. أما برنكر (Brinker) فقد عرف

النص بأنه تتابع مترابط من الجمل، تكون الجملة فيه جزءاً صغيراً، ويمكن تحديده بوضع نقطة أو علامة استفهام أو علامة تعجب، ثم يميزها بعد ذلك بصفها على أنها وحدة مستقلة نسبياً⁽¹⁰⁾. فالنص هو مجموعة من العبارات المكتوبة، ينظر إليه عبر عدة مستويات (صوتية، صرفية، نحوية ودلالية)، فهو إنجاز لغوي يضم مجموعة من الدوال والمدلولات، ضمن نسيج متباين، ويجري في سياقات بيانية تحمل درجات من التعالق بين الفكر واللغة⁽¹¹⁾.

وقد أدرك رولان بارت (Roland Barthes) أن الكتابة هي السمة الأساسية للنص، واعتبره جسم مدرك بالحاسة البصرية، يرتبط بالكتابة⁽¹²⁾. وهو عبارة عن نسيج كلمات منسقة في تأليف معين، وهو نتاج وستار جاهز يكمن خلفه المعنى (الحقيقة) ويختفي بهذا القدر أو ذاك، ويطلق على نظرية النص علم نسيج العنكبوت. يقول: "أحب النص لأنه بالنسبة إلي هو هذا الفضاء اللغوي النادر الذي يغيب فيه كل شجار (بمعنى الشجار بين الأزواج) وتغيب فيه كل مباحكة لفظية، وليس النص أبداً "حواراً" ليس فيه شيء من مخاطر المراوغة والعدوان والمساومة وليس فيه تنافس للهجات الفردية"⁽¹³⁾، ويرى أن لكل نص أدبي مكتوب مظهران: مظهر دال ويتمثل في الحروف الدالة من ألفاظ وعبارات ومظهر مدلول وهو الجانب المجرد أو المتصور في الذهن أو المتحصل عقلياً. أما مهمات النص، في نظره، فهي ضمانه للشيء المكتوب، وصيانته له، وذلك بإكسابه صفة (الاستمرارية) استناداً إلى التسجيل الرامي إلى تصحيح ضعف الذاكرة، أو أيضاً استناداً إلى شرعية الحرف الذي هو أثر يتعذر الاعتراض عليه؛ الأمر الذي يربطه بعالم من (الأنظمة) كالقانون، والدين، والأدب، والعلوم عامة.

ويشير صلاح فضل أن النص عند جوليا كريستيفا هو جهاز عبر لغوي، يعيد توزيع نظام اللغة؛ ذلك بكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية، مشيراً

إلى بيانات مباشرة تربطها أنماط مختلفة من الأقوال السابقة عليها والمتزامنة معها⁽¹⁴⁾. وبذلك تكون للنص علاقة باللغة التي يتموقع فيها، وعلاقة بنصوص أخرى؛ حيث تتقاطع فيما بينها، فينتقض البعض وتنتهي مهمة البعض، ويقف البعض الآخر محايداً. وقد ذكر التهانوي⁽¹⁵⁾ معاني متعددة منها:

1- كل ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب والسنة ظاهراً أو نصاً أو مفسراً، حقيقة أو مجازاً عاماً أو خاصاً. وهذا المعنى هو المراد في النصوص في قولهم: عبارة النص، وإشارة النص، ودلالة النص، واقتضاء النص.

2 - النص هو الذي لا يحتمل التأويل، فيحمل على المعنى الأشهر، بأن سيق الكلام له.

3 - النص وحدة كلية كبرى، لا يعتمد في تحليله على المستويات اللغوية المعروفة، ولكن يجب أن تراعى فيه مفاهيم السياق والمقام، فيكون إسهام القارئ للنص لا يقل عن منتجه.

أما إبراهيم الفقي⁽¹⁶⁾ فيجد صعوبة في تحديد مصطلح النص، لكنه يميل إلى تعريف نقله سعيد مصلوح وسعيد بحيري عن روبرت آلان دي بيوجراند: النص هو "حدث تواصلية يلزم لكونه نصاً أن تتوفر له سبعة معايير للنصية مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير:

- 1 - السبك أو الترابط النحوي.
- 2 - الحبك أو التماسك الدلالي (الالتحام).
- 3 - القصد أو هدف النص.
- 4 - القبول أو المقبولية أي ما مدى مقبولية المتلقي للنص.

5 - الإخبارية أو الإعلام.

6 - المقامية أي مناسبة النص للموقف.

7 - التناص.

من خلال ما تقدم، نلاحظ أن النص لا يمكنه أن يبنى على عنصر أو عنصرين مما سبق في التعريفات المختلفة، وإنما يجب أن يضم كل هذه العناصر، بالإضافة إلى عناصر أخرى، تتعلق بكل ما يحيط به؛ من مؤلف، من تلق، السياق اللغوي، السياق الدلالي. فهو "بناء لغوي يتكون من متتالية واحدة أي من سلسلة من المفوضات المترابطة، التي تستدعي بعضها بعضها الآخر، أو يتكون من متتاليات سردية، وصفية، برهانية، تفسيرية... إلا أنها تتعاقد وظيفيا لتحقيق بنيته الدلالية الكبرى. ويوصف النص بالتماسك والوحدة والصلابة، ويعتبر نوعا من نظام شمسي يجذب إلى مداره كل عناصره" (17).

وقد جمع الشريف الجرجاني في تعريفه للنص بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، حيث قال: "النص ما زاد عن المعنى الظاهر لمعنى في نفس المتكلم، وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى، كما يقال: "أحسنوا إلى فلان الذي يفرح بفرحي، ويغتمّ بغمي"، كان نصا في بيان محبته... وأنه ما لا يحتمل إلا معنى واحدا، وقيل ما لا يحتمل التأويل" (18). فقد انتهى النص في هذه الحالة إلى توافق قصد المتكلم وفهم السامع، الذي ما سيق الكلام فيه إلا لما فهمه السامع، فهو واضح وجلي، لذلك وصفه بأنه لا يحتمل التأويل. وقال محمد مفتاح: "النص إذن مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة" (19).

أما مفهوم النص في نظريات التلقي فنجدده هو الفضاء الواسع للقارئ؛ الذي يقوم بمطاردة دلالاته المختلفة التي يحتملها، ويملاً الفراغات مستعينا بمخيلته، فيساهم بذلك في إخراج النص إخراجا مكتملا، وبذلك تتحقق عملية

الاتصال المنتظرة بين النص والقارئ. فالنص ليس له حقيقة إلا إذا قام القارئ باستخلاص ما فيه من معان وصور، وبذلك يعيد بناءه من جديد (20). يرى هانس روبيرت ياوس (Hans robert Jauss) أن النص هو الذي يقبل التأويلات المختلفة للقراء المنتجين؛ حيث تتراكم هذه التأويلات بمرور الزمن فتنتج بذلك السلسلة التاريخية للتلقي. يقول ياوس: "إن تاريخانية الأدب ترتكز على التجربة التي يستخلصها القراء أولاً من العمل" (21)، و النص عنده عديم القيمة بدون القارئ، والتحليل فيه يرتكز على العلاقة بين النص والقارئ، بدلا من النص والكاتب.

أما فولفغانغ أيزر (Wolfgang Iser)، فالنص عنده هو تركيبية من البنيات الداخلية المتنوعة، تسمح للقارئ بالولوج إلى الحقيقة الخفية التي يتضمنها المعنى، وكشفها عند ممارسته لعمل القراءة، ويرى أن هناك تركيب والتحام بين النص والقارئ (22)؛ إذ لا يتحقق معنى النص إلا بوجود ذات قارئة، وهذه الأخيرة لا يمكنها القيام بوظيفة القراءة إلا بوجود كلام أو نص، والنص لا يصوغ معناه بنفسه، بل هو بحاجة إلى ذات تتصوره وتمثله، أي هو "نتيجة للتفاعل بين النص والقارئ".

ويعتبر عبد الله إبراهيم النص عملا تواصليا ونسيجا يتغذى من موارد العالم المعيش (23)، فيتأثر بالسياق وما يحتويه من ظلال مختلفة. أما أمبرتو إيكو فيرى أن النص ما هو إلا لعبة نحوية تداولية، يشكل تأويلها المحتمل جزء من مشروعها التكويني، ويؤكد على أن المؤلف وهو يكتب نصا، يصوغ فرضية حول تصرف قارئه (24)، الذي يجب أن يكون قارئاً نموذجياً، يهتم بطبيعة النص، لا قارئاً سنياً يقهر النص ويعجنه ليتلاءم مع مقاصده الخاصة.

النص والخطاب:

يُعدّ مفهوم الخطاب من المفاهيم التي يختلف على تعريفها الدارسون وعلماء الاجتماع؛ فهو مُصطلح حديث تتعدّد الموضوعات التي يطرحها. ويُعتبر الخطاب من أهمّ وسائل التواصل بين البشر؛ فمن خلاله يستطيع الخطيب إرسال أفكاره إلى جمهوره. وللخطاب أشكال مُختلفة ومتعددة، لذلك لم يتفق على تحديده، وله جذور في اللسانيات، لأنه يستمد وجوده من ثنائية اللغة والكلام، التي قال بها دو سوسير في محاضراته الشهيرة، وكذلك جذور في الأسلوبيات، سواء من واجهتها القديمة التي تعنى بالبلاغة إلى جانب قواعد اللغة، أو من واجهتها الحديثة التي راعت النظام الصوتي والتركيبي المورفولوجي، والبناء الدلالي. أما الخطاب في البحث النقدي فهو "كتلة نطقية لها طابع الفوضى، وحرارة النفس، ورغبة النطق بشيء، ليس هو تماما الجملة، ولا هو تماما النص، بل هو فعل يريد أن يقول⁽²⁵⁾". فالخطاب يكون لفظيا أداته اللغة أو علاماتها يستعمل الإيحاءات والإشارات.

ولفظه الخطاب وردت في القرآن الكريم بصيغ مختلفة منها: ما جاء في سورة "المؤمنون" الآية 27 : ﴿وَلَا تَخَاطَبُنِي فِيهِ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ﴾؛ أي لا تشفع لهم لأرفع العقاب عنهم. وقوله تعالى في سورة ص الآية 23 : ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْبَةً وَوَلِيٌّ نَعْبَةٌ وَوَالِدَةٌ قَدَّالٌ أَكْهَلُهَا وَمَخْرَجِي فِيهِ الْخَطَابِ﴾؛ أي غلبنى وقهرني في المحاجة.

قال ابن منظور "الخطاب أو المخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان... والمخاطبة، مفاعلة من الخطاب والمشاورة⁽²⁶⁾". وعرف التهانوي الخطاب بقوله: "الخطاب اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو مهياً لفهمه"⁽²⁷⁾.

وعرفه صاحب القاموس المحيط كالآتي: "الخطب: الشأن، والأمرُ صغرٌ أو عظمٌ، جمع: خطوبٌ. وخطبَ الخاطِبُ على المنبرِ خطابةً، بالفتح، وخطبَةً، بالضم، وذلك الكلام: خطبةٌ أيضاً، أو هي الكلامُ المنثورُ المُسجَعُ ونحوه. ورجلٌ خطيبٌ: حسنُ الخطبة"⁽²⁸⁾.

والخطاب اصطلاحاً: كل ملفوظ يندرج تحت السياقات الاجتماعية سمي خطاباً، فالخطاب يضطلع بمهمة توصيل رسالة حجم الجملة، فهو يمثل الجملة المترابطة عبر مبادئ مختلفة للانسجام⁽²⁹⁾.

يرى بنفنيست (Benveniste Emile) أن الخطاب هو أي منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راو ومستمع، وعند الأول نية التأثير في الآخر بطريقة معينة⁽³⁰⁾. وعليه فإن الخطاب يقتضي لصحته؛ المخاطب والمخاطب، لأن الهدف الأساسي منه هو إيصال رسالة إلى شخص معين، يقوم بدوره بفكها والتجاوب معها. ومن الباحثين في الدراسات الحديثة من فرق بين مفهومي النص والخطاب؛ فالنص هو مجمل القوالب الشكلية والنحوية والصرفية والصوتية، بغض النظر عما يكتنفه من ظروف، أو يتضمنه من مقاصد، في حين يحيل الخطاب على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي، وكذلك في تأويله، مما يفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه⁽³¹⁾. ويمكن عرض بعض الفروقات بين الخطاب والنص:

- 1 - يفترض الخطاب وجود السامع، بينما يتوجه النص إلى متلقي غائب.
- 2 - الخطاب نشاط تواصل يبنى على اللغة المنطوقة، بينما النص مدونة مكتوبة.
- 3 - الخطاب لا يتجاوز سامعه إلى غيره، فهو مرتبط بلحظة إنتاجه، بينما النص له ديمومة الكتابة، فهو يُقرأ في كل زمان ومكان.

ويرى سعيد يقطين أن النص أعم من الخطاب؛ حيث ربط النص بالمظهر الدلالي، وربط الخطاب بالمظهر النحوي⁽³²⁾.

أنواع النصوص: تتباين الآراء في تحديد أنواع النصوص؛ هل يرجع في ذلك إلى معيار شكلي، أو إلى معيار المضمون؟ فمنهم من يعتمد على المعيار الأول، ومنهم من يعتمد على المعيار الثاني، ومنهم من يجمع بينهما، وبغض النظر عن التقسيم السائد للنص، هناك تقسيم آخر يحدد أنماط النصوص في⁽³³⁾.

- 1 - نصوص ربط، وتتمثل في النصوص القانونية والعقود والإرث، والوعد والأمر.
- 2 - نصوص إرشاد، وتتمثل في الخطاب السياسي، كتب التعليم والإرشاد ونصوص الدعاية.
- 3 - نصوص اختزان، وتتمثل في اليوميات، المسودات، الفهارس، دليل الهاتف، الملاحظات.
- 4 - نصوص لا تنشر علانية، مثل التقارير، الرسائل، العروض.
- 5 - نصوص تنشر علانية، مثل الكتب، الأخبار، الدراسات، الروايات، المسرحيات، الشعر، وغيرها.

وهناك تقسيم آخر للنصوص، يتمثل في:

أ - النص العلمي: ويتميز بكونه يقدم حقيقة لا يوجد فيها اختلاف مثل: زوايا المثلث تساوي قائمتين أو أن مدينة عنابة تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وهي تبعد عن مدينة قسنطينة بـ 150 كم. فالخطاب العلمي يقدم حقائق علمية يتفق عليها الناس ويستعينون في ذلك باختيار نتائجها بوسائل مادية محددة، ومعايير الحكم على هذه الحقائق لا يترك مجالاً

للجوانب الخاصة التي تميز هذا الفرد عن ذلك وإنما لها واقعية يؤكدھا المنطق وتثبتها التجربة العلمية⁽³⁴⁾.

ب - النص الأدبي: فهو نص معرفي تتلاقى فيه جملة من المعارف الإنسانية أهمها على الإطلاق المعرفة الأدبية، لكنها ليست كافية وحدها، تقول حكمت صباغ الخطيب: أن النص الأدبي له هويته كما لكل شيء هوية وإن كان يحمل دلالات سياسية وسيكولوجية واجتماعية، فلن تسقط عنه هويته كنص أدبي⁽³⁵⁾. ولذلك فإن قارئ الأدب الذي يكتفي بمعرفة الأدب فقط، تكون قراءته غير كافية، ومعرفته بالنص هي أيضا غير كافية، فعليه أن ينزع إلى معارف أخرى، لأننا قد نجد في النص الأدبي المعرفة التاريخية، والفسية، والاجتماعية، والسياسية، وحتى المعرفة الاقتصادية والعلمية، وغير ذلك من المعارف الإنسانية، فمثلا الكلمة في النص الأدبي هي "إشارة حرة تم تحريرها على يدي المبدع، الذي يطلق عتاقها ويرسلها صوب المتلقي... للتفاعل مهما، بفتح خياله لها، لتحدث في نفسه أثرها الجمالي⁽³⁶⁾.

ج - النص الشرعي: وصف بـ (الشرعية) ليختص بما تلقيناه عن المشرع الإسلامي، و يتمثل هذا النص في آيات القرآن الكريم و روايات السنة الشريفة، ولا يتعدى منها إلى سواهما من أقوال وفتاوى الفقهاء، إلا بشيء من التسامح في التعبير أو الاتساع في الكلام.

د - النص الواصف: نص يقوم على وصف نص آخر وذلك بالشرح أو التحليل، أو بالنقد، فيؤدي هذا الوصف إلى معرفة النص الموصوف، وتقريبه من المتلقي لإمتاعه، أو تهيئته لتقبله، والتأثير فيه.

النص المترابط:

تعريف النص المترابط: تعدد المصطلحات في اللغة العربية لترجمة تقابل Hypertexte، منها: النص الشبكي النص التفاعلي، النص الفائق، النص المفرّج، النص المتفرع، النص المتشعب، النص التشعبي، والنص المترابط والنص الرقمي. والنص المترابط هو "مصطلح جديد صاغه عام 1965 تد نلسون Ted Nelson لوصف الوثائق التي يقدمها الحاسوب ببنية غير سطرية... وهو وثيقة رقمية تتشكل من عقد من المعلومات قابلة لأن يتصل بعضها ببعض بوساطة روابط وأسهم تكون دائما باللون الأزرق⁽³⁷⁾.

أما سعيد يقطين فقد حدد الأطراف المكونة للنص المترابط وهي: المبدع، النص، الحاسوب، والمتلقي⁽³⁸⁾. ويطلق لفظ المبدع على المؤلف، لأنه في فضاء النص المترابط، يتعدى دور المؤلف إلى المبدع، باستعماله للحاسوب الذي يطلب منه ممارسات أخرى غير الكتابة. ومن هنا تتحدد أهمية الحاسوب بالنسبة للنص المترابط؛ فهو يحتل موقع وسيط للإنتاج والتلقي، "فالحاسوب ليس فقط أداة، وشكل، ولغة، وفضاء، وعالم، بمعنى آخر: منتج وأداة إنتاج، وفضاء للإنتاج، وعلاقات إنتاجية، وكل هذه الأبعاد والدلالات التي تحملها مادة نتج تتحقق في الإبداع التفاعلي من خلال النص المترابط، باعتباره هو أيضا وفي آن "أداة للإنتاج وإنتاجا يتحقق من خلال النص"⁽³⁹⁾.

النص المترابط تقابله في اللغة اللاتينية كلمة: Hypertexte؛ حيث تعني Hyper الربط، و Texte النص، وهي تدل على: "توليفة من النص اللغوي الطبيعي، مع قدرات الحاسوب للتشعب التفاعلي، أو العرض الديناميكي، فهو نص غير خطي لا يمكن طباعته بسهولة على الصفحة التقليدية"⁽⁴⁰⁾ لأنه لم يعد بناء لغويا فقط، بل أصبح شبكة كثيفة من العلاقات، قابلا للتصرف والتعديل، " لقد أفلت النص المترابط من سجن الورقة وسلطة السطر، لكونه

نصا غير تعاقبي، ونزع إلى التشعبية⁽⁴¹⁾. بمعنى أن النص أصبح فضاء مفتوحا، يقرأ ويسمع ويشاهد، ويمكن للقارئ أن ينفذ إليه من أبواب مختلفة، والإبحار فيه والتفاعل معه، مع إمكانية التصرف فيه واستخدامه لأغراض غير تلك التي حددها له منتجها، وذلك من خلال تقطيع النص وإعادة تركيبه. يقول محمد سناجلة: "على اللغة أن تكون سريعة، مباغتة، فالزمان = 1، والمكان نهاية تقترب من الصفر ولا تساويه، ومن هنا فلا مجال للإطالة والتأني".⁽⁴²⁾ وقد وصفه جوزيف طانيوس لبس بـ"الصناديق الصينية واللعب الروسية وبالمرايا المتداخلة".

يقول رامز النويصري عن النص الرقمي: "هو كل نص ينشر نشرًا إلكترونيًا (رقمياً)... فالنص الرقمي، هو نص استفاد مما يقدمه الوسيط الرقمي له، أو الآلة الرقمية، وما يمثله هذا الوسيط من ثقافة، وما يقدمه من إمكانيات. وهو هنا -أي النص- يستفيد من الخاصية الرقمية (التقنية)، في التحول من صورته الموجودة في عقل المبدع -أو المنشئ-، وهي صورة غير ملموسة أو غير مادية، إلى مجموعة رقمية بالاعتماد على المكون (0 / 1). لذا فإن النص خارج وسيلة العرض هو سلسلة رقمية طويلة لا يمكن قراءتها أو فكها، ويتمثل دور وسيلة العرض (حاسوب، هاتف نقال،...) في تمكيننا من قراءة وعرض هذه السيل الرقمي، في نسيج أو نسق يمثل متن النص الإبداعي، أو النص في ذاته⁽⁴³⁾.

أما نبيل علي؛ فيطلق عليه مصطلح "النص الفائق" ويحدده بقوله: "الأسلوب الذي يتيح للقارئ وسائل علمية عديدة، لتتبع مسارات العلاقات الداخلية، بين ألفاظ النص وجمله وفقراته، ويخلصه من قيود خطية النص، حيث يمكنه من التفرع من أي موضع داخله، إلى أي موضع لاحق أو سابق، بل ويسمح أيضا تكتيك النص الفائق للقارئ بأن يمهر النص بملاحظاته واستخلاصاته،

وأن يقوم بفهرسة النص، وفقا لهواه، بأن يربط بين عدة مواضع في النص، ربما يراها مترادفة أو مترابطة تحت كلمة أو عدة كلمات مفتاحية⁽⁴⁴⁾.

أما سعيد يقطين فيعرف النص المترابط بأنه: "وثيقة رقمية تتشكل من عقد من المعلومات، قابلة لأن يتصل بعضها ببعض بواسطة روابط"⁽⁴⁵⁾. فهو النص الإلكتروني، الذي يقوم على الروابط، التي تصل بين مختلف أجزائه؛ حيث يقرر كاتب النص مسبقا بأنه سيكتب نصا مترابطا، وذلك بوضع خطاطة يحدد من خلالها خارطة النص، ومختلف تشعباته، باعتماده على برنامج يحدد فيه مجال الروابط، وقابليتها للاشتغال، فتحدد كلمات أو جمل بلون مغاير⁽⁴⁶⁾، تكون هي السبيل الرابط بين نص وآخر.

وللإشارة، فإن قضية الترابط، هي سمة في كل نص؛ فالربط قد يتحقق في النص من خلال أدوات الربط النحوية (علامات العطف، الوصل والفصل، الترقيم، أسماء الإشارة، الضمائر...) كما يتحقق كذلك بواسطة التماسك النصي؛ حيث يعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من جمل أخرى⁽⁴⁷⁾، فتتشابك المعاني، وتتفاعل لإبراز معنى دلالي واحد، فلا يمكن فهم الجملة أو الإحساس بجمالها إلا من خلال بقية الجمل الأخرى، "فالجملة الفرعية والجملة الأصلية قد يترتب بعضها على بعض، وتترابط الأحداث التي تعبر عنها القضايا وتتلازم في عوالم متجانسة التعالق"⁽⁴⁸⁾. أما الترابط في النص الإلكتروني فهو ترابط من نوع خاص؛ ترابط يحمل مفهوما أعم وأوسع، تترابط فيه الوسائط والكلمات والفضاءات، ويتم الانتقال بين هذه العقد والروابط بتفاعل القارئ معه، وإبحاره في قراءته المتأنية، وبحثه عن المعلومة، وقد سماه (القارئ) سعيد يقطين بـ "الكريم" لما بين الكرم والبحر من علاقة⁽⁴⁹⁾. إذ أتاح النص للقارئ إمكانية الإبحار والمزاوجة في التلقي بين المشاهدة والاستماع، ثم الإبداع، الذي يتحقق من

خلال إسهامه في العملية نفسها؛ حيث لا يبقى مكتفياً بمتابعة النص، بل يبني ويصوغ بطريقته الخاصة وهو ينقر على الفأرة ويتحرك في جسد النص الذي يقرأه، كمل يستطيع أن يعلق على النصوص التي يقرأها بشكل مباشر على الشبكة.

فالنص المترابط هو: "جماع نصوص وعلامات من مصادر وطبائع متعددة، كل نص هو بمثابة وحدة مستقلة عن غيرها، وليست متفرعة أو متشعبة عن أصل معين"⁽⁵⁰⁾؛ ويمكننا النقر بواسطة الفأرة على رابط نص معين لتنشيط مجموعة من النصوص، تستدعي بدورها التنشيط هي الأخرى، من غير التقييد بالترتيب التي وردت عليه. إضافة إلى ذلك، فالنصوص المترابطة هي نصوص متشعبة لا تنمو في اتجاه واحد، ولكنها مرنة وتعددية، تتيح استخدام مختلف وسائل الاتصال (الكلمة، اللون، الصورة الثابتة والمتحركة، الصوت، الضوء الرسم الثابت والمتحرك)، يعني ذلك "توظيف إمكانات الحاسوب الرقمي من صوت ونص وصورة ثابتة ومتحركة بشكل تفاعلي ومتكامل"⁽⁵¹⁾.

والنص المترابط، قد يكون نصاً إلكترونياً مرقماً، أو نصاً إلكترونياً رقمياً⁽⁵²⁾؛ فالنص المرقم هو النص الذي يقرأ من خلال الحاسوب، بواسطة أحد برامج القراءة، ولا يحيل على نصوص أخرى، ويمكننا طباعته. أما النص الرقمي فإننا إذا أفلحنا في طباعة بعض شذراته، فإنه يتعذر علينا طباعته كله.

أنواع النص المترابط: نذكر أهمها (53) :

1 - النص التوريقي: يشبه نظام قلب الصفحات في الكتاب المطبوع، ويتم الانتقال من صفحة إلى أخرى عن طريق النقر، على مثلث صغير يكون في أسفل الصفحة أو أيقونة تمثل سهماً أو يدا تشير سبابتها إلى اتجاه الصفحة

الموالية. أو يتم النقر على مثلثين متقابلين يشير أحدهما إلى الصفحة السابقة، والآخر إلى الصفحة الموالية. ويتميز هذا النوع من النصوص بتفاعل محدود جدا.

2 - النص الشجري: وتقدم فيه المعلومات على شكل مستويات، تأخذ بعدا تراتبيا، يبدأ من الأصل إلى الفرع، فبعد تحديد المجلد، يفتح لنا فهرست المجلد، فيكفي النقر على مادة منه، نجد أنفسنا أمام الصفحة الأولى. أما إذا كان النص عبارة عن مقالة، تبرز العناوين الرئيسية، وما تتضمنه من عناوين فرعية.

3 - النص الترابطي أو الشبكي: ويطلق عليه سعيد يقطين اسم " ترابط النص المترابط"، فالسمة الأساسية له هي الترابط، بحيث يتمكن المستخدم له من التنقل من عقدة إلى عقدة، وإنتاج نص خاص به. يقول سعيد يقطين: " أن هذا النوع هو الذي يجسد لنا النص المترابط بامتياز"⁽⁵⁴⁾. وقد أطلق عليه أيضا النص الشبكي؛ لتشابه النصوص اللامحدودة واللانهائية، فهو أرقى النصوص المترابطة، يتجلى فيه التفاعل بكل صورته. ومثاله النص الأدبي التفاعلي الذي ظهر حديثا في الرواية التفاعلية والمسرح الرقمي.

خصائص النص المترابط:

1 - انعدام الخطية: إن الوحدات التي تكون النص المترابط لا ترتبط مع بعضها البعض بشكل خطي ناتج عن توالي الفقرات، وإنما بشكل شبكي، هذه الوحدات قد تشبه الفقرات لكنها قد تكون عبارة عن كلمة، أو صورة، أو مجموعة من الوثائق المعقدة المرتبطة فيما بينها بمجموعة من الروابط. استتبع ذلك خصوصية في القراءة التي لا تتم بشكل خطي بدء بالبداية

وانتقالا من صفحة إلى أخرى وصولا إلى النهاية. وإنما تتم بالقفز من شذرة إلى أخرى.

2 - غياب النهاية: يمتاز النص المترابط بغياب النهاية بمعناها التقليدي، فحينما يتعب المستخدم ويشعر أن شيئاً بداخله قد استنفذ، فحينما توقف تلك هي النهاية. وأينما ابتدأ تلك هي البداية، يرجع بالأساس إلى الشكل المتاهي الذي يتخذه هذا النص؛ بحيث تكون له مسارات متعددة، لا نهائية، فتوالي فتح النوافذ الجديدة يدخل القارئ في دوامة، تجعله يحس بأنه في غابة من المعلومات لا يفهم منها شيئاً، يترقب فيها الاقتراب من هدفه، ليتلاشى هذا المركز بما فيه من معانٍ محتملة، فيصاب بحمى النقر، ينقر ويعيد النقر باحثاً عن الهدف المنشود، الذي يتبخر ويتسرب من بين يديه كلما ظن أنه أمسك به أو شارف على ملامسته، وقد يتوارى النص في أي حين، ولا يعود، وهذا ما ينعتة جوزيف تانيوس لبس — "انتحار الروابط".

3 - التركيز على الكلمة: يرتكز النص المترابط على الكلمة التي أصبحت مكاناً للصراع؛ فمن جهة هي علامة لغوية، ومن جهة أخرى هي زر بمعناه المعلوماتي، غالباً ما تكون بارزة بوضع سطر تحتها أو بكتابتها بلون يختلف عن اللون الذي كتب به النص، غير أن بعض هذه الكلمات ما يقود إلى عقدة، وبعضها الآخر لا يمتلك أية وظيفة معلوماتية، لأنه لا يمكن تنشيطها. فتغيب عن ذهن القارئ الحمولة الدلالية للكلمة، وترسخ في المقابل وظيفتها المعلوماتية، فتصبح الكلمة مجرد جسر للولوج إلى فضاءات أو عقد غير منتظرة.

5 - يرتبط النص المترابط ارتباطا وثيقا بجهاز الحاسوب، وهذا ما يجعله لا يتميز بصورة واحدة ثابتة، بل له صور عدة، من خلال ما يتيحها الحاسوب والفضاء الشبكي من إمكانيات كالصوت، والألوان، والصور والأشكال.

6 - **خاصية الافتراضية:** النص الذي نشاهده على شاشة الحاسوب له طابع خيالي، فهو مخزن في الذاكرة بعلامات رقمية⁽⁵⁵⁾، وهو غير موجود في مكان واحد؛ جزء منه في ذاكرة الحاسوب، وبعضه على الشاشة، والبعض الآخر خلف الشاشة.

7 - **خاصية التفاعلية:** لما أصبح الحاسوب فضاء للتلقي، صار من واجبات المتلقي أن يكون ملما بأبجديات التعامل مع الحاسوب، وبفنون البرمجة، والقدرة على التعامل مع الشبكة الإلكترونية. يقول سعيد يقطين: " كما أن القارئ بات مع الوسيط الجديد قارئاً ومشاهداً وسامعاً، وهو يتفاعل مع النص الأدبي الرقمي، هذا القارئ لا يكتفي بمعرفة القراءة، ولكنه يتوسل بمعرفته بتقنيات الحاسوب الأساسية لحل المشاكل التي تعترضه في عملية التفاعل من النص الرقمي"⁽⁵⁶⁾. وبذلك يكون للقارئ إمكانية تعديل البرمجة وتغيير مواقع النوافذ، أو الدخول إلى ملفات البرمجة، والعروض الموجودة في قاعدة بيانات النص، وإحداث ما يشاء من إعادة لتشكيل البرمجة، بما يتواءم مع ذوقه، دون المساس بالمتن الرئيس للنص"⁽⁵⁷⁾. تقول فاطمة البحراني: "... لا يكون هذا الأدب تفاعلياً إلا إذا أعطى المتلقي مساحة تعادل أو تزيد عن مساحة المبدع الأصلي للنص"⁽⁵⁸⁾. فالذي يحقق التفاعلية في هذا النوع من النصوص، هو ما يبدعه المتلقي في تفاعله معه " فلا يفرض عليه شيء، بل هو سيد نفسه، يدخل شبكة الإنترنت ويختار من النصوص الأدبية المتاحة ما يشاء وبالكيفية التي يشاؤها غالباً"⁽⁵⁹⁾.

8 - تقوم بين النص وقارئه علاقة تناظرية (تبادلية)؛ فلم يعد المؤلف وحده من يملك سلطة القول، ولم يعد دور القارئ سلبياً، لكنه قارئ متفاعل تماماً ومندمج مع النص، يستطيع في كثير من الأحيان أن يعيد تشكيل هذا النص والتأثير فيه وأحياناً مشاركة الكاتب في كتابته وأخذ مسارات أخرى⁽⁶⁰⁾. فالقارئ التفاعلي عنصر أساس في تحديد مفهوم الأدب التفاعلي، ودونه لا يمكن الحديث عن تحقق ذلك المفهوم⁽⁶¹⁾. وقد أطلقت الناقدة عبير سلامة على وظيفة القارئ تسمية "الملاحة"؛ تقول في هذا السياق: "تصبح "الملاحة" في صفحات الإنترنت- بصفتها مقابلاً لقراءة المطبوع- غاية لذاتها، أكثر من كونها وسيلة لغاية، وتتعلق جاذبيتها من تلك الإمكانيات البديلة والحقائق المبالغتة التي توفرها وصلات النص المنشعب، من أجل تلبية الاهتمامات الفورية للمتصفح، كأن "يُعدّل" النص، يبحث عن خلفية مؤلفه، يستوثق من معلوماته، يستعرض أجزاءً مختلفة منه بشكل متزامن، أو يقارنه بنصوص أخرى، وهكذا⁽⁶²⁾.

خاتمة:

بعد هذا العرض الموجز للنص والنص التفاعلي أو النص المترابط، نصل إلى النتائج التالية:

- 1 - الترابط في النصوص هو ميزة للنصوص، يساعد على فهم دلالتها، وكل نص هو حتماً نص رابط بين نصوص عدة.
- 2 - النص الرقمي أو النص المترابط ليس هو بديل للنص الورقي، بل هو نوع جديد من أنواع النصوص الذي يعتمد على الوسيط التقني، ولا يمكنه أن يوجد في غير هذا الوسط.

- 3 - النص المترابط امتداد للنص الورقي، يسهل عملية الكتابة والقراءة، والنشر السريع.
- 4 - يمكن النص المترابط القارئ من اختيار الروابط التي يريد التوجه إليها، وإضافة روابط أخرى إذا شعر بأن هناك ضرورة لذلك.
- 5 - يرتبط النص الرقمي بنصوص أخرى، وفي بعض الأحيان بالصوت والصورة.
- 6 - النص المترابط ليس له حدود ولا نهاية، وهو قابل للتغيير بالإضافة أو الحذف.

هوامش البحث:

- (1) ابن منظور. لسان العرب. دار صادر، بيروت. ط3. 1994. ج:7. ص:42 - 44.
- (2) الزمخشري. أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود. دار المعارف. بيروت. 1982. مادة نص.
- (3) محمد توفيق محمد سعد. دلالة الألفاظ عند الأصوليين. مطبعة الأمانة. مصر. ط1. 1987. ص:360-374.
- (4) محمد عمارة، النص الإسلامي بين الاجتهاد والجمود والتاريخية، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر - دمشق - سورية، ط:1، 1998م، ص:33.
- (5) محمد علي التهانوي. كشاف مصطلحات الفنون. تحقيق رفيق العجم وعلي دحروج. مكتبة لبنان. ط1. 1996. ص:1696.
- (6) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. مختار الصحاح المكتبة العصرية صيدا. بيروت. 2001. مادة (ن ص ص). ص:917.
- (7) شعرية النص بين جدلية المبدع والمتلقي. مجلة التواصل. جامعة عنابة. عدد8. جوان 2001. ص:212.
- (8) برند شبليزير. علم اللغة والدراسات الأدبية. ترجمة محمود جاد الرب. جامعة الملك سعود. الرياض. ص:188.

(9) ديكرو وتودوروف القاموس الموسوعي لعلوم اللغة، باريس، 1972 - ص375-376.

(10) عبد القادر عبد الجليل. الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية. دار صفاء للطباعة والنش والتوزيع. عمان. ط 1. 2002. ص: 144.

(11) عز الدين المناصرة. نص الوطن وطن النص شهادة في شعرية الأمكنة. مجلة التبيين العدد (1) - ص 40.

(12) رولان بارت. لذة النص. ترجمة منذر عياش. مركز الإناء الحضاري. سوريا. ط1. 1992. ص: 10.

(13) رولان بارت، لذة النص ترجمة، فؤاد صفا والحسين سبحان، دار توبقال. ط1، الدار البيضاء. 1988، ص 24، 62.

(14) صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار إفريقيا الشرق، 2002، المغرب /بيروت ص:128.

(15) محمد علي التهانوي. كشاف مصطلحات الفنون. تحقيق رفيع العجم وعلي دحروج. مكتبة لبنان. ط1. 1996. ص:1696.

(16) صبحي إبراهيم الفقي. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق. دراسة تطبيقية على السور المكية. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. 2000. ج1. ص: 33 - 34.

(17) نبيل أيوب. التعبير منهجيته وتقنياته. دار المكتبة الأهلية بيروت. ط1. 2000. ص:37.

(18) المرجع السابق : الشريف الجرجاني. التعريفات. ص:310.

(19) محمد مفتاح. تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص. المركز الثقافي العربي بيروت. الدار البيضاء. ط3. 1992. ص:119.

(20) سلدن رامن. النظرية الأدبية المعاصرة. ترجمة سعيد الغانمي. دار الشروق. عمان. ط 1. 1997. ص:163.

(21) Hans-Robert Jauss Literaturgeschichte als Provokation der Literaturwissenschaft, Francfort, 1970.P 234 _ 171

(22) محمد رضا مبارك. استقبال النص عند العرب. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط1. 1969. ص:41.

- (23) عبد الله إبراهيم. التلقي والسياقات الثقافية. منشورات الاختلاف. الجزائر. ط2. 2005. ص:9
- (24) أمبرتو إيكو. التأويل بين السيميائيات والتفكيكية. ترجمة سعيد بنكراد. المركز الثقافي العربي. بيروت. 2000. ص:181 — 190.
- (25) ينظر : رابح بوحوش، الأسلوبيات وتحليل الخطاب، مختبر جامعة عنابة، 2006، الجزائر. ص85.
- (26) لسان العرب ج2 ص361.
- (27) التهانوي. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ص: 5,6.
- (28) الفيروز أبادي، القاموس المحيط مادة : خطب.
- (29) ماري نوال غاري بريور. المصطلحات المفاتيح في اللسانيات. ترجمة : عبد القادر فهيم الشيباني. سيدي بلعباس، الجزائر. ط1. 2007. ص49.
- (30) في أصول الخطاب النقدي الجديد. مجموعة مقالات. ترجمة أحمد المدني. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد 1999. ص: 39.
- (31) عبد الهادي بن ظافر الشهري. استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية. دار الكتب الوطنية بغاوي. ط1. 2004. ص:39.
- (32) سعيد يقطين. من النص إلى النص المترابط. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب. ط 1. 2005. ص:117.
- (33) سعيد حسن بحيري. علم النص المفاهيم والاتجاهات. الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان. ط1. 1998. ص:67.
- (34) بشير ابرير، السيميائية وتبليغ النص الأدبي، مجلة المنهل، عدد 524- ص 29- سنة 1995.
- (35) حكمت صباغ الخطيب. في معرفة النص دراسة في النقد الأدبي. دار الآفاق الجديدة. بيروت. ط1. 1983. ص:57.

- (36) عبد الله الغذامي. تشريح النص. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب. ط2. 2006. ص:18.
- (37) جوزيف طانيوس لبس. المعلوماتية واللغة والأدب والحضارة. الرقم والحرف. المؤسسة الحديثة للكتاب. لبنان. ط1. 2012. ص:101.
- (38) سعيد يقطين. من النص إلى النص المترابط. مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب. ط: 1. 2005. ص: 10.
- (39) المرجع السابق. جوزيف طانيوس لبس. المعلوماتية واللغة والأدب والحضارة. الرقم والحرف. ص:107.
- (40) ناريمان إسماعيل متولي. تكنولوجيا النص التكويني الهايبرتكست وتنمية الابتكار لدى الطلاب والباحثين. مجلة المكتبات والمعلومات العربية. عدد1. تونس. جانفي 1997. ص:6.
- (41) المرجع السابق جوزيف تانيوس لبس. المعلوماتية واللغة والأدب والحضارة الرقم والحرف. ص:101.
- (42) محمد سناجلة: لقد انتهى عصر الورق. مجلة عمان، العدد 126، كانون الأول 2005، ص61.
- (43) خربشات في ذات النص الرقمي. رامت رمضان النويصري. الموقع الإلكتروني: <http://ramez-enwesri.com/archives/383> بتاريخ 2018/12/08.
- (44) نبيل علي. العرب وعصر المعلومات. عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. عدد:284. أبريل 1994. ص: 282.
- (45) المرجع السابق : سعيد يقطين. من النص إلى النص المترابط. مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي. ص:130.
- (46) المرجع نفسه. ص:128،129.
- (47) المرجع السابق: سعيد حسن بحيري. علم النص المفاهيم والاتجاهات. ص:123.
- (48) فان دايك. النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي. ترجمة عبد القادر قنني. أفريقيا الشرق. بيروت. 1999. ص: 77.
- (49) المرجع السابق سعيد يقطين. من النص إلى النص المترابط. مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي. ص:145.

- (50) سعاد مسكين. النص المترابط. المفهوم، الصيرورة، المقاصد. المكتبة الوسائطية. الرباط. 2015. ص:6.
- (51) عبد الحافظ محمد سلامة. تطبيقات الحاسوب والوسائط المتعددة في التعليم. دار البداية ناشرون وموزعون. ط1. 2013. ص: 123.
- (52) المرجع السابق: حوزيف طانيوس لبس. المعلوماتية واللغة والأدب والحضارة الرقم والحرف. ص:102.
- (53) المرجع السابق سعيد يقطين. من النص إلى النص المترابط. مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي. ص:136.
- (54) المرجع نفسه. ص:140.
- (56) محمد مريني. النص الرقمي وإبداعات النقل المعرفي. كتاب الرافد. دائرة الثقافة والإعلام. الشارقة. عدد089. مارس 2015.
- (57) سعيد يقطين. النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية نحو كتابة عربية رقمية. المركز الثقافي العربي. بيروت. ط1. 2002. ص 200.
- (58) فاطمة البحراني. الأدب والتكنولوجيا: القصيدة التفاعلية- مشتاق عباس معن نموذجاً. الموقع الإلكتروني:
[HTTP://WWW.ODNAD.NET/18/FATIMABAH18.PHP](http://www.oudnad.net/18/fatimabah18.php)
- (59) البريكي، فاطمة. مدخل إلى الأدب التفاعلي، ط1، بيروت-الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2006، ص 49.
- (60) حسن سلمان. الأدب الرقمي يشاهد ويسمع ويقرأ معاً. يحدث ثورة شاملة تنتج أدب جديداً، 19-7-2013، مجلة اتحاد كتاب: الانترنت المغاربة <https://ueimarocains.wordpress.com>.
- (61) عمرزرفاوي، الكتابة الزرقاء مدخل إلى الأدب التفاعلي. دار الثقافة والإعلام. الشارقة. ع56. أكتوبر. 2003. ص 155-156.
- (62) عبير سلامة. الشعر التفاعلي طرق الغرض وطرق الوجود. الموقع الإلكتروني، بتاريخ: 16/12/2016.
http://www.jehat.com/ar/JehatAlkalb/2005/Pages/abeer_salama.aspx

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - ابن منظور. لسان العرب. دار صادر بيروت. ط3. 1994.
- 2 - أمبرتو إيكو. التأويل بين السيميائيات والتفكيكية. ترجمة سعيد بنكراد. المركز الثقافي العربي. بيروت. 2000.
- 3 - برند شبليزر. علم اللغة والدراسات الأدبية. ترجمة محمود جاد الرب. جامعة الملك سعود. الرياض.
- 4 - البريكي، فاطمة. مدخل إلى الأدب التفاعلي، ط1، بيروت-الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2006.
- 5 - جوزيف طانيوس لبس. المعلوماتية واللغة والأدب والحضارة. الرقم والحرف. المؤسسة الحديثة للكتاب. لبنان. ط1. 2012.
- 6- حكمت صباغ الخطيب. في معرفة النص دراسة في النقد الأدبي. دار الآفاق الجديدة. بيروت. ط1. 1983.
- 7- رولان بارت. لذة النص. ترجمة منذر عياش. مركز الإناء الحضاري. سوريا. ط1. 1992.
- 8- الزمخشري. أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود. دار المعارف. بيروت. 1982.
- 9- سلدن رامان. النظرية الأدبية المعاصرة. ترجمة سعيد الغانمي. دار الشروق. عمان. ط1. 1997.
- 10 - سعاد مسكين. النص المترابط. المفهوم، الصيرورة، المقاصد. المكتبة الوسائطية. الرباط. 2015.
- 11- سعيد يقطين. من النص إلى النص المترابط. مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب. ط: 1. 2005.
- 12- سعيد يقطين. النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية نحو كتابة عربية رقمية. المركز الثقافي العربي. بيروت. ط1. 2002.
- 13 - سعيد حسن بحيري. علم النص المفاهيم والاتجاهات. الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان. ط1. 1998.

- 14- صبحي إبراهيم الفقي. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق. دراسة تطبيقية على السور المكية. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. 2000.
- 15 - صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار إفريقيا الشرق، 2002، المغرب /بيروت.
- 16- عبد الحافظ محمد سلامة. تطبيقات الحاسوب والوسائط المتعددة في التعليم. دار البداية ناشرون وموزعون. ط1. 2013.
- 17- عبد القادر عبد الجليل. الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية. دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع. عمان. ط1. 2002
- 18- عبد الهادي بن ظافر الشهري. استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية. دار الكتب الوطنية بغاوي. ط1. 2004.
- 19- عبد الله الغدامي. تشريح النص. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب. ط2. 2006.
- 20 - عبد الله إبراهيم. التلقي والسياقات الثقافية. منشورات الاختلاف. الجزائر. ط2. 2005.
- 21- فان دايك. النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي. ترجمة عبد القادر قنني. إفريقيا الشرق. بيروت. 1999.
- 22- الفيروز أبادي، القاموس المحيط مادة: خطب.
- 23- ماري نوال غاري بريور. المصطلحات المفاتيح في اللسانيات. ترجمة : عبد القادر فهيم الشيباني. سيدي بلعباس الجزائر. ط1. 2007.
- 24- محمد مفتاح. تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص. المركز الثقافي العربي بيروت. الدار البيضاء. ط3. 1992.
- 25 - محمد توفيق محمد سعد. دلالة الألفاظ عند الأصوليين. مطبعة الأمانة. مصر. ط1. 1987.
- 26 - محمد رضا مبارك. استقبال النص عند العرب. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط1. 1969 26 —
- 27- محمد عمارة، النص الإسلامي بين الاجتهاد والجمود والتاريخية، دار الفكر المعاصر— بيروت — لبنان، دار الفكر — دمشق — سورية، ط1، 1998م.

- 28 - محمد علي التهانوي. كشاف مصطلحات الفنون. تحقيق رفيق العجم وعلي دحروج. مكتبة لبنان. ط1. 1996.
- 29- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. مختار الصحاح. المكتبة العصرية صيدا. بيروت. 2001.
- 30- نبيل أيوب. التعبير منهجيته وتقنياته. دار المكتبة الأهلية بيروت. ط2000. 1.

المجلات:

- 1 - بشير ابرير، السيميائية وتبليغ النص الأدبي، مجلة المنهل، عدد 524. سنة 1995.
- 2- عمر زرفاوي، الكتابة الزرقاء مدخل إلى الأدب التفاعلي. دار الثقافة والإعلام. الشارقة. ع56. أكتوبر. 2003.
- 3- شعرية النص بين جدلية المبدع والمتلقي. مجلة التواصل. جامعة عنابة. عدد8. جوان 2001.
- 4 - في أصول الخطاب النقدي الجديد. مجموعة مقالات. ترجمة أحمد المديني. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد 1999.
- 5- عز الدين المناصرة. نص الوطن وطن النص شهادة في شعرية الأمكنة. مجلة التبيين العدد (1)

- 6- محمد مريني. النص الرقمي وإبداعات النقل المعرفي. كتاب الرافد. دائرة الثقافة والإعلام. الشارقة. عدد089. مارس2015.
- 7- ناريمان إسماعيل متولي. تكنولوجيا النص التكويني الهايبرتكست وتنمية الابتكار لدى الطلاب والباحثين. مجلة المكتبات والمعلومات العربية. عدد1. تونس. جانفي1997.
- 8- نبيل علي. العرب وعصر المعلومات. عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. عدد:284. أبريل 1994.
- 9- رابح بوحوش، الأسلوبيات وتحليل الخطاب، مختبر جامعة عنابة، 2006، الجزائر.
- 1- حسن سلمان. الأدب الرقمي يشاهد ويسمع ويقرأ معا. يحدث ثورة شاملة تنتج أدب جديدا، 19-7-2013، مجلة اتحاد كتاب الانترنت المغاربة. <https://ueimarocains.wordpress.com>

2- عبير سلامة. الشعر التفاعلي طرق الغرض وطرق الوجود. الموقع الإلكتروني،
بتاريخ: 2016/12/16.

http://www.jehat.com/ar/JehatAlkalb/2005/Pages/abeer_salama.aspx

3- فاطمة البحراني. الأدب والتكنولوجيا: القصيدة التفاعلية- مشتاق عباس معن
نموذجاً. الموقع الإلكتروني:

<HTTP://WWW.ODNAD.NET/18/FATIMABAH18.PHP>

4- خربشات في ذات النص الرقمي. رامز رمضان النويصري. الموقع الإلكتروني:

بتاريخ 2018/12/08. [http://ramez-](http://ramez-enwesri.com/archives/383)

التشكيل الإيقاعي في معزيات ابن هانئ المغربي الأندلسي - قراءة جمالية -

أسماء سوسي

جامعة 8 ماي 1945 - قالمة

الملخص:

يمتاز النتاج الشعري الذي ظهر في فترة مبكرة من حياة العرب لاسيما النصف الأول من القرن الرابع الهجري، وعلى التحديد بين أعوام (320-362 هـ / 932-973 م) بجماليات عميقة ألفت بظلالها على النص القديم، فعدّ مدونة فكرية وتاريخية وأدبية لا يستهان بها.

هذا المقال يتطرق إلى التشكيل الإيقاعي لهذه الأشعار القديمة التي قيلت في مدح المعز لدين الله الفاطمي على يد شاعر الدولة الفاطمية على الإطلاق ابن هانئ المغربي الأندلسي، فسميت تبعاً لذلك "بالمعزيات"، وذلك بدراسة محددات ومولدات الإيقاع الخارجي والدأخلي فيها من بحر، وقافية، وروي، وتجنيس، وتصدير، وترصيح، وعكس وتبديل، والتي أعطت إيقاعاً مؤثراً، كونها نابعة من ذوق وجداني رفيع لدى الشاعر، مرتبطة بنفسيته وتجربته الشعرية.

الكلمات المفتاحية: جملاليات النص، التشكيل، الإيقاع، المعزيات، ابن هانئ الأندلسي.

Résumé:

La production poétique qui est apparue dans la première période de la vie arabe, en particulier la première moitié du quatrième siècle AH et spécifiquement entre les années (320-362 AH / 932-937 AD), a été caractérisée par une esthétique profonde qui a éclipsé le texte ancien et l'a transformé en un corpus précieux, intellectuel, historique et littéraire.

Le présent article traite le rythme de ce poème antique qui a été dit dans la louange d'Al-Muizz Li-Din Allah par le poète de l'état fatimide Ibn Hani Al-Andalusi. Par conséquent, ces poèmes ont été appelés après lui " Al Muizziet ". Nous allons étudier les signes et les ressources de rythme interne et externe : la rime, la paronomase, l'exordium, l'homéoptote, l'antistrophe et l'oxymoron qui engendrent un rythme impressionnant dérivé du goût sentimental du poète qui dénote sa personnalité et son expérience poétique.

Mot clés: Les esthétiques du texte, la formation, le rythme, Al Muizziet, Ibn Hani Al-Andalusi.

Abstract:

The poetic production that appeared in the early period of Arabs' life, especially the first half of the fourth century AH ,specifically, between the years (320-362 AH/932-937 AD), was characterised by deep aesthetics which overshadowed the ancient text and turned it to a valued, intellectual, historical and literary corpus.

The present article deals with the rhythm of these ancient poems that have been said in the praise of Al-Muizz Li-Din Allah by the poet of the Fatimid state ever Ibn Hani Al-Andalusi. Hence, these poems were called after him "Al Muizziet". We will study its markers and the producers of internal and external rhythm: rhyme, paronomasia, exordium, homeoptoton, antistrophe and oxymoron, which engendered an impressive rhythm being derived from the high sentimental taste of the poet and which is relative to his personality and poetical experience.

Key words: Text aesthetics, the ancient, the formation, rhythm, El Muzziet, Ibn Hani Al-Andalusi.

تقديم:

اهتمّ العرب بالنتاج الشعريّ فصقلوا ألفاظه، وقوّوا عباراته، وأجلّوا صورته، ذلك أنه مسلّك وعر لا يقوى على خوض غماره إلّا من أوتي موهبة قوية، وطبعاً سليماً. وقد أكّد نقاد الشعر العربيّ على أنّ أهمّ عنصر يعتمد عليه في صنع الشعر "الوزن"، لأنه يعدّ بمثابة الأرض الخصبة التي تتغرس على أديمها "بقية العناصر والمكوّنات الإيقاعية" (1).

وعليه فقراءتنا لهذه الجماليات حتمت علينا تسليط الضوء على واحدة من المدوّنات القديمة التي تمتّ للعصر الفاطمي بوطيد صلة، إنّها معزيات ابن هانئ الأندلسيّ، أو القصائد التي نظمها الشاعر في مدح المعزّ الفاطميّ، والتي ساهم في تشكيل الإيقاع فيها العناصر الآتية:

1- الوزن:

الوزن أعظم أركان حدّ الشعر، وأولاها به خصوصية (2)، وأكثرها التصاقاً، «فعالم الشعر الداخليّ يبني عن موسيقى متغيرة في داخل نصّ الإطار

الموسيقى الخارجي، إطار البحر الشعري، وهذا التنوع الموسيقي الخارجي إنما يتبع من هذه الرقابة الموسيقية الخارجية التي تتمثل في هذه الأشكال الموسيقية المعروفة بالبحور»(3).

ومن خلال الاطلاع على المدونة الشعرية لابن هانئ (معزياته)، يتضح استخدامه للبحور المتينة الوفيرة المقاطع(4)، كالطويل، والكامل، والبسيط، والجدول الآتي يوضح تواترها في المدونة، ونسبها المئوية:

النسبة المئوية	تواترها	البحور الشعرية	الرتبة
45.45%	10 قصائد	الطويل	01
31.81%	07 قصائد	الكامل	02
13.63%	03 قصائد	البسيط	03
4.54%	قصيدة واحدة	المتقارب	04
4.54%	قصيدة واحدة	الخفيف	05
99.97%	22 قصيدة	05 بحور	المجموع

يوضح الجدول مجموعتين من البحور الشعرية التي نظم عليها الشاعر معزياته وفق نسب متفاوتة فأولاهما مرتبة، وأعلاهما درجة المجموعة التي تضم: الطويل، والكامل، والبسيط، وهي البحور الغالبة التي عول الشاعر عليها كثيرا في نظم معزياته؛ ذلك أن نسبها مجتمعة 90.90%.

أما المجموعة الثانية فتضم البحور التي قلّ ورودها في المدونة، وبالتالي قلّ نظم الشاعر لمعزياته عليها، وتشمل: المتقارب، والخفيف، ونسبها مجتمعة

09.08%. وهكذا نتبين كلاسيكية ابن هانئ؛ أي اتّباعه لسنة القدماء في اختيار الأوزان (5)، ذلك أنّ أكثر من نصف معزياته (6) جاءت على أوزان (الطويل، الكامل، البسيط)، وقد كان حضورها وتوزّعها عبر هذه القصائد وفق الحالات الموضّحة أسفله (7)، فلماذا اعتمد الشّاعر على هذه البحور في نظم معزياته؟.

يجيبنا حازم القرطاجني فيقول: «العروض الطويل تجد فيه أبدا بهاء وقوّة، وتجد للبسيط بساطة وطلاوة، وتجد للكامل جزالة وحسن أطراد» (8)، وهي شهادة من عالم جليل محسوب من جيل المتقدّمين على ما لهذه البحور من قيمة، لذلك كانت من أكثر الأعاريض دوراناً وانتشاراً في الشّعر العربي لروعة إيقاعاتها، وسهولة النّظم من خلالها (9)، ولا نحسب ابن هانئ غافلاً عن هذا، لذا راح ينظم غالبية قصائده في المعز عليها، لما رأى فيها من مناسبة للغرض الذي جاءت لتخدمه (مدح المعز)، وسعة استيعابها لمعاني المدح المختلفة من فخر، وحماسة، وتشابيه، واستعارات، وسرد أحداث، وتدوين أخبار، ووصف أحوال وما إلى ذلك مما يتعلّق بالدولة الفاطمية، وحامي حياضها، الدّائد عن ثغور الدين: معز الإسلام والمسلمين. وهذا ما يترجم حذق الشّاعر وبراعته، وتوفيقه في اختيار هذه الأوزان من خلال الرّبط بينها وبين غرضه الرّئيس، ومناسبة الخصائص المعنوية لإيقاعاتها لمقاصد هذه القصائد وموضوعاتها، ذلك أنّ النّمت الإيقاعي ذي الأعاريض الفخمة (10) غالباً ما يصلح للقصائد الرّصينة ذات الموضوعات المهمّة، والمواقف الجادّة (11)، في القصائد المعزية.

2- القافية:

"هي شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعرا حتى يكون له وزن وقافية" (12)، كما أنّها ذات ملمح صوتي (13) يلمح من تكرارها، واشتمالها على عناصر صوتية تعمل جميعها على إحداث أثر موسيقي تطرب له الأذن وتتجذب إليه النفس، ويشد به. وليست القافية حرف الرّوي، ولا الكلمة الأخيرة من البيت، ولا البيت نفسه، بل هي "الجزء الأخير من البيت المحصور بين آخر ساكنين، ومتحرك قبلهما" (14). والقافية في المدونة الشعرية قديمها وحديثها إمّا مقيدة خالصة (ساكنة الروي)، وإمّا مطلقة خالصة (متحركة الروي)، وقد تواترت في معزيات الشاعر وفق النسب الآتية:

- القافية المطلقة:

تواترت في سبع عشرة معزية (15) من مجموع معزيات الشاعر الاثنتين والعشرين بنسبة $(17/22) = 77,27\%$.

- القافية المقيدة :

وهي أقل تواترا من سابقتها، حيث لا تتكرّر سوى في خمس قصائد (16) من معزيات الشاعر بنسبة $(05/22) = 22,72\%$.

وهكذا يتضح أنّ ابن هاني قد جنح إلى القافية المطلقة في نظم معزياته مما يعكس حدقا منه، يظهره تناسب دلالاتها والموضوعات التي أراد الشاعر إشاعتها من خلالها؛ ففي الإطلاق انطلاق، ونشاط، وحرية، وحركة، ولا أحال الشاعر إلا استغل هذه المعاني لينطلق بوساطتها إلى إبداع الدلالات التي أرادها في ممدوحه المعز، سواء ما تعلّق منها بالتقليدي، أو السياسي، أو

العقائدي، والتي أشربت نفسه محبتها، فكان شعره الصّرح الخالد لحفظها والتغني بها.

3- الرّوي:

هو ذلك الصّوت المكرّر في أواخر الأبيات، وعليه تبنى القصيدة، وتنسب إليه، فيقال: اللّامية، والبائية، والهمزية... الخ، ولا يكون الشّعر مقفى إلا إذا اشتمل عليه(17)، ولذا جاء في تعريف الشّعر أنه: «قول موزون مقفى له معنى»(18)، وقد جاءت «معزيات» ابن هانئ على ثلاثة عشر رويًا مختلفًا من حيث التواتر والنّسب، والجدول الآتي يوضّح ذلك:

النسبة المئوية	التواتر	الرّوي	الرتبة
18.18%	04	اللام	01
13.63%	03	الراء	02
13.63%	03	الميم	03
09.09%	02	الذال	04
09.09%	02	الهمزة والألف	05
04.54%	01	الباء الحاء	06
04.54%	01	الحاء	07
04.54%	01	الخاء	08
04.54%	01	الطاء	09
04.54%	01	الفاء	10
04.54%	01	القاف	11
04.54%	01	الكاف	12
04.54%	01	النون	13

يتبين من الجدول أنّ الرّوي الذي يمثّل الظاهرة الغالبة في معزيات الشّاعر هو: حروف اللّام، والرّاء، والميم، والدّال، والهمزة، والألف، والتي تمثّل نسبها مجتمعة 63.62%، فلماذا عوّل ابن هانئ على هذه الحروف واعتمدها بكثرة رويًا في أبياته؟.

إنّها من أكثر الحروف التي تجيئ رويًا في أشعار الشعراء، وإن اختلفت نسبة شيوعها بينهم (19)، كما أنّها أصوات مجهورة، ومعنى الجهر هو منع جريان النّفس عند النّطق بالحرف لقوّة الاعتماد عليه في المخرج، وهو من صفات القوّة التي كان لابدّ منها للشّاعر في شعره، حتّى ينافح عن الدّولة الفاطمية أعداءها من الكفار والمارقين، معليا كلمة الدّين، ساميا بالمعز عن كل ما يدنس، ويشين.

إلى هنا يطوى الحديث عن النّظام العروضي الذي تضافر فيه الوزن، والقافية، والرّوي على إحداث إيقاع ذي توتر عال مرتبط ارتباطا حميميا بالانفعال للغة شعرية كان ابن هانئ موردها، هذه الموسيقى الخارجية هي بدورها حلقة من حلقات هذه الغنائية السّاحرة في معزيات الشّاعر، والتي منها كذلك:

الإيقاع: الداخلي:

هو مظهر جليّ آخر له بصمته على المدونة، بحيث لا يقلّ أهميّة عن الإيقاع الخارجي متمثلاً في النّظام العروضي، وقد لجأ الشّاعر إلى تكريسه بالاعتماد على ما يسمّى في البلاغة القديمة: "بأقسام البديع"، والتي منها: التّجنيس، والتّصدير، والتّرديد، والتّرصيع، والتّقابل بنوعيه: البسيط والمركّب، والعكس والتّبديل.

أ- التّجنيس:

يعد التّجنيس من صور التّكرار المهمّة التي التمس الجرجاني حقيقتها بقوله: «إنّه الصّورة صورة التّكرير والإعادة» (20)، وهو «أنّ تجيئ الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر أو كلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السّبيل الذي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها» (21). وقد شكّل هذا اللون البديعي ظاهرة أسلوبية بارزة في معزيات الشّاعر، وحظي باهتمام كبير منه لاسيما ما تعلق بنوعه الناقص، والذي تواتر بشدّة في هذه القصائد، إذ لا تكاد تخلو قصيدة منه مما أثرى الإيقاع وزاد لغة الشّاعر جمالية.

1- التّجنيس الناقص:

هو اختلاف يلحق اللّفظين إمّا في أنواع الحروف، أو في أعدادها، أو في هيأتها، أو في ترتيبها (22)، وسمي ناقصا لأنّ اختلاف اللّفظين المتجانسين في عدد الحروف يلزم منه نقصان أحدهما عن الآخر (23)، وقد سمّاه بعض البلاغيين «بتجنيس التّرجيع» (24).

يأتي هذا النوع في المرتبة الثّانية عند ابن هانئ من حيث التّواتر والشّبوع في معزياته، ومن أمثلة استغلال الشّاعر له لخدمة الدّلالة التي يريد بثّها قوله (25): (الطويل)

فَبَادُوا وَعَفَى اللَّهُ أَيَّامَ مُلْكِهِمْ فَلَا خَبْرٌ يَلْقَاكَ عَنْهُمْ وَلَا خُبْرُ
وَلَيْسَ الَّذِي يَأْتِي بِأَوَّلِ مَا كَفَى فَشُدُّ بِهِ مُلْكٌ وَ سُدُّ بِهِ ثَغْرُ

لعلّ وفرة المتجانسات الناقصة في هذه الأبيات تعود إلى الثروة اللغوية الهائلة التي يمتلكها ابن هانئ، ولرغبته في التعبير بالأصوات المتشابهة؛ لأنها أكثر تأثيراً، وأقدر تبليغاً، فقد جانس بين (خَبْرٌ وخُبْرٌ، وشُدُّ وسُدُّ) ليؤكد زوال دولة

بني العباس، وانقضاء حكمهم من الخلافة الإسلامية، إذ بادت قبائلهم، وعفت آثار ملكهم، وذهب ذكرهم، فبادت أخبارهم، ولم يعد بالمقدور أن تعلم أحوالهم، وقد كان للمعز من هذا الصنيع أن شدّ ملك الدين، وصان ثغوره من أفعال المارقين، فما كان من الشاعر إلا أن يتوسّل بهذا الإيقاع المتباين مجسداً في التجنيس الناقص بين هذه المفردات ليؤكد هذه الدلالة ويقرّها. ومن الأمثلة الحسنة على هذا اللون من التجنيس الذي تطفح به معزيات ابن هانئ المختلفة ما نصّه (26):

يُؤَيِّدُهُ الْمِقْدَارُ بِالْغِ أَمْرِهِ وَيُمْدَحُ بِالسَّبْعِ الْمَنَانِي وَيُمْدَحُ (الطويل)

.....

أَلَا هَكَذَا فَتَجَبَّ الْعَيْسُ بَدْنَا أَلَا هَكَذَا فَتَجَنَّبِ الْخَيْلُ ضَمْرًا (الطويل)

.....

وَالْحَجْرِ مُطَّلَعًا إِلَيْكَ تَشَوْفًا وَالرُّكْنِ مُهْتَزًّا إِلَيْكَ تَشَوْفًا (الكامل)

.....

لَقَدْ أَعْدَرْتَ فِيكَ اللَّيَالِي وَأُنْذَرْتُ فَقُلْ لِلْخُطُوبِ اسْتَخْرِي أَوْ تَقَدَّمِي (الطويل)
استعان الشاعر في هذه الأبيات على طاقة التجنيس الناقص في تبليغ الدلالة، فجانس بين (يمدح ويمدخ) ليبين أن قضاء الباري - تعالى - وقدره، وآي ذكره الحكيم هو خير زاد لإمامه المعز، ومؤونته على بلوغ مآربه، ووسيلته التي تفضي إلى مدحه، أمّا التجنيس الذي أورده بين (فلتجب، فلتجنب) فبغرض وصف الهدايا التي بعث بها «جوهر» قائد الفاطميين إلى المعز حين تسخير بلاد المغرب لسلطانهم، من عيس بدّن جُلبت لتتحرر احتفالاً بهذا النصر العظيم، وخيل ضمّر جنب بعضها البعض الآخر ليسهل انتقال الفرسان عليها إذا ما أصيبت إحداها في الحروب. ويستغلّ ابن هانئ التجنيس

النَّاقص في كلِّ من (تشوّفاً، تشوّفاً) ليؤكد شوق شعاب مكة، واهتزاز أركانها لمراى المعز، ولما كان غرضه الإشادة بعظيم شأن ممدوحه، وجليل منزلته وقع التّجنيس بين (أعدرت وأذرت) للإحالة أنّ الزّمان قد صار معذورا لإنذاره بقدم المعز الذي لا يخشى الخطوب سواء وقعت أم لم تقع. وهكذا يتضح أنّ أسلوب التّجنيس الناقص يغدو ظاهرة جمالية في معزيات ابن هانئ والذي كشف رغبته في التعبير بالصّوت الثّنائي المتماثل للألفاظ، قصد شدّ المتلقي، ولفت انتباهها إلى الدّلالة المقصودة.

ب- التّصدير:

هو من أنماط التّكرار اللفظي، وهو في الشّعر: "أن يكون أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين، أو الملحقين بهما في آخر البيت (القافية)، والآخر في صدر المصراع الأوّل، أو حشوه، أو آخره"(27)، وقد أطلق عليه المتأخرون تسمية «التّصدير» أمثال: ابن رشيّق(28)، وابن أبي الأصبع(29) في حين سمّاه ابن المعتز: «ردّ أعجاز الكلام على ما تقدّمها»(30). ومهما اختلفت تسمية هذا الأسلوب بين البلاغيين إلا أنّ له موقعا جليلا من البلاغة، وله في المنظوم خاصّة محلاً خطيرا(31)، ولا نحسب ابن هانئ غافلا عن هذا، إذ راح يستغلّه في معزياته متداخلا بأساليب أخرى لاسيما التّجنيس الاشتقائي، والتّكرار للتعبير عن مدلولاتها.

1- التّصدير بالتّجنيس الاشتقائي:

يعتبر التّصدير بالتّجنيس الاشتقائي من أكثر الأنواع الواردة في معزيات الشّاعر، إذ يحتلّ المرتبة الأولى من حيث الشّيوع والتواتر فيها، لوفرة مادّته، ويسر انقياده، فلا تكاد تخلو معزية منه، ومن أحسن الأمثلة عليه ما قاله الشّاعر(32):

لَمْ يُشْرِكُوا فِي أَنَّهُ خَيْرُ الْوَرَى وَلِذِي الْبَرِيَّةِ عِنْدَهُمْ شُرَكَاءُ (الكامل)

.....

وَلِلَّهِ عِلْمٌ لَيْسَ يُحْجَبُ دُونَكُمْ وَلَكِنَّهُ عَنِ سَائِرِ النَّاسِ مَحْجُوبٌ
(الطويل)

.....

أَعْيَاكَ تَخْتَلِفُ الْمَنَابِرُ بَعْدَمَا جَنَحَتْ إِلَيْكَ الْمَشْرِقَانِ جُنُوحًا
(الكامل)

.....

وَأَيْنَ بِثَغْرِ عَنكَ يُبْغَى سَدَادُهُ وَخَيْلِكَ فِي كَرْخِيَّةِ الْكَرْخِ تُكَرِّخُ
(الطويل)

.....

أُولَئِكَ النَّاسُ إِنْ عُدُّوا بِأَجْمَعِهِمْ وَمَنْ سِوَاهُمْ فَلَعُوٌّ غَيْرُ مَعْدُودٍ
(البيسط)

من يتأمل هذه الأبيات جيدا يحسّ أنّ كلمات (شركاء، محجوب، جنوحا، تكرر، معدود) التي التزمت موقع القافية، وتوزعت بعض مشتقاتها على مواقع معيّنة من هذه الأبيات مهمّة، لذلك أعادها الشاعر على مسامعنا، ليشدنا إلى الجانب الدلالي لهذه الكلمات المكررة، فهو وإن ردّ عجز البيت الأوّل على صدره بوساطة التّجنيس الاشتقاقي بين لفظتي: (أشركوا وشركاء) فليؤكّد إقرار النّصارى بفضل المعز إكراها؛ إذ لم يجعلوا له شريكا فيما حواه من الفضائل، بينما ارتبط العجز بالصدر في البيت الثّاني من خلال ردّ الشّاعر للفظة (محجوب) التي وردت في عجز البيت إلى كلمة «يحجب» الواردة في حشو صدره، ومنبعهما واحد «هو الحجاب».

ومن ثم تتشاكل أصوات الكلمتين لتقوم منبها صوتيا يحيل القارئ إلى الدلالة المقصودة وهي اختصاص المعز بعلم الغيب، وإطلاع المولى -جلّ جلاله- له عليه دون سواه من الأنام حسب اعتقاد الشيعة، وكذا الأمر في البيت الثالث، فالترابط الصوتي قائم بين (جنحت، جنوحا)، للإحالة بميل أهل المشرق إلى المعز، والرغبة فيه وفي عدله الشامل.

أمّا لفظة (تكرخ) فقد ذكرها ابن هانئ في آخر عجز البيت الرابع، وجاء بلفظتي (كرخية، الكرخ) ليحدث مع كليهما مجانسة اشتقاقية تشي بتمائل بينها، ليبين سطوة المعز وقدرته على امتلاك كلّ ثغر بدليل وصول خيله إلى بغداد، في حين أعاد لفظة (معدود) التي احتلت موقع القافية في البيت الأخير ليحدث تجنيسا اشتقاقيا مع لفظة (عدوا) الواردة في حشو الصدر، ليقول إنّ الناس جميعا إذا ما قيسوا بالمعز وإن فاقوه عددا تفوق عليهم فردا.

وهكذا يتضح أنّ ابن هانئ قد استغلّ هذه الوسيلة البلاغية ليسخر القاعدة الإيقاعية متمثلة في الجانب الصوتي الملتصق من تكرار هذه الألفاظ، في خدمة الدلالات التي يريد إشاعتها في ممدوحه، فعمل على حسن الإشادة مع أنّ الصورة صورة التكرير والإعادة(33)، فلفت الأنظار، وجذب السامعين إلى الإصغاء ليتمكن المراد في القلب، ويقوى في الوجدان.

2- التصدير بالتكرار:

يستغلّ ابن هانئ أسلوب التصدير في تداخله وتضافره مع أسلوب التكرار ليثري الدلالات التي يريد توضيحها وتقويتها في معزياته، حيث شكّل هذا اللون البديعي ظاهرة بارزة فيها، وحظي باهتمام كبير من الشاعر، ومن أحسن أمثله ما قاله(34):

لَيْسَتْ سَمَاءُ اللَّهِ مَا تَرَوْنَهَا لَكِنَّ أَرْضًا تَحْتَوِيهِ سَمَاءُ (الكامل)

لَوْ كُنْتَ قَبْلُ تَكُونُ جَامِعَ شَمَلْنَا مَا نَيْلٍ مِنْ حُرْمَاتِنَا مَا نَيْلًا (الكامل)

فَلَا يَسْغُ لِلْوَرَى إِمْهَالُهُ كَرَمًا فَإِنَّمَا تُدْرِكُ الْغَايَاتُ بِإِمْهَالٍ (البيسط)

لَحَدَّثْتُ نَفْسِي أَنَّي كُنْتُ حَالِمًا وَإِنْ لَمْ أَكُنْ فِيمَا رَأَيْتُ بِحَالِمٍ (الطويل)

كرّر ابن هانئ كلمة «سما» لفظاً ومعنى ليقول إنّ الإمام لا يعيش إلا في المكان السّامي، ويدعوننا إلى التّصديق بأنّ السّماء الحقيقية هي الأرض التي تحوي المعز بين أحضانها كونه شخصاً فوق العادة، فلا بدّ أن تكون أرضه من نوع خاص (أرض السّماء)؛ لأنّ الأرض هي مأوى النّاس العاديين. بينما أحوّلت لفظة «ما نَيْلًا» التي تردّت في آخر عجز البيت التّالي وأوله إلى استحالة إصابة الدّولة الفاطمية بمكروه لو وجد المعز بها فيما مضى، فهو الجامع لشملها، الدّائد عن حياضها، وكذا الأمر بالنّسبة للبيت التّالث، فالترابط الصّوتي قائم بين (إمهاله، المهل) مع أنّ المكرّرين متّفقين في المعنى لشدّة الفكر إلى الدّلالة المقصودة، وهي تحذير الشّاعر لأعداء المعز من عدم الاستكانة إلى إمهاله إيّاهم، والاطمئنان لذلك، إذ أنّ هذا التّأني هو ما سيبلّغه الغاية فيهم بالنّكاية والقتل.

وقد جاءت الإشارة والتّركيز في البيت الرّابع على لفظة «حالم» التي ربط الشّاعر بوساطتها عجز البيت بصدره، ليلغي الوهم الذي جعله يشكّ فيما رأت عيناه من علامات «فتح مصر» مما يسمح بالقول إنّ ابن هانئ قد أورد هذه التّرديدات لتقوية معانيها، وتجميل الألفاظ، من خلال الرّنة الموسيقية والانسجام بين اللفظتين المكرّرتين لما بينهما من اتّفاق تام؛ لأنّ الكلام الذي تردّد ألفاظه ويرجع بعضها إلى البعض الآخر فيه تقرير، وبيان،

وتدليل(35)، مما يبعد هذا الأسلوب عن الزخرفة والتلاعب اللفظي، ويجعله وسيلة بلاغية مزدوجة الفائدة؛ تضمّ الصوت إلى الدلالة، فيتضاعف التأثير الجمالي، ويقوى عنصر التبليغ.

ج- التّرصيع:

"هو أن يتوَحَّى فيه تصبير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به، أو من جنس واحد في التّصريف"(36)، والتّرصيع كالتّسجيع في كونه يجزئ البيت إمّا ثلاثة أجزاء، إن كان سداسيا، أو أربعة إن كان ثمانيا(37)، ولقد تفنّن ابن هانئ في هذا الأسلوب وأغرق، فقسّم البيت لا إلى وحدتين متوازيتين فقط، بل إلى ثلاث وحتى أربع وحدات، وختم كلّ وحدة أحيانا بقافية مماثلة للقافية الختامية(38)، وجاء في معزياته على أنواع كثيرة منها التّقسيم الثلاثي كما في قوله(39).

لَكَ حُسْنُهُ مُتَقَلِّدًا، وَبَهَاؤُهُ مُتَنَكِّبًا، وَمُضَاوُهُ مَسْلُولا (الكامل)

.....

فَلِغَايَتِي مُسْتَقْصِرٌ، وَلِمَقُولِي مُسْتَعْجِزٌ، وَلِهَاجِسِي مُسْتَجْهِلٌ (الكامل)

رصع ابن هانئ هذه الأبيات مقسّما إياها إلى مقاطع ثلاثة متوازية، كان لها بالغ الأثر في شدّ النفس إلى هذا النوع من الإيقاع، وإعمال الفكر للوصول إلى المعنى المراد من هذا التّوظيف، فها هو يشير في البيت الأوّل إلى نجاعة سيف الممدوح كيفما استعمله؛ إذ هو حسن إذا ما تقلّده، وبهيّ إذا ما تنكّبه، ومنفذ الضربة إذا ما سلّه وجرّده. أمّا البيت الثّاني فأبان التّرصيع فيه عن المحبّة الشّديدة التي يكنّها ابن هانئ لممدوحه، والتي كانت غاية مدحه قاصرة عن إظهارها، ولسانه عاجزا، وفكره جاهلا عن إيفاء هذا الإمام حقّه منها.

ويلجأ الشاعر في معزياته إلى الاعتماد على اللون ذي التقسيم الرباعي من التّرصيع لتفجير دلالاتها، فيورد منه ما نصّه (40):

فُوْأْدَكَ حَفَّاقٌ، وَوَكْرَكَ نَارِحٌ وَرَوْضُكَ مَطْلُولٌ، وَبَانَكَ مَهْضُوبٌ (الطويل)

.....

وَأَشْعَلَ وَرْدِيَّ، وَأَشْقَرَ مُذْهَبٍ وَأَدْهَمَ وَضَّاحٍ، وَأَشْهَبَ أَقْمَرًا (الطويل)

.....

وَإِنَابَةٌ مُنْقَادَةٌ، وَإِتَاوَةٌ وَرِسَالَةٌ مُعْتَادَةٌ، وَرَسُولٌ (الكامل)

استغل ابن هاني القيمة الصوتية لأسلوب التّرصيع لما فيه من تقسيم، وتوازن، وتماتل ليؤثر تأثيرا قويا في النفس، ويحرك الفهم إلى الدلالة المتوخاة منه في هذه الأبيات؛ حيث أفاد الإبانة عن حالة هذا الحمام الذي يضطرب خوفا من الانفراد، وبعد الوكر، ودروس الروض والبان، إلى الدلالة على الخيل وأوصافها، إلى وصف خضوع أعداء المعز من البطاريق لسلطانه، والإذعان إليه، ومحاولة التماس الصلح لديه عن طريق تقديم الأتاوات، وبعث الرسل، وما إليها من وسائل الهدنة، لتتضح إجادة الشاعر في استثمار هذا التقسيم الرباعي لأبياته لخدمة المعنى، فضلا عن زيادة الرنين في الكلام الفني، مما يجعله يرسخ سريعا في الذاكرة، ويبقى متمكنا ثابتا فيها(41).

ويغرق ابن هاني في تقسيم أبيات معزياته إلى ست وحدات متوازية، فلا يكون النجاح حليفه دائما، إذ يوقعه ذلك أحيانا في التراكم المعجمي الذي يضطره لطلب القافية الداخلية(42) مثل قوله(43):

هَادِي رَشَادٍ، وَبَرْهَانٍ وَمَوْعِظَةٍ وَبَيْنَاتٍ، وَتَوْفِيقٍ، وَتَسْدِيدٍ (البيسط)

غَدَاةَ غَدَتٍ مِنْ أَبْلَقٍ وَمَجْرَعٍ وَوَرْدٍ، وَيَحْمُومٍ، وَأَصْدَى، وَأَشْقَرَ (الطويل)

فَتَقَدَّمَ، وَتَنَصَّبَا، وَتَذَلَّقَا وَتَلَطَّفَا، وَتَشَرَّفَا، وَتَحَرَّفَا (الكامل)

فالشاعر يورد هذه التّرصيعات ليحشد أكبر قدر من الألفاظ التي لا طائل من ورائها إلا التّراكم المعجمي الذي غرضه تعداد صفات الإمام، وأوصاف الخيل، وأحوالها مما يمكن الاستغناء عنه دون الإخلال بالمعنى، وعلى الرغم من هذا، فإنّ ابن هانئ كان يضمّ الدلالة الصّوتية لهذا الأسلوب إلى القيمة الدلالية، لإثارة الانفعال المناسب، فيقوى عنصر التبليغ والتأثير، ويحسن.

د- العكس والتّبديل:

"هو أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأوّل" ويسميه بعضهم "التّبديل" (44)، بمعنى أن يقدّم جزء في الكلام ثم يؤخّر (45)، وهذا يقتضي تكرار الجزئين الواقع فيهما العكس بالتّقديم والتأخير (46)، وقد كان ابن هانئ مقلّاً في استعماله لهذا الأسلوب الكزّ، فلم يستعن به إلا في حالات خاصة، ومواقف معيّنة حين تعوزه الوسائل المناسبة لحالات التّقابل والتناظر، ومن أحسن الأمثلة عليه من معزياته قوله (47):

هُمُ أَهْلُ جَرَاهَا وَأَنْتَ ابْنُ حَرْبِهَا فِي الْقُرْبِ تَبْعِيدُ، وَفِي الْبُعْدِ تَقْرِبُ (الطويل)

.....

وَلَمْ يَتَأَخَّرْ مَنْ يُرِيدُ تَقَدُّمًا وَلَمْ يَتَقَدَّمْ مَنْ يُرِيدُ تَأَخُّرًا (الطويل)

.....

يُلْهِهِمْ زَمْرُ الْمَثَانِي كُلَّمَا أَلْهَأَكُمُ الْمَثْبِيُّ وَالْمِزْمَازُ (الكامل)

.....

وَبَعَثَتْ بِالْأَسْطُولِ يَحْمِلُ عُدَّةً فَأَتَيْنَا بِالْعُدَّةِ الْأَسْطُولُ (الكامل)

.....

فَطَوَّرًا تَرَاهُ مُؤَدَّمًا غَيْرُ مُبَشَّرٍ وَطَوَّرًا تَرَاهُ مُبَشَّرًا غَيْرَ مُؤَدَّمٍ (الطويل)

لاشكّ في أنّ التّبديل يدلّ على الكثير من المعاني والأغراض ويقرّرها، بسبب ما فيه من تكرار الجزعين الواقع فيهما العكس بالتّقديم والتّأخير، ولم يخف ذلك على الشّاعر، فقد كان يستعين به لاسيما حين يريد التّعبير عن المعاني المتقابلة، أو المتناقضة كمقابلته بين حروب المعز ضدّ الروم في المشرق على بعد دياره عنهم (المغرب)، وتخاذل بني العباس عن فعل ذلك على الرّغم من قرب ديارهم منهم، وذلك لانشغالهم عن أمور الجهاد باللّهُو والمجون، في الوقت الذي انشغل الإمام وسراة أتباعه وأشياعه بقراءة آي الذّكر الحكيم، والذّود عن ثغور الدّين بالجهاد ضدّ المارقين، من الروم الذّين عادت عدّتهم وعتادهم بالنّفع على المعز وجيوشه، وصارت في قبضتهم.

فلم يكن التّعبير عن مثل هذه المواقف المقلوبة ليتم لو لم يقلب الشّاعر الألفاظ ويغيّر مواقعها تقدّما وتأخيرا (ففي القرب تبعيد، وفي البعد تقريب)، (يلهيهم زمر المثاني، ألهاكم المثي والمزمار)، (بعثت بالأسطول يحمل عدّة، فأثابنا بالعدّة الأسطول) ليدلّ على تبادل أدوار الممدوح. كما قدّم ابن هانئ لفظتي «يتأخّر» و «مؤدّما» ثمّ أخرهما، وكذا الأمر بالنّسبة لـ «يتقدّم» و «مبشر» للإحالة بأنّ المعز يجمع بين لين الأدمة، وخشونة البشرة، وحذق في تجريب الأمور تجعله في تقدّم مستمر، وبمنأى عن كلّ تأخير، فكان لا بدّ من قلب مواقع هذه الألفاظ بالتّقديم، والتّأخير للتّعبير عن مثل هذه المواقف المتغيّرة، والأحوال المتبدّلة بتبادل المواقع بين الألفاظ المكرّرة، مما يجعل الكلام بديعا منمقا يشحذ الذّهن ويحرّك الفكر.

وخاصة هذا أنّ معزيات الشّاعر زاخرة بالأساليب البديعية والألوان البلاغية المختلفة من تجنيس، وتصدير، وترصيع، وعكس وتبديل، وكلّها بنى منتجة للنغمية، والجرسية، وأكثرها إغراقا فيها، وتشكّل بما يسمّى «الإيقاع الدّاخلي» الذّي إذا ما أضيف إلى الإيقاع الخارجيّ متمثلا في النّظام

العروضي، يمكن القول إن ابن هانئ جعلهما المطية الذلول التي يصنع بوساطتها الإيقاع، وأنه ولع بالزخارف الشعرية إذ أكثر من جودة الصنعة في معزياته قاصدا الإثارة، وتحريك الانفعال في نفسية متلقيه، وتنمية الإحساس بالجمال لديهم.

الهوامش والإحالات:

- (1) محمد لطفي اليوسفي، الشعر والشعرية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992، ص 270.
- (2) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، 1989، ج1، ص134.
- (3) ناهد أحمد السيد الشعراوي، عناصر الإبداع الفني في شعر عنتر، دار المعرفة الجامعية، مصر، الإسكندرية، (دط)، 1979، ص264.
- (4) اليعلاوي، ابن هانئ المغربي الأندلسي شاعر الدولة الفاطمية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، (دط)، 1985، ص311.
- (5) المرجع نفسه، ص312.
- (6) نظم الشاعر على هذه الأوزان عشرون معزية.
- (7) انظر ديوان ابن هانئ، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985، ط2، 2008.
- الطويل: ورد في القصائد رقم 101، 93، 91، 75، 45، 36، 21، 20، 6.
- الكامل : القصائد رقم 106، :83، 79، 78، 65، 53، 18
- البسيط : القصائد رقم 82 : 58، 22
- (8) حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، (دط)، (دت)، ص269.
- (9) أحمد غراب، موسيقى الشعر: علم العروض والقوافي، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، (دط)، (دت)، ص79.

- (10) يوسف إسماعيل، بنية الإيقاع في الخطاب الشعري: قراءة تحليلية للقصيدة العربية في القرنين السابع والثامن الهجريين، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سورية، 2004 (دط)، ص31.
- (11) نايف معروف وعمرو الأسعد، علم العروض التطبيقي، دار النفائس للطباعة والنشر، والتوزيع، بيروت، لبنان، 2001، ط4، ص55.
- (12) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، 1981، ج1، ص 151.
- (13) محمد كراكي، خصائص الخطاب الشعري في ديوان أبي فراس الحمداني: دراسة صوتية تركيبية، دار هومة، الجزائر، 2003، ص 63.
- (14) عبد الرحمان آلوجي، الإيقاع في الشعر العربي، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1989، ص 70.
- (15) ديوان ابن هانئ الأندلسي، أنظر القصائد رقم: 106 ، 101، 93، 91، 83، 82، 79 ، 75، 70، 58، 53، 36، 22، 21، 20، 6.
- (16) المرجع نفسه ، القصائد رقم 78 ، 65، 45، 18، 2.
- (17) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 3، 1965، ص247.
- (18) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق وتعليق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، (دت)، ص68.
- (19) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص248.
- (20) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (دط)، 2003 ص 17.
- (21) ابن المعتز، البديع، تحقيق: أغناطيوس كراتشوقفسكي، (دط)، (دت)، ص 25.
- (22) القزويني، تلخيص المفاتيح في المعاني و البيان و البديع، تقديم: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، (دط)، 2008، ص 199.
- (23) محمد الواسطي، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين : : دراسة بلاغية نقدية، دار نشر المعرفة، الرباط، ط1 ، 2003، ص 162.
- (24) ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير، تقديم وتحقيق خفي الدين محمد شرف، (دط)، (دت) ، ص108.

- (25) ديوان ابن هانئ، ص 138 ، 141 .
- (26) المصدر نفسه ، ص 84 ، 352 ، 227 ، 165 .
- (27) جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية و للسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دط)، 1998، ص 97.
- (28) ابن رشيق، العمدة، ج 2 ، ص 3.
- (29) ابن أبي الأصبع، تحرير التعبير، ج 2 ، ص 116.
- (30) ابن المعتز، البديع، تحقيق اغناطيوس كراتشوفسكي، (دط)، (دت)، ص 47.
- (31) أبو هلال العسكري، الصناعتين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1989، ص 260.
- (32) ديوان ابن هانئ، ص 105، 88، 76، 46، 19.
- (33) عائشة حسين فريد، وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية، دار قباء للطباعة، والنشر، والتوزيع، القاهرة، (دط)، (دت)، ص 201.
- (34) ديوان ابن هانئ، ص 18، 365، 314، 281.
- (35) عز الدين علي السيد، التكرير بين المثير والتأثير، عالم الكتب، بيروت، ط 1، 1986، ط 2، 1978، ص 228.
- (36) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 80.
- (37) ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير، ج 2 ، ص 302 .
- (38) اليعلاوي، ابن هانئ المغربي الأندلسي، ص 326.
- (39) ديوان ابن هانئ، ص 278.
- (40) المصدر نفسه، ص 292، 166، 42.
- (41) محمد الواسطي، ظاهرة البديع عند الشعراء: دراسة بلاغية نقدية، ص 271.
- (42) اليعلاوي، ابن هانئ المغربي الأندلسي، ص 326.
- (43) ، ديوان ابن هانئ، ص 101، 166، 224 .
- (44) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 411.
- (45) عبد القادر حسين، فن البديع، دار الشروق، ط 1، 1983، ص 64.
- (46) محمد الواسطي، ظاهرة البديع، ص 244.
- (47) ديوان ابن هانئ، ص 356، 288، 186، 45.

المصادر والمراجع:

- (1) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 3، 1965.
- (2) أحمد غراب، موسيقى الشعر: علم العروض والقوافي، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، (دط)، (دت).
- (3) ابن أبي الأصعب، تحرير التعبير، تقديم وتحقيق: خفي الدين محمد شرف، (دط)، (دت)، ج 2.
- (4) جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية و اللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دط)، 1998.
- (5) حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، (دط)، (دت).
- (6) ديوان ابن هانئ الأندلسي، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985، ط2، 2008.
- (7) ابن رشيقي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، 1989، ج1.
- (8) عائشة حسين فريد، وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية، دار قباء للطباعة، والنشر، والتوزيع، القاهرة، (دط)، (دت).
- (9) عبد الرحمان ألوجي، الإيقاع في الشعر العربي، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1989.
- (10) عبد القادر حسين، فن البديع، دار الشروق، ط1، 1983.
- (11) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (دط)، 2003.
- (12) عز الدين علي السيد، التكرير بين المثير والتأثير، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1986، ط2، 1978.
- (13) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق وتعليق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، (دت).

- (14) القزويني، تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية، لبنان، بيروت، (دط)، (دت).
- (15) محمد كراكي، خصائص الخطاب الشعري في ديوان أبي فراس الحمداني: دراسة صوتية تركيبية، دار هومة، الجزائر، 2003.
- (16) محمد لطفي اليوسفي، الشعر والشعرية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992.
- (17) محمد الواسطي، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين: دراسة بلاغية نقدية، دار نشر المعرفة، الرباط، ط1.
- (18) ابن المعتز، البديع، تحقيق: أغناطيوس كراتشوقوفسكي، (دط)، (دت).
- (19) ناهد أحمد السيد الشعراوي، عناصر الإبداع الفني في شعر عنتر، دار المعرفة الجامعية، مصر، الإسكندرية، (دط)، 1979.
- (20) نايف معروف وعمرو الأسعد، علم العروض التطبيقي، دار النفائس للطباعة والنشر، والتوزيع، بيروت، لبنان، 2001، ط5.
- (21) أبو هلال العسكري، الصناعتين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1989.
- (22) اليعلاوي، ابن هانئ المغربي الأندلسي شاعر الدولة الفاطمية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، (دط)، 1985.
- (23) يوسف إسماعيل، بنية الإيقاع في الخطاب الشعري: قراءة تحليلية للقصيدة العربية في القرنين السابع والثامن الهجريين، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سورية، (دط)، 2004.

شرق وغرب. رجولة وأنوثة*

نحو مفهوم المواجهة الحضارية لدى صنع الله إبراهيم

عائشة لكلل

جامعة باجي مختار - عنابة (الجزائر)

الملخص:

يحتكم الصراع بين الشرق والغرب لدى "صنع الله إبراهيم" إلى التفاعلات السلبية، التي يمكن استجلاؤها في إطار المواجهة الحضارية التي تنبني على رؤية مضادة للواقع الحضاري، وذلك كما قدّمته العلاقة بين الرجولة والأنوثة، من منظور حاولت فيه المرأة الغربية تجسير العلاقة مع الشرق، حيث كان حضورها مؤسساً على تحديات حضارية/ ثقافية منحت هذه العلاقة بعداً انفصالياً يستند إلى ثقافة الاختلاف، واتسمت بمنحى تراتبي لصعود قيم وهبوط أخرى في ساحة الصراع، فهل نجحت الأنثى الغربية في مدّ جسر التواصل مع الشرق؟ وهل استطاعت أن تعبّر أنوثتها عن علاقتها الحضارية مع الأنموذج الذكوري الشرقي؟

الكلمات المفتاحية: شرق، غرب، صراع، حضارة، تفاعل، رجولة، أنوثة.

Résumé:

Le conflit entre l'orient et l'occident est régi chez "Sonaa Allah Ibrahim" aux interactions négatives élucidées dans le cadre de la confrontation civilisationnelle qui se construit sur une vision contradictoire du vécu- civilisationnelle, cela comme est présenté par la relation entre la virilité et la féminité d'une perspective à partir de laquelle, la femme occidentale a essayé d'établir une relation avec l'orient, ainsi, sa présence s'appuie sur les défis civilisationnels et culturels, cette relation à conféré une dimension séparatiste qui se fonde sur la culture de la différence, elle est caractérisée par une orientation hiérarchique de l'ascension de certaines valeurs et la chute d'autres dans le champs du conflit.

La femme occidentale a-t-elle réussi à prolonger le pants de la communication avec l'orient? Est-ce que la féminité a pu s'exprimer à propos de sa relation civilisationnelle avec le modèle viril oriental?

Mots clés : Orient, Occident, Conflit, Civilisation, Interaction, Virilité, Féminité.

Abstract:

According to "Sonaa Allah Ibrahim", the conflict between orient and occident is ruled by negative interactions which can be clarified within the framework of civilizational

confrontation based upon an opposed vision to civilized reality, as presented by the relationship between masculinity and femininity, from a perspective where western women has tried to bridge the relationship with the orient, as her presence is based on civilizational/cultural challenges it has given a separatist dimension based on culture of difference it is characterized by a hierarchical trend of rising and falling of values in the arena of conflict.

Has the western female succeeded in extending the bridge of communication with the orient. Was she able to express her femininity about its cultural relationship with the eastern masculine model?

Keywords : Orient, Occident, Conflict, Civilisation, Interaction, Masculinity, Feminity.

تمهيد

يتلخص مفهوم التجربة الأنثوية في نقطة التحوّل التي حصلت في مسار العلاقات بين الشرق والغرب، من خلال البحث عن أبعاد العلاقة بين (البطل/ المرأة) في ظل علاقة (حوار/ صراع) وهي علاقات عابرة تجلّت وفق تصريحات أو اعترافات توهم القارئ باللقاء، بينما يحمل الحوار المتوهم التفاتة حضارية لحقيقة الصدام التي يجسدها الاختلاف؛ فـ« طبيعة الحياة هي الاختلاف (...) والاختلاف تنوع وتباين ولكنه أيضا، إمكانية تعايش... وبدون هذه الإمكانية يستحيل عليه(الوجود) (...) والاختلاف إذا ضرورة وجود، والتعايش ضرورة بقاء»⁽¹⁾، إذ لم يحدّ اللقاء المادي (الجسدي) من الهوية الفاصلة بين عوالم الشخصيات المختلفة حضاريا، وإن اتّخذت صورا متعددة فيبقى جوهرها واحدا، يبدأ (اللقاء) بالكشف عن هوية الآخر وتشخيصه، وينتهي غالبا بالفراق، وهي نتيجة حتمية تملئها طبيعة الوجود، لتبقى رؤية الكاتب رؤية مضادة تنطلق من المرجعية (الشيوعية /الحضارية)، فقد طبعت علاقة البطل بالمرأة الغربية ببعد حضاري يمكن استجلاؤه من خلال وقوفنا عند علاقته مع الشخصيات الغربية (بولين،

وشرلي، وسيلين)، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نتساءل عن إمكانية اعتبار التفاعل لدى "صنع الله" - مبدءا قارا في بناء عالم أحادي يجمع المختلفات في قالب حضاري واحد؟

1- الحضارة بين الحياة والموت

تجلى مفهوم "صنع الله" للحضارة في جملة من القضايا التي ارتبطت بكيفية تمظهرها جماليا، وذلك انطلاقا من موقعها في السرد، فقد قدّم الكاتب تمثّلات هذه القضايا من خلال التعالق الوظيفي للشخصيات، ولكن على نحو تبدو فيه هذه الشخصيات مصنّفة حسب بنيتها الاجتماعية والنفسية والحضارية إلى شخصيات مريضة، تأسست هذه الرؤية على مرجعية يتماثل فيها مرض الشخصيات الأنثوية ومرض الحضارة الغربية، وذلك وفقا لما تقدّمه النصوص الروائية من معطيات يمكن الوقوف عندها بالقراءة والتحليل.

تبدأ قصة مرض الشخصيات مع "شرلي" في رواية "أمريكانلي"، وهي طالبة أمريكية اكتسبت من خلال موقعها في السرد عدّة وظائف، منها ما يتعلق بالمواقف الخاصة ورؤيتها التاريخية والحضارية التي تضمّنها تدخلها بين الحين والآخر، ومنها ما يتعلق ببنائها النفسي والاجتماعي، فهي عبارة عن أنموذج ثقافي وحضاري أساس في البنية السوسيوثقافية الغربية، ولذلك احتلّت موقعا هاما في اللعبة الحضارية وأسهمت في منح النص بعدا تأويليا يتناسق دلاليا مع ما قدّمته، انطلاقا من ربط مرضها بوصفه مفهوما فيزيولوجيا بمرض الحضارة التي تنتمي إليها بوصفه مرضا شموليا كونيا، وذلك بما يكشف عنه حوارها مع "شكري": « ضحكت وقالت: لأنني أنا أيضا أخذ "بروزاك" السنة الماضية وجدت نفسي أتصرف تصرفات غريبة أتشاجر مع أهلي وأبكي، وأتأرجح بين أقصى حالات الفرح واليأس. أخذتني أمي إلى

طبيبة نفسية. ترددت عليها أربع مرات ولم تكن تتحدث كثيرا فقط جملة أو اثنتين. وجهت إلي أسئلة شاملة عن حياتي الجنسية وقالت لي إنني معقدة بسبب صورتي عن نفسي. ألفتني أقول أشياء وأرى أمورا لم تكن تخطر ببالي وكنت أعود من اللقاء مدمرة وفي النهاية أعطتني بروزاك⁽²⁾.

ينضوي المقطع على جملة من المعطيات النصية ذات بعد حضاري تعدّ أنموذجا للحضارة المريضة؛ إذ يمثل التشاجر والانحلال الاجتماعي والتمزق الناجم عن الآفات سماتٍ تميّز الحياة الغربية في "أمريكا"، إضافة إلى التعقيد والتناقض، من حيث تكوينها الاجتماعي، ثم هيمنة الجانب المادي، فالمرض يعني خلخلة في البنية الاجتماعية، إضافة إلى الأضرار النفسية التي تركها الاستعمار في البلدان الشرقية (الجزائر مثلا) كما أشار إلى ذلك "فرانتز فانون" *Frantz Fanan*⁽³⁾ الذي يرى أن الاستعمار رمز للانقسام في الشخصية بين الإنسان وتملك الإنسان، هذا إلى جانب الحصار النفسي الذي تسبب فيه الجانب الاقتصادي الرأسمالي.

كانت الرحلة إلى الغرب موسومة بالعلل ومحكومة بالاضطراب، إذ لم ينف "سلامة موسى" -على الرغم من انتصاره للحضارة الغربية- بعد هذه الأخيرة عن المرض، فـ« حضارة أوروبا هي حضارة القلق والتوتر وأمراض النفس التي لا تحصى، ولكنها أيضا حضارة الاستطلاع والاستقلال والديمقراطية والعلم والاختراع، أي حضارة المصانع وليست حضارة المزارع»⁽⁴⁾.

ولئن كانت أمراض الغرب سمة قارة في حضارتهم، فهذا يعني تموضعها ضمن استراتيجية التراجع التي تمثل الصيغة الأولية لغياب الجانب الروحي للحضارة الغربية، وهي حضارة الآلة والحديد التي ظلت ترقع ثوب تقدّمها الصناعي، متجاهلة صدا آلتها وتآكلها، إذ يرى "روجيه غارودي": أن

الغالبية من هذا المجتمع قد مات الله عندها، لأن الإنسان فيه قد بتر عن بعده الرباني، وهو البحث عن معنى الحياة⁽⁵⁾ التي استبدلت فيه المادة بالإنسان، فاستأصلت أصله واستلبت إنسانيته المتماهية بين الجهل بماهية الوجود وفقدان معنى الحياة، ويكون العقم بذلك النتيجة الحتمية لهذا الوضع الوجودي، وينتفي عن الإنسان طابع التجدد، وتكتسي الحضارة ثوب العاهة الجسدية، هذا ما يحيل إليه عقم "بولين" خليفة "تلميذ الجبرتي" في رواية "العمامة والقبعة": «...قالت في أسي: يبدو أنني لا أحمل...»⁽⁶⁾.

يمثل اللقاء بين "تلميذ الجبرتي" و"بولين" رمزا للقاء الحضاري بين الشرق والغرب في قصة جديدة يحكيها الكاتب انطلاقا من بناء التجربة الأنثوية بين الرجولة والأنوثة والصراع الأزلي بينهما، فالعلاقة بين الشرق والغرب لدى "صنع الله إبراهيم" هي علاقة عقيمة انتهت بالانفصال المشروط بالتباين الثقافي بين العالمين، والصراع في العالم الجديد لدى هنتجتون لن يكون أيديولوجيا أو اقتصاديا، بل سيكون ثقافيا وهو المصدر الغالب للصراع⁽⁷⁾.

مثّلت الحملة الفرنسية مؤشرا دلاليا لإحداثيات التفاعل الذي اتّسم بتشظي على مستوى الوعي بالتباين والتباعد، كما ارتبط اللقاء الأول بسؤال أبدي عن جدوى التداخل الثقافي الذي لم يستطع إلا الانتصار إلى أيديولوجيا الاختلاف، فكيف إذا تعلق الأمر بمستوى آخر من التفاعل المتمثل في الاستعمار.

كان حضور شخصية "بولين" منوطا برؤية للعالم قوامها نظرة تاريخية لقضية الصراع، وهي رؤية تضطلع بدور وظيفي في رسم الحدود والفواصل بين العالمين، ثم الكشف عن عقم الحضارة الغربية في التواصل مع الآخر على الرغم من تبنيها شعار الحرية والعدالة والمساواة، وعجزها عن قبوله على الرغم من حرصها على تملكه.

أما "سيلين" الشخصية الفرنسية التي تعرّف إليها "شكري" في "القانون الفرنسي" في "فرنسا" فقد راحت هي الأخرى تحيك قصة حضارتها، بدءاً بتماھيها في بناء علاقة وهمية مع الراوي، ثم تمضي لتكشف في نهاية المطاف عن مرضها العضوي: « جرعت الكأس الجديد على مرتين ثم وضعت على المائدة ثم قالت لي:

-أنا مصابة بالسرطان

ابتلعت المفاجأة وقلت في هدوء: وماذا في ذلك؟ إنه شيء عادي هذه الأيام» (8).

يمتثل المرض عنصراً قاراً في عملية المساءلة التاريخية، وحضوره بوصفه شرطاً في العلاقة يعني ضموراً الجانب التواصلية بين الشخصيات، باعتبار أن المرض تشخيص لوضع قائم وتنبؤ بالوضع الممكن، ينضوي الوضع القائم على مقياس الحضارة، بأنها حضارة سقيمة عاجزة عن أداء وظيفتها في الحياة وعن حماية أفرادها، إضافة إلى نفيها لضرورة وجود بنية شمولية تجمع البنيات المترابطة لإحداث الاتساق الوظيفي بينها، فالسرطان هو تزايد غير طبيعي للخلايا التي تتسبب في نمو الأورام الخبيثة في عضو محدد من الجسم، ثم انتقالها إلى الخلايا السليمة، وسرطان الحضارة الغربية تزايد عشوائي للسلع والمنتجات الصناعية وسيطرتها على المجالات الاجتماعية والدينية والثقافية، لتتحول الحياة (الجسم) إلى مجرد سوق تباع فيه القيم وتشتري بهدف إنعاش الاقتصاد وسيطرة الرأسمالية على العالم.

إن المتمعن لهذا التراكم المعرفي للعلاقات بين الحدود التشخيصية للسرطان وتمثلها للمرض ليقف ذلك التماثل الصوري بين المرضين (العضوي والحضاري)، « فأوروبا التي كان عليها أن تهدي سعي الإنسانية، قد اتخذت من مشاعل الحضارة (فتيلاً) يحرق بدل أن يضيء، وفي ضوء ما أشعلت

من نار أشاعت وهجها في المستعمرات حتى جارت على أرضها هي، أوربا هذه رأينا الفوضى تنتشر فيها، الفوضى نفسها التي أشاعتها في بقية أجزاء الأرض، والضلال نفسه، بل إنها تجرعت الكأس المحتومة نفسها، كأس الاستسلام لقوى الشر الأسطورية»⁽⁹⁾.

هذه الكأس التي احتوت رؤوس الأموال التي استمدها الغرب من المستعمرات الشرقية، إضافة إلى المنتجات الصناعية، كل ذلك ما لبث أن تحول إلى سرطان ينخر جسد الحضارة الغربية ويفكك بنيتها الاجتماعية، وتنتقل العدوى حتما إلى الشرق، وإن اختلفت صور المرض فالنتيجة واحدة: الموت/الانتحار، فقد رفضت "سيلين" استئصال الورم، وكانت ترى فيه الوجه الجميل لجسدها، كما يرى الغرب في المادية والمواد المسرطنة والديمقراطية الركيذة الأساس لحضارتهم؛ تقول "سيلين": «...لكني أكره البتر والتشويه للجسد»⁽¹⁰⁾. فاستئصال (الورم) أو الجانب المادي المهيمن على الحضارة الغربية هو تشويه لها وإيدان بانتحارها.

وهو ما يتناسب طردا مع ما قدمه "هنتجتون" بقوله: «...فإن الفيروس الغربي بمجرد أن يسكن مجتمعا آخر، يصبح من الصعب استئصاله، الفيروس يبقى، ولكنه غير قاتل، يظل المريض على قيد الحياة، ولكنه يبقى مريضا، القادة السياسيون يمكن أن يصنعوا التاريخ ولكنهم لا يستطيعون الهروب منه، إنهم يصنعون دولا متفرقة ولا يصنعون مجتمعات غربية، ويصيبون بلادهم بعدوى الشيذوفرانيا الثقافية التي تظل ملازمة لها على الدوام»⁽¹¹⁾. هذا عن الدول غير الغربية، فما بالك الدول التي قامت بخلق هذا الفيروس، ولذلك رفضت "سيلين" العلاج على الرغم من معاناتها من حملها للورم، حيث يفضل الغرب فيروساته المادية التي تتخر حضارته وتهدد كيانه وتراهن على وجوده.

حاول "صنع الله" أن يمنح المرأة إطارا دلاليا، من حيث كونها همزة وصل بين ثقافتين متميزتين، وسعت إلى طبع هذه العلاقة بطابع خاص، ولكن حضورها على مسرح الأحداث كان مؤسسا على موضوعة المرض، فكانت بذلك علامة استفهام في الحضارة الغربية، فقد خضعت "سيلين" للعلاج النفسي: «...قالت إنها خضعت للعلاج النفسي طوال ثلاث سنوات. لكنها استفادت من التجربة رغم ما تمثله من ضربة سيكولوجية للمرأة»⁽¹²⁾. وهي محاولة منح المرأة/العرب إطارا حضاريا لكونها تحمل طابعا كونيا وشموليا للوجود وللحضارة، وفي هذا الصدد تكمن الفوارق الحادة بين الحضارات في مدى تفاعلها مع الحضارات الأخرى .

ولئن كانت الحضارة الغربية حضارة موبوءة روحيا وماديا طبقا لما قدمته الصور الدلالية لوظيفة الشخصية الأنثوية في الروايات: "شرلي وبولين وسيلين"، فإن الحضارة الشرقية لم تكن بمنأى عن الوباء، وذلك من خلال تواتر الإشارات إلى مرض "شكري" ومعاناته من هبوط الدورة الدموية وارتفاع الضغط واضطراب الجهاز الهضمي، يقول في ذلك: «...ظهر أستاذ الفيزياء بعد أسبوع وأصرّ أن يصحبني إلى طبيب نفسي»⁽¹³⁾. غير أن الجدير للتمعن هو نقاط الاختلاف بين المرضيين، إذ لم يرفض الراوي الخضوع إلى العلاج، إضافة إلى أن مرضه مزمن وغير قاتل، وما يلاحظ في هذه النقطة أن الحضارة الغربية على يقينها بمرضها لم تحاول القضاء على أسباب الأورام الخبيثة، في حين سعى الراوي إلى التخلص من ربة التخلف التي لازمتها طيلة زمن، وحيث كانت المادية الثمن الذي يدفعه الغربي لبناء عالم تكنولوجي أحادي، كانت الانهزامية الدافع الذي أدى بالشرقي إلى ترقب الحضارة الغربية في انتظار ما تقدّمه من إنجازات.

وهي مرحلة مهمة من مراحل تكوين المجتمع الشرقي، حيث التخلف والعقد النفسية ومركب النقص والانبهار واضطراب الأنا في التعبير عن ذاته، وتهاونه في نزع قناع الآخر وتردده في القضاء على تراتبية الوجود الأحادي، والضمور في مغادرة الحصن الذي بناه الغرب، « هذه هي السياسة التي فتكت في حضارتنا، هي فن الدعاية كوسيلة للوصول. إذن هي شيء من الانهزامية والمكياقلية، هي عمل حياكة نسيج الأقوال ووضع ألوان زاهية تبهر الأنظار (...)» هي هذه الدعاية التي تمازحك وتضحكك وتسليك، حتى إذا وقعت في أحاييلها تبكيك⁽¹⁴⁾، فالحضارة الشرقية حضارة بائسة تحكمها الأهواء والعواطف والمصالح الفردية، هي حضارة مراهقة.

لم تنفِ الإشارات المتكررة إلى سلبيات الحضارة الشرقية وجود إمكانية إعادة بناء الذات وفق إحدائيات حضارية جديدة، ووجود أمل لكسر الحواجز ومحاولة بعث شرارة الحداثة للمضي قُدماً إلى الأمام، فقد عبّر الراوي "شكري" عن مرحلة جديدة من الحياة من خلال بعض الحلول التي قدّمها الطبيب المعالج الذي يحيل -في أكثر تجلياته- إلى المفكر أو المثقف أو صانع الحضارة:

« سألتني "قادية" في شيء من التحدي: لكنك لم تقل لنا كيف يمكن للمصريين أن يتخلصوا من هذا الاكتئاب الجمعي أم هو قدر لا فكاك منه؟ -أعتقد أنه يمكن التخلص منه كما فعلت أنا أو كما أحاول أن أفعل. فلا أزعم أنني قد شفيت تماماً. الأمر يحتاج إلى بعض الوقت.

-تقصد بالمشي؟

-انتشرت الابتسامات على الوجوه

-قلت: أجل

-سبعون مليوناً يمشون؟

-قلت: ليس بالضرورة. الفكرة هي تنشيط الدورة الدموية»⁽¹⁵⁾.

ينبني النص على جملة من المعطيات المتجانسة دلاليا مع الحقيقة، فقد تعمد الكاتب الإشارة إلى قضية الحضارة من منظور مختلف، يبدأ من تحديد الإطار العام وهو التخلف الذي يوحى إليه مصطلح الاكتئاب الجمعي، فكيف للشرق أن يتخلص من تبعيته وانكساره ويتجاوز واقعه المأساوي؟ وقد كان ذلك منوطا بالحل الذي اقترحه الطبيب للسير في ركب التطور الحضاري والتغيير الاجتماعي وتحقيق العدالة الاجتماعية، واستحداث طرق تفكير حديثة تنجح إلى التحليل والشك والتأويل والتحقيق التاريخي، للبحث عن البديل المنطقي (النظام)، والترياق للشفاء من الاكتئاب الجمعي بتنشيط العقل (الدورة الدموية) وتفعيل دور الفكر في بناء صرح المجد، « ومن الواضح أن من أكثر البوادر دلالة على اتجاه مجتمع ما، هو اتجاه أفكاره: فإما أن تكون متجهة إلى الأمام، إلى المستقبل، أو إلى الخلف، اتجاها متقهقرا، اتجاها ملتفتا إلى الماضي بصورة مرضية »⁽¹⁶⁾.

إن ما يميّز أعمال "صنع الله" هو الإطار المعرفي الدقيق، والتحديد التوبوغرافي للحدود التاريخية والجغرافية، ذلك أنه ألصق الاكتئاب الجمعي بالمصريين، ربما يعود ذلك إلى اعتبارهم رمز العروبة ومركز الأمة العربية، ولهذا كان حضور الراوي في النصوص الروائية مبنيا على موقعه السردي بوصفه أنموذجا حضاريا، ووظيفته في تقصي حدود المرض الحضاري وتحديد الترياق، فلا يزال شعاع الأمل لدى الراوي قائما لنهوض الأمم الشرقية/ العربية، وبالمقابل لم يرَ في مرض الحضارة الغربية أملا في العلاج، ما دام الغرب نفسه يرفض استئصال الورم المادي، لتبقى العلاقة بين الشرق والغرب علاقة صراع أبدي يمليه الإطار التفاعلي بين الرجولة والأنوثة.

2- شرق وغرب، رجولة وأنوثة:

يجري التماثل الوظيفي للشخصيات الرئيسية (البطل/ المرأة الغربية) وفق معيار المجانسة بين المفاهيم والصور، فقد ارتبط مفهوم الحضارة بالمرأة في روايات المواجهة الحضارية، وجاء تمثّل هذه العلاقة في الأعمال النقدية بوصفها جوهرًا متعالياً على سلطة النص، وهي علاقة أزلية تعود إلى العصور الغابرة، فقد أخضع "غالي شكري" العلاقة بين الرجل والمرأة إلى الصراع، وعزا ذلك إلى التطور التاريخي ثم خضوع تلك العلاقة إلى مأساة العصر الميكانيكي، منطلقاً من قصص النبلاء في بلاط القصور، عارضاً في أسلوب إقناعي ما قدّمه "فرويد *Freud*" في محاولة التعرف على مأساة الإنسان إزاء طبيعة العلاقات التي تنشأ بينهما⁽¹⁷⁾.

وقد جرى توظيف هذه المواجهة في الأعمال الروائية طبقاً للتغيرات التي طرأت على العالم، انطلاقاً من الأنظمة الاقتصادية العالمية ودخول الغرب إلى الحلبة بوصفه مستعمراً، وهيمنة الحضارة الغربية على العالم، ناهيك عن تراجع صورة الشرق التي أخذت تتميّطاً آخر (الإرهاب، التخلف) لدى الآخر، وعليه فإن « الغرب الروائي عند الأدباء العرب هو ردّ فعل الشرق الروائي عند الأدباء الغربيين، فالشرق امرأة عند الغربيين، لذلك لا بد أن يكون الغرب امرأة عند الأدباء العرب، وهنا يدخل الاستيهام والتمثيل والمكبوت والرغبة والحلم عند الروائيين الغربيين والعرب على حد سواء»⁽¹⁸⁾. كما اختار "صنع الله" نموذج الحضاري الشرقي رجلاً؛ "تلميذ الجبرتي" و"شكري"، وآثر أن تكون البطلة المضادة الغربية امرأة "بولين وشرلي وسيلين".

صنع "صنع الله إبراهيم" لنفسه عالماً روائياً حضارياً، واستلهم من تاريخ العلاقات النفاغلية صوراً جديدة لفعل الحياة، فعامل الكاتب عالم تزاوجت فيه

الثقافات وتجاوزت الأجناس المختلفة، ولكن على نحو يبدو فيه شيء من الاختلاف، من حيث الظروف التي جمعت "تلميذ الجبرتي" بـ"بولين"، وهو زمن الحملة، أما "شكري" فقد كان أستاذا زائرا في "أمريكانلي"، ومشاركا في المؤتمر المنعقد في "فرنسا" في "القانون الفرنسي"، جمعته بالمرأة الغربية علاقات عابرة، وعليه كان الاتصال مؤقتا يحكمه الزمن وإن اتخذ بعدا مستمرا تاريخيا.

لعبت الشخصيات الأنثوية دورا مهما في التعبير عن خصوصيتها من حيث كونها معادلا موضوعيا لمفهوم الحضارة، وذلك كما حدده "جورج طرابيشي" في نقده لأعمال "توفيق الحكيم" الذي عمد إلى « إقامة علاقة مساواة ومماهة ثانية بين سوزي ديبون وأوروبا أو بين سوزي ديبون والغرب، فأوروبا مثلها مثل سوزي ديبون "شقاء، جميلة، رشيقة، ذكية، لكنها خفيفة، أنانية، لا يعينها إلا نفسها واستعباد غيرها"»⁽¹⁹⁾. وهو تمثّل واضح للآخر وتشخيص دقيق لإحداثيات التفاعل الذي يتحدّد طبقا لمواصفات كل طرف من المعادلة. تبدأ الحضارة رحلتها نحو اللقاء والانفصال من خلال جملة من المعايير التي وضعها "صنع الله" في رواياته: الثقافة، الاستعمار، التكنولوجيا، التاريخ، وذلك في إطار ثنائية المادة/الروح، بوصفها جوهر القضية، ولذلك فقد كان اللقاء محكوما بالتحول المضاد للنهايات، على الرغم مما تحيل إليه البداية بالتجاذب بين الطرفين، وهو ما يؤكد الراوي: « قلت لسيلين، أنا سعيد لأنني التقيت بك، قالت بحماس، وأنا أيضا»⁽²⁰⁾. يتماهى الكاتب في إعطاء تفاصيل الصورة التفاعلية بعدا تواصليا يبدأ من توافق البطل والأنثى الغربية، فإلى أي مدى يمكن استيعاب حدود العلاقة بينهما؟

لم يكن الغرب هاجس الراوي، وإنما الثورة على الواقع الذي يعزو فيه قضاياها الجوهرية إلى الغرب، وتمنح حرية الفرد ليد الآخر، فغدا

الغرب/الولايات المتحدة الأمريكية" كما دعاه "جون ستاينيك" "الوحش المفزع" لأنه كبير جدا بحيث يتعذر عليه فهمه⁽²¹⁾. وما يثير الانتباه هنا ذلك التماثل الدلالي بين وصف "شرلي" من قبل "ماهر" صديق الراوي بأنها وحش يأكل الرجال أكلا: «... ما هي أخبار "شرلي"؟ قلت مندهشا. ما لها؟

قال وهو يدير الموتور: لا شيء أريد فقط أن أحذرك، فهي تأكل الرجال أكلا»⁽²²⁾.

جاء تشبيه المرأة الأمريكية بالوحش، وهو رمز للحضارة الغربية التي اكتسبت هذه السمات من خلال جملة من المعطيات النصية، إذ يستقطب الغرب الشرقيين إلى جنته المتوهمة وفقا لما تمنحه من المنجزات والتقنيات الحديثة، بينما تخفي في حقيقتها صورة حقيقية لشبح الموت الذي يلاحق الفرد أينما ذهب، وهنا تكمن المفارقة بين ما تمنحه الأنثى الغربية من سمات « المرأة الديونسيوسية والغريزية، والفريسة السهلة للجهل واللاشعور والحلم (...) فالمرأة في نظر الرجل، تبقى لغزا دائما، وهو يجهل ما تبغي (...) فهي تود لو يكون الرجل بطلا، غير أنها تحاول المستحيل كما تأسره في البيت، وإذا ما رضخ لإرادتها احتقرته وازدرته، إنها من منظوره تجسيد حي وأبدي للتناقض»⁽²³⁾. وهو وصف ينطبق على الغرب باعتبار العلاقة التاريخية التي تجمعها بالشرق، هذا ما تؤكدته كذلك العلاقة بين "ربيع" وزوجته الفرنسية: « قال: زوجتي صاغت نفسها في دور الأم. لكنها امرأة صعبة. فرنسية عجفاء؟ التقطته عندما جاء من عشرين سنة ولأنه لم يكن يعرف غيرها أو لأنها أول تجربة له مع المرأة الأوروبية تزوجها وأحال كل منهما حياة الآخر جحيما»⁽²⁴⁾.

لم يكن التصوير الدقيق لحيثيات التفاعل الحضاري بين العوالم إلا حدثاً طارئاً أوجبه رفض كل من الطرفين الآخر، هذا مقابل الرجل (الشرق) الذي يتجلى في النص بوصفه أبولونيا وعقلانيا⁽²⁵⁾. وعليه تتراءى للقارئ إحدائيات الدلالة التي تقوم على أساس التناقض الحضاري بين (الشرق/الغرب)، وعلى أساس التماثل الوظيفي بين الرجولة والأنوثة، "شكري/شرلي"، ثم القيم التي تعزي إلى الغرب/الأنثى الطابع الغرائزي والمادي والفردية، فالإي مدى يمكن استكناه أواصر تلك العلاقة بين العالمين؟ وهل تمكّن "صنع الله إبراهيم" أن يتمثل طبيعة تلك العلاقة تمثلاً حقيقياً؟

يمكن استجلاء المفاهيم التي سبق تقديمها من خلال تتبع مراحل التراكم الزمني، والوقوف على الكذبة التاريخية المتمثلة في موضوع الاستعمار بوصفه أساس التحول التاريخي والحضاري، فقد تبنى الاستعمار سياسة هدم الشعوب والنهوض على جثتها، وامتصاص دماؤها لسقي بذور الحضارة الغربية، وكانت الحضارة في نظر "شرلي" آلة تتحرك بدماء أمم وقبائل إنسانية دفعت حياتها قرباناً لحركة الاستعمار الغربي: « قالت "شرلي" الأوروبيون جلبوا معهم أمراضاً جديدة دون قصد. ما حدث للهنود الحمر يعد مأساة. لكن يجب اعتبارها من قبيل الأضرار الهامشية التي تواكب انتشار الحضارة»⁽²⁶⁾. فقد قضت الحضارة المادية على أي جدوى للقيم الإنسانية في حضور الآلة التي صارت تنافس الإنسان على المرتبة الأولى.

يضيف "شكري" محاورته للحقيقة الواقعية متمثلاً حيثياتها من خلال الأنثى الغربية ذاتها: «... ثم أضافت ساخرة: نحن أمة من القنلة والقناصة»⁽²⁷⁾، فالحضارة مرادفة للموت، وصار الملفوظان التاليان: "القنلة والقناصة" مصطلحات أساسية ترافق الغرب في كل مجالات الحياة، وصار الغربي

يساوم ثمن بقاءه وسط القيم المريضة ويقنع بئمن بخس لقاء إنسانيته في السوق الرأسمالية.

كما استطاعت "بولين" أن تمدّ جسر التواصل الوهمي بعالم الشرق إثر علاقتها بـ"تلميذ الجبرتي"، فهي شخصية تضطلع بإقامة فواصل حادة بينها وبين ما تسعى إلى تملكه، فالحضارة في مفهوم "بولين" (مادة) يجب الحفاظ عليها، أرادت هذه الشخصية أن تخلق مفهوما يضاها مفهوم "شرلي" من خلال سؤالها الموجه دلاليا: «...وسألتني بعد انصراف فننور: هل أنت مملوك أو تركي أو فلاح؟»

عجبت للسؤال الذي لم يخطر على بالي من قبل. فكرت لحظة ثم قلت: مصري.

قالت: سألقبك إذن بالمصري»⁽²⁸⁾.

تقصّدت "بولين" تجاهل هوية الراوي موضحة بذلك رؤيتها إلى المصري على أنه لا هوية له، فهو إما تركي أو فلاح أو مملوك، ولا حق له في أرض "مصر" الفرنسية، كما كانت إجابة الراوي بالمصري انحرافا للمسار الدلالي، منح الكلمة حمولة دلالية تقضي بالوجود والكيان الذي لا يزعه تعدد الأعراف في "مصر"، تنحصر رؤية "بولين" في ذاتها، ولعل تمركزها هو ما حال دون تفكيرها في غيرها، فقد انفصلت عن زوجها (الجندي البسيط) طمعا في الجاه الذي وجدته لدى "نابليون"، كما أن علاقتها بالراوي لم تتجاوز الحدود المادية التي جمعت به، ولذلك رفضت الزواج به: «...وقالت: ماذا تنتظر أن يحدث لنا؟»

قلت: ننزّوج

انفجرت ضاحكة: نابليون عرض علي الزواج وقال إنه ينوي الطلاق من زوجته جوزفين»⁽²⁹⁾.

يعد هذا المقطع تمثلاً منطقياً لعلاقة مادية مضطربة بين عالمين متميزين، وهو ما يؤكد ذلك الصراع بين الروح والمادة، الأول في إطار ما تملّيه حياة الشرق من تفاعلات اجتماعية، والثاني في إطار ما تقدمه المصالح الشخصية والنزعة الفردية الزائلة، هذا ما يفسره اختيار كل من البطل و"بولين" هديته للآخر وفق رؤيته الخاصة للحضارة: « قدمت إليها الشال الحريري فشكرتني ووضعتني حول عنقها، وأعطتني قطعة حلوى فرنسية عبارة عن حبة كرز مغلفة بالشوكولاتة»⁽³⁰⁾.

كان اختيار كل من الراوي و"بولين" ناجماً عن رؤية كل منهما إلى الآخر، فبينما توجه الراوي إلى (الشال) ذي الطراز التقليدي المليء بالقيم الإنسانية والروحية للصدقة والحب التي لا تبلى مع مرور الزمن وتغيّر الظروف، فضلت "بولين" (قطعة الحلوى) تعبيراً عن النزعة المادية التي تمثّل مظهراً بارزاً أفرزته الصناعة الغربية التي تعتمد إلى تزيف كل شيء في الوجود، فمن تغليف حبة الكرز الطبيعية بالشوكولاتة إلى تزيف العلاقات وطبعها بالهشاشة والزوال حيث تنتهي مع انتهاء قطعة الحلوى، وزوال الروابط الاجتماعية والروحية المبنية على حجاب التكنولوجيا وبهاء التطور الصناعي، وتبقى القيم الإنسانية رهينة المادة المصنّعة المهددة بالزوال، فحضارة الراوي الشرقية حضارة روحية مستمرة لا تبلى مع انتهاء عهد المادة، في حين كانت حضارة "بولين" مادية تخضع إلى مقومات الغريزة الزائلة.

أعطى ذلك التواتر القيمي للمعطيات النفسية والاجتماعية والثقافية كل طرف خصوصية حضارية، عبّر عنها "توفيق الحكيم" بالعلاقة التماثلية بين بطله الرواية الفتاة الشقراء وبين أوروبا، لتعطي كلا من الأنوثة والرجولة معنى

جديدا، وإلى حد ما مفاجئا: فالأنوثة مادة كما تحيل إليه "بولين"، والرجولة روح وواقعية⁽³¹⁾.

لم يخرج وصف العلاقة بين الشرق والغرب عن سرد مظاهر التفاعل بين "شكري" و"بولين"، فقد أعطى كل منهما الحدث بعدا تصويريا، فقد عمد "صنع الله" إلى استكناه حقيقة الوجود من خلال إجراء تجربة المواجهة الحضارية بين شخصياته، وأيا كانت الصور فالنتيجة واحدة، وذلك ما يحيل إليه تمثل آخر لجوهر العلاقة: «... سجلت اللحن على الورقة وقالت: أنا لا أطيق موسيقاكم إنها مجرد أنغام غليظة ورفيعة ذات ضوضاء منفرة»⁽³²⁾. يعد ترفع "بولين" على العادات والتقاليد المصرية تعاليا على خصوصية "مصر" الحضارية التي تمثل الموسيقى إحدى أهم روافدها، ونفيا لهوية الآخر واختراقا لكيونته، فالموسيقى مجرد صورة حضارية وتعبير عن الوجود والكيان ومن ثم عن الخصوصية والهوية، ورفضها يعني رفض الحضارة التي تحويها، ورفض الآخر الذي يتمثلها، والحضارة لا تقاس بمظهرها الخارجي، وإنما بتأثيراتها وبمدى استيعابها من قبل الآخر.

تجلت نظرة "سيلين" للحضارة وفق تحدييدات ثقافية وتاريخية واقتصادية ترنو إلى الاحتكام إلى مبدأ الصراع بوصفه ضرورة تحتمها طبيعة العلاقات الدولية، هذا مقابل "شكري" الذي كان أكثر تفاعلا لإحلال السلام العالمي: «سألنتي ماريان: هل تظن أن هناك مستقبلا للقومية العربية؟

قلت: طبعا فلغة الشعوب العربية ومصالحها واحدة. المشكلة في تفاوت درجات التطور الاقتصادي. القاعدة الصناعية مثلا هي التي ستؤدي إلى نجاح الاتحاد الأوروبي.

اعترضت سيلين: لا أعتقد فالحروب هي الأكثر توقعا بين بلدان الاتحاد الأوروبي السياسات والمصالح متعارضة بين 15 دولة مستقلة. السياسة الزراعية مثلا. وهناك دول جديدة من أوروبا ستضم بعد سنتين. كما أن إسرائيل تطالب بالانضمام المصالح تتضارب»⁽³³⁾.

يحتكم موقف "سيلين" من الواقع إلى ما قدمه كل من "فوكوياما *Fukuyama* وهنتجتون" من أن الصراع بين القوميات والأمم التي تنتمي إلى ثقافات مختلفة سيكون مستقبل العالم الجديد، إذ تنفي "سيلين" عن العالم استقراره نتيجة لتضارب المصالح ونزوع الإنسان إلى الحرب، إذ «تفيد التجربة بأنه متى لم يتمكن الناس من الجهاد في سبيل قضية عادلة بسبب انتصار تلك القضية العادلة في جيل سابق، فإنهم سيجاهدون ضد القضية العادلة سيصارعون من أجل الصراع، أي أنهم سيصارعون لشعورهم بالملل حيث إنهم لا يتخيلون الحياة في العالم دون صراع»⁽³⁴⁾. وعليه يمثل الصراع سمة التفاعل بين دول الاتحاد الأوروبي، وهي نظرة شمولية تضطلع بتقديم مسهب لحقيقة الموجودات من وجهة نظر الآخر لنفسه وللعالم، في حين كان الشرق يتطلع إلى غد أفضل دون شرور، فالقومية العربية مشروع يهدد مصالح الغرب، ونجاحها يعني تنازل الغرب عن مستعمراته.

ترتكز هذه الرؤية إلى منهج "هوبز *Hobbes*" الذي يرى أن الإنسان هو ذئب لأخيه الإنسان⁽³⁵⁾، وعليه فالصراع هو الطريق المثلى للبقاء، واضعا بذلك سمة التشابه بين الإنسان وحياة الغاب، وهو مفهوم يقوم على أساس مادي بحت، تقول "سيلين": «... ما هذا الكلام الفارغ الذي قلته عن الاتحاد الأوروبي والوحدة العربية. ثم تعصبت ونرفزت وقمت واقفا تطلعت إليها مذهولا. وشعرت بأن وجهها قد اتخذ أبعادا أكبر. قلت: لم أفهم.

قالت: أنت تفهم جيدا. وواصلت ثورتها وتبينت قولها فجأة: أنا أكره أبناء المهاجرين ولا أريد العمل معهم»⁽³⁶⁾.

ولئن كان تعصب "سيلين" من قضية السلام العالمي ورفضها للآخر وتكرها لوجوده موقفا نهائيا لفكرة التفاعل، فقد ارتبط ذلك بقلق حضاري وتمزق ثقافي يؤكد انفصالها المفاجئ عن "شكري"، بل وإسقاط القناع الحضاري الذي كان يخفي الوجه الحقيقي للغرب، والكشف عن مواطن التزييف الذي يميز هذه العلاقة، وذلك كما يعبر عنه موقف "سيلين" من الآخر: «ترددت لحظة وهي تتألمني ثم قالت: سنلتقي في عالم آخر أو لا نلتقي»⁽³⁷⁾، يجري تقديم المادة الأيديولوجية للقارئ على نحو يتناسق فيه الخطاب والمضاد، ويتحوّل فيه اللقاء من مجرد اتصال تفرضه طبيعة الوجود إلى خطاب يضطلع بالتعبير عن خصوصية هذا الاتصال الذي لم يلبث أن تحوّل إلى خطاب مضاد ينفي عن الحوار مصداقيته ويحصره في دائرة الصراع.

ارتبط تجلي الأنثى في روايات "صنع الله" بدورها في الكشف عن رؤيتها للعالم وموقفها من الآخر، كما كان حضورها مؤسسا على أيديولوجيا الاختلاف التي هيمنت على النصوص، «ذلك أن للمرأة دلالة رمزية مليئة بالدلالات التاريخية والفنية والحضارية (...) فالموقف من المرأة موقف من الحياة، وهي في الرواية العربية تمثل البديل المنشود، وتجسد عملية البحث عن سبيل إنساني حضاري وثقافي غير موجود في الشرق»⁽³⁸⁾، وفشل المرأة في تجسير العلاقة التراتبية بين العالمين «ليس فشلا ذاتيا بقدر ما هو فشل تاريخي بين المثقف العربي والثقافة الغربية»⁽³⁹⁾، فالنتفاعل بين الذكورة والأنوثة في روايات "صنع الله إبراهيم" تفاعل بين أنموذج شرقي متخلف وحضارة غربية، والعلاقة بينهما علاقة انفصالية يجسدها صراع البطل مع الأنثى.

3- الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبدا

قامت نصوص "صنع الله إبراهيم" على ما يقدّمه الواقع من المفارقات القائمة بين الشرق والغرب وبين مبدأ "كيبليغ *Kipling*" الذي يرى أنهما عالمان متميزان لن يلتقيا أبدا، انطلاقا من أنّ الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبدا⁽⁴⁰⁾. وبهذا نكون إزاء رؤية مغايرة لنهاية الأحداث التي تبدأ بقاء يفرضه اللقاء العلمي في "أمريكانلي" و"القانون الفرنسي"، والاستعماري في "العمامة والقبة"، وهو لقاء متوهم يفسره الانفصال الذي يلي كل لقاء.

استطاع "صنع الله" أن يرسم مسار الرحلة الحضارية بين العوالم المتباينة وفق تحديدات جوهرية تقدمها الشخصيات الأنتوية الغربية، فقد أفرز مشهد خروج الفرنسيين من "مصر" عن موقف "بولين" المناهض للحضارة المادية التي تعتقها، حيث كان قرار عودتها إلى "فرنسا" مؤسسا على نظرة مادية بحتة تخضع إلى ملاسبات الدلالة من حيث سعيها إلى العيش الرغد الذي وجدته لدى "نابليون":

« وجدتُها منفعة وقالت إن كليبّر وافق على رحيلها إلى فرنسا ووقع هذا النبا كالصاعقة.

قلت: لم تذكر لي شيئا من ذلك. أنت التي طلبت العودة؟

قالت: طبعاً، هل تظن أنني أترك نابليون يستمتع بما وصل إليه من مجد وحده

قلت بلهجة ضارعة: وماذا عنا؟

(...) وقالت: سنتساني بسرعة.

قلت: لن يحدث⁽⁴¹⁾.

يمثل تجاهل "بولين" لـ"شكري" /الشرق إسهابا في بناء الفلسفة الفردية للغرب، بما ينضوي عليه ركضها خلف المادة، كان حضورها في الرواية مؤسسا منذ البداية على أسس مادية، فقد أرادت أن تُعوّض ما عانتها في

"فرنسا" فرافقت زوجها إلى الشرق في مغامرة للاستفادة من المستعمرات الجديدة، ولكن سرعان ما أبدلت "نابليون" بالجندي البسيط متجاهلة كل الروابط الروحية التي جمعتها بزوجها طيلة الرحلة الشاقة إلى الشرق، وراحت تعمل لبناء صرح مجدها الخاص بعد حصولها على بعض الامتيازات، ويشير الكاتب في نهاية الرواية إلى مسيرة "بولين": « وقد تحدثت أغلب المراجع عن بولين لسلي فوريه، التي عشقها نابليون في مصر، وذكرت أنه رفض مقابلتها عقب عودتها إلى فرنسا لكنه أهداها قصرا في باريس ومنحا مالية متكررة وفي نفس السنة تزوجت ضابطا في الجيش التركي يدعى دورانشو فحصلت له على بعض وظائف قنصلية متواضعة ثم احترفت الكتابة، (...) وفي عودة الملكية انفصلت عن زوجها وباعت أثاثها ثم رحلت إلى البرازيل مع ضابط سابق في الحرس الامبراطوري بهدف التجارة إذ أخذت معها بضائع فرنسية باعتها في البرازيل واشترت بحصيلتها أخشابا ثمينة عادت بها إلى فرنسا وأخذت تروح وتغدو بين البلدين وهي تشتغل بهذه التجارة الرابحة»⁽⁴²⁾.

أرادت "بولين" أن تمجّد قيم الرأسمالية الغربية بولوجها باب التجارة في الغرب (السوق، البيع والشراء، التبادل، المال)، إذ لم تكن العلاقات والقيم الاجتماعية التي أقامتها "بولين" مع الضباط وغيرهم إلا خطوات منهجية لتحقيق مصالحها الشخصية، وهنا تكمن الحقيقة، حتمية الصدام مع الشرق الذي لا يؤمن بهذه الحياة، وما تفسره حالة الانفصال التي عبّرت عن فشل العلاقة الروحية التي تبناها الراوي، ف« الحضارة ليست إلا صورة للإنسان»⁽⁴³⁾، يتجسد ذلك من خلال المشهد الحوارية:

«... كان الشراب حلوا بعث الدفء في أوصالي وجعلني مرحا وحيّا ثم حزينا، لاحظتُ تغيري فقالت: أنت حزين لذهابي؟»

قلت طبعاً

قالت : ربما أعود وربما تأتي أنت إلى فرنسا

-وكيف أجذك؟

-لا أعرف أين سأكون سأكتب لك عندما أستقر

أوشكت أن أتوسل إليها أن تأخذني معها ولكني لم أفعل، وكنت غاضبا فاستأذنت في الذهاب»⁽⁴⁴⁾.

تتراءى للقارئ إمكانية تحديث الرؤية المضادة الناجمة عن التطور الطارئ على أحداث الرواية، بإعادة هيكلة النص من جديد وفق منظور أنثوي حضاري للعالم، يتحدد بلحظة انعتاق الراوي من ربقة المجهول في الحياة، « موقف الإنسان فيها يتراوح بين ثلاثة محاور هي أن يرى الحياة كما صورت له من أبويه وأساتذته أو من قراءاته. أو أن يرى الحياة كما عاشها حسيا وما اختزنته في ذهنه من ماضي الأحداث التي أبقى منها صورا منتقاة ومزينة بما تميل إليه روحه، أو أن يراها كما اكتشفها ولحظة اكتشاف الحياة هي لحظة الانعتاق. ولكنه انعتاق له طابع الشذوذ في منظار الآخرين، وليس بمقدور الإنسان البقاء آمنا في دائرة هذا الانعتاق إلا في لحظات مسروقة من الزمن»⁽⁴⁵⁾.

حدث فعل انعتاق "تلميذ الحبرتي" من هوسه الحضاري وحواره المتوهم مع الآخر زمن انفصال "بولين" وقرارها العودة إلى غربها، «...اليوم مغادرتها، مشاعري متناقضة فأنا حزين لفراقها وفي الوقت نفسه أشعر بشيء من الارتياح»⁽⁴⁶⁾. بدأ هذا الانعتاق لحظة إدراك الراوي لمكونات الأمور، حيث كان الغرب (بولين) غازيا مستعمرا كائنا غريبا عن البيئة الشرقية جغرافيا وثقافيا ودينيا، كما يمثل خروج الفرنسيين من "مصر" انعتاقا تاليا للمصري

من ربة الحضارة الغربية الوهمية التي جاء بها الاستعمار، فالانعتاق هاجس عبّر عنه "تلميذ الجبرتي" بالارتياح.

فالغرب غرب وإن كسر الحدود الجغرافية، ولم تنته رحلة "صنع الله" الحضارية عند انعتاق المصري من ربة الحضارة (العسكرية) التي جاء بها الغرب المستعمر، فقد قاده تطلّعه الدائم إلى المستقبل إلى لحظة انعتاق ثانية مع "شكري" الذي عرفت مسيرته الحضارية مع "شرلي وسيلين" مشاق التناقض والقلق والاضطراب الناجم عن الاختلاف، فقد نقل "شكري" مشهد خطواته الأخيرة إلى باب الجامعة بالتفصيل، واضعاً القارئ أمام الانعتاق الكلي من جحيم السيطرة الغربية وتمركزه، متحرراً من القيود التي وضعها الغرب باسم الحرية:

« مضيت في الطريقة المظلمة وأنا أتلفت خلفي. توقفت عند ركن البريد ووضعت المظروف الذي احتوي على كشف الدرجات في صندوق "شادويك" ثم اتجهت إلى الدرج. ألقيت نظرة أخيرة على الطريقة وخيل إلي أنني لمحت شخصاً في نهايتها. وتناهى إلى سمعي الأريز الذي سمعته من قبل أو خيّل لي.

لم أتكأ وهبطت الدرج مسرعاً. وكدت أتعثر وأنا أستخرج سلسلة المفاتيح من جيبي. بحثت عن مفتاح الباب الخارجي وأعدته في يدي. فلم أكن واثقاً من أنني سأجده مفتوحاً كما تركته»⁽⁴⁷⁾.

أشار "شكري" إلى عودته إلى وطنه الأصلي وانفصاله بشكل نهائي عن الغرب بشكل تراتبي يبدأ من لقائه الوهمي مع "شرلي"، وينتهي بقرار وضع فاصلة بين العالمين والعودة إلى مصر، كما جعل الكاتب قصة الحضارة في "القانون الفرنسي" تؤول إلى النهاية نفسها، طبقاً لما يطبعه موقف الآخر (سيلين) من الأنا بقولها:

«...قالت لا طبعاً. أنت شخص ساذج.

بدأت أغضب

تستفزني عن عمد؟ مازوخية؟ لكنني لم أصفع امرأة في حياتي ولا حتى رجلاً»⁽⁴⁸⁾. وعليه تتحدد البنية الحضارية للنص، وهي بنية الرفض الناجمة عن تعالي الأنموذج الغربي، كما يكشف النص عن الصورة الحقيقية للعلاقة الحضارية بين العالمين التي يمثلها موقف "سيلين" بقولها: «...ردّي أنك بالضبط إنسان ساذج ومتخلف»⁽⁴⁹⁾، وعليه يتمّ تعيين المفارقات الدلالية للشرق المنعقد من حلمه في مدّ جسر التواصل، والذي مارس دوره الحضاري في هذه القصة بجدارة، وأسفر عن رؤية لا تمّحي ملامحها على مرّ الزمن: « لن أتصل بها ولن أصعد إلى غرفتها ولن أمدد إقامتي. هل سنتلفن وتعتذر أو تأتي وتطرق الباب وتبكي؟

اتصلت بالفندق طالبا إيقاظي في الخامسة صباحاً. أشعلت سيجارة جديدة ومضت ساعة دون أن يذق التليفون»⁽⁵⁰⁾.

انحصر مفهوم الحضارة من منظور الأنثى في دائرة الوهم التي تخبّط فيها الراوي/تلميذ "الجبرتي" و"شكري" فترة زمنية كانت كافية لتحديد مواقع كل من الأنا والآخر في سلسلة الحضارة، بأن لا موقع « للآخر في خارطة التفكير الغربي، فغاية الكمال كما يرى هوسرل أن يكون الآخر غربياً، فحيث الغرب، ثمة منطوق يقود الحياة إلى مصير خالد، وبهذا تترتب شؤون الآخر، بمنظور غربي، لا يريد أن يرى في موضوعه إلا ما يقصد أن يراه هو فعلاً، ويرغب فيه»⁽⁵¹⁾.

أراد "صنع الله" أن يكشف عن مواضع الحقيقة التي تتبني على الصراع، أو كما عبر عنه "هنتجتون" بالكره الذي يمثل « كلية وجود الصراع. الكره شيء إنساني. ولتعريف النفس ودفعها يحتاج الناس إلى أعداء: منافسين في

العمل، خصوصاً في الإنجاز، وفي السياسة، ومن الطبيعي ألا يثق الناس في المختلفين عنهم ومن لديهم القدرة على إلحاق الضرر بهم، بل يرونهم خطراً عليهم. حل صراع ما أو اختفاء عدو ما، يولد قوى شخصية واجتماعية وسياسية تؤدي إلى نشوء صراعات جديدة أو أعداء جدد. نزعة الـ"نحن" والـ"هم" (52).

يمثل الكره معادلاً موضوعياً لنظرية الرفض التي التزم بها الغرب، وفي ذلك إقرار ببنية الاختلاف التي يروّجها للتفريق بين الشعوب والأمم، وتحقيق الهيمنة والانفراد بالتمركز حول ذاته، وفي هذا تأكيد على مقولة "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبداً".

- خاتمة

احتكمت العلاقة بين الشرق والغرب إلى ما قدّمته العلاقة بين الرجولة والأنوثة، فقد كانت المرأة الغربية معادلاً موضوعياً للحضارة، باعتبار ما تحمله من دلالات تاريخية وثقافية أسهمت في وضع إحداثيات المواجهة الحضارية، جرى فيها وسم الحضارة الغربية بأنها مفهوم مرادف للموت طبقاً لما قدّمته النصوص من تمثيلات أيديولوجية لمرض الشخصيات الغربية الأنثوية روحياً ومادياً، اكتست الحضارة الغربية من هذا المنطلق طابعاً مادياً تمّ بموجبه القضاء على فعالية القيم الإنسانية، فصار الإنسان سلعة تستهلك في سوق الرأسمالية، وذلك مقابل الحضارة الشرقية (أو الذكورية) التي جرى وصفها بأنها حضارة متخلفة، ولكن مرضها كان حافزاً لإعادة النظر في ماهية الموجودات، حيث كانت محاولة انعتاق الراوي من علاقته بالأنثى انعتاقاً من ربة التمركز الغربي، وهذا ما حدا بالراوي إلى الرجوع إلى موطنه الأصلي، كشفت شخصيات "صنع الله إبراهيم" عن قلق حضاري

وتمزق ثقافي، وعن زيف التفاعلات الحضارية تأكيداً على بنية الاختلاف التي تفصل بين المثقف العربي الشرقي والثقافة الغربية، وهو بعد مشروط بالانفصال بين الشرق والغرب.

- الهوامش

- * المصطلح مستعار من كتاب: جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، لبنان، د.ط، د.ت.
- ¹ - عبد الله الغدامي، الموقف من الحداثة، ومسائل أخرى، ط2، 1991، ص08.
- ² - صنع الله إبراهيم، أمريكيان، دار المستقبل العربي، القاهرة، مصر، ط1، 2003، ص439.
- ³ - يرى "فانون" أن الاستعمار رمز للانفصام في الشخصية بين الإنسان وتملك الإنسان، من خلال رصده لبعض الحالات الغربية التي كانت تعاني نوبات من جراء التعذيب الذي كانوا يمارسونه في المستوطنات الشرقية، ومن ذلك ما تعرض إليه المفتش الفرنسي الذي طلب من الطبيب أن يساعده على أن يعذب المواطنين دون أن يصاب بالاضطراب، أنظر: فرانتز فانون، معذبو الأرض، تر: سامي الدروبي وجمال الأتاسي، سلسلة السياحة والمجتمع، دار الطليعة، بيروت، د.ط، د.ت، ص159.
- ⁴ - سلامة موسى، ما هي النهضة، ومختارات أخرى، موفم للنشر، د.ط، د.ت، ص130.
- ⁵ - الولايات المتحدة الأمريكية طليعة الانحطاط، كيف نحضر للقرن الحادي والعشرين، ترجمة: مروان حموي، دار الكتاب، سوريا، ط1، 1998، ص26.
- ⁶ - صنع الله إبراهيم، العمامة والقبعة، دار المستقبل العربي، مصر، ط1، 2008، ص211.
- ⁷ - أنظر: صامويل هنتجتون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي الجديد، تر: طلعت الشايب، ط2، 1990، المقدمة، ص10.
- ⁸ - صنع الله إبراهيم، القانون الفرنسي، دار المستقبل العربي، مصر، ط1، 2008، ص217.

- 9 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، (الجزائر، سورية)، ط 5، 1986، ص 132.
- 10 - القانون الفرنسي، ص 218.
- 11 - صدام الحضارات، ص 252.
- 12 - القانون الفرنسي، ص 218.
- 13 - أمريكيانلي، ص 399.
- 14 - ندرة اليازجي، رسائل في حضارة البؤس، مطابع ألف باء، سوريا، د.ط، 1923، ص 83.
- 15 - أمريكيانلي، ص 409.
- 16 - مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، ط 1، 1969، ص 15.
- 17 - أنظر: غالي شكري، أزمة الجنس في القصة العربية، دار الشروق، (مصر، لبنان)، ط 1، 1991، ص 21 وما يليها.
- 18 - جمال مباركي، الغرب في الرواية العربية الحديثة، رسالة دكتوراه، إشراف الأستاذ: الطيب بودربالة، جامعة: العقيد الحاج لخضر، باتنة، 2008، 2009، ص 203.
- 19 - جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، ص 27.
- 20 - القانون الفرنسي، ص 180.
- 21 - أنظر: جيكوموللر-فاهرنهولتر، الصراع على الله في أمريكا، مسيحي أوروبي يعاين الدين المدني، تر: معين الإمام، المملكة العربية السعودية، ط 1، 2010، ص 25.
- 22 - أمريكيانلي، ص 134.
- 23 - جان ديومر، الغرب والخوف من المرأة، مجلة دراسات عربية، العدد 2، السنة 18، ديسمبر 1981، ص 130.
- 24 - القانون الفرنسي، ص 38.
- 25 - أنظر: جان ديومر، الغرب والخوف من المرأة، ص 130.
- 26 - أمريكيانلي، ص 260.
- 27 - المصدر نفسه، ص 465.
- 28 - صنع الله إبراهيم، العمامة والقبعة، ص 91.

- 29 - المصدر نفسه، ص 220.
- 30 - المصدر نفسه، ص 102.
- 31 - أنظر: جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وإنوثة، ص 28.
- 32 - المصدر السابق، ص 105.
- 33 - القانون الفرنسي، ص 222، 223.
- 34 - فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، تر: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مصر، ط1، 1993، ص 287.
- 35 - (l'homme est un loup pour l'homme) Moustapha Safouan, Europe/Moyen-Orient in Conflit ou Dialogue Des Civilisation, une alternative mal posée ? Dialogue des deux rives, Acte du colloque, Fondation du Roie Abdul-Aziz, Casab lanca, 2009, Konrad Adenouer, p 78.
- 36 - القانون الفرنسي، ص 225..
- 37 - المصدر نفسه، ص 226.
- 38 - جمال مبارك، الغرب في الرواية العربية الحديثة، ص 203.
- 39 - المرجع نفسه، ص 203.
- 40 - أنظر:
- Moustapha Safouan, Europe/Moyen-Orient in Conflit ou Dialogue Des p 77.
Civilisation,
- 41 - العمامة والقبعة، ص 219.
- 42 - المصدر نفسه، ص 330، 331.
- 43 - عبد الله الغدامي، الموقف من الحداثة، ص 18.
- 44 - العمامة والقبعة، ص 246.
- 45 - المرجع نفسه، ص 46.
- 46 - العمامة والقبعة، ص 222.
- 47 - أمريكانلي، ص 482، 483.
- 48 - القانون الفرنسي، ص 226.
- 49 - المصدر نفسه، ص 228.
- 50 - المصدر نفسه، ص 226، 227.

- 51 - عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2010، ص 183.
- 52 - صامويل هنتجتون، صدام الحضارات، ص 211.

صراع الحضارات وجدلية الأنا والآخر في رواية "القاهرة الصغيرة" لـ "عمارة لخص"

فريدة دريمدي

جامعة باجي مختار - عنابة

الملخص:

تهدف هذه الدراسة الأدبية التطبيقية إلى معالجة إشكالية صراع الحضارات في رواية القاهرة الصغيرة للروائي الجزائري عمارة لخص، الذي أعطى لتيمة الصراع الحضاري القائم على ثنائيات ضدية تشرح واقع العلاقة المضطربة بين الأوربي والعربي وبالتحديد الإفريقي، انطلاقاً من معالجة موضوع الهجرة، الذي يعكس طبيعة الصراع، كما تهدف الدراسة إلى توضيح إمكانية أن تحول الصراع الحضاري في الرواية إلى حوار ثقافي مبني على الأخذ والعطاء ويدعو إلى التسامح المصالحة بين الأنا والآخر.

الكلمات المفتاحية: صراع الحضارات- حوار الحضارات- الأنا- الآخر الأوربي- الإفريقي- الهجرة.

Résumé:

Cette étude littéraire vise à traiter la problématique du choc des civilisations dans le roman "du Petit Caire" du romancier Algérien "Amara Lakhous", reliant le thème du conflit à la dialectique du Moi et l'Autre, comme binaires antithétiques expliquant la réalité de la relation trouble entre l'Européen et l'Arabe et en particulier celui d'Afrique, à commencer par le traitement de la question de l'immigration qui reflète la nature du conflit. Cette étude vise aussi à clarifier la possibilité de la transformation du conflit culturel dans le roman en un dialogue culturel fondé sur l'échange et l'interaction, et appelle à la tolérance et à la réconciliation entre le Moi et l'Autre.

Les mots clé: choc des civilisations - Dialogue des civilisations - Le Moi - l'Autre - l'Européen - l'Africain - l'immigration.

Summary:

The aim of this applied literature study is to study the problems of conflict of civilizations in the Cairo Algerian novelist "Amara Lakhous's novel "Small Cairo" and to link civilizations conflict with the conflict of the "ego and the other" as contradicted dualities in order to explain the reality of troubled relationships between European and Arab particularly African Arab and through addressing the issue of immigration which reflects the nature of the

conflict. The study also aims at clarifying the possibility of turning the cultural conflict in the novel into cultural dialogue based on "give and take" tolerance and reconciliation between the ego and the other.

Key words: the conflict of civilization- the dialogue of civilization -The ego - the other – European - African – immigration .

المقدمة:

يعتبر موضوع صراع الحضارات من أبرز القضايا التي اهتم بها النقاد والمبدعون في الآونة الأخيرة، وذلك لعلاقة هذه الإشكالية بإشكالية الأنا والآخر وصراع الهويات وإشكالية المثاقفة، التي تعتبر قناة مهمة للتواصل بين الحضارات، وذلك لإحداث نوع من التعايش والانفتاح على ثقافات الآخر، وقد تناول الكثير من الروائيين الجزائريين إشكالية صراع الحضارات مع اختلاف طريقة طرحها ومعالجتها باختلاف وجهات النظر وعلاقات كل كاتب، وظروفه الخاصة، ومن أبرز الروائيين الجزائريين الذين تناولوا هذه الإشكالية بوجهة نظر موسعة، تتم عن بعد مرجعي واقعي شخصي، ومعاش نجد الروائي الجزائري المغترب في إيطاليا عمارة لخص، حيث انطلقت معظم رواياته من فكرة صراع الحضارات، وإشكالية علاقة الأنا والآخر، وتعد رواية القاهرة الصغيرة من أبرز رواياته التي تناولت هذه القضايا، ولهذا اخترناها مصدرا لدراسة إشكالية صراع الحضارات، محاولين تبيان أشكال الصراع الحضاري في وأبعاده، إضافة إلى إمكانية تحول هذا الصراع إلى حوار ثقافات وتصالح مع الآخر، أم أن هذا الصراع يبقى مستمرا لظروف معينة؟ وهل تعتبر الهجرة إلى بلاد الآخر تبنيًا لهوية هذا الآخر وتخليًا عن الهوية الوطنية؟ أم يظل المهاجر في صراع مع ذاته ومع الآخر لتحديد هوية هجينة لا تعترف بالذات ولا تلغي الآخر؟

1/ الإطار المفاهيمي:

أ/ مفهوم الأنا: ينبنى مفهوم الأنا على التبعية والهيمنة، ويمثل الأنا الذات العربية والإفريقية مقابل الآخر المستبد الذي يفرض مقولة مفادها أنه لا وجود للأنا دون الآخر كمفهوم استراتيجي إمبريالي، وهنا يتحدد موقع الآخر ودلالته ووظيفته، ويرتبط مفهوم الأنا بمفهوم الهوية وعلاقته بتثنائية الشرق والغرب، ولذلك صورت الرواية الأنا كمفهوم يرتبط بصورة الآخر الحضاري، باعتبار أن: «صورتنا عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر، كما أن صورة الآخر تعكس بمعنى ما صورة الذات»¹.

ولم يرتبط الأنا بالآخر إلا من خلال اعتراف الأنا بأهمية الآخر، إذ لا تعرف الأنا بمعزل عن هذا الآخر: «فالأخر يدخل عنصرا مقوما في صميم وجود الأنا، وماهيتها والأنا بذلك لا تكون إلا من خلال توقعها على الآخر، واستقلالها عنه في وقت واحد»².

ب/ مفهوم الآخر: يعرف عبد الرحمن بدوي الآخر من خلال الإقرار بوجود أنا مختلفة ومناقضة للآخر الذي يكون هويته بمعزل عن الآخر فيقول: «الآخر صفة كل ما هو غير أنا، وفكرة الآخر بمعنى غير الأنا مقولة ابستمولوجية ملخصها الإقرار بوجود خارج الذات العارفة أي كينونات موضوعية»³.

ارتبط الآخر في بعده المفاهيمي بذلك الطرف المهيمن والمستبد؛ وهو الآخر الأوربي المستعمر بكسر الميم، أي بالحضارة الأوروبية الغربية الذي نفهم دلالاته من السياق، ويمكن أن يتحدد هذا الآخر: «باعتباره البعد السياسي أو الجغرافي، أو الاقتصادي، وهو قد يكون أوروبا أو الدولة المتقدمة عموما، أو الآخر المختلف دينيا، أو حضاريا، أو هو كل هذا معا، فالخلط شائع ولم

يقع تحديد الحقول الدلالية لهذا المصطلح، وإنما وقع التعامل مع الغرب باعتباره مسلمة لا تثير السؤال، وهو عادة نقيض للعرب ومقابل له»⁴.

ج/ مفهوم صراع الحضارات: يعرف بصدام الحضارات، ويتحدد مفهوم الصراع الحضاري في الكثير من الأحيان بصراع الأفكار والمعتقدات، وصراع الثقافات بين الشرق والغرب، وتعد بؤرة الصراع هي عقدة الكره والحقن للإسلام والمسلمين ومعادتهم وهذا ما أدى إلى تعميق الهوة بين الشرق والغرب.

عدت إشكالية الصراع الحضاري في الرواية أهم تيمة تطرحها الرواية، كما يشير هذا المصطلح إلى الاختلافات السياسية والاقتصادية؛ حيث أفرزت هذه القضية عدة عوامل أبرزها العوامل السياسية، والعسكرية، وانهيار الاتحاد السوفياتي ومحاولة الـ "و.م.أ" فرض هيمنتها على العالم، كل هذه الأحداث تزامنت مع محاولة الليبرالية الجديدة المتطرفة استغلال ظاهرة العولمة لفرض إيديولوجياتها، وتكريس مبدأ الهيمنة والمركزية.

د/ حوار الحضارات: يحيل هذا المصطلح إلى معنى التسامح الحوار والقدرة على التكيف، والتفاعل، والتواصل الإيجابي بين الشعوب، مهما اختلفت وتباينت توجهاتها الدينية والفكرية والثقافية، ويشير عبد الرزاق الداوي إلى أن الحوار بين الثقافات يتوجب توفر أخلاقيات في جميع «المبادرات الرامية إلى إنعاشه وتفعيله وجعله مثمرا، فلكي يرسى على أسس سليمة، ينبغي أن يقوم على مبادئ أساسية لعل أهمها: التسامح، والاعتراف بحق الاختلاف الثقافي، وممارسة النقد والنقد الذاتي»⁵.

2/ مضمون رواية القاهرة الصغيرة وعلاقة العنوان بفضاء النص:

تدور أحداث الرواية حول كريستان الإيطالي بين المهاجرين العرب والمسلمين في حي ماركوني بروما لكشف عملية إرهابية مرتقبة وصل صداها إلى الاستخبارات الإيطالية. وقد وقع الاختيار عليه لكفاءته اللغوية وقدرته على التحدث باللهجة التونسية بطلاقة. يبدأ كريستيان مهمته السرية بعد أن يتقمص شخصية عيسى التونسي، ويتحول إلى شاب بشارب بارز يعمل غسالا للصحون، ويقوم في بيت جماعي لا يملك فيه سوى الفراش الذي ينام فيه. يتقاطع مصيره مع مصير صوفيا الشابة المصرية المحجبة التي تعيش مرحلة عصيبة في حياتها، إذ تضع ثقافتها العربية الإسلامية تحت مجهر تجربتها مع البيئة الجديدة لغويا ودينيا وثقافيا.

تعدّ رواية القاهرة الصغيرة مسرحا أو كوميديا على الطريقة الإيطالية كما يقول الروائي - لأحداث ووقائع تتداخل فيها العديد من المتناقضات: الانفتاح والانغلاق، الجد والهزل، المعقول والعشّي، الأمل واليأس، الحب والخوف. ولذلك ارتبطت هذه الثنائيات بالفضاء الجغرافي للرواية حيث تدور أحداثها في حي من الأحياء الإيطالية الذي يعتبر استنساخا لبيئة عربية موبوءة بأفكار ورؤى متعددة ومتناقضة تختزل العلاقة العدائية بين الشرق والغرب، ليختزل عنوان الرواية القاهرة الصغيرة، أحداث في غير بيئتها الحقيقية، بل هي بيئة إيطالية التضاريس والانتماء الجغرافي، لكن شخوصها عرب ومسلمين في عاداتهم وأساليب معيشتهم فمعظمهم مصري الجنسية إضافة إلى شخصيات جزائرية وأخرى تونسية يتقاسمون غرفة واحدة في حي ماركوني، ولهم علاقات متعددة مع الآخر الإيطالي، يتوسلون من خلال هذه العلاقات معيشة أفضل داخل مجتمع يعدهم بمستقبل أفضل.

3/ أشكال الصراع الحضاري في الرواية:

أ/ الصراع الديني والعقائدي: تعتبر الثقافة أبرز عوامل الصراع الحضاري ذلك أن كل فرد يحاول التمسك بثقافته من خلال إشاعتها والترويج لها وذلك عن طريق مقارنتها مع باقي الثقافات بغرض الهيمنة لكونه يرى في ثقافته مثالا للتقدم ورمزا للعلو والهيمنة، وما دونها فهو دوني لا قيمة له، وهذا ما تعانيه الثقافة العربية والإسلامية بالنسبة للثقافة الغربية، ولذلك أصبح العرب يرون في الثقافة الغربية مركز القوة و دليل التحضر وهذا ما جعلهم ينسجمون معها حد التماهي ويستعيرون منها أفكار وعادات دخيلة عن المجتمع العربي يرون فيها تميزا ورقيا حضاريا، وهذا يصنف فيما اصطلح عليه بالمتاقفة التي اتخذت مفهوما استعماريا، يرسخ فكرة المركزية الأوروبية، ولذلك عدت المتاقفة شكلا من أشكال الصراع بين الحضارات، هذه الأخيرة التي تحاول تشويه الثقافة العربية من خلال اتهاماتها التي تستمد جذورها ومشروعيتها من عدااء تاريخي قديم وخوف هستيري اتجاه كل من هو مسلم فالإسلام بالنسبة لهؤلاء مصدر للقسوة والظلم والإجحاف في حق الآخرين بل هو عنوان لكل الشرور وهذا ما تصوره رواية القاهرة الصغيرة على لسان صوفيا تعرض موقف الرأي العام الإيطالي من الإسلام والمسلمين: «إن الشر متجذر في الإسلام وقد أنتج العنف والصراعات على مر القرون، الطامة الكبرى هي أن المسلمين لا يعرفون معنى الحب»⁶.

هذه هي صورة الإسلام عند الأوربيين، إنها صورة للعنف والظلم حيث جرد المسلم من كل إنسانية ووصف بالتخلف والبداءة والهمجية، وتعد شخصية صوفيا المهاجرة المصرية في إيطاليا مثالا حيا على الإنسان العربي السلبي المقصي لذاته و هويته العربية الإسلامية، بمجاراتها لموقف الغرب

من الإسلام ومن الشخصية العربية المسلمة حيث تقول: «رحت أكرر في ذهني هذه الجملة "الطامة الكبرى هي أن المسلمين لا يعرفون معنى الحب هذا حكم في منتهى الخطورة ولا يقبل الاستئناف ومعناه أننا حيوانات وهمج لا نمت للإنسانية بصلة، لذلك ليس لنا الحق في الوجود»⁷.

قدم الراوي على لسان شخصية صوفيا رؤية حيادية، تركز فكرة الانسلاخ عن الهوية والتخلي عن معالم الذات الجماعية وتقبل إقصاء الآخر لها، إنها تحكم على هذا الموقف بأنه موقف نهائي لا يقبل الاستئناف، وهنا تطرح الرواية جدلية الأنا والآخر المبنية على عنصرى الإقصاء والتهميش، باعتبار الأنا هامشا، والآخر يمثل مركزا للهيمنة؛ ولذلك تتبنى صوفيا مقولة إنسانية الغرب المسيحي ولا إنسانية العربي المسلم، وهذه بؤرة الصراع الثقافي والعقائدي بين القطبيين.

ب/ صراع الأنا والآخر في ظل العولمة: ظلت إشكالية الأنا والآخر من أهم الأفكار التي شغلت المفكرين والمتقنون العرب، فاختلفت الآراء حول طبيعة هذه العلاقة هل هي علاقة صراع أم حوار، وتجمع أبحاث المفكرين بأن العلاقة بين الذات والآخر انتقلت من الصراع والإقصاء إلى الحوار وتقبل الآخر، ويعود هذا إلى العلاقة التاريخية بين الأنا والآخر المبنية على الاستعمار، والاضطهاد، والتبعية، ولكن الصراع في حد ذاته يولد نوعا من الحوار المبني على ضرورة معرفة الآخر بسلبياته وإيجابياته، ولكن بوجود فعل إنساني لإرادتي يجعلنا نحتك بالآخر دون النظر إلى العلاقة التاريخية السوداء (الاستعمار) لأن وعي الإنسان: «لا يتشكل بصورة حقيقية إلا حين يبدأ بوعي علاقته بالآخر الذي يعد نقيضا ومكملا، في الوقت نفسه للأنا»⁸، ولكن نجد الأنا في الكثير من المواقف تعترف بعدالة الآخر وتبنيها

له ولعل هذا ما جاء على لسان إحدى شخصيات الرواية حيث تتبنى هذه الشخصية الموقف الإيجابي من الآخر فتشرح لنا اعتراف الآخر الإيطالي بحقوق المهاجرين القانونيين في إيطاليا من خلال شرح مادتي الدستور اللتان تقران بحقوقه: «لكل المواطنين نفس القدر من الكرامة الاجتماعية، وهم سواسية أمام القانون دون تمييز في الجنس، أو العرق، أو اللغة، أو الدين، أو الأفكار السياسية، أو الأوضاع الشخصية، والاجتماعية (...) للجميع حق ممارسة معتقداتهم الدينية بحرية وبأي شكل»⁹.

ولذلك فالحوار بين الأنا والآخر تحكمه عوامل مختلفة ومتشعبة تجعل كلا منهما في مواجهة الآخر، فالأنا دائما تبقى متمسكة بخصوصيتها الثقافية، رغم التصادمات التي يطرحها الواقع الإنساني الذي سادته هيمنة ثقافة على أخرى، وتحدي قطب للآخر، وهذا ما أبعد الحضارة العربية الإسلامية عن هويتها، فأصبحت معرضة لإمكانية الانسلاخ عن الهوية الذاتية والذوبان في الثقافة الأوروبية المركزية السائدة في عصر العولمة والليبرالية، ولهذا يأخذ الصراع بعدا آخر يبتعد عن المستوى الاجتماعي، ليؤول إلى صراع كامن في اللاوعي الداخلي، أين يحس الفرد ذاته منقسمة بين الأخذ بمبدأ التمسك بثقافته، أو التبعية لثقافة الآخر الأوروبي، وهنا برز خطابا ثقافيا أقر بمشروعية الهيمنة ومركزية الحوار، وتقويض ثقافة الهامش ومركزية الذات الأوروبية بثقافات مختلفة، وهنا تركزت فكرة الهيمنة للأوروبي والتبعية للأنا، ولكن العلاقة بين الذات والآخر أخذت بعدا آخر وهو فكرة التعايش والحوار والتواصل الحضاري ونفي فكرة التبعية والصراع والهيمنة.

إلا أن المتقف العربي ظل -عندما اكتشف حقيقة ذاته بالنسبة للآخر- في مرحلة تأزم فوق في أزمة التلقي السلبي الاستهلاكي للقيم

الغربية، وبالتالي تجاوز الهوية الوطنية لبناء هوية بديلة هجينة بدعوى تحرير الفكر والانفتاح على ثقافة الآخر، وهنا تأزمت العقلية العربية فظهر النص الإبداعي الجديد؛ الذي نشأ من لذن الثقافة الغربية منحازا إليها على حساب ثقافته (الأنا) وهنا وقع حوارا ثقافيا وفنيا بين الأنا والآخر، فأصبح الاعتراف بهيمنة الآخر المتمثل في الأوربي فكرا وثقافة وإبداعا. وهنا وقع الفرد العربي المهاجر في إشكالية الانتماء: «لا هو إيطالي ولا هو مصري قصة جلال تشبه آلاف القصص لأبناء المهاجرين في إيطاليا، أو الوافدين إليها في طور الطفولة، قرأت في إحدى الصحف الوطنية أن أكثر من نصف منهم ينتظرون الجنسية الإيطالية، ففي نظر القانون هم أجنب»¹⁰.

ولهذا تطرح الرواية أزمة الهوية بالنسبة للمهاجر الذي تخلى عن هويته العربية ليتبنى هوية الآخر، فلم يجد مكانا له أمام تلك المتغيرات والاختلافات العرقية، وتعد قصة جلال ابن حنفي التونسي مثالا على ذلك فليستطيع أن يقول أنه عربي مصري أو جزائري أو تونسي.....ولا يستطيع أن يكون أجنبيا إيطاليا لأن القانون الإيطالي لا يتبناه.

اتجهت طبيعة علاقة الأنا والآخر بالمتأقفة والعولمة والدعوة إلى الحوار الحضاري، وذلك لاستفادة الشعوب من بعضها البعض من خلال الإيمان بتعددية الأقطاب والتكافؤ والفهم الصحيح للأطراف المتحاوره، ولذلك كان على الواقع الدولي أن يجسد في كل مرحلة إيديولوجيا الحوار على أنه: «سلسلة من التفاعلات والتمازجات بين حضارات مختلفة تقوم على الرؤية المشتركة والعمل المشترك»¹¹.

ارتبطت الرواية بالرمز انطلاقا مما تطرحه من مواقف بأبعاد نصية ودلالات لفضية رمزية، فيها من الإشارة والإيحاء ما يجعل النص في حوار

داخلي بين بنياته السردية التي تنتقد الواقع بأساليب: « تتجاوز دلالاتها اللفظية والمعجمية إلى تأطير تصورات فكرية وتسميتها في إطار معين، تقوى على تشخيص وضبط المفاهيم التي تنتجها ممارسة ما في لحظات معينة»¹².

نتج هذا الصراع وعدم تقبل الأوربي للإفريقي عن ذاكرة تاريخية تدين الأفارقة، وتحملهم مسؤولية وتبعات أي جريمة، أو تمرد حصل في الأراضي الأوربية، ولذلك كان كل مهاجر في حي ماركوني مشتبه به في قضايا الإرهاب والقتل، فكل تصرف مهما كان بسيطاً هم مسؤولون عنه، ولذلك يعبر النقيب جودا المسؤول في الاستخبارات الإيطالية عن امتعاضه من تصرفات العرب المسلمين واتهامهم بالفساد وإدانتهم بكل الجرائم في الحي فيقول: «لدينا أطنان من الأدلة للقبض عليهم جميعاً. خلال السنوات الأخيرة أعتقل في إيطاليا الكثير من المهاجرين المسلمين بتهمة الإرهاب، ولم تكن ثمة أدلة وإنما شبهات. أين المشكلة؟ نحن متأكدون أنهم إرهابيو ماركوني»¹³، وهنا ارتبط الصراع بأبعاد ذات صلة بدعوى التعصب، والقمع، والتطرف السياسي، والديني، والعقائدي لتجعل من المهاجر العربي والإفريقي في موضع شك، يثير تساؤلات عدة ذات أبعاد سلبية.

ارتكزت إشكالية الأنا والآخر على رسم حدود العلاقة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة باعتبارها علاقة هيمنة وتبعية، مبنية في سياقها التاريخي على فكرة الاستعمار التي تجسد ثنائية (الغالب والمغلوب)، ولذلك بقيت الأنا تتوسل في الآخر قوتها من خلال ما جسده هذه الأنا من قابلية للاستعمار، فرغم خروج الاستعمار من ديارها إلا أنه بقي متجذراً في كيانها الثقافي، ومن هنا اقتنعت بتبعيتها اللإرادية للآخر، وظل المستعمر الأوربي

يرى في القارة الإفريقية مطمعا كبيرا يستطيع أن يحقق طموحاته الاستغلالية، وكأن الفكر الاستعماري مازال مستحوذا على عقول الأوربيين الذين اعتبروا القارة الإفريقية قارة مظلمة وفقيرة وجاهلة، لم يخرجها من ظلامها وجهلها وبربريتها سوى المستعمر الأوربي، الذي كان ولا زال له الحق في الشعور بالانتماء إلى قارة هو من جعلها تسمو نحو الإنسانية، ويعتبر هذا شكلا من أشكال الاستعمار الفكري الجديد، كما يعد من أبرز مبادئ الامبريالية والعولمة: «فبقدر ما يدعو إلى الاعتراف بالطابع الكوني لمفاهيم من بنات ثقافته وحدائته، مثل الحرية والمساواة والديمقراطية وحقوق الإنسان، يسجن نفسه في خصوصيات هويته الثقافية الضيقة أو يتمادى في إقصاء ثقافة الآخرين وتهميشها، إلى حد يبدو فيه أن هوية الغرب بصفة عامة مسكونة بعقدة التفوق والاستعلاء على مستواها من الهويات الثقافية الأخرى»¹⁴، وأمام كل هذه المغريات والشعور بالانرجسية والاستعلاء مقابل مستوى التندي والتراجع بالنسبة للثقافة العربية والإفريقية؛ الذي ظل المجتمع الغربي يهملها، وينظر إليها من زوايا ضيقة لا ترى في العربي والإفريقي المسلم سوى عدوا لثقافتها؛ وتعد شخصية الجد جوفاني مثلا على ذلك فنجد في تعليقاته إدانة وإقصاء للعربي المسلم: «ماذا تنتظر الحكومة لإغلاق المساجد وزج المصلين المسلمين الإرهابيين في السجون؟ إذا أراد المهاجرون المسلمون الاندماج في مجتمعنا، فعليهم أن يعتنقوا المسيحية»¹⁵، وبالتالي ظلت نظرة المجتمع الغربي السلبية لهذه القارة مترسخة في الوعي الجمعي، رغم ما تقدمه الحضارة العربية والإفريقية من إسهامات لأجل إرساء القيم الإنسانية والحضارية ولذلك بقي: «الغرب المتقدم يبدو وكأنه عاجز عن الاعتراف بالثقافات المغايرة، إذا لم تعكس له صورته النرجسية»¹⁶، إلا أن الفرد الإفريقي بقي متمسكا بهويته اللغوية والدينية، رغم

التصادمات التي طرأت على حياته بعد خروج الاستعمار الذي حاول تدمير الشخصية الإفريقية بشتى الأساليب والطرق.

وصف الروائي الجزائري عمارة لخص في معظم رواياته رحلاته إلى أوروبا عن طريق سرد روائي مادته الكلمة الإيحائية التي توحى بوجود علاقة وطيدة بين لاشعور الكاتب والواقع الاجتماعي والاقتصادي المفترض، والذي يحلم الكاتب أن يعيشه داخل وطنه، إنها الحاجة الماسة لتغيير واقع معاش، في ظل الظروف القاسية التي يعيشها المبدع داخل مجتمع مفكك، انعكست صورته على نفسية المبدع، فأبدع نصا يقوم على تحديد العلاقة النمطية بين الإنسان والعالم، كونها علاقة تعبر عن وعي الفرد بالنزاعات الأيديولوجية والسياسية داخل المجتمع الذي يعيشه، وبالتالي يعبر عن وعي جماعي تترجمه أفكار ومبادئ يعلنها الكاتب داخل نصه الروائي الذي يحاول: «عبره تفسير البنية الروائية - القائمة في التشكل الذي تتخذه العلاقات بين الإنسان والعالم داخل النص - بربطها بتيار فكري يمثل نمطا محددًا من الوعي الجماعي، ويفسر هذا الوعي بدوره عبر تحديد موقعه بين الأنماط الأخرى من الوعي الجماعي التي تساهم في النزاعات الأيديولوجية المحتدمة داخل مجتمع معين»¹⁷.

رصدت رواية القاهرة الصغيرة ملامح الحضارة الأوربية من خلال تصويرها لعلاقة الإنسان العربي والإفريقي بالحضارة الأوربية العريقة، هذه الحضارة الموغلة في القدم والتي لها جذورا عميقة في التاريخ الإنساني العالمي، ليمتزج التاريخ بالمتخيل السردى؛ الذي يشرح هذا الواقع التاريخي انطلاقا من مرجعيات واقعية تعيد من خلالها كتابة تاريخ الوقائع بأساليب رمزية تعتمد بدرجة قصوى على المتخيل، فينشأ نصا تفاعليا تتحاور فيه

أجزاءه السردية لتعيد كتابة التاريخ وفقا لوجهة نظر مغايرة وهنا يمكن للرواية أن: «تستقبل موادا تاريخية لتشييد كيان سردي دالا فنيا، ويكون بإمكان التاريخ أن يستفيد مما يحتاجه من مواد روائية، ليشيد كيانا سرديا لا تاريخيا»¹⁸.

تتناول رواية القاهرة الصغيرة ظاهرة الاغتراب بكل ما تحمله من حمولات فكرية، وثقافية، ونفسية، وما تكتنفه من غموض داخل النص الروائي مما يجعلها تدخل الشخصيات في جو من الصراع النفسي، والفكري، والإيديولوجي، وهذا ما تعيشه ويشعر به المهاجر خارج وطنه، فالغربة ليست غربة المكان بل هي اغتراب للذات وتعلقها بأحلام كبيرة، أبعدها عن واقعها المفضل حيث جاء على لسان أحدهم قائلا: «أشعر أني غريب عن نفسي، الحق أنني غريب عن روما هذه المدينة لا أعرفها جيدا، زرتها مرات عديدة لكن كنت دائما في عجلة من أمري... معرفتي بروما سطحية، ولكن يحق لي أن أتفاخر بأني رأيت بأم عيني الكوليسيو وفونتانا دي تريفي وساحة نافونا وقبة كنيسة القديس بطرس وحديقة فيلا بورغيزي مثل ملايين من السياح في العالم أجمع... ينبغي أن أكف عن الشكوى، لأن الشعور بالغربة حاليا ليس عائقا بل حافزا لأداء الدور»¹⁹.

تبدي شخصية كريستيان انبهارا تاما بالأمكنة التي زارها وتجول فيها، وذلك من خلال وصفها وكأنها فضاءات منقطعة النظير، وهذا ما جعله يبدي نوعا من الاستلاب الفكري والتعلق الفعلي بأوروبا اللحم، ليتولد عن هذا التمازج ما يعرف بالاغتراب الحضاري، والتمزق والتشرد الثقافي بين عالمين مختلفين فكريا وإيديولوجيا، وهنا تنشأ فكرة اللاهوية بتبني الأنا لهوية الآخر الأوربي. ومن الطبيعي أن تتعمق أزمة البحث عن هذه الخصوصية،

نتيجة الجذب الحضاري العاصف، الذي ما فتئت تمارسه الحضارة الغربية المهيمنة وتمثل شخصية صوفيا وعائلتها مثالا على ذلك، حيث يتجاوزها التيار العربي الإسلامي والتيار الأوربي الغربي المسيحي، وتحاول إثبات هويتها الإيطالية من خلال معرفتها الجيدة للغة الإيطالية فنقول: «كثيرا ما يمدحني الإيطاليون لاتقاني لغتهم. تارة يحسبونني إيطالية اعتنقت الإسلام وتارة ولدت في إيطاليا من أسرة مهاجرة، أو وصلت إلى البلد في الصغر وتلقيت تعليمي في المدارس الإيطالية»²⁰.

وتتأزم عقدة الصراع بين الأنا والآخر في رواية القاهرة الصغيرة حين يصور الروائي طبيعة معيشة العرب والأفارقة في حي ماركوني، وعلاقاتهم المضطربة مع الأوربيين الذين يحملون في ذواتهم عقد كره وإقصاء للعربي عموما والمسلم على وجه الخصوص، وأولى علامات التمايز بين العربي والأوربي هي الاسم الذي يحيل دائما على مرجعيات الشخصية الثقافية والدينية والعرقية، ولذلك مهما حاولت أن تتصل عن شخصيتك وهويتك فاسمك سيكشف انتمائك وستبقى في نظر الآخر غريبا لا يمكن انتمائه ولذلك: «ليس مهما أن تكون إيطاليا لأن والديك ليسا إيطاليين وليس مهما أن تكون مولودا في إيطاليا، أو تكون إيطالي الجنسية، أو تجيد اللغة الإيطالية، أو... ياعزيزي محمد، في عيون الآخرين لن تكون إيطاليا مائة في المائة أبدا. إذن فالاسم هو العلامة الأولى على هويتنا»²¹، ولهذا تقمصت معظم شخصيات الرواية، شخصيتين مختلفتين في الانتماء لحضارتين متناقضتين.

ولهذا تطرح الرواية معاناة العرب المهاجرين من الظلم والهمجية والإقصاء والعنصرية بسبب انتماءاتهم، ولعل معاناتهم من العنصرية

والاحتقار من طرف الآخر هو ما جعلهم يتمسكون بهويتهم وإدراك قيمة الوطن والانتماء، خارج بيئتهم حيث تقول صوفيا: «هذه ليست المرة الأولى التي أتجرع فيها مرارة العنصرية بت أتعاطف مع حجابي بمرور الوقت، صحيح أنني لم أختره في البداية ولكنه صار رمز هويتي بل جلدي الثاني، يجب أن لا أكتفي بقبوله وإنما علي أن أدافع عنه»²².

وتتجاوز تيمة العنصرية في الرواية لتكون بين الإيطاليين أنفسهم، وكأن الروائي بتعامله ومعاشرته للإيطاليين أصبح يعرف حتى نقاط ضعفهم فالعنصرية متجذرة في المجتمع الإيطالي؛ فالإيطاليون الذين يعيشون في الجنوب يعانون من العنصرية ويوصفون بالداوة من طرف إيطاليو الشمال حيث يقول أحدهم داخل الرواية: «يا أخي العنصرية في إيطاليا منتشرة بين الإيطاليين أنفسهم أنا عشت في ميلانو ورأيت كيف يسيؤون معاملة الإيطاليين الوافدين من الجنوب»²³.

ولذلك يفتقر المهاجرون القانونيون للأمان، حيث أصبحوا مقيدي الحرية لأنهم مراقبون ومتهمون دائما كون فكرة الإرهاب أصبحت ترتبط بهم، ولكن رغم هذه الظروف القاسية مازال المهاجر متمسكا بقيمه وبحقوقه التي شرعها له القانون حيث تعبر صوفيا عن هذا بقولها: «ذهبت إلى سوق ماركوني أتمنى أن لا تجمعني مساوئ الصدف مع الوحش العنصري أرفض التنازل عن حريتي بسبب الخوف، لا أقبل التهديد والوعيد من أي شخص كان»²⁴.

وتركز الرواية على صورة الغرب، أو أوروبا اللحم لكونه بلد الحريات، إلا أن الحقيقة تقول عكس ذلك؛ لكون أوروبا أصبحت مرادفا للعنصرية والمعاناة والاحتقار ضد العرب والأفارقة، لذلك يخضع المهاجرين

لقوانين صارمة تقيد الحريات وتخنق الأنفاس: «نحن لا نعيش في جزيرة معزولة، وإنما في مجتمع يؤثر على خياراتنا ويحدد حريتنا، لذلك ينقسم سكان البيت إلى مهاجرين قانونيين ومهاجرين غير قانونيين»²⁵.

كما ارتبط المجتمع الغربي في الرواية بالغريزة والإغراء، لتختزل علاقة الأنا والآخر بعلاقة المرأة والرجل، تلك العلاقة المبنية على الشهوة، وتحقيق المتعة الجنسية، وتمثل شخصية تيريزا صاحبة المسكن الذي يأوي المهاجرين في حي ماركوني مثالا للمرأة الغربية، التي تريد تحقيق شهوتها على حساب المادة والاستغلال ونستشف هذا من خلال الحوار القائم بين عيسى التونسي أو كريستيان الإيطالي وشخصية صبري المصري حيث يقول: «إنها تحب قضاء ليلي الأنا والآخر بالمتعة بصحبة شبان عرب فحول فقراء (...) شبان عرب وقعوا في شباك السينيورة تيريزا. وكل من يجارها ويلبي رغبتها، ينال امتيازات مغرية كالإعفاء الكلي عن دفع الإيجار»²⁶.

وتحيل هذه العلاقة الحاصلة في القاهرة الصغيرة أو حي ماركوني، على مفارقة مفادها أن هذه العلاقة توحى بعلاقة عميقة وافترضية، وهي علاقة أورا الغربية التي تعد مركزا للإغراء بالنسبة للأنا العربي الإفريقي، الذي يرى في الآخر الأوربي تحقيقا لمصالحه، وتحسين مستوى معيشتة ولو على حساب هويته ومبادئه، ولذلك تعج الرواية بمثل هذه العلاقات الغير شرعية والمشبوهة، وبالمقابل تعد في المجتمع الأوربي علاقات مباحة، ومشروعة. وهنا تكمن عقدة الصراع بين الحضارات، وتتأزم الأحداث ليتجلى الصراع بين شخصيات الرواية بين مؤيد ومعارض لقيم هذه الحضارة.

وخلص القول إن إشكالية الصراع الحضاري في الرواية أصبحت تطرح بالتفصيل في الرواية وبكلّ جرأة دون مراعاة لاعتبارات معينة، فلا حدود في انتقاد الآخر وتبيان وجهات النظر المختلفة له، وبالتالي تطرح رواية القاهرة الصغيرة هذه الإشكالية من خلال ربطها بإشكالية العلاقة بين الأنا والآخر هذه الإشكالية التي تحدد طبيعة هذه العلاقة وإمكانية الحوار مع الآخر أو التمسك بمقولة الصراع، أما في الرواية فقد اتخذ الصراع عدة أشكال انطلاقاً من الصراع الديني والعقائدي، وهو مكن الصراع عامة وبدايته الأساسية التي يسعى الآخر من خلاله إلى إقصاء الأنا العربية وعدم الاعتراف بها كلياً، وكما ارتبطت إشكالية الأنا والآخر بظاهرة الهجرة التي تعد موضوع الرواية حيث تطرح معاناة المهاجر اليومية في أوروبا، لتكشف عن صراع دائم يشوبه الخوف وانعدام الأمان بين الأنا والآخر.

ويمكن القول إن حي ماركوني الذي يحيل على القاهرة الصغيرة ما هو إلا اختصار جغرافي وفكري وسياسي للبلدان العربية، التي تعاني المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والعربية مقابل الدول الأوروبية، التي أصبحت ترى في العرب فريستها لتمارس سلطتها عليها دون التفكير في عواقب الدمار وقمع الإنسانية فكراً بالدرجة الأولى.

اتّسمت البنية السردية للرواية بغلبة الحس الواقعي والانتقادي، حيث يشعر القارئ وكأنه يشارك الروائي في عرض أفكاره كون الرواية أشد ارتباطاً بواقع العلاقات السياسية والثقافية المبنية على أساس الصراع السياسي والاقتصادي بين العرب والغرب، فمهما كانت مبادرة العربي لمصالحة الآخر والاعتراف بقدرته الثقافية وجبروته السياسي والعسكري ما

زال على الغربي أن يقدر ثقافة الآخر العربي ويعترف بقدرتها على بلوغ سلم التقدم والحضارة.

تطرح الرواية أفكارا سلبية عن الشخصية العربية الإسلامية التي هي الأخرى تتنكر لذاتها وتحاول إقصائها وتبني ثقافة الآخر وهنا تظهر فكرة انسلاخ الهويات، والتخلي عن الذات القومية الإسلامية ومحاولة إخفائها واستبدالها بما يحقق لها الحريات أكثر.

الهوامش:

^{1/} طاهر لبيب وآخرون: صورة الآخر، العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ص812.

^{2/} محمود رجب: المرأة والفلسفة، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، ع2، دط، 1981، ص7.

^{3/} عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، مادة آخر، المؤسسة العربية، مصر، ج1، ط1، 1984، ص13.

^{4/} الزهرة بلحاج: الغرب في فكر هشام شرابي، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2004، ص14.

^{5/} عبد الرزاق الداوي: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات (حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة)، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، بيروت، ط1، 2003، ص95.

^{6/} عمارة لخصوص: رواية القاهرة الصغيرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص89.

^{7/} الرواية: ص89.

^{8/} غسان السيد: صورة الغرب في الأدب العربي، مجلة جامعة دمشق، م24، ع4، 2008، ص88.

- ⁹ الرواية: ص177.
- ¹⁰ الرواية: ص170.
- ¹¹ حوار الحضارات: هيئة المعلومات للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، دط، 2002، ص53.
- ¹² أحمد بوحسن: مدخل إلى علم المصطلح، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد60-61، 1989، ص84.
- ¹³ الرواية: ص204
- ¹⁴ عبد الرزاق الداوي: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات(حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة)، ص107.
- ¹⁵ الرواية:ص99.
- ¹⁶المرجع نفسه:ص108.
- ¹⁷ ليليان غصن سويدان: قراءات ثلاث لرواية "الغريب" لكامو ،مجلة الآداب، الكويت، ع1-3، 1990، ص35.
- ¹⁸ عبد السلام قلمون: الرواية والتاريخ ، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط1، 2010، ص102.
- ¹⁹ الرواية : ص 10.
- ²⁰ الرواية: ص88.
- ²¹ الرواية: ص21.
- ²² الرواية: ص55.
- ²³ الرواية: ص146.
- ²⁴ الرواية: ص 163.
- ²⁵ الرواية: ص180.
- ²⁶ الرواية: ص144.

قضايا الرواية النحائية العربية و خلفيات التثكل

حميدة قادوج و وردة معلع
جامعة باجي مختار - عنابة (الجزائر)
جامعة 8 ماي 1945 - قالمة (الجزائر)

المختص:

شهدت المدونة السردية العربية الحديثة والمعاصرة، ظهور لون جديد في مسار الكتابة الروائية، مثلته المرأة، وهو ما اصطلح على تسميته ب (الرواية النسائية) التي سجلت إقبالا واسعا تاليفا، وقراءة، ونقدا، نظرا لما يحمله هذا الخطاب الجديد من قضايا تمس المرأة العربية، وعلاقتها الاجتماعية، ومواقفها، وحرمتها العقدية، والفكرية في عالم تهيمن عليه السلطة الأبوية الذكورية منذ الأزل.

وتمثل هذه الدراسة محاولة للكشف عن حقيقة هذا الخطاب، وما يكتنزه من خصائص تجعله يحقق الريادة والتّميز، كاشفة عن أبرز القضايا التي هيمنت على المشهد الروائي النسائي العربي.

الكلمات المفتاحية: الكتابة النسائية- السلطة الأبوية- التّسق الثقافي.

Résumé:

L'écriture narrative moderne et contemporaine a connu la naissance d'un nouveau type d'écriture romanesque. Ce dernier a été représenté par la femme et renommé le roman féminin et qui a pu avoir un large public de lecteurs, écrivains et critique, pourvu les problématique abordée dans ses textes, qui sont en majorité les problème d'une société dominée par l'autorité masculine et paternelle depuis les nuits des temps. Cette étude a pour but de dévaloir ce discours, de connaître les caractéristique qui l'aident à être pionnier et spécial. Ainsi que de révéler les problèmes qui ont prédomine la xénie romanesque féminine dans le monde arabe.

Mots clefs: L'écriture féminine, L'autorité paternelle, L'échevelons culturel.

Abstract:

Modern and contemporary narrative discourse has witnessed the birth of a new type of a narrative writing that was termed "Feminist novel". This type of narrative had a large public of readers, writers and critics owing to its issues that deals with Arabic woman in her social relationships, her attitudes and her religious and intellectual freedom in a world

dominated is an attempts to reveal some secrets and certain particular characteristics that makes this Feminist Narrative discourse a leading and distinct model in literature. It also treats the most important issues that have dominated the Arabic Feminist Narrative scene.

Keywords : Women's writing -Patriarchal authority -Cultural theme.

1- إشكالية المصطلح:

بدأ الحديث عن الكتابة النسائية بشكل لافت منذ ستينيات القرن العشرين، وقد كان حديثاً مصاحباً لحركات تحرير المرأة في الغرب، وانتقل بعدها إلى الوطن العربي" ورغم أن عمر الحركة النسائية العربية يناهز قرناً من الزمن أو يزيد، فإن حركيتها كانت متعثرة بسبب تلك الخطابات التي كانت تشدّها إلى الخلف، ففي الوقت الذي كان فيه العالم مشغولاً بقضايا استراتيجية كبرى تتجاوز قضايا تعليم المرأة أو الخروج إلى العمل والمشاركة في القرارات السياسية... كانت مكونات المجتمع العربي منشغلة بمدى كفاءة المرأة وقدرتها على تقلد مناصب القرار".⁽¹⁾ وقد لاقى (مصطلح النسائية) رواجاً كبيراً خاصة في مجال السرديات، إذ تعددت بشأنه المفاهيم وتباينت الآراء، فميّز كثير من النقاد والدارسين بين لفظتي النسائية والنسوية، وفي هذا يقول أحد الباحثين: "الخطاب النسائي يدل على الأعمال والكتابات التي يبدعها الرجال والنساء معاً، وتقف مع المرأة وتعالج قضاياها وأحوالها وتاريخها وسبل تحررها، أما الخطاب النسوي فيدل على الأعمال الإبداعية التي تنجزها النساء فقط."⁽²⁾ فهو يدخل إبداعات الرجال إلى جانب ما تكتبه المرأة ما دام يعالج قضاياها وأحوالها وتاريخها... في حين ترى باحثة أخرى أنّ إطلاق مصطلح الكتابة النسائية ناتج عن اتهام إبداعات المرأة بالدونية وتحقيرها، فقد "ظهرت تحت هذا التصنيف النوعي الجنسي عدّة تسميات في

الغرب والشرق على السواء، وهي أقرب إلى الموقف السلبي تجاه كتابة المرأة⁽³⁾.

لذلك رفضت بعض الكاتبات نعت أدبهن بهذا المصطلح، وقد حاولت دراسة أخرى وضع مفهوم شامل للأدب النسائي قائلّة: "أميل إلى الاعتقاد بأنّ مصطلح الأدب النسائي يفيد معنى الاهتمام وإعادة الاعتبار إلى نتاج المرأة العربية الأدبي، وليس عن مفهوم ثنائي أنثوي-ذكوري، يضع هذا النتاج في علاقة اختلاف ضديّ-تناقضي، مع نتاج الرّجل الأدبي".⁽⁴⁾ لأنّ الكتابة إرث مشترك بين الرجل والمرأة على السواء، وطبيعة المواضيع التي يتناولها كل منهما هي الفاصل الذي يجعل الأدب يتخذ سمات نسائية أو رجالية، ولاشكّ أنّ ولوج المرأة عالم الكتابة الروائية يرجع إلى رغبتها في إضاءة المناطق العتمة من حياتها داخل مجتمع بطريركي متسلط. فظهرت أسماء لامعة لمبدعات من مختلف أقطار الوطن العربي أمثال: زهور ونيسي، وأحلام مستغانمي، وفاطمة الراوي، وخناثة بنونة، وعروسية النالوتي، وزهور كرام، وأخريات... مثّلت كتابتهن "قفزة نوعية في ميدان الأدب نظرا لوجود ساردة بالنّص النسائي في حالة تمرد على الوعي الذكوري، ترفض وتطالب وتصحّح..."⁽⁵⁾ وهكذا ظلّ مصطلح (الكتابة النسائية) يتأرجح بين الرفض والقبول لدى البعض، وظهرت إلى جانب ذلك مصطلحات مثل، أدب الرفض، وأدب ربّات الخدور، وأدب الأظافر الطويلة، والأدب الأنثوي، وغيرها...

قام البعض الآخر بتجاوز إشكالية المصطلح إلى إشكالية المتن، وما جاء فيها من قضايا اجتماعية وفكرية وثقافية والتي منها:

1- خصوصية الكتابة النسائية:

لعلّ أول ما أثارته الكاتبة العربية من خلال المتن الروائي، وأهم قضية حظيت باهتمامها، هي قضية الخصوصية والتميز، إذ تحاول الكاتبة إثبات قدرتها على صياغة خطاب سردي خاص، في مقابل ما يكتبه الرجل، لردّ الزعم القائل بضعفها وفقرها اللغوي، فتتخذ من الكتابة وسيلة للتحرر، وإثبات ذاتها في مجتمع سيطرت عليه سلطة النسق الذكوري الذي يحكم العالم العربي، فالكتابة النسائية" تبحث عن شكل نظري تطبيقي في بنى تسعى إلى إيجاد صيغ كتابة تكون فيه المرأة إنسانا يتشكل في أطر إنسانية ترفض العبودية وعياً وتطبيقاً".⁽⁶⁾ وتعدّ الرواية المجال الرَّحب الذي مارست من خلاله المرأة حريتها وأحلامها وأفكارها، بعدما كانت مهمّشة تبعاً للنسق الذي استفحل في الثقافة العربية، حيث ظلّ الحديث عن ولوج المرأة عالم الكتابة يستحضر صورة المرأة الخطيئة؛ لأنّ "التاريخ الذكوري يُورع فيها القناعة وعدم قدرتها على الابتكار... والذكر يسعى إلى الحرية من خلال تسييج حرية المرأة، وإلى فرض كتابته ككتابة عبقرية مُطلّقة يستحيل أن تضاهيها كتابة المرأة، فإنّ الأمر يتعلق بصراع قوي وبمسألة حرية".⁽⁷⁾

تجد المرأة الكاتبة في فعل الكتابة متنفساً، ومساحة لممارسة حرية تتحوّل عبرها من امرأة مفعول بها إلى امرأة فاعلة، وتنتقل خلالها من عالم الصمت إلى عالم البوح، ومن الكلام إلى تفجير شروخات جسدها وتموجاته، وهذا ما جعل من النصّ النسائي، نصّاً متفرداً ومتميزاً، إفصاح المرأة، وتفجيرها لحقائق لا يعرفها غيرها، تلك الحقائق التي ظلّت قابعة في أركان نفسيّتها التي عانت الكبت والتهميش، جعلت انطلاقها بفعل الكتابة يتخذ خصوصية واندفاعية تصف من خلالها مكونات ذاتها الأنثوية بذاتية ظاهرة "فاشتغلت

من خلال ذاتها على كل ما له علاقة بالتهميش، والتغيب، والمسكوت عنه، بما في ذلك الأحاسيس والمشاعر، والأمكنة والفضاءات بحثاً عن معاني جديدة، وأخرى قديمة تنفض غبار الأزمنة لتعيد صياغتها وفق معايير الكتابة التي تريدها".⁽⁸⁾ وهذا ما جعل كتابتها تتميز بغنى شعوري مكثف، فكانت جسراً يمتد بينها وبين قضايا وجودها في مجتمع ذكوري، وقد كان للنسق الثقافي دور بارز في اختلاف كتابة المرأة عن كتابة الرجل "وهو اختلاف نابع من اعتبار أن الذات المبدعة تتموضع - وهي ترصد وتكتب - داخل النسق الثقافي العام، وبالتالي فكتابتها تتكوّن بكل هذه الإرهاصات المشحونة بالتراتبية، والأولويات، والإلغاء والإقصاء، والتأجيل، والأسبقيات..."⁽⁹⁾ وهذا ما يؤكد خصوصية ما تكتبه المرأة لأنها الأقدر على وصف حقيقة وجودها في مجتمع تحكمه العادات والأعراف أكثر ممّا تحكمه القوانين المدنية، فأنتجت هذه المؤشرات جميعها نصّاً مغايراً بلغة مغايرة، لغة تجنح إلى مزيد من الشعرية والعاطفة والمجازات، وهي لغة تحاول الكاتبة من خلالها إثبات قدرتها على الكتابة بحريّة مثلها مثل الرجل، فكانت - بحق - لغة موحية، متدفقة المعاني متسارعة الإيقاع كتسرّعها لبلوغ المجد ونيل الحرية، فتميّز خطابها "بحضور الوظيفة اللغوية في مسالك تعبيره، وما يستخدمه من سجلات اللغة ومستويات الكلام بغية تثمين التواصل بين الفرد والآخر، بين المرأة (الذات الكاتبة)، والآخر (الذات المتلقية) رغبة من المرأة الكاتبة في التّحاور مع الآخر في أفق الانعتاق من سجن العزلة".⁽¹⁰⁾ وهذا ما جعل الباحثة (هويدا صالح) تعترف بخصوصية اللغة النسائية فهي - بالنسبة لها - "أول ما ميّز كتابة المرأة، وحضور الأشكال التعبيرية كجروح حقيقية داخل النصّ الأدبي التي تنقيح به هذه الندوب ليخرج صديدها سائحاً أمام المتلقي".⁽¹¹⁾

أسست المرأة الكاتبة -بهذه الخطوات الحذرة - خصوصيةً لما تكتبه، وبخطوات ثابتة كسرت احتكار الرجل للقلم، ولوسائل الكتابة، لتعيد كتابة تاريخها بقلمها "لتخطف القلم من بين يدي الرجل ولتدخل إلى اللُغة بوصفها كاتبة ومؤلفة، وبوصفها صوتاً مستقلاً وبوصفها (ذاتاً) تنشئ وتبدع، ولم تعد مجرد موضوع لغوي أو رمز شعري أو أداة سردية، إنها تجيء بوصفها (سيّدة) وليست (جارية) وسلاحها في القلم وليس في لسانها".⁽¹²⁾ إن خصوصية ما تكتبه المرأة، وخصوصية لغتها السردية نابعة -كذلك- من طبيعة المواضيع التي خطتها بقلمها، متخذة من النسق الثقافي لبنة أساسية في نسج عوالمها الروائية، لذلك نجدها " تقوم باجتراح ما له علاقة بالمهمّش والتفاصيل الكثيرة والدقيقة التي تنبثق من فضاءها الخاص، الأمر الذي شكّل خصوصية في استخدام اللُغة التي تعتمد على الحكي والتجسيد، لتصبح كتاباتها حيوية ومتطورة وغنية، لأنها تكتب غير متكئة على المرجعية الثقافية السلطوية".⁽¹³⁾ وبهذا شكّلت نصّاً خاصاً بها، وبقضايا هويتها الأنثوية، فكسرت الحواجز العرفية، ومارست بوحها بكل أريحية.

2- الكتابة بالجسد وممارسة البوح:

أثبتت الرواية النسائية العربية جرأتها في اجتراح مواضيع مسكوت عنها اجتماعياً، ومارست بوحها لها واعترافها بكل أريحية، ودون خوف من الرقيب الاجتماعي والديني "فأمسكت القلم وافترضت بكارة بياض الصفحة، امتطت صهوة الكتابة، ابتدأت الرحلة، تسلك إلى العراء لتمنح للحرف روحها وجسدها، أعلنت قصةً عشقها بل مارست الحب أمام الملاء، بما أنّ الكتابة تبيح لها الغبطة، والتحرر، والانطلاق نحو أفق مفتوح".⁽¹⁴⁾ وخلقت لنصّها لغة خاصة بها تفصح عن المناطق العتمة من حياتها، وانتقلت من الكتابة

باللَّفْظ إلى الكتابة بالجسد. هذا الجسد الذي استخدمته وسيلة للغواية والإغراء، ومارست سلطتها من خلاله" ففيما ينعت هذا الجسد بكونه مدنس وقادر على كبح غرائزه، يتمثل في التصورات العامة للمجتمع كموضوع إغرائي مستمر البوح بمفاته عبر أشكال انفراجاته، كما يعتبر في نفس الوقت مقدسا، وينتهي بسمو مشاعر الأمومة، والاعتبار الذاتي". (15)

وهكذا ظلَّ الجسد يتأرجح بين المدنس والمقدس في المجتمع، كلَّ يصنّفه حسب فلسفته الخاصة، فهو مدنّس كلّما حاول أن يشبع شهوته كما شاءت له الطبيعة، ويتحوّل إلى مقدس كلّما تمكّن من كبح جماح غرائزه، وهو مقدّس في شكله الثابت، وفي إطاره الخارجي المحمّل بقديسية الشعائر التي يؤديها أمام الملأ. وقد حاولت الكاتبة البحث في هذا المقدّس الظاهر، تُرى كيف يتجلى في الخفاء؟ وهذا ما دفعها إلى ضرورة تعرية النصّ، وتعرية شخصه لتكشف عن تلك المضمرات التي تتخفى خلف نظم اجتماعية، ودينية أقرّها العرف، وباركتها التقاليد البالية، فوجدت أنّ الجسد وحده "يستيقظ كالجمرة في الكتابة النسائية يمدّها بفاعلية التجسيم بوصفه كائنا حسيّا مرئيّا موجودًا، تتذوّق طعم الأشياء من خلاله، ليتحوّل بعد ذلك من الجسد إلى الإحساس بالأشياء والاندماج فيها، فهو عنصر محفّز لإثارة الأحداث وتشغيل الذاكرة، باعتباره المرجعية التي تثبت الكينونة والوجود". (16)

ولعلّ شعور المرأة بالاضطهاد والظلم هو ما جعلها تتبنى هذا التوجّه، اعتقادا منها أنّ حريتها تبدأ بتحرير جسدها، وتعريته للآخر "وحين توفّر عند المرأة وعيا بذاتها الفردية وتقسيما امتلكت قدرة على تأمل هذه الذات وتحليل أعماقها والتعبير عنها بجرأة، وهو ما صدم المجتمع لأنها تقوم بتعريته من خلال تعرية ذاتها كشكل من أشكال المقاومة التي تقوم به لإخراج ذاتها من

دائرة التّهميش التي حوصرت فيها منذ التاريخ القديم".⁽¹⁷⁾ لتخبر عن قدرتها في تغيير مسار قرارات المجتمع والرجل، فكتبت بعض الروائيات نصوصاً جريئة خرقت من خلالها نظام الكتابة العام، وتناولت قضايا كانت -ولا تزال- تصنّف ضمن لائحة الطابوهات؛ كتلك التي تُضيء المناطق العتمة في العلاقة بين الرجل والمرأة، وبين المرأة والمجتمع، وكشفت عمّا لا يجوز الكشف عنه، حتى اتّهمها النقاد والقراء بأنّ توظيفها الاعتراف والبوح؛ إنّما كان من أجل جلب الانتباه والتشهير بشخص المبدعة، والحقيقة إنّ "الجرأة في تناول الجسد الأنثوي في السرد، وفضح المسكوت عنه، وعدم ترك مساحات البياض التي يملؤها القارئ، سهّل الأمر للمغيّب أن يصير حاضراً، وللصامت أن يصرخ عالياً ويخمش جدار هذا المسكوت عنه".⁽¹⁸⁾

وهكذا خاضت المرأة الكاتبة تجربة البوح لتثبت وجودها وكيونتها، فكانت نصوصها مزيجاً بين السيرة الذاتية لحقيقة حياتها، وبين خيالها وأحلامها التي تسعى لتحقيقها، وهذا ما تؤكد الروائية والناقدة (وفاء مليح) في مقالها الموسوم بـ "أنا أكتب إذن أنا موجودة" قائلة: "أعترف أنّ بعضاً من نصوصي الأولى هي جزء من ذاكرتي، من أحلامي، شذرات من سيرة ذاتية عرّيت فيها الأنا، عرّيت مواطن ضعفها، أعدت ترتيب فوضاها الداخليّة. تعمّدت أنّ أفتحم بها فحولة الكتابة وأجعل الآخر/ الرجل يصغي لحكاياتي وهو يشعر بتورطه في عملية الفضح التي مارستها"⁽¹⁹⁾.

ويظهر بوح المرأة في الكتابة الإبداعية مجرد وسيلة لكسر نظام الفحولة، والانتقال من الكتابة باللّغة إلى الكتابة بالجسد، حيث؛ يمثل هذا الأخير "مساحة لا متناهية لصياغة الرموز والكتابة سواء كان جسد امرأة أو رجل لأنّ كل جسد يشكّل نصّاً يتحدّث إليه ويجاوره، يتخاصم معه، فالذات تعاني

من كونها لا تتطابق مع صورتها حتى كانت أكثر بهاءً وجمالاً والمرأة تكتسب بجسدها ما لا يستطيع النظام الرمزي الذكوري تفكيكه أو قمعه".⁽²⁰⁾ وهذا ما دفع بالمرأة الكاتبة إلى " اقتحام الأدب المكشوف الذي يترك جسد النص ينفتح على أكثر اللحظات حميمية وارتباطا بالجسد دون أن تخرس صوته ليصبح كل ما يصدر عن الجسد عبارة عن صورة حيّة تستدعي كل التفاصيل التي تكون أكثر عفوية والتحاماً بنسيج النص دون موارد أو استحياء من فعل في صميم السلوك الإنساني".⁽²¹⁾ ويصبح الجسد مصدر إلهام للذات الكاتبة، وكبديل يرغب في التغيير من أجل الإنصات لرغباته ولمنطقه، وتتولد بذلك لغة جديدة مؤنثة تمثلها تلك الهوية والخصوصية التي تبحث عنها المرأة منذ الأزل وباكتشاف هويتها وخصوصيتها تحقق الأنثى مصالحتها مع ذاتها وقبولها الاختلاف من منظور تكامل وغنى لا منظور انقاص ودونية. يكسب المرأة تفتها في ذاتها الكاتبة ويمنح قلمها جرأة أكثر واقتحاماً أوسع ورؤية أكثر رحابة للحياة والعالم".⁽²²⁾ لذلك كان حضور الجسد في الكتابة النسائية أحد أهم العناصر المكوّنة للنص ليس باعتباره مجموعة من التيمات اللغوية فحسب، بل باعتباره مجموعة من الدلالات الحية التي تسهم في تفعيل النص وتحمله أبعاداً تخيلية لا حصر لها، وبما إنّ النص "أحد الفضاءات التوليدية والتحويلية للجسد حتى حين لا يكون موضوعاً مباشراً له، كان بمثابة مسكن تخيلي للجسد، فيه يتجسد ويحقق وجوده المتخيل".⁽²³⁾ وهكذا يتدخل الجسد في صياغة وتركيب ذلك العمل الإبداعي بأي شكل من الأشكال، كتصوير الحركات المزاجية، وطريقة المشي، وملامح الوجه كردة فعل معين، وكل هذه الخطوات لا يمكن أن تتم بمعزل عن الجسد بما يحمله من دلالات، وإيحاءات، ويتدخل "بشكل مباشر في عملية إنتاج النص وكتابته، ويشكّل المخزون الذاتي للذات المؤلفة التي

تتوي، بشكل أو بآخر، وراء النّص، وينقل اللّغة من التّواصل الشّفوي إلى صورتها المكتوبة، فهو بمعنى ما المنبثق الضروري للنّص".⁽²⁴⁾

إنّ الحديث عن حضور "تيمة الجسد" في النّص الروائي، لا يعني الرواية النسائية فحسب، وإنّما وجدنا له حضورا مكثفا في كتابات الرجال، غير إنّ مستويات هذا التّوظيف تختلف؛ فمساحة البوح عند المرأة نجدها أوسع منها عند الرجل، وقدرتها على تعرية النّص، وكشف المستور أكبر من غيرها لأنّها تمتلك " من المجسمات الجنسية ما ينتشر في كل جسدها وهو ما تراه مختلفا عن اللّغة الذكورية الممتدة في متعة ذكورية واحدة، وخلف مثل هذا التّوزع تنتشر المتعة، مساحتها الجسد، انطلاقاته، وانبعاثاته، وإشارات، واستدعاءاته".⁽²⁵⁾ من هنا كانت حاجة النّص الأنثوي لمثل هذه اللّغة المكتظة المنتشرة حتى تتمكن الكاتبة من " تأسيس خطاب جديد يرفع من قيمة الذات، ويرد الاعتبار للجسد الأنثوي، في إطار التحوّلات السوسيو-ثقافية التي يعرفها العالم العربي، وفي خضم هذه التحوّلات ظهر تصوّر نوعي يعزز الوعي الإبداعي بدور الجسد ومفهوم العلاقة به، وينزاح عن التصورات التقليدية التي تنظر إلى الكتابة بالجسد من منظور أخلاقي ضيق".⁽²⁶⁾

3-التنديد بالعنف ضد المرأة:

يعدّ موضوع العنف من المواضيع التي تصدى لها الباحثون على اختلاف توجهاتهم الفلسفية، والاجتماعية، والسياسية، والقانونية، وحتى الأدبية، ونظرا لما يحمله هذا المصطلح من تشعب، واضطراب، سعى الإنسان كثيرا لمحاولة مقاومة هذه الظاهرة التي ما تزال تهدد حياة الفرد؛ إن على مستوى الأسرة الواحدة، أو على مستوى المجتمع، حيث تعدّدت أشكال العنف، وتتنوع بحسب الطريقة، والوسيلة التي يتم بها هذا الفعل الإجرامي. ولعلّ

أبرز مظاهر العنف التي عرفها التاريخ البشري؛ هو العنف ضد المرأة الذي يعرف بأنه "فعل عنيف موجّه ضدّ المرأة بالذات مدفوعٌ بعصبية جنسية ويؤدي إلى المعاناة سواء من الناحية الجسدية، كالإيذاء الجسدي والاعتداء الجنسي والاعتصاب، أو من الناحية المعنوية، كالعنف اللفظي والاجتماعي والنفسي والسياسي، بما في ذلك التّهديد به أو استعمال أساليب غير مباشرة كالنبذ والتحقير والحرمان من الحقوق المدنية ومن الحرية والمساواة في الحياة العامة أو الخاصة".⁽²⁷⁾ إذ أثبت التاريخ البشري معاناة المرأة من مختلف أشكال العنف، فوُئِدَتْ وهي طفلة في المهدي، وسُيِّت وهي صببية، وبيعت في الأسواق كجارية لخدمة سيدها الرجل، وحرمت من كل حقوقها، وندست، ونبذت من قبل الفرد والمجتمع.

ويرجع انتشار مثل هذه الظواهر والأمراض الاجتماعية ونفسيها خاصة في المجتمعات العربية إلى طبيعة الثقافة السائدة؛ وهي ثقافة ذكورية أبوية بامتياز حيث أُطلق عليها حديثاً مصطلح "الثقافة البطريركية" وتعني السلطة للرجل حيث "يكون هناك تسلط من نوع آخر هو التسلط التربوي القمعي من جهة الذكر، والخضوعي النكوصي من جهة الأنثى، إنّ هذه الثنائية من التسلط، والخضوع تولد صراعا، وتنازرا اجتماعيا، ونفسيا، إذ ينشأ الأطفال في وضعية من شأنها تضخيم الذكورة، وتبخيس الأنوثة، ويجعل من الأب يميل إلى التسلط على المرأة و العائلة، كما تجعل الولد الأكبر رجلا يميل إلى التسلط على إخوته وأخواته فهو يتسلط ويتحكم في أخته التي تكبره سنا..."⁽²⁸⁾ حتى ارتبط وجودها بالتدنيس، والحقارة، والخطيئة، فمنذ زمن بعيد لا شيء تغير في منظومة القيم الإنسانية سوى تغير وسائل القمع والعنف ضدها.

فتطالعنا بعض الأعمال الأدبية الحديثة، والمعاصرة، وهي تعالج قضايا المرأة في مقدمتها قضية العنف التي عجزت المؤتمرات، والملتقيات الدولية، والجمعيات النّاشطة باسم حقوق المرأة، عن الحدّ من ممارسة العنف ضدها. فقررت المرأة المبدعة قاصة وروائية وشاعرة أن تتولى بنفسها قضية الدفاع عن وجودها، وهويتها، وكيانها، وجسدها المستهدف. فحاولت تصوير وضعها داخل المجتمع العربي باحثة عن آليات مقاومة هذه الظاهرة بالغة الخطورة، فوجدت نفسها أمام وضع آخر قد يحبط كل محاولاتها في النهوض بالمرأة العربية فكراً، وجسداً، وهوية. تنتشر - إلى جانب الثقافة البطريركية - ثقافة أكثر خطورة هي ثقافة العنف المتمثلة في " كل الممارسات الفعلية والخطابية، وكل القيم والصور والرموز التي تفضي إلى العنف و الدفاع عنه من قبل النساء أنفسهن، أو تفضي إلى تشجيع ضحاياهن على الصمت عنه، وعدم اللجوء إلى سلطة القانون لفرض العقاب على المعتدي".⁽²⁹⁾ وكل ذلك كان يتمّ وفقاً لنسق ثقافي يتحكم في المرأة من داخل مجتمعها الذي تنتمي إليه، ومن داخل الأسرة التي ولدت فيها، وتلقّت كل تقاليداً حرفياً دون مناقشة أو تفسير. بحيث؛ توهمها تلك الأنساق أن السكوت عن المعتدي المتمثل في بعض علاقات القرابة كالأب، والأخ، والزوج، هو رد الفعل الطبيعي لكل امرأة، متناسية بذلك التصرف أنّها تتنازل عن حقّها في العيش بكرامة كما أراد لها الخالق، وهذا ما زاد في صعوبة التعامل مع هذا النسق وأحبط كل محاولة لتوعيتها.

لذلك نجد أن الدراسات المهمة بهذا الموضوع على كثرتها، لم تستطع التّوصل إلى إجراء عملي يضمن حقوق المرأة، ويحفظ كرامتها من مختلف الممارسات الإجرامية التي تتعرض لها، لأنّ " ثقافة العنف ضدّ النساء هي

التي تجعل الناس يعتقدون أنّ العنف ليس عنفا، وهي التي تسمى العنف بأسماء أخرى هي حماية المرأة وتهذيبها أو الدفاع عن الشرف والعرض والخصوصيات الثقافية (...) فتقافة العنف هي التي تجعل النساء والرجال لا يعتبرون العنف عنفا، وهي التي تنتج احتقارا منظما للمرأة ولجسدها، وحدًا لحريتها وطموحاتها".⁽³⁰⁾

والحقيقة إنّ هذا العنف الممارس ضدّها إنّما يفضي إلى حقيقة كثيرا ما سعت الثقافة البطريركية إلى ترسيخها، وهي حقيقة التّميز، والتّفاضل بين الرجل والمرأة، حقيقة مركزيته في مقابل تهيمشها وإهانتها، ومهما تكن طرائق ممارسة العنف ضدّها إلا أنّها جميعها تعمل على إدانة المرأة والحطّ من قدرها لتغدو مجرد كائن ضعيف تقع عليه جل اتهامات الرجل والمجتمع.

بهذه المعاني والدلالات تشحن تيمة العنف ضدّ المرأة وتتغذى لتنمو، وينمو معها الاقتناع بأنّها أصل الخطيئة لذلك وجب تهذيبها وتعنيفها، في حين أنّ هذه الأخيرة هي مجرد أبعاد مضمرة تعمل المؤسسة الاجتماعية على تمريرها تحت عباءة تلك المسميات (التهذيب والتأديب وحفظ الشرف)، كما أنّها تريد إثبات مزيد من الفروقات بين الرجل والمرأة، لذلك اعتبر "التمييز في حد ذاته عنف، أو بالأحرى نوع من العنف الأساسي، لأنّه لا يستهدف ملكية الآخر، بل يستهدف ماهية الآخر..."⁽³¹⁾

4- حجاب المرأة وحرية المعتقد:

يعدّ موضوع الحجاب من الموضوعات الهامة، والخطيرة في الوقت نفسه، نظرا لتشعب الآراء حوله، وتضاربها في مميزاته، وخصائصه، وكيفية وضعه، ما أدى إلى اضطراب في تحديد مفهومه وتعدّدت أبعاده، فالحجاب

في جوهره "نمط اجتماعي في اللباس ولكنه تحوّل ضمن قواعد الدّين وأحكامه إلى هوية يتحقّق داخلها الانتماء، ومن خلالها يصدق الإيمان وبترسخ".⁽³²⁾ فهو بهذا المعنى نمط اجتماعي يحمل بعدا دينيا، له أحكامه الخاصة وشروط لوضعه، ولاشك أنه نمط خاص بلباس المرأة، والحجاب كظاهرة اجتماعية، ليس حديث النشأة بل له جذور ضاربة في القدم، كما يوضح ذلك (قاسم أمين) "الحجاب الموجود عندنا ليس خاصا بنا، ولا أنّ المسلمين هم الذين استحدثوه، ولكنه كان عادة معروفة عند كل الأمم تقريبا، ثم تلاشت طوعا لمقتضيات الاجتماع، وجريا على سنة التّقدم والترقي، وهذه المسألة يلزم البحث فيها من جهتها الدينية والاجتماعية".⁽³³⁾

ولعلّ ما أثاره كتاب (قاسم أمين) من ضجّة إعلامية بين أوساط المسلمين، وجملة الاتهامات التي وقع فيها من خلال آرائه، إنّما تنشي بحساسة الموضوع من جهة وخطورته من جهة أخرى لذلك " فلا يمكن أن تكون الأحكام الخاصة بالضرورة الاجتماعية للحجاب النسائي، والمنسوبة تأويليا إلى النصوص المقدّسة، سوى تبرير لوعي فردي يختفي في المقدس من أجل التستّر على وعي اجتماعي عام كانت وراء ظهوره الرغبات الفردية-الصريحة أو المقنعة- في الاستفراد بالمرأة وامتلاكها جسدا وروحا".⁽³⁴⁾ فتحوّل بذلك المفهوم من وسيلة لحفظ المرأة وصون كرامتها وعفتها إلى سلاح في يد الآخر (المجتمع/ الرجل) لإخضاعها وإذلالها وقطع صلتها بالعالم الخارجي، ومنعها من ممارسة دورها في الحياة، حيث نجد أنّ " مفهوم الحجاب ثلاثي الأبعاد، وهذه الأبعاد الثلاثة غالبا ما تتقاطع من جديد، فالبعد الأول هو بعد بصري viesuelle الحجب عن النظر؛ فجزر الفعل حجب يعني أخفى، والبعد الثاني هو خرافي spatial حجب بمعنى فصل أيّ

عَيْنَ حَدًّا، أقام عتية، والبعد الثالث والأخير هو أخلاقي يعود لميدان المحارم.(35) إن هذا التقاطع بين الأبعاد الثلاثة يتم على مستوى نقطة واحدة مفادها الإخفاء، والمنع، والحجب، وهو ما يجعل منه ظاهرة في غاية الخطورة، بل إن الخوض فيه يصنّف في كثير من الأحيان ضمن الطابوهات التي يحترس كل من الوقوع فيها.

إنّ تضارب وجهات النظر بالنسبة (لتيمة الحجاب)، وما نتج عنها من مفاهيم مغلوطة، هو ما أدى إلى نفور المرأة منه، ورفضها له اعتقادا منها؛ أنه سبب البلاء، والتهميش والإقصاء، وهذا ما جعل منه موضوعا هاما من الموضوعات التي تكررت في الكتابة النسائية، على الرغم من وجوب ارتدائه كما دعت إلى ذلك الآية الكريمة، في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِسْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ إِسْنَائِهِنَّ أَوْ بِأَخْوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(36)، فكانت الرواية هي النوع الأجناسي الأنسب الذي وجدت فيه المرأة متنفسا لكل تلك الضغوطات التي تحاصرهما باسم الدين والعرف. وبطالعنا (نسق الحجاب) في كتابات المرأة العربية كنسق هام من أنساق الهيمنة الأبوية الذكورية، التي استمرت ردحا من الزمن، بحكم العادات والتقاليد، فيشكل تيمة محورية تسهم في تطور الأحداث ونسج حبكةها، وهذا بعيدا عن الوازع الديني، فنجد الروائية الجزائرية (فضيلة الفاروق) -مثلا-

في روايتها (مزاج مراهقة) تحمّله معان سلبية في مجتمع طغت عليه السلطة الذكورية الأبوية على وجود المرأة كإنسان له روح وجسد، ورغبات وطموحات، هذه النزعة السلطوية التي جعلت الرجل يختصر الحياة في وجوده، وفي تربعه على عرش الإنسانية التي هي في عرفه "شيء مذكر، فهو يعتبر نفسه يمثل الجنس الإنساني الحقيقي... أمّا هي في عرفه تمثل الجنس الآخر".⁽³⁷⁾ لذلك أباح لنفسه التعالى عليها، وتحقير دورها في الحياة، والنظر إليها على أنّها أساس الخطيئة، وأنّها جسد بلا روح، فحق له بذلك الاعتقاد امتلاكها، وإخضاعها لرغباته، وإحاطتها بهالة من الضباية، والعمل على إخفائها، وإنكار وجودها.

أما في روايتها (أقاليم الخوف)؛ فهي تحمله أبعادا أكثر خطورة من سابقتها، إذ تعرضت له هذه المرة في علاقته بالمرأة نفسها، فاستطاعت أن تبين كيف يتحوّل الحجاب من رمز ديني له قدسيته في نفوس المسلمين إلى مجرد وسيلة لخداع الآخرين، وزرع الفتنة، وتمثل هذا الدّور في شخصية (شهد) التي تُبدي عكس ما تخفي " فشهد لا تتوقّف عن إلقاء درسها الممل عن محاسن الإسلام، ودعوتي إلى اعتناقه، وهي كلّما دخلت علينا أحضرت لي قطعة من الثياب هدية، وتحرص أن تكون القطعة محتشمة، بكمين طويلين، وطول يغطي ما تحت الركبتين..."⁽³⁸⁾. تحاول (شهد) جاهدة أن توهم الآخرين باستقامتها وتدينها، وتظن أن حجابها الذي يغطي سائر جسدها كفيل بتحسين صورتها، ولكن كل أفراد العائلة كانوا على دراية بالأعيبها، وبالرغم من ذلك فقد "أعطيت لشهد صلاحيات كثيرة في العائلة، فرأيها جدّ مهم قبل اتخاذ أي قرار بالنسبة لكل أفراد العائلة، على الرغم من أنها أنثى..."⁽³⁹⁾ وهذا ما يؤكد ما سبق ذكره من أن المجتمع يهتم بالظاهر، ويهمل الباطن، إذ

تحاول (شهد) أن تخفي لؤمها تحت عباؤها، فنالت بذلك احترام الجميع رغم مقتهم لها، في حين نجد أن حجاب أختها (شمائل) "هو الحجاب الذي ترتديه أغلب النساء، بنطلون وقميص عريض يغطي المؤخرة والفخذين ومنديل بسيط".⁽⁴⁰⁾ وعلى الرغم من ذلك فقد كانت امرأة قوية وإنسانة خلوقة " لذلك كانت تختلف مع شهد حول شكل الحجاب، فبالنسبة للأولى: الحجاب يعني سترة الجسد دون الدخول في التفاصيل، أما الثانية فتصرّ على أن الحجاب هو المعطف الواسع الذي ترتديه، والمنديل الذي يغطي نصف الجبين ونصف الذقن، وإخفاء القدمين بالجوارب..."⁽⁴¹⁾ غير إنّ تظاهر (شهد) بالأدب والاستقامة لم يمنعها من إخفاء بعض ملامح شخصيتها التي تطفو أحيانا دون وعي منها، فيرتفع صوتها حين لا تجد ما تقول " والله ما حدا حرف الدين غير أمثالك! أما شمائل فتظل محافظة على هدوئها وتحببها ساخرة: يا ستي مدام حجابك شرعي ومطمنة فكرك شو دخلك فيني؟"⁽⁴²⁾ وهكذا يتضح حجاب (شهد) حاملا لبعدين أحدهما يعلن يرفع مكانتها في المجتمع، والآخر مضمّر تسعى إلى إخفائه عن الآخرين لأنه يمثل حقيقتها ونفاقها.

يتّضح - انطلاقا مما سبق - أنّ قضايا الرواية النسائية العربية قد حققت نوعا من التّمييز، والخصوصية على مستوى القضايا، والمواضيع التي تطرحها، وهي في مجملها قضايا تخصّ المرأة في علاقتها بالأنّاء، وبالأخر الذي تعدّدت مظاهره، وتنوّعت بين المجتمع والرجل والعرف. لتحاول من خلالها تحقيق هويتها، وتحقيق ذاتها، وحرّيتها المنتهكة. فحظيت الرواية النسائية بمقروئية لم يشهد لها نظير من قبل، ودخلت في منافسة حادة مع ما يكتبه الرجل.

الهوامش:

- 1-فاطمة كدو، الخطاب النسائي ولغة الاختلاف، مقارنة للألساق الثقافية، دار الأمان، الرباط، ط1 ، 2014، ص31.
- 2-شكري عزيز الماضي، إشكاليات النقد العربي الجديد، دار ورد الأردنية، ط2 ، 2008، ص210.
- 3 - أمل التميمي، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005، ص54.
- 4-يمنى العيد، الرواية العربية، المتخيل وبنيته الفنية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص137.
- 5- عبد النور إدريس، النقد الأدبي النسائي والنوع الاجتماعي (الجندر) سلسلة دفاتر الاختلاف، ط1، 2011، ص33/34.
- 6- هويدا صالح، نقد الخطاب المفارق، السرد النسوي بين النظرية والتطبيق، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014، ص54.
- 7 - رشيدة بنمسعود، المرأة والكتابة، سؤال الخصوصية وبلاغة الاختلاف، إفريقيا الشرق، ط2، 2002، ص90.
- 8- فاطمة كدو، الخطاب النسائي ولغة الاختلاف، ص127.
- 9 - المرجع نفسه، ص36.
- 10 - أحمد بوغربي، الخطاب الروائي النسائي في المغرب العربي، مقارنة في التيمات، أطروحة دكتوراه بإشراف: زهور كرام، جامعة محمد الخامس، أكادال، المملكة المغربية، 2007، ص51.
- 11 - نقد الخطاب المفارق، ص166.
- 12- عبد الله الغدامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2006، ص128.
- 13- هويدا صالح، نقد الخطاب المفارق، ص 173/174.
- 14-مجموعة من الكاتبات والكتاب، الكتابة النسائية، التخيل والتلقي، اتحاد كتاب المغرب، ط1، 2006، ص199.

- 15- عبد النور إدريس، التمثلات الثقافية للجسد الأنثوي، الرواية النسائية أنموذجا، سلسلة دفاتر الاختلاف، ط1، 2015، ص84.
- 16- الأخضر بن السائح، الرواية النسائية المغاربية والكتابة بشروط الجسد، مجلة الخطاب، ع4، ص84 بتصرف.
- 17- مجموعة من الكاتبات والكتاب، الكتابة النسائية، التخييل والتلقي، ص203.
- 18- هويدا صالح، نقد الخطاب المفارق، ص161.
- 19- مجموعة من الكاتبات والكتاب، الكتابة النسائية، التخييل والتلقي، ص203.
- 20- محمد نور الدين أفاية، الهوية والاختلاف في المرأة والكتابة والهامش، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1988، ص45/44.
- 21- مجموعة من الكاتبات والكتاب، الكتابة النسائية، التخييل والتلقي، ص205.
- 22- المرجع نفسه، ص202 وما بعدها.
- 23- فريد الزاهي، النص والجسد والتأويل، - بتصرف- إفريقيا الشرق، المغرب، ط2003، ص25.
- 24- المرجع نفسه، ص25.
- 25- محسن جاسم الموسوي، النظرية والنقد الثقافي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2005، ص129.
- 26- رشيدة بنمسعود، جمالية السرد النسائي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2006، ص122.
- 27- إبراهيم الحيدري، سوسيولوجيا العنف، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط1، 2015، ص110.
- 28- المرجع نفسه، ص98.
- 29- رجاء بن سلامة، بنیان الفحولة، أبحاث في الذكر والمؤنث، دار بترا للنشر والتوزيع، ط1، 2005، ص101.
- 30- المرجع نفسه، ص101.
- 31- المرجع نفسه، ص86.
- 32- سعيد بنكراد، وهج المعاني، سيميائيات الأنساق الثقافية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2013، ص09.

- 33- تحرير المرأة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، دط، ص.38
- 34- سعيد بنكراد، وهج المعاني، ص.18.
- 35- فاطمة المرنيسي، الحريم السياسي، البنى والنساء، تر: عبد الهادي عباسي، دار الحصار، ط2، 1993، ص.119.
- 36- القرآن الكريم، سورة النور، الآية31، رواية ورش عن نافع، بيت القرآن للطباعة والنشر، ط3، 1431هـ/2010م.
- 37- سيمون دي بوفوار، الجنس الآخر، تر: مجموعة من الأساتذة، دار أسامة، دمشق، سوريا، دط، ص.04.
- 38- فضيلة الفاروق، أقاليم الخوف، رياض الريس للكتب والنشر، ط1، 2010، ص.13.
- 39- المصدر نفسه، ص 12.
- 40- المصدر نفسه، ص.17.
- 41- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 42- المصدر نفسه، ص.18.

انطولوجيا الرواية البوليمية

حنان بن قيراط
جامعة باجي مختار - عنابة

الملخص:

هذه الدراسة محاولة لإضاءة جانب مهم من جوانب خصوصية الرواية البوليسية باعتبارها واحدة من أهم أنواع الأدب الهامشي الذي لم يتأسس بعد، ولم تعترف به المؤسسة النقدية ولم تُدرج ضمن اهتمامها في التدريس والنقد، ذلك أنها ترى فيه - بجميع أنواعه - قصورا فنياً باعتبارها أدباً دونياً وشعبياً لا يمثل النخبة المثقفة. إلا أننا نرى أن كل عمل أدبي مهما كان يتصف بصفة الأدبية لما فيه من جماليات فنية يتميز بها عن غيره من الأعمال الأدبية.

وما كان للرواية البوليسية الحديثة أن تحقق ما حققته من نجاح لولا أنها استطاعت الإفادة من شكل الرواية عموماً، ولئن اعتبرت من الآداب غير الرسمية فقد استقطبت الكثير من القراء الذين تابعوها باهتمام بالغ، متابعين تفاصيلها وجزئياتها مثلهم في ذلك مثل المحقق الذي يشترط فيه الذكاء وسرعة البديهة.

الكلمات المفاتيح: الرواية البوليسية، إشكالية الرواية البوليسية، أنواعها، خصائصها، عناصرها.

Résumé:

Cette étude est une essai pour illustrer un important coté de roman policier, comme il est un des types de paralittérature ou la critique ne lui confesse pas à l'enseignement et la critique, puisque il est considéré de qualité inférieure et populaire et ne représente pas l'intellectuelle élite.

Le nouveau roman policier est succé car il est bénéficie de la forme du roman exactement, et il n'est considéré pas comme officielles littératures, Malgré le grand nombre de récepteurs publiques qu'ils sont suivi leur différentes détails comme l'enquêteur qui se distingue l'intelligence et sagacité.

Mots clé: roman policier, La problématique du roman policier, Types, Caractéristiques, Éléments.

Abstract:

The present study endeavors to highlight a main aspect of the specificities of the detective novel as one of the most types of marginal literature that has not been created

yet. This kind of literature was not also recognized by critical studies and was not classified among its concerns in teaching and criticism because it believes that all kinds of marginal literature are characterized by artistic shortcomings, for it is an inferior and a popular literature, which does not represent the intellectual elite. However, we think that every literary work is seen as a kind of literature owing to its distinguished and specific artistic aesthetics.

The modern detective novel would not have achieved its success if it had not been able to benefit from the form of the novel although , it was seen as an informal literature. it attracted many readers who followed it with great interest and who inspected its details like a witty investigator.

Key words: the detective novel, the problem of the detective novel, Types, Features, Elements.

تقديم:

ظهرت أجناسٌ أدبيةٌ عديدةٌ لم تكن معهودةً من قبل ولاقت انتشاراً كبيراً في فترةٍ وجيزةٍ. ولم تعد مقروئية الأدب حكراً على الطبقة الأرستقراطية والنخبة المتففة فقط، بل امتدت إلى الطبقة البرجوازية والفقيرة. وقد رفضته المؤسسة النقدية وهمشته وجعلته خارج نطاق اهتمامها، فوجد الناقد نفسه في مواجهة نوعين من الأدب : أدبٌ رسميٌّ فصيحٌ معترفٌ به يدرس ويدرس ويخضع للنقد والتأويل. أدبٌ هامشيٌّ مهمسٌ تمخض عن أدبٍ استهلاكيٍّ وغير معترفٍ به في التدريس والنقد، وله عدة تسميات غير متفق عليها، وتتضوي تحته عدة أنواعٍ منها : الرواية البوليسية، رواية الخيال العلمي، الروايات الوردية، الروايات الشعبية، شرائط الرسومات، الرسومات الحائطية...

ودراستنا هذه تقوم على واحدةٍ من أهم أنواع الأدب الهامشي وهي الرواية البوليسية، وسنقوم بدراسةٍ لبعض جوانبها وأهم خصائصها وعناصرها.

1- إشكالية الرواية البوليسية:

ورد تعريف الرواية البوليسية في قاموس روبر الصغیر Le petit Robert بأنها: " من الأنواع الأدبية المثيرة للانتباه، وتختصّ بكشف الأعمال الإجرامية واللغزية تقريباً... والرواية البوليسية حكايةً تبدع البرهان الذي يستبدل الرعب بالسكينة"⁽¹⁾، أي أنها تتركز على الجانب المفزع والجذاب الذي تتحرك فيه الشخصيات وفق حركةٍ محكمةٍ ومضبوطةٍ سلفاً من الكاتب، وما يهّمننا هنا هو: " أن تشدنا إليها وتفزعنا حتى النهاية، لأنّ دورها ليس سبر الأغوار ولكن تحريك الغرائز بواسطة حركةٍ مضبوطةٍ كحركة الساعة"⁽²⁾.

نجد تعريفاً آخر لها في القاموس الموسوعي الكبير Le Grand Dictionnaire encyclopédique بأنها: " تختص بالشرطة ومهامها، والتحقيق البوليسي هو الذي يعتمد على الشرطة... فترويها لنا وتضعها في مشهد التحقيق الإجرامي"⁽³⁾.

لا يبتعد هذا التعريف كثيراً في معناه عما ورد في القاموس الموسوعي "هاشيت" الذي جمع بينها وبين الفيلم البوليسي: " رواية، فيلمٌ بوليسيٌّ يضعنا في مشهدٍ أساسيٍّ لشخصياتٍ بوليسيةٍ مثل المحقّق في صراعه ضدّ اللصوص أو المجرمين"⁽⁴⁾.

نجد كذلك تعريفاً آخر في القاموس الموسوعي Dictionnaire encyclopédique بأنها: " تبيّن عموماً الظروف الغامضة والدرامية لجريمةٍ ما، ومغامرات المحقّق التي تنتهي باكتشاف المجرم"⁽⁵⁾.

نلاحظ أنّ هذه المعاجم تشترك في تعريفها للرواية البوليسية بأنها تقوم على عنصر الجريمة كلغزٍ محيّرٍ جداً يصعب حلّه، ويقوم المحقّق بحلّ هذا

اللغز بوسائل منطقية خاصة تختلف من رواية بوليسية إلى أخرى، مثلها في ذلك مثل الفيلم البوليسي الذي عادة ما نجده مقروناً بها. يضع كاتب الرواية البوليسية الخطوط الأولى لفعل الجريمة وكيفية وقوعها بطريقة فنية جمالية، ومن ثمّ يقدّمها للقارئ في لبس كبير يعبر فيها عن فكرة معيّنة أو يدافع عن قضية ما. وهذا ما دفع بالباحثين "بوالو- نرسجاك" إلى القول بأن: " الرواية البوليسية جنس أدبيّ يتميّز بسمات ثابتة، نظراً لما يحمله في طبيعته. لذا لم يسجل أيّ تطوّر جوهري في هذا الجنس منذ إدغار بـ ".⁽⁶⁾

هناك من يرى أنّ الإجرام عنصر أساس فيها، وهو موجودة منذ ظهور الإنسان حين قتل "قابيل" أخاه "هابيل"، وهذا ما يذهب إليه "فرانسوا ريفيير" قائلاً: " وبدون شك، فإنّ ميلاد النص البوليسي متّصل بالإنسان الأوّل، وبالتحديد مع أوّل نواة في المجتمع، وقد ورد في الإنجيل أنّ قابيل قتل أخاه هابيل in cold blood ".⁽⁷⁾

جاء في سفر التكوين أنّ "هابيل" كان راعياً للغنم و"قابيل" عاملاً في الأرض، وقدّم كلّ واحدٍ منهما قرباناً للرّب، فنظر الرّب إلى "هابيل" وقربانه ولم ينظر إلى "قابيل" وقربانه فاغتاظ وسقط وجهه: " وكلّم قايين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أنّ قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرّب لقايين أين هابيل أخوك. فقال لا أعلم أحارس أنا لأخي. فقال ماذا فعلت صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك...".⁽⁸⁾ ونجد أنّ القرآن الكريم قد تعرّض لهذه الحادثة أيضاً بما لا يختلف كثيراً عن التوراة.

ولا يمكننا نفي بعض عناصر الرواية البوليسية من أن توجد في الآثار الأدبية القديمة والخالدة مثل "الإلياذة" فقد: " تعرّضت في كثيرٍ من مقاطعها إلى

موضوع التشرد المفروض على البطل وما يلحقه من بحثٍ وتقصٍّ، كما تناولت موضوع الجريمة والقتل الجماعي بغية الفوز بالأميرة أو منصبٍ ذي نفوذٍ في العرش" (9).

في التراجميات الإغريقية القديمة نجد أيضاً المكان ضاق بالبحث وضاعت به المشاهد في المسرح بين الآلهة والطغاة وسفاكي الدماء: " وحسب أرسطو فإنّ هدفها هو تطهير أهواء النفس عن طريق تحفيز التأثير العنيف بالخوف والرحمة، وكثيراً من هذا نراه في الرواية البوليسية التي خصّصتها أيضاً لتكون سبباً في التأثيرات القويّة" (10).

وهناك من يرى أنّ الجريمة مبنوثة في كثيرٍ من الكتابات الأدبية التراثية، وفي هذا السياق يمكن الحديث عن أنواع أدبية تهتمّ بالإجرام كالحكايات الخرافية والقصص الشعبي والأساطير... فقد تعرّضت لموضوع الجريمة وأسبابها ونتائجها، كما تعدّدت طرق البحث عن المجرم قصد الانتقام أو فرض القصاص مثل عطيل، روميو وجولييت للإنجليزي "شكسبير"، سيرة الزير سالم، سيرة الملك الظاهر بيبرس، قلقامش، ألف ليلة وليلة بما فيها القصة الإطار وبعض قصصها الفرعية مثل حكاية التفاحات الثلاث، حكاية اللص والتاجر، حكاية علي كوجيا *... حيث تعرض نماذج تقترب من القصص البوليسية: " وهذه القصص رغم بساطتها تمثّل نماذج توازي تركيبية أنواع القصص البوليسية التي ظهرت في أواسط القرن التاسع عشر، ثمّ انتشرت ونمت نمواً كبيراً حتّى يومنا هذا" (11).

كذلك "أوديب" الذين يراه الكثير من الدارسين أنّه يجمع بين وظائف المجرم في قتل أبيه، والمحقّق الباحث عن الحقيقة، والضحية الواقع تحت ظلمة الأقدار ولعنة الآلهة: " أوديب قاتل أبيه دون أن يعلم، وهو كذلك جدّ كلّ المحقّقين، لأنّه تولّى تحقيقاً قاده لاكتشاف جريمته" (12).

لكن هل يمكن قبول ذلك ؟ واعتبار كل نصٍ أو روايةٍ روايةً بوليسيةً نظراً لتوفرها على عنصر الجريمة ؟

نحن نعتقد أنّ أوديباً لا يمكن أن يرقى لمستوى المحقق بصورته التي يظهر بها في الأسطورة؛ فقد خرج هارباً من مدينته خوفاً من صدق النبوءة لتتحقق أخيراً ويقتل والده فيكون مجرماً. أمّا عن كونه محققاً فهو لا يعتبر كذلك ؛ لأنّ المحقق في تحقيقه ينطلق ممّا خلفه المجرم من آثار وأدلة ويبحث فيها بفطنته لكشفه في الأخير وهذا ما لا نجده في "أوديب"، رغم تعرّضه لامتحان صعب واستعمال ذكائه ليتوصّل لحلّ اللغز.

أمّا رواية "الجريمة والعقاب" ** للكاتب "دوستوفسكي"، فهي قريبة في موضوعها من الرواية البوليسية بما اشتملته من عناصر بوليسية كالجريمة والتحقيق، رغم بعض الفروق التي ميّزتها كنهاية الرواية مثلاً؛ إذ نجد المجرم يعترف بصنيعه في مخفر الشرطة، عكس الرواية البوليسية التي نجد فيها المحقق يحقّق في مسرح الجريمة حتى يتوصّل إلى كشف المجرم. وفي ذلك يقول "شكولوفسكي" أنّ روايته : "لم ترتكز إلى الحلّ، بل إلى تصادم الحلول وإلى دحض بعضها للبعض الآخر"⁽¹³⁾.

فالجريمة هنا لم تكن معنيّة براسكولينكوف وحده، بل حتى بالشخصيات الأخرى فيها التي تتخطّى الحدود الثابتة للحياة السياسية والسيكولوجية والاجتماعية كالإجرام والعهر والإدمان على الكحول***. ومهما يكن فإنّ عظمة "دوستوفسكي" تكمن في استيعابه للعديد من الجوانب الجوهرية في روسيا وطرحها بوعي بعد أن: " فهم النفس الروسية ووصفها كما هي، مستعيناً بالتحليل الخلقى والنفسي للدوافع العميقة التي تحرك شخصياته نحو الخير كديفوشكين، أو الشرّ كراسكولينكوف"⁽¹⁴⁾.

2- ظهور الرواية البوليسية وانتشارها:

ظهرت الرواية البوليسية في جوٍّ من الأحداث الرهيبة التي سادت القرن 19م وعلى رأسها أمريكا وفرنسا وبريطانيا، وتعتبر وليدة الحداثة الغربية التي عرفتها أوروبا بعد الثورة الصناعية، فخلف هذا التحول - رغم إيجابياته - مشاكل وأزماتٍ عديدةٍ مسّت التركيبة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانية والسياسية والدينية... من أهمّها كثرة السكان والبطالة والفقر والعنف وانتشار الجرائم التي قامت بنشرها مختلف الجرائد والمجلات.

وأقبل القراء بنهمٍ شديدٍ على قراءة قصص الجرائم هذه، لما تضمّنته من الغزّ وإثارةٍ وتشويقٍ بشيءٍ من اللمسات الخيالية، فكانت بداياتها فترة إثارةٍ وأصالةٍ في القصص الخيالي البوليسي، فازدهر فنٌّ لم يكن موجوداً من قبل ولقي إقبالاً كبيراً بين جمهور القراء، لأنّه كان يعكس مشاكل الطبقة الفقيرة والمهمّسة في المجتمع في بيئةٍ متحضّرةٍ كثيفةٍ بالسكان.

اختلفت الرواية البوليسية عن قصص الإجرام التي عرّضت في الجرائد والمجلات، في أنّها كانت تضمّ ما هو أكثر وأعمق من اللغز والإثارة، فرسمت صورةً لثقافة المجتمع، وحلّلت العلاقة بين طبقاته وطرحت على قارئها تساؤلات مهمّة حول المثل والأخلاق والطبيعة الإنسانية، وعالجت الجريمة من خلال تتبّع مفاتيح اللغز والبحث عن المجرم، حتى يكشفه لنا المحقّق ويخبرنا كيف تمّ حلّ هذا اللغز. وبإمكان القراء النظر إلى القصة البوليسية على أنّها معركة ذكاءٍ بين المجرم والمحقّق.

وكانت الانطلاقة الفعلية للرواية البوليسية في أمريكا مع مطلع القرن العشرين (1910-1920)، حيث: " وجدت في أمريكا الأرض التي اعترفت بها " (15)، نظراً لحداثة المجتمع الأمريكي وانفتاحه على كلّ عملٍ إبداعيٍّ جديدٍ طالما أنّه ينقل حكاياتٍ وأحداثاً مستمدّة من العمق

الأمريكي. كما كان لعملية النشر والتوزيع الأثر الواضح للطبقات الفقيرة في اقتناء الكتب البوليسية وقراءتها، بعدما كان ذلك حكرًا على الطبقة الأرستقراطية والنخبة المثقفة، وكان ذلك بعد: "اختراع المطبعة حيث ظهر شكلٌ جديدٌ للثقافة بجانب الأدب الرسمي والتقاليد الشفوية".⁽¹⁶⁾ وظهرت في أمريكا روايات تسمى Dime Novels وشخصية المحقق Nick canter: "الذي أصبح أكثر شعبيةً من أبطال Dime Novels، وهذه الروايات كانت لها شهرةٌ واسعةٌ حيث ترجمت في عدّة دولٍ وخاصةً فرنسا. ومغامراته تناولت الشخصيات الخارجة عن القانون"⁽¹⁷⁾. وقد وردت فيها قصص الواسنارن western stories التي نشرت مغامرات "بيفالو بيل" buffalo bill بطل القراء الأمريكيين آنذاك من خلال مغامراته المتميزة والمثيرة ضدّ الهنود الحمر ومحاربتهم لمكائد أهل المدن.

بين 1919 و1933 انتشرت في أمريكا الجريمة والفساد بكثرة، فظهرت الرواية السوداء وكان الفضل للكاتب "داشيل هاميت" الذي تعرّض لذلك في رواياته البوليسية حيث: "كشف الوجه الخفي لمدينة سان فرانسيسكو ووضعنا في مشاهد لشاربي الخمر والشرطيين الفاسدين والمحامين الأذال، وقد نشرها في مجلة القناع الأسود. ومع ريمون شاندلير، أخذ هذا الجنس دوراً أكثر دراميةً".⁽¹⁸⁾

أمّا فرنسا فكانت ذات تركيبةٍ ملتزمةٍ في الأدب فلا تقبل إلاّ ما كان معروفاً ومختصاً بالطبقات الراقية، وتضع شروطاً لتقبّل آدابٍ جديدةٍ. لذلك وضعتها جانباً حتى 1945 حين طرحت دار النشر "غاليمار" gallimard سلسلة من القصص البوليسية سمّيت la série noire تحت إشراف الكاتب "مارسيل دي هاميل" Marseille de Hamell وقد نشرت عناوين الروايات البوليسية الأمريكية، أما الكتاب الفرنسيين فكتبوا الروايات السوداء تحت

أسماء مستعارة لكتاب أمريكيين مثل: "ليومالي" Leo Malet باسم "فرانك هاردينغ" Frank Harding أو "ليو لاتيمي" Leo Latimer والكاتب "جون أميلا" Jean Amila باسم "جان ميكارت" Jean Meckert ... (19).

وزدادت مواضعها تعقيداً وتتوّعاً مع الزمن، ما جعلها تبلغ المراتب الأولى وتتربّع على أوائل أرقام التوزيع قديماً وحديثاً.

3- أنواع الرواية البوليسية

للرواية البوليسية عناصرٌ مهمّةٌ لا تخلو منها: "العناصر الأساسية الثلاثة للرواية البوليسية هي المجرم، الضحية والمحقّق" (20). وعليه فسيكون تحديد أنواعها قائماً على هذه العناصر؛ فكلّ عنصرٍ يختصّ بنوعٍ معيّن لتكون لدينا ثلاث أنواع: رواية المشكل، رواية التشويق، الرواية السوداء. وسنقوم بعرضها مع ذكر بعض أعلامها:

3-1- رواية المشكل : Roman Problème

يكون محور الرواية هو المحقّق، حيث يتفنّن الروائي في كيفية تصوير وعرض قدراته الذهنية وبحثه جاعلاً منه عبقرياً لا مثيل له، لدرجة الوصول به أحياناً إلى مصاف أبطال الأساطير والخرافات الخارقين، كما نجد أنه يظهر بسماتٍ أخرى معيّنة تطبعه منها:

- ظهور المحقّق في بعض الروايات على أنه رجلٌ هاوٍ أو موظّفٌ خاصٌّ أو عند مؤسساتٍ رسميةٍ، فهو: "رجلٌ اختار العيش في حالة خطرٍ من أجل أجرٍ زهيدٍ... يتولّى تحقيقاً لإبطال اللغز وحلّه لذلك يجب عليه أن يفكر جيّداً... وتبنى رواية المشكل شيئاً فشيئاً فيصبح مؤجّراً لاستعمالٍ

خاصّ أو هاويًا أو موظّفًا، يعمل بدءًا من ذلك من أجل زبونٍ يصعب إرضاءه دائماً، ويكون مستعجلاً. ولا يجب أن يحبس نفسه في مكتبه ويختبر صحّة الدلائل الغامضة، بل يجب عليه أن يذهب إلى مسرح الجريمة"⁽²¹⁾.

- يبحث المحقّق في الدلائل المقدّمة ويجمع شتاتها حتى يظفر أخيراً بمبتغاه، فنجدّه: " يربح دائماً لكنّه يخسر كثيراً... محدّد في نتائجه لأنّه شكّك بشدّة رغم أنّه عنيدٌ في تدارك خطئه، لأنّ هذه الشخصية تضع القارئ في اللغز وأسبابه..."⁽²²⁾.

- يكون المحقّق في صراعٍ مع مجرمٍ ذكيّ، وقد يكون غير معروفٍ أو مختلطاً بالآخرين، فتعالج الرواية القضية بعيداً عن مسرح الجريمة وتسمى روايةً تحليليةً.

وأشهر من يمثّل هذا الاتجاه من الروائيين ما يلي :

• إدغار آلان بو: يعتبر أب الرواية البوليسية وهو الذي وضع ضوابطها التي نعرفها اليوم، وقد كتب أول رواية بوليسية "جريمة شارع مورغ" : Double Assassinat dans La rue morgue في أبريل 1841 ونشرها في جريدة غراهام الباريسية، وكان شرطيه السريّ " أوغست دو بين August Dupin الهاوي اللامع الذي يستخدم المنطق لحلّ ألغاز وملابسات الجريمة.

يذكر النقاد أنّ " بو" قد تأثر في حكاياته البوليسية بالشخصية الفرنسية "فرانسوا يوجين فيدوك"، اللصّ التائب الذي فتح أول مكتب للمخبرين السريين 1817 بباريس ونشر مذكراته 1828 التي احتوت وقائع بوليسية حقيقية، وتأثر به لدرجة أنّ بعض حكايات "بو" يغلب عليها

الجوّ الفرنسي والأسماء الفرنسية، في العصر الذي عاش فيه فيدوك...
(23).

تتميّز أعماله بمهاراته التحليلية في استيفاء ذوق الجمهور حتى وصلت أعداد المجلّات المطبوعة تحت إشرافه أرقاماً ليس لها مثيل: " كانت قصص الرعب القوطية التي كتبها بو طبقاً لما اكتسبه في دراساته لأكثر المجلّات شهرةً في عصره ومن روائعها انهيار منزل آشر usher... وبعض القصص الأخرى التي أداها طبقاً لأسلوب نفسي مدروسٍ دراسةً جيّدةً. وكذلك كانت قصصه البوليسية مثل جرائم شارع المشرحة 1841 التي يعتبرها المؤرّخون الأولى في بابها... وربما كان لأعماله وخصوصاً كتاباته الانتقادية وقصائده الجيدة الصنعة أثرٌ في فرنسا أكثر من أيّ مكانٍ آخر، إذ قام الشاعر الأديب شارل بودلير بترجمتها"⁽²⁴⁾.

● **أغاثا كريستي Agatha Christy**: تعتبر من أعظم كتّاب عصرها من حيث انتشار كتبها والنسخ الموزّعة منها حوالي 400 مليون نسخة عبر أنحاء العالم. تميّزت بخيالها الخصب في إبداع الحكايات المعقدة لإبراز العالم المتوحّش بالجرائم؛ فحوّلت الرواية البوليسية من قصة الحكمة إلى قصة تتحدّى عقل القارئ، فما إن يعتقد أنه عرف المجرم حتى يقتل ويدرك أنه سلك الطريق الخطأ.

تبدي كريستي اهتماماً خاصاً ببطل رواياتها "هيركيول بوارو" hercule Boirou بلجونه للمنطق في تحليل أكثر الجرائم بشاعةً مثل: جريمة في قطار الشرق السريع، جريمة في ملعب الغولف، مرآة ميت، عشرة زنوج صغار...

• كونا دويل: أبداع شخصية المحقق "شارلوك هولمز" Holms في 1887 في روايته دراسة في اللون القرمزي، ولكنه لم يشتهر إلا سنة 1891 برواية فضيحة في بوهيميا التي جمعت في كتاب بعنوان "مغامرات شارلوك هولمز" وشمل 22 قصة، ثم جمعت 11 قصة أخرى في كتاب "مذكرات شارلوك هولمز".

يعتبر "شارلوك هولمز" أشهر أبطال الروايات البوليسية في تحقيق الجرائم الغامضة، فنجده يلاحظ، يسمع، يحلل، يطرح الأسئلة حتى يحصل على دليل يمثل الجزء المفقود فيعيد بناء تفاصيله ليظهر له المشهد واضحاً ويكشف المجرم. وتجدر الإشارة أنه قد تحول إلى رسوم متحركة تحت عنوان "المحقق كونا"، والذي لقي رواجاً وشهرة بين مختلف أوساط الناس.

• فان دين: Van Dine: وهو الذي وضع قواعد الرواية البوليسية المتعارف عليها منذ إدغار آلان بو حتى الآن ****.

3-2- رواية الإثارة : Roman Suspense

تكون الشخصية المحورية في رواية التشويق الضحية، ويراعى فيها ما يلي:
- تصوير الصراع القائم بين الضحية والمجرم، لدرجة أن ذلك: " يثير الانتباه والحزن الشديد لدى القارئ"⁽²⁵⁾، فنجده مقبوضاً في حالة خوف كبير لما سيحدث، لأن الضحية تبدو دائماً بريئة وقاصرة.
- نجد أن هناك خطراً عظيماً يهدد الضحية ويترصدها، لدرجة أنها تبدو كطريدة يحاول المجرم الإمساك بها، فهي: " مثل العنزة التي تستدعي انتباه الضواري التي تترصدها، فتتظر، تسمع. الخطر ما زال مرتقباً في كل مكان، لذلك يجب عليها الانتظار وعدم الهروب حتى تحدده بدقة،

حينها تحاول الفرار أو الهروب : تهديد، انتظار، مطاردة. هذه هي المركبات الثلاثة للتشويق"⁽²⁶⁾.

ومن أشهر أعلام هذا الاتجاه من الروائيين :

● ستانلاي غاردنر : Stanley Gardner : الضحية في رواياته دائماً تكون بريئة ومهددةً وشخصية بييري ماسون Perry Mason تلعب دور المحقق وهو محامي الضحية أيضاً : " وهذه الثنائية محامي- ضحية تسجل تحولاً بين رواية المحقق ورواية الضحية بدون دفاع " ⁽²⁷⁾.

● ويليام إيريش : William Irish : يعتبر سيد الإثارة والتشويق، فهم جيداً ذلك في هذا الصنف وارتقى به لدرجة أنه لا يضاهيه أحد.

3-3- الرواية السوداء : Roman noir

تكون الشخصية المحورية فيها المجرم الذي يسيطر على الأحداث. وللرواية السوداء سحرٌ خاصٌ: " لأنها تثير الغرائز بفضافة، وتدفع إلى رغبة في المغامرات المخيفة للفرار من الضجر والملل... وتستند مثل التراجيديا إلى الذعر والرحمة، منظمة في مشهدٍ خاصٍ لتحسس الغريمة وتسلي الخيال من الانحراف في هوة الشرّ والمعاناة الخالدة"⁽²⁸⁾، ويكون ذلك كما يلي:

- المجرم ذكيّ جداً مثل المحقق، إلا أنه يختلف عنه في الباعث والغاية من ارتكاب الجريمة أو الجرائم، فيكون التركيز على الأحداث المكونة لذلك.

- يتحوّل المحقق من رجل مباحثٍ ومحلّ إلى مطارِدٍ عنيفٍ وقاتلٍ دفاعاً عن نفسه أو موكله، يؤثّر ويتأثّر ويساهم في بناء الأحداث ويجازف إلى أن ينجح في حلّ اللغز أو السعي لتغيير وضع اجتماعيٍّ معيّن.

من أبرز من يمثّل هذا الاتجاه :

• **داشيل هاميت Dashiell Hammet** : له عدّة روايات منها: **الحصاد الأحمر**، **الدم الملعون**، **الصقر المألطي**، **المفتاح الزجاجي**... وقد تعرّض فيها للعنف والشراسة والقتل بالقوّة خاصّةً ما تعلقّ منها بالساسة الذين يبيعون ذمهم للصوص ضامين لهم حمايةً فعالةً، فيتصدّى لهم بطله الذي ينتصر دائماً في النهاية : " ليس لشخصيات هاميت إلا مهنةً واحدةً هي تلك التي تخوّل لها أن تقتل الآخرين"⁽²⁹⁾.

• **ريمون شاندر Raymond Chandler** : له عدّة رواياتٍ منها: **وداعاً جميلتي**، **النوم العظيم**، **النافذة الكبيرة**، **سيّدة البحيرة**... وكلّها تدور على الأغنياء واستضعافهم للفقراء، ويشوب ذلك كلّه مشاعرٌ عنيفةٌ وقلقٌ وقتلٌ يلفّ الحكمة البوليسية. وإنّ : " روايات شاندر عن الموت بألفتها وغرابتها ذات بعدٍ ميتافيزيقيّ تقريباً"⁽³⁰⁾.

4- عناصر الرواية البوليسية :

تقوم الرواية البوليسية على مجموعة عناصر أساسية يتطلّب حضورها دوماً. وفيما يلي سنقوم بتقديمها:

4-1- الجريمة الغامضة: Le Crime mystérieux

إنّ الجريمة هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الرواية البوليسية وبدونها لا يمكن إعطاء روايةٍ ما هذه التسمية. فنجدها تصبّ جلّ اهتمامها على إخراج النّص البوليسي في ثوبٍ يشدّ القارئ إليه ويفزعه: " إنّ التركيز على الجريمة البشعة وتقديمها للقارئ في صورةٍ مفزعةٍ لا إنسانية، تخلق في نفسه فزعاً شديداً وتجعل منه طرفاً في القضية يسعى - صحبة المحقّق - للكشف عن الجاني والمطالبة بحقّه"⁽³¹⁾.

تهدف الرواية البوليسية إلى: " كشف الستار عن الجريمة بعد النجاح في طرح اللغز بكيفية تجعله لأول وهلة مغلقاً مستعصياً على الحل. وهي بذلك تطرح الأسئلة الآتية: متى وقعت الجريمة؟ Quand. كيف وقعت؟ Comment. أين وقعت؟ Ou. من نفذها ولماذا؟ Pourquoi".⁽³²⁾

تختلف طريقة التعبير عن فعل الجريمة من رواية بوليسية إلى أخرى، وذلك حسب تقديم الروائي لأحداثها فنجده يجليها لنا فجأة بغموض ولبس مع تقديم شخصية المجرم والضحية والمحقق بما توفر له من معطيات.

4-2- المجرم : Le Criminel

فاعل الجريمة هو كل من قام بارتكابها؛ فقد يحدث أن يرتكب الجريمة شخص واحد يصمم لها وينفذها، أو يقوم أكثر من شخص بارتكابها بأن يسخر من يعمل لحسابه ويحرّضه على ارتكابها مقابل الهبة أو التهديد أو الإساءة لاستعمال السلطة. وقد تتعدّد الجرائم بتعدّد المساهمين فيها فيكون لكلّ منهم جريمته الخاصة به. وهنا نجد أنّ الكاتب يصبغ شخصية المجرم بصفات إجرامية قاسية يجعلها من طباعها.

4-3- الضحية : La Victime

لا توجد رواية بوليسية من دون جثة أو ضحية، إذ تعتبر إحدى العناصر المهمة: " الرواية البوليسية من دون جثة غير ممكن"⁽³³⁾. ولا تعتبر الضحية نقطة بداية التحقيق لأنها لا تلعب أي دور سلبي ولأنها قد ماتت عندما بدأ الحكي. لذلك نجد السارد لا يهتم بوصف ما يتعلّق بها إلا مع الأحداث المتلاحقة أثناء التحقيق.

تجدد الإشارة أنه كلما كثرت الضحايا في الرواية البوليسية كلما زاد ذلك في الإثارة والتشويق وأخذ نفس القارئ، وهو ما يوجب نجاحها.

4-4 التحقيق : L'enquête

هو ما تتخذه عادةً السلطات المسؤولة من إجراءاتٍ في تعقب المجرم والأدلة التي تدينه للحكم عليه من خلال لمّ شتات وأطراف القضية التي باتت لغزاً محيراً، فتباشر التفتيش في مكان وقوع الجريمة علّها تعثر على أشياء مفيدة. وفي ذلك يمكن الاستعانة ببعض ممن شهد الحادثة بمن فيهم المتهم في بعض الروايات : " يبدأ المخبرون التحقيق في جرائم القتل بالبحث عن بقع الدم وبصمات الأصابع والأسلحة، كما يقوم المخبرون أيضاً باستجواب الشهود أو المشتبه فيهم، أو من قد يكون لديهم معلومات عن الجريمة. يقوم عدّة فنيّين متخصصين بمساعدة المخبرين في التحري، بعضهم من ضباط الشرطة والبعض الآخر من المدنيين المدربين..."⁽³⁴⁾.

والتحقيق هو همّ الكاتب والمحقق والقارئ على حدّ سواء، لكن طرق البحث والوسائل المستخدمة في ذلك تختلف وتتغير من رواية بوليسية إلى أخرى لذلك قد يطول التحقيق فيها من بدايتها حتى اقتراب نهايتها.

4-5- المتهم:

هو الذي يشتبه به في ارتكاب الجريمة سواء أظهر في نهاية التحقيق بريئاً أم مجرمًا، بعد أن يضع المحقق مجموعة من الأسئلة يعتبرها مقنعة له: من نفذ الجريمة؟ ما غايته؟ كيف فعل ذلك؟ فيبدو له الاستنتاج لأوّل وهلة سهلاً لكن ذلك يحتاج لتحقيق وبحث واستقصاء للأدلة

التي تركها المجرم. وقد يستدعي المتهم على إثرها للتحقيق كشاهد في القضية ويخفي عنه أنه المتهم الرئيس في القضية.

4-6- المحقق : Le détective

يكون أحياناً المحقق تابعاً للشرطة أو هاوياً أو متحرّياً، وعليه أن ينتقل فوراً إلى مكان الحادث بعد إخباره لإجراء المعاينات الأولية، فيصطحب معه خبراء مؤهلين وقادرين على تقدير ظروف الوفاة. ويمارس المحقق وظيفته لتحديد المتهم، وإذا استدعى التحقيق المبدئي فعليه أن يوقف شخصاً يشتبه به بطلب سند إعلامي لنشر إشعارات أو صور تخصّ المتهم ليجري البحث عنه في أيّ مكان، شرط أن يكون له إذن مكتوب يُظهره عند الحاجة.

تطفو شخصية المحقق لتجذب انتباه القارئ بذكائها وبالذور المركزي الذي يلعبه لأنّه مدار الاهتمام وحامل الفعل القصصي البطولي: " شخصية المحقق تأخذ حيزاً كبيراً من حجم الرواية، وتحظى بعناية خاصة من قبل الكاتب، بل وتعبّر في بعض الأحيان عن شخصيته الخاصة وأفكاره المتميّزة"⁽³⁵⁾. كما يمتاز بأنّه: " بعيداً عن الخطأ، لأنّ مجرى الأحداث التي يتحرّك ضمنها مدروسة مسبقاً، بحيث إنّ وقوع أيّ خلل يعرضها للتصدّع جملة وتفصيلاً، لذا فهو محكوم عليه أن يكون رجلاً خارقاً (Superman)، بعيداً عن عالم الشخصيات العادية المعرّضة عادة للخطأ والصواب"⁽³⁶⁾. بالتالي، فهو يتسم بالنزاهة والشجاعة والإخلاص دفاعاً عن الحق، لذلك نراه يوظّف ما توفّر لديه من قدرات ذهنية وعقلية يتفوق به على المجرم مهما بلغت درجة ذكائه. ونرى الكاتب في سرد أحداث الرواية: " يركّز على الجانب الذهني للمحقق أكثر من اهتمامه

بحركاته ونفسيته، ويتجاهل كليّة ما يتعلّق بهذه الشخصية كإنسان، وعلى القارئ الذكي أن يتصوّر ملامح وشكل وسنّ المحقّق من خلال بعض التلميحات الخاطفة غير المركّزة"⁽³⁷⁾.

خاتمة :

تهتمّ الرواية البوليسية بالبحث عن المجرم وكشف مجرى الجريمة وأسباب وقوعها، ولها صلة وثيقة بالواقع الذي تُستوحى منه الجرائم الواقعية التي أُطّلع عليها الكتاب، الأمر الذي جعلها تشتهر شهرةً واسعةً وتنبوّاً مكانةً هامّةً بين مختلف أجناس الأدب الهامشي، إلى درجة أنّ معظمها حوّل إلى أفلام بوليسية ذاع صيتها وصيت محقّقيها.

تعتبر الرواية البوليسية أدباً مهمّشاً هدفها الترفيه والإثارة فقط كما تقول بذلك المؤسّسة النقدية. لكنّ ذلك لم يحلّ دون حيازتها مكانةً هامّةً ؛ فإن أُعتبرت من الآداب غير الرسمية، فقد تمكّنت من استقطاب الكثير من القراء الذين تابعوها باهتمامٍ بالغٍ متابعين تفاصيلها وجزئياتها الدقيقة.

وكفى بالمقروئية والتلقّي اللذين حازت عليهما الرواية البوليسية دون سائر الأنواع الهامشية للاعتراف بأدبيتها، حتّى وإن غضضنا الطرف عمّا تمتاز به أسلوباً وقيمةً فنيّةً تظهر في لغتها بما في ذلك الخيال الواسع.

الهوامش :

(1) - Le petit Robert1: Dictionnaire de la langue française, Paris, France, 1992, page 1475.

(2) - Boileau- Narcejac : Roman Policier, Collection Que-sais-je, PUF, 1^{ere} Edition, 1975, Page 50.

(3) - Le Grand Dictionnaire Encyclopédique de la langue Française, la langue et les noms propres, édition de la connaissance, 1996, page 862.

(4) - Dictionnaire Hachette Encyclopédique, Edition 2000, Paris, France, Page 1484.

(5) - Dictionnaire Encyclopédique Quillet, librairie aristite quillet, Paris, France, 1981, Page 5336.

(6) - Boileau - Narcejac : roman policier, op.cit, page 5, 6.

(7) - نقلاً عن: عبد القادر شرشار: الرواية البوليسية ، بحث في النظرية والأصول التاريخية و الخصائص الفنية وأثر ذلك في الرواية العربية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سوريا، 2003، ص 41.

(8) - الكتاب المقدس أي كتب العهد القديم والعهد الجديد : سفر التكوين، الإصحاح الرابع: 8 - 12، جمعيات الكتاب المقدس المتحدة ، كامبريدج ، المملكة المتحدة ، 1971.

(9) - عبد القادر شرشار: الرواية البوليسية، بحث في النظرية والأصول التاريخية والخصائص الفنية وأثر ذلك في الرواية العربية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003، ص39.

(10) -Stéphanie Dubout : le roman policier, Les essentiels Milan, France, 1997, page 04 .

* في ذلك راجع : ماهر البطوطي : الرواية الأم ألف ليلة وليلة والآداب العالمية، دراسة في الأدب المقارن، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، 2005، ص 294 - 303.

(11) - ماهر البطوطي: الرواية الأم ألف ليلة وليلة والآداب العالمية، مرجع سابق، ص 303.

(12) -Stéphanie Dubout: le roman policier, OP, cit, page 04.

**رواية الجريمة والعقاب تحكي قصة رجل (راسكولينكوف) رهن حلية عند عجوز مرابية، ثم قتلها لينعم بثروتها. لكن ما حدث هو العكس إذ صحا ضميره ووقف حاجزا أمامه يمنعه من تحقيق مبتغاه، فشعر بخطورة ما قدمت يدها، فحاول جاهدا التخفي والتملص من الشرطة التي باشرت التحقيق واتهمت شخصا آخر بريئا. ثم يعترف بذنوبه

وينقاد للمنفى بسبييريا مقيداً بالأغلال، ليجد هناك راحة معنوية وروحية خلّصته من عذاب الضمير .

(13) - ف. ف. كوزينوف: موسوعة نظرية الأدب: إضاءة تاريخية على قضايا الشكل، القسم الثاني: الرواية ملحمة العصر الحديث، ترجمة الدكتور جميل نصيف التكريتي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، الطبعة الثانية، 1986، ص 126.

*** راجع أكثر كتاب: كوزينوف : موسوعة نظرية الأدب: إضاءة تاريخية على قضايا الشكل، القسم الثاني: الرواية ملحمة العصر الحديث، مرجع سابق، ص 106 - 163.

(14) - زبير دراقى: محاضرات في الأدب الأجنبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1991، ص179.

(15) - Boileau-Narcejac : Roman policier ,OP cit, page 76.

(16) -Alain Michel Boyer: La paralittérature, Que - sais-je? Imprimerie des presses universitaire de France, 1992, page 43.

(17) - Stephanie dubout: Le roman policier, OP,cit, page 13.

(18) - Ibid, page 26, 27.

(19) - Ibid, page 30.

(20) - Boileau-Narcejac: Roman policier, Op, cit, page 07.

(21) - Ibid, page 67.

(22) - Yves Reuter: le roman policier et ses personnages, presses universitaires de Vincennes, Paris, 1989, page 147.

(23) - ماهر البطوطي: الرواية الأم ألف ليلة وليلة والآداب العالمية، مرجع سابق، ص 304.

(24) - نخبة من الأساتذة: تاريخ الأدب الغربي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا ، الجزء الثاني، ص 564.

**** راجع في ذلك أكثر كتاب: عبد القادر شرشار: الرواية البوليسية، مرجع سابق، ص 9-11.

(25) -Yves Reuter : le roman policier et ses personnages, op, cit, page 170.

(26) -Boileau- Narcejac : roman policier, op, cit, page 89.

(27) - Ibid, page 92.

(28) - J.P de Beaumarchais, Daniel Couty, Alain Rey : Dictionnaire des littératures de la langue française, Ouvrage publié avec le concours du centre national des lettres, Paris, 1984, page 1987.

(29) - الرواية البوليسية: موسوعة المعارف الحديثة، الآداب 2، منشورات فيليب

أوزو، ترجمة مبارك وساط، المغرب، 2001، الجزء الرابع، ص 99 ، 100.

(30) - الرواية البوليسية، موسوعة المعارف الحديثة، الآداب 2، مرجع سابق، ص

101.

(31) - عبد القادر شرشار: الرواية البوليسية، مرجع سابق، ص 136.

(32) - المرجع نفسه، ص 140.

(33) -Stéphanie Dulout: le roman policier, op cit, page 18.

(34) - الشرطة: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر

والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الثانية، 1991، المجلد 14، ص 92.

(35) - عبد القادر شرشار: الرواية البوليسية، مرجع سابق، ص 85.

(36) - المرجع نفسه، ص 87 ، 88.

(37) - المرجع نفسه، ص 89.

تجليات الجنّ (الخَيْر) للإنس في الحكايات الشعبية الجزائرية - أسطورة " الرهبان / الرهباني " نموذجاً -

عبد الطيغ مخالفة و عبد المجيد حنون
جامعة باجي مختار - عنابة (الجزائر)

الملخص:

يحاول الباحث أن يقف في هذا المقال على تجلّ من تجليات أسطورة أدبية تزخر بها الثقافة الشعبية الجزائرية وهي أسطورة (الرهبان)، مستثمرا آليات منهج النقد الأسطوري بخطواته الإجرائية التي حدّدها الناقد الفرنسي (Pierre Brunel) لكشف المطاوعات المتعددة التي مسّت هذه الشخصية الماورائية في حكاية تعدّ من أشهر الحكايات الشعبية المتداولة في منطقة قلمة بالشرق الجزائري، وهي (حكاية العزوز القابلة والراجل البراني)، فكان لا بد من التّطرق إلى مفهوم الأسطورة الأدبية أولا لتأسيس فكرة أسطورة "شخصية الرهبان" أدبيا قبل تتبع مختلف التجليات والمطاوعات في المدونة المختارة. فجاء البحث دراسة نظرية تطبيقية في الآن ذاته. وقد حاول الباحث أن يستخلص بعض النتائج و الأحكام المتعلقة بهذا الموضوع.

الكلمات المفتاحية: تجليات، الجنّ الخَيْر، أسطورة الرهبان، الحكايات الشعبية.

« Les émergences du bon Djinn dans les contes populaires Algériens: Le mythe d'Errohbane/Erroh bani comme exemple»

Résumé :

Cet article -intitulé: « Les émergences du bon Djinn dans les contes populaires Algériens: Le mythe d'Errohbane/Erroh bani comme exemple»- tente d'étudier les avatars du mythe "d'Errohbane" qui est un mythe littéraire populaire Algérien, en exploitant les techniques de la mythocritique comme l'a déterminé "Pierre Brunel", afin de détecter les différentes flexibilités de ce personnage métaphysique dans l'un des plus célèbres contes populaires de l'Est Algérien: "la vieille sage-femme et l'homme étranger".

Notre travail se compose de trois parties : Une partie théorique dans laquelle on a défini le mythe littéraire afin d'aboutir à "Errohbane" comme mythe littéraire, puis on a poursuivi — dans la partie pratique - les émergences et les flexibilités de ce mythe dans le corpus en question, et la troisième partie est une conclusion.

Les mots clés: Les émergences_ le bon Djinn_ Le mythe d'Errohbane _ les contes populaires.

Abstract:

This article- entitled: "The emergences of the good Djinn in Algerian popular tales, the myth of "Errohbane /erroh bani" as example" attempts to study the emergences of an Algerian literary myth: "errohbane" using the mythological criticism as it was presented by "Pierre Brunel", for detecting the different flexibilities which touched this metaphysical character in one of the most famous Algerian popular tales: "The old midwife and the foreign man".

We have –first- defined the literary myth to clarify how this character (Errohbane) has become a literary myth, then we have detected its emergences and flexibilities in the selected corpus; finally we have exposed the results of our work.

Keywords: the emergences _ the good Djinn_ the myth of "Errohbane _ popular tales.

تمهيد:

لا شك أنّ المتنبّع لموضوع تجلّي الجنّ (الخير) للإنس، فيما خلفه العرب القدامى من أشعار ونوادر وأمثال وحكم، سيقف على لوحات فنيّة إبداعية مثيرّة، وعلى خيال خلاق تفنّن أصحابه في نسج قصص غريبة عجيبة، عن تلك العلاقة الإيجابية التي جمعت بعض الجنّ (الخير) ببعض الإنس في محطات معيّنة، فلم تقف - من خلال عدد ليس بالقليل من مرويات الأدب وأخبار العرب- عند حدود المسالمة وكفّ الأذى، لكنّها تجاوزت ذلك إلى المساعدة وردّ الجميل أحيانا، وإلى المثاقفة وتناشد الأشعار أحيانا أخرى، وربما تخطّت ما ذكرناه لتنتهي إلى المصاهرة والزواج، كما حدث مع عامر بن يربوع من بني تميم، الذي تزوّج السّعلاة، وخبره معروف ومشهور عند العرب⁽¹⁾.

فكأنّ هذه الرّويّا الأسطوريّة للعالم، استولت على الإنسان العربي القديم وشدّت خياله إليها شدّا، فلم تزل به حتّى ألبس جنّ شبه الجزيرة ما يتمتّع به

هو ذاته " من كرم وحسن ضيافة وتسكين روع المسافر، وهداية الضال، وإغاثة الملهوف وغير ذلك من مكارم الأخلاق، فهذا جنيّ (عامر الوادي) كما كانوا يسمّونه يتدخّل لفائدة الراعي المستجير به فيطلب من الذئب أن يردّ عليه شاته فيذعن الذئب لأمره (2)، وهذا جرير بن عبد الله البجليّ يمسّي وحيدا في واد مقفر، زمن الوفادات على النبي (ص) فإذا هو بين جمع من الجن يستنشدهونه الشعر فينشدهم، ويحدثونه ويحدثهم إلى الصبح، ثمّ يكمل طريقه (3)، وهذا عبيد بن الأبرص الشاعر المشهور ينفذ ثعباناً من الهلاك عطشا في الصحراء وهو لا يعلم أنه جنيّ، فيردّ له هذا الأخير الجميل بعد مدة يسيرة، وينقذه من الموت المحقّق حين تضيع منه راحلته، ويلحقه بقومه وينشده في ذلك شعرا (4). وغير ذلك من المواقف المثيرة .

فمثل هذه النماذج من الجنّ (الخير) التي زخر بها الأدب العربي القديم شعراً ونثراً ، وفصلاً في وصفها الرواة والقصاص تفصيلا دقيقا، يمكن عدّها أساطير أدبيّة بامتياز، على حدّ التعريف الذي أورده الناقد الفرنسي Pierre Brunel) للأسطورة الأدبيّة في معجمه الجامع (Dictionnaire des mythes littéraires) "معجم الأساطير الأدبيّة"، إذ ذكر برونال " أنّ الأسطورة الأدبيّة _ كما بيّن (فيليب سيلبي) (Philippe Sellier) _ ليست مجرد استمرار للأسطورة الإثنولوجيّة الدينيّة في الأدب... بل هي مصطلح يستوعب كلّ ما استطاع الأدب تحويله إلى أساطير" (5).

وانطلاقا مما ذكرنا، يمكن أن نعدّ بعض النماذج والشخصيات الماورائيّة التي أنتجتها الثقافة الشعبيّة وتركت للأدب بأجناسه المختلفة -من قصيدة وحكاية وملحمة ومثل وأحجية- مهمّة نحت تفاصيلها الدقيقة أساطير أدبيّة بامتياز أيضا، يستوجب حضورها في الأعمال الأدبيّة الوقوف والتحليل، لذا أثرنا أن نتتبّع أسطورة "الرهبان" الشعبيّة، وتجليّاتها في حكاية من الأدب الشعبي

الجزائري، هي حكاية: " العجوز القابلة والراجل البراني" **،*، لكن قيل ذلك لا بد من الوقوف على " أسطورة الرهبان الأدبية" أولاً، أو ما يمكن تسميته بالأسطورة الإطار.

فما هي الملامح الكبرى لشخصية "الرهبان" الأسطورية؟ وما هو أصل هذه الأسطورة الأدبية؟ وما هي خلفيتها الثقافية؟ وكيف تجلت في هذه المدونة المختارة؟

أ- أسطورة "الرهبان" الأدبية ومحاولة جمع المتشظي:

إنَّ تشكيل صورة واضحة المعالم عن "الرهبان" كما رسمته المخيلة الشعبية، لا يتم إلا بإعادة تركيب ما تناثر من شظايا هذه الأسطورة الأدبية في بعض النُتف والقصص القصيرة والأمثال الشعبية المحلية (الجزائرية) التي تضمّنت إشارات إلى ما يتحلّى به هذا الكائن الأسطوري من صفات جسمانية أو نفسية، ومن ذلك قولهم:

- "اطويل كي الرهبان". ويضرب هذا المثل لصاحب القامة الطويلة.

ويقال كذلك: "يديه أطوال كي الرهبان". ويضرب لصاحب الذراعين الطويلتين.

ويقال: "عينيه ازرق كي الرهبان". ويضرب لصاحب العينين الزرقاوين زرقة لافتة.

ويقال: "يخاف كي الرهبان". ويضرب للجان الخواف.

ويقال: " تقول ظلّ عليه رهبان". ويضرب لمن أصبح ثرياً فجأة، ويضرب المثل نفسه للخائف أو للمرتعد خوفاً من أمر ما.

ويقال كذلك: "لابس لبيض في لبيض كي الرهبان". لمن يرتدي الأبيض الناصع من الثياب.

ويقال كذلك: "لابس لكحل في لكحل كي الرهبان". لمن يرتدي الأسود الفاحم. ويقال عن سوق الماشية (الرحبة) إذا غلت أسعارها: "الرحبة غالية تقول دُخْلُوها أَلرهبان".

ففي هذه الأمثال الشعبية تتجلى بعض صفات "الرهبان" الجسمانية ولعل أولها القامة الفارمة، "فلرهبان" بنية فيزيولوجية تماثل بنية البشر لولا قامته الطويلة، ولكنه ليس عملاقا، أي أن قامته بشرية ولكنها فارمة الطول فقط، وذراعا طويلتان، وتمضي بعض الروايات إلى أنهما تصلان إلى ركبتيه إذا أسبلهما، ويصرُّ البعض على أن له ذراعا أطول قليلا من الذراع الأخرى، وعينه زرقاوان زرقاة ملفتة للانتباه، أما لباسه فالبياض الناصع أو السواد الفاحم، أي أنه لا يزوج ما بين الألوان عادة، ولباسه يغطيه من رأسه حتى أخص قدميه، وهو كائن جبان يخاف البشر، سريع الهرب والاختباء إذا صادفهم، لكنه قد يمنحهم كنزا وثروة طائلة إذا تم الإيقاع به، وهو -كما البشر- يدخل الأسواق ويشترى ويتحكم في سعر الماشية، إذ ترتفع أسعارها كلما دخل (الرحبة) "رهبان" كما نستنتج من المثل الشعبي الأخير.

لعل هذه أهم الأمثال التي حملت إشارات عن صفات "الرهبان" الجسمانية والنفسية، لكن المخيلة الشعبية فصلت في وصفه أكثر خارج الأمثال، فهو ابتداء كائن روحاني - باتفاق الرواة جميعا-، وليس كائنا بشريا ذا طبيعة خارقة كما هو شأن الولي الصالح أو الساحر أو الكاهن أو المشعوذ.. إلى غير ذلك من الشخصيات البشرية التي يزخر بها الأدب الشعبي، إلا أنهم لا يصفونه بكونه "جنيا" أو على الأقل يتجنبون ذلك، وقد يرجع سبب هذا الأمر إلى صورة الجن عندهم وما يكتنف علاقته بالبشر من سلبية وإيذاء، "فمن المعتقدات الشائعة - لدى شعوب عديدة - الاعتقاد في أن النطق بالاسم يجذب

حامله، ولذلك كان التردّد في النطق باسم الشّخص الميّت⁽⁶⁾ وكذا التّلفظ باسم الجنّ أو ذكرهم.

وقد تضيف بعض الروايات إلى "الرّهبان" صفة الأصابع الستّة، فيده - على حدّ زعمهم - بها ستة أصابع على خلاف يد البشر، وهو يمتطي مركوبات الإنس من دواب وبغال وأحصنة، وقد يظهر ليلاً كما قد يظهر نهاراً. وأغلب أوقات ظهوره نهاراً هي الصّباح الباكر خاصّة إذا خيم الضّباب، أو عند الظّهيرة وشمسها الحارقة في فصل الصّيف، ومن أكثر الأماكن التي يظهر فيها الينابيع الجبليّة، والغدران، والأنهار، والغابات الخالية، إضافة إلى الأسواق، لكنّه يتكرّر في زيّ بشري قبل دخوله هذه الأخيرة احتياطاً فيصعب حينها تمييزه.

أمّا بيت "الرّهبان" ومسكنه فباطن الأرض، والمغارات والكهوف والصّخور العظيمة المنتصبة على قمم الجبال وتجاويف بعض الأشجار الضّخمة كالسّنديان والبلوط وما التفّ من نبات العليّق، ولعلّ هذا ما جعل بعض الدّارسين والمهتمّين بالأدب الشّعبي يجنحون إلى أن فكرة الرّهبان ليست سوى تعبير عن صورة الجني وكيفيّة حياته تحت الأرض⁽⁷⁾.

ولا يتجلّى "الرّهبان" عادة للجماعة من الإنس ولكنّه يتجلّى للفرد الأعزل، فإذا أحسّ بالخطر والتّهديد من قبل إنسي ما، أطلعه على مكان كنز متوارٍ، أو سلّمه له يدا بيد حفاظاً على حياته، "غير أن سعيد الحظ وحده من يمكنه الحصول عليه، وهو غالباً ما لا يتحقّق، حيث يجد النّاس هذا الكنز لكنهم لا يعرفون حقيقته فيضيع منهم، أو يختفي، أو يتحوّل إلى فحم"⁽⁸⁾ فور تخلّيهم عن شرط كتمان السرّ. فمغارات "الرّهبان" - وهي الصّيغة الذّالة على الجمع في العاميّة الجزائريّة - مليئة بالكنوز، لكنها مغارات متوارية عن الأنظار، ولا تفتح إلاّ بأمرهم هم، لذلك لا سبيل إلى دخولها إلاّ معهم.

II- أسطورة "الرهبان" الأدبية من إعادة التشكيل إلى إعادة التفكيك:

من المجمع عليه لدى المهتمين بالأساطير والأساطير الأدبية أنها ليست وهماً رغم اشتغالها على الكثير مما يرفضه العقل المنطقي، وأن لها علاقة وثيقة بالواقع والتاريخ، وربما كان المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت (Hérodote) 425-484 ق م، من أوائل الذين أشاروا إلى أن الأساطير انعكاس وتصوير مبالغ فيه لأحداث تاريخية وقعت حقيقة⁽⁹⁾، ومن هذا المنطلق يرى بعض الدارسين أن لأسطورة "الرهبان" الأدبية علاقة وثيقة بالواقع التاريخي والثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي أنتجها، ومكن لها حتى احتلت هذا الحيز من الثقافة الشعبية الجزائرية.

بالوقوف على التسمية كما هي في العامية الجزائرية (الرهبان) يتجلى لنا أن لهذا الاسم صلة مباشرة بمصطلحات معينة مثل: (الرهبنة - الراهب - الرهبان)، ولعل التسمية توشك أن تتطابق مع المصطلح الأخير (الرهبان) لولا اختلافهما الطفيف في نصب ورفع الراء، إضافة إلى دلالة صيغة الأولى على المفرد، فيما تدل صيغة الثانية على الجمع.

ومن ثمة يرى البعض أن أسطورة "الرهبان" أو "الرهبان" ليست إلا شرنقة من خيال خصب نسجت خيوطها حول رهبان مسيحيين أوروبيين يكونون قد قدموا منذ زمن بعيد - من مواطنهم الأصلية إلى المنطقة، فاستوطنوا مغارات الجبال وكهوفها متفرغين للعبادة والصلاة، مبتعدين عن ضجيج المدن و مراكز التجمعات السكانية قدر الإمكان، وربما جمعتهم الصدف ببعض السكان المحليين في الينابيع والغدران - التي لا يقصدونها إلا في أوقات نقل فيها الحركة كالصباح الباكر أو عند الظهيرة - فيسارعون عندئذ إلى الفرار منهم والاختباء حتى لا يكشف أمرهم، ولعل أحدهم ألقى بصرة من المال لبعض الفقراء مساعدة له وإشفاقا عليه، أو لعله ألقى لهم ببعض

ماله كي يشغلهم عن مطاردته وتتبعه إلى مغارته، فضُخِّمت تلك القصص وأُضافت إليها الأجيال اللاحقة ما أضافت فكانت أسطورة "الرهبان" الذي يخاف فيمنح الذهب و(الوزير).

من الواضح أنَّ صفات "الرهبان" الفيزيولوجية - سالفة الذكر - من قامة فارهة، وعيون زرقاء، وشقرة وجه بادية، ليست إلا صفات الإنسان الأوروبي مع بعض المبالغات، كما أنَّ لباس "الرهبان" المذكور في معظم الحكايات تنطبق صفاته على لباس "الرهبنة" عموماً، وعلى لباس "الرهبان" المسيحيين على وجه الخصوص، أمَّا حكاية طول ذراعيه، فلها علاقة بطول الأكمام وارتفاع الحزام في لباس "الرهبان" إلى أعلى الصدر قليلاً، أمَّا غلاء أسعار الماشية وربطها بدخول الرهبان إلى سوقها، فالرَّاجح أنَّ (الرهبان) لم يكونوا من الذين يلحون في المساومة كثيراً، تفادياً للاحتكاك المباشر الذي قد يكشف هويتهم، ومن ثمَّ كانوا يقصدون (الرحبة) في الصَّباح الباكر ويدفعون الثمن المعروض مباشرة، فيزداد عندها جشع الباعة وطمعهم، فيرفضون تخفيض أسعار الماشية طيلة ذلك اليوم.

لاشكَّ أنَّ تفكيك أسطورة الرهبان الأدبية وما انتهينا إليه، لا يلغي مطلقاً جمالية هذه الأسطورة وجمالية توظيفها في نصوص الأدب الشعبي من أجل نشر فضيلة ما، كعرض حسن العاقبة في الدنيا للذي يساعد الناس دون تمييز ودون انتظار جزاء، أو بغرض بثَّ الأمل في النفوس حين يسود الفقر والجذب ويوشك اليأس من تغير الأوضاع أن يستولي على القلوب... وغيرها، فعالمها الغرائبي السحري، ظلَّ محفَّزاً على نسج الكثير من الحكايات التي توارثتها الأجيال، وكان الرهبان بطلها، حتَّى دخلت من شدة تأثيرها في نفوس العامة إلى دائرة التصديق بها والإيمان بإمكانية حدوثها، ومن هذه الحكايات حكاية "القابلة والراجل البراني".

||| - تجليات أسطورة "الرهبان" في حكاية "القابلة والراجل البراني" الشعبيّة:
 لقد حاول الناقد الفرنسي بيير برونال (Pierre Brunel) أن يحدّد خطوات
 إجرائيّة دقيقة لدراسة النصوص الأدبيّة دراسة أسطوريّة، فاقترح على
 الناقد الأسطوري شبكة من العناصر التي تتلخّص أساسا في:
 التّجليّ (Emergence) و المطاوعة (Flexibilité) و الإشعاع
 (Irradiation) (10) .

فإذا كان ما يقصده (برونال Brunel) بالتّجليّ في منهجه، هو ظهور
 وانبعثات العنصر الأسطوري أو إحدى سماته عبر البنية السّطيّة للنصوص
 الإبداعية؛ وما يقصده بالمطاوعة هو مدى استجابة العنصر الأسطوري
 الموظّف للتغيّرات التي يفرضها عليه المبدع؛ وما يقصده بالإشعاع - كما يدلّ
 مصدر اشتقاق المصطلح، - هو ما يتمتّع به العنصر الأسطوري من طاقة
 إيحائيّة ذاتيّة، تنتقل تلقائيّا عبر توظيفه في الأدب إلى النصوص الإبداعية،
 فإنّ أوّل خطوة نطلق منها في دراستنا هذه هي محاولة تتبّع تجليات أسطورة
 "الرهبان" الأدبيّة في هذه الحكاية.

ولعلنا نلاحظ منذ البداية غياب ما يسمّى بالتّجليّ الصّريح التّام لأسطورة
 (الرهبان) في بداية الحكاية، إذ تجنّب السارد هذا الشّكل من أشكال انبعثات
 الأساطير في النصوص الأدبيّة، متنازلا عن ذكر اسم الرهبان الصّريح في
 عنوان الحكاية، مكثفيا بصفة "الراجل البراني"، كما نراه يتنازل - عند
 خوضه في وصف هذا الرّجل الغريب - عن صفة الذّراعين الطّويلتين
 المميّزتين لشخصيّة الرهبان الأسطوريّة، مكثفيا بذلك التّجليّ الجزئيّ المتمثّل
 في اللباس الأسود المسدل عليه، وفي العينين الزرقاوين اللامعتين كعيون
 القط، إضافة إلى القامة الطويلة كالصقفاة على حدّ وصفه.

إنّ الاعتماد على التّجليّ الجزئي بدل الصّريح التّام، وتطويع صفة جسمانيّة أصيلة في الأسطورة (طول الذّراعين) - التي أسقطت على امتداد الحكاية- جاء عن قصديّة، وضمن استراتيجيّة سردية اتبعتها الرّاوي تحقيقا لغاية فنيّة جماليّة، حيث عمد إلى فتح أبواب الإثارة أمام المتلقّي دون أن يتورّط في تحديد طبيعة هذا "الرّجل الغريب"، فمن خلال ما ذكر من أوصاف يظلّ المتلقّي متردّدا إذ قد يكون هذا الرّجل الغريب رهبانا وقد لا يكون...، فالسّارد يدرك جيّدا أنّ عقدة حكايته الأساس ومحورها هو هذا اللّقاء العجائبي الذي تمّ بين إنسي (العجوز) وجني (الرّهبان)، ويدرك كذلك أنّ من شأن الاعتماد على التّجليّ الصّريح ابتداء أن يفضح الحكاية ويجرّدها من عنصر التّشويق فيها ومن قدرتها على شدّ المتلقّي إليها وكسر أفق انتظاره في الوقت المناسب، أفق يظلّ مفتوحا ما احتفظ السّارد الحاكي بعقدة حكايته قدر الإمكان، مدّخرا إيّاها إلى مشاهد لاحقة، ولعلّ المتتبع لأحداث هذه الحكاية سيفق على أنّ الرّاوي ناور بشكل جيّد محتفظا بالفصل في شخصية الرّجل الغريب وطبيعته إلى آخر مشهد، تاركا ذلك للتّجليّ الصّريح "لأسطورة الرّهبان"، والذي لم يكن إلّا في الجملة الأخيرة على لسان بنت العجوز، حيث جاء ذكر اسم الرّهبان صراحة في خطاب الفتاة لأمّها:

- "آه... يا أمّا... رآهو اطلّعلكّ الليلة رهبان، واغناكّ بصّح... ما اعرفقيش".
أمّا شخصيّة "زوجة الرّهبان" فقد تجلّت الأسطورة من خلال أوصافها تجليّا جزئيّا باهتا، حيث لم تُذكر في الحكاية بوصفها (زوجة رهبان) صراحة، بل ذُكرت بوصفها (زوجة الرّاجل) ، كما لم يأت السّارد على ذكر أي اسم لها- لا على لسانها ولا على لسان زوجها ولا على لسان القابلة- قد يشير من قريب أو من بعيد إلى الأسطورة الموظّفة، بل إنّ صفاتها الجسمانيّة جاءت مماثلة لصفات الحوامل من نساء البشر فلم تنثر الانتباه، ولعلّ الإشارة الوحيدة

إلى أسطورة الرهبان في أوصافها جاءت من خلال وصف زرقة عينيها اللافقة ولمعانها الذي يشبه لمعان حبات العقد من اللؤلؤ أو غيره، حيث ذكرهما السارد كقرينتي جمال - مثلهما مثل بياض البشرة- لا كحالة عجائبيّة حين قال: "راقده فيه مرتّ الرّاجل، كانت امرأ بيضاً أو زينة، أو عينيها ازرق، يبرقو كي الشراك"، ومثل هذا يندرج ضمن التّجلي الجزئي المضمر وليس من قبيل التّجلي الصّريح، فحتّى هذه المحطّة ما يزال السارد على استراتيجيّته المعتمدة على تجنب التّجلي الصّريح قدر الإمكان.

ومع ذلك تبدو شخصيّة (زوجة الرهبان) شخصيّة وديعة مسالمة وغير مؤذية، أي لم تخرج - في هذه الحكاية- عن الخطوط العريضة للأسطورة الإطار، التي احتفظت للرهبان ككائن غير بشري بصفتي الوداعة والمسالمة، حتّى أنّ المتلقّي يندفع به فضوله في معرفة هذا العالم الغريب وشخصه، فيتمنّى لو أطنب الحاكي وفصل أكثر في وصف تلك (الرهبانة)، ولعلنا كنا نتمنّى لو أجرى الرّاوي على لسانها كلاماً، فأبانت عن جزء - ولو يسير- من صفاتها النّفسيّة لتتضح الملامح أكثر.

بالإضافة إلى شخصيات الحكاية، تتجلّى أسطورة "الرهبان" كذلك من خلال الفضاء المكاني وعلى وجه الخصوص من خلال بيت الرّجل الغريب، هذا البيت الذي يتخذ طابعاً عجائبيّاً، فهو-على غير ما اعتاده البشر- يقع تحت الأرض، "في وسط غابيه، قدام حجره اكبيره بيضا كي لقبه تاغ لمزاره، داير بيها الضرو ولعلايق م لجهات أكل، كي قدام الرّاجل م لحجره تفتحت كي لباب، وبانو فيها ادروج تاغ احجر، يهبطو لتحت لرض، قالها الرّاجل : اتفضلي يا امّا أوما اتخفيس رانا أوصلنا لداري".

لكنّ وقوع المنزل تحت الأرض جغرافياً لم يمنع من أن يكون منزلاً مؤثّثاً كمنازل البشر وبيوتهم، فنرى به خزائن خشبيّة وسريراً مذهّباً وإضاءة لم

يفصل السارد في مصدرها، فالمهم أن النور كان يشع في الأجواء باعثا الطمأنينة، وأن البيت ليس مظلمًا كما يتوقع المرء من بيت يقع تحت الأرض: "كأنوا همًا ينزلو والضو يقوى، همًا ينزلو والضو يقوى، حتى وصلو لبيت واسع ضاوية أوفيه خزاين تاغ احطب، وأسريز في نضها مذهب".

ففي كل ما ذكر من أوصاف اشتمل عليها هذا الفضاء المكاني العجائبي إحياء قوي إلى كون الرجل الغريب ليس بشرا عاديا، بل إن المتلقي يكاد يوقن عند هذه المحطة أن الرجل الغريب ليس بشرا من الأساس، إذ إن السارد اعتمد في وصف بيته اعتمادا مباشرا على الأسطورة الإطار، التي تسكن الرهبان العالم السفلي وتجعل منزله في باطن الأرض، كما أن طريقة فتح باب المنزل العجائبي، لا نجد لها في حياة البشر مثيلا، مما يزيد من احتمال أن رفيق العجوز ليس سوى جني في هيئة بشرية.

ويمكن أن نسجل تجليا جزئيا لأسطورة الرهبان كذلك على صعيد الأحداث والمواقف من خلال الانتقال في المكان الذي تم بطريقة سريعة وغامضة على حساب الزمن: "عاونها باش ركبت على لحصان تاغو، وهو احكم الجام و امشي قدامها اثلاث فحجات ولي ربعة، و امبعد، ما فاقتش ابروحها حتى نقات روحها امعاة في وسط غابه، قدام حجره اكبيرة..."، فالسارد لم يفصل في طريقة هذا السفر العجيب، رغم إيهامنا أنه سيتم بطريقة عادية حين عمد الرجل على مساعدة العجوز على امتطاء الحصان، ليكسر بعدها أفق انتظارنا حين وجدناهما فجأة أمام منزل الرجل الغريب، إذ تجلت أسطورة الرهبان - في هذا الموقف - من خلال التعاطي مع المكان والزمان الذي يختلف اختلافا جذريا عن تعاطي البشر العاديين معها.

إضافة إلى حادثة تحول الفحم إلى (ويز)، إذ يكفي الجمع ما بين هاتين المادتين (الويز والفحم) في حكاية واحدة وفي موقف واحد، كي تشع أسطورة

الرَّهْبَانِ الأدبِيَّةِ فِي تِلْكَ الْحِكَايَةِ وَذَلِكَ النَّصِّ، لارتباط (الفحم والويز) بهذه الأسطورة ارتباطاً وثيقاً، أمّا حكايتنا فقد أشعّت أسطورة الرَّهْبَانِ فِي آخِرِ مشاهدتها من خلال حادثة تحوّل الفحم إلى ذهب (ويز) في تطويع لافنت للموقف والحدث النمطي الذي كرّسته الأسطورة الإطار، والمتمثّل في تحوّل (الويز / الذهب) عادة إلى فحم بعد كشف السرّ وليس العكس، أمّا هذا الموقف والتحوّل المعكوس فهو فريد ونادر في حكايات الرَّهْبَانِ التي وصلت إلينا.

ومع أنّ الرَّهْبَانِ لا يمنح الكنز - في أكثر الحالات - بطريقة سهلة ميسورة، بل يشير إليه في أسلوب ملغز، وكلام مشفّر يحتاج إلى ذكاء وقّاد وسرعة بديهية لفكّ طلاسمه ***، فالملاحظ في هذه الحكاية أنّه لم يلغز في كلامه ولكنه قدّم الكنز للعجوز على غير هيئته، بل قدّمه في صورة نقيضة تماماً لما يمكن أن يُعتبر عند العامّة من النَّاسِ كنزاً، فالفحم كان من أرخص الأشياء قيمة حينها، لذلك لم تنتبه العجوز المسكينة إلى حلّ هذه الأحجية، بل راحت تتساءل عمّا يمكن أن تفعله فقيرة مثلها بحفنة فحم، وأخذت تبعثره في طريقها إلى بيتها ذات اليمين وذات الشمال، مضيعة بذلك فرصة الغنى التي لا تتكرّر.

وعلى غير المعتاد من شخصيّة الرَّهْبَانِ النمطيّة المتّسمة بالجبن والخوف وسرعة الهرب والاختباء من أيّ إنسي يصادفه، نراه - في هذه الحكاية - قد اقتحم عالم البشر دون خوف، فسعى هو في طلب العجوز القابلة طارقاً باب بيتها في حلّكة اللّيل، بدل أن تسعى هي وراءه مطاردة إيّاه طلباً للغنى، فالرّأوي طوّع الأسطورة تطويعاً شبه كليّ من خلال تجاوزه لصفة الخوف من البشر اللّصيقة بالرّهبان، ليسهل عليه فيما بعد تمطيط زمن لقائه بالعجوز (البشر)، لقاء و زمن لم تكن الأسطورة الإطار لتسمح بأن يمتدّ لأكثر من

لحظات بسبب ما كرّسته عن خوف هذا الكائن الشّدِيد من البشر وعالمهم، ولكنّ الرّأوي تجاوز ذلك كله تاركاً المجال لما يمكن أن يسفر عنه تدافع الأحداث والمواقف على امتداد ليلة طويلة من ليالي الشّتاء الباردة كما جاء في بداية الحكاية.

لا شكّ أنّ محاولة الوقوف على رمزيّة شخصيّة (الرّهبان) الأسطوريّة وما يمكن أن يمثّله ويجسّده حضورها في الحكايات الشعبيّة الجزائريّة، أمر على درجة من الصّعوبة والتّعقيد. فقد نجد فيه - من خلال ملمح فراره من الإنسان كلّما اقترب منه- تجسيداً للحلم والطّموح الإنسانيّ عموماً في هذه الحياة، وقد نرى في منحه كنزها لبعض النّاس دون بعضهم الآخر تجسيدا للحظّ، وقد يبدو لنا في وهبه كنزاً وهمياً -لا يلبث أن ينتهي فحماً في كلّ حكاية- تجسيداً للقدر الذي يبتسم للإنسان في محطات قليلة، مانحاً إيّاه لحظات من السّعادة الموهومة التي لا تلبث أن تتلاشى كالكنز الممنوح تماماً... قد يكون الرّهبان رمزاً لكلّ ما ذكرناه آنفاً، وقد يكون رمزا لغير ذلك.

لكنّ حضوره وموقف تجلّيه للإنس في هذه الحكاية حمل بعض الخصوصيّة التي تحتمّ علينا إعادة قراءتها وفق رؤية أوسع وأشمل، فليس اعتباطاً أن يكون منعطف لقاء (الرّهبان الأب) فيها بالعجوز الإنسيّة هو (ميلاد رهبان جديد)، وليس اعتباطاً أن تكون وظيفة العجوز الإنسيّة بطلة الحكاية هي (قابله) أي تساعد على الولادة، وليس اعتباطاً كذلك أن يكون الزّمن الذي جرت فيه الحكاية ليلة باردة طويلة من ليالي الشّتاء، والمكان قرية جبليّة نائية، وليس اعتباطاً أن يبدو الكنز في أول أمره فحماً وألا يُرى على حقيقته -ككنز- إلا في ضوء قنديل (لفنار)، وأن يضيع جزء كبير منه في طريق العودة... الخ

إنّ المتأمل بدقّة في هذه المنعطفات سيقف على شبكة من الرّموز والعلامات التي تنتهي جميعها إلى أنّ الكنز الذي عادت به العجوز من تلك الرّحلة العجائبيّة - بعد أن ضاع أكثره في الطّريق قبل أن تطلع ابنتها عليه - قد لا يكون سوى هذه الحكاية في حدّ ذاتها، التي لا نستبعد أن تكون تفاصيل كثيرة قد ضاعت منها، قبل أن تصل إلى جيلنا (جيل البنت)، كما أنّ منعطف عدم رؤية (الوزير) (ويزا) إلّا بعد أن سلّط عليه ضوء الفنديل، يشير إلى حاجتنا الملحة - حتّى نرى هذا الكنز من أدبنا الشّعبي على حقيقته - إلى ضوء مناهج نقدية حديثة (أفنان)، لها القدرة على الإنارة والكشف والنفاذ إلى عمق الأشياء، من أجل تجلية جوانب قيّمة في تراثنا وفي ثقافتنا وفي أدبنا الشّعبي - على وجه الخصوص - قد تغيب عن أعيننا في أكثر الأحيان.

ولعلنا نجمل خلاصة ما انتهينا إليه من تتبّع أسطورة "الرّهبان" الأدبيّة وحضورها في هذه الحكاية الشّعبيّة الجزائريّة في النقاط الآتية:

- يتّسع مفهوم الأسطورة الأدبيّة ليستوعب بعض الشّخصيّات الماورائيّة التي أنتجها الأدب الشّعبي كشخصيّة الرّهبان وغيرها، وهو بهذا ليس مفهوماً حكراً على الأدب الفصيح كما يتصوّر بعض الدّارسين، ويمكن للباحث المهتمّ أن يستثمره في كشف النقاب عن شخصيّات أسطورية أخرى احتفى بها الأدب الشّعبي الجزائري وأهمها النّقد الأدبي الأكاديمي المشتغل بالثقافة الشّعبيّة لالتباس بعض المفاهيم.

- استطاعت الثقافة الشّعبيّة الجزائريّة باختلاف أجناسها أن تنتج من خلال شخصيّة "الرّهبان" أسطورة أدبيّة محلّيّة، وتحت ملامحها نحنا دقيقاً، ممّا جعلها واضحة المعالم في مخيّل المتلقّي الجزائري إلى درجة دفعت بعض الشّرائح الاجتماعيّة البسيطة، إلى التّصديق والاعتقاد بإمكانية وجود هذه

الشخصية الأسطورية على أرض الواقع. وهو ما يعبر عن تلك القدرة التصويرية العالية التي تحلّى بها النصّ الشعبي الجزائري بمختلف أجناسه. - تتوغّل هذه الحكاية الشعبية في تلك العلاقة المعقّدة التي تربط المبدع السارد (العجوز الإنسية) بنتاجه الأدبي (هذا الكائن الأسطوري الغريب)، فمن "الرهبان" تستمدّ العجوز استمرار وظيفتها (الاجتماعية) داخل الأسرة التقليدية الجزائرية بوصفها منتجة معرفة ومنتعة فنية، حيث تتخذ موضوعاً سردياً جذاباً يكفل لها التواصل الثقافي مع الأجيال القادمة، بينما يستمدّ منها (الرهبان) نفسه بوصفها شخصية أسطورية أدبية. شرط بقائه واستمرار جنسه المرهون أساساً باستمرار فعل الحكيم، فكلاهما مرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً.

- لا تحافظ الشخصية الأسطورية في العمل الأدبي الذي وُظفت ضمنه خاصة السردية على كلّ تفاصيلها، بل يمارس المبدع عليها الكثير من التطويع الذي تقتضيه المواقف والأحداث، دون أن يتنازل عن ملامحها العامة التي تمكن المتلقي من التفاعل معها استناداً إلى مرجعيته الثقافية وهذا ما يتجلى بوضوح في هذه الحكاية الشعبية المحلية.

- ما زال النتاج الأدبي الشعبي الجزائري - رغم مختلف الدراسات الجادة التي أنجزت عنه - لحدّ الساعة أرضاً عذراء، مجهولة نقدياً، رغم قابليته لغة وممتناً للتفاعل مع مختلف المناهج النقدية المعاصرة، ولعلّ عزوف الأعلام النقدية عن التوغّل في هذا المضمار مقارنة بمعالجتها للكثير من الأعمال الأدبية الفصيحة، عائدٌ بالأساس إلى صعوبة الحصول على مدونة مكتوبة تضمّ مختلف القصص والحكايات والملاحم الشعبية بلغتها المحكية الأصلية.

- الهوامش:

(1) محمد عجيبة : موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، بيروت، د.ط.، 2005، ص: 387

(2) المرجع نفسه، ص: 389

(3) المرجع نفسه ، ص389

(4) المرجع نفسه، ص: 367

وتنتهي القصة بمخاطبة "عبيد بن الأبرص" الجنّ شاكراً ومتسائلاً:

يا صاحب البكرِ قد أنقذتَ من بلدٍ يَحَارُ في حافتيها المذلجُ الهادي
هلاً أبنتَ لنا بالحقِ نعرفهُ من ذا الذي جاد بالمعروفِ في الوادي

فيجيبه هاتف بقوله:

أنا الشجاع الذي ألفتِه رَمَضُاً في رَملة ذات دكدكٍ وأعقادٍ
فجدتَ بالماءِ لَمَّا ضنَّ حاملاًهُ جوداً عليّ ولم تبخلِ بإنجادي..

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشرُّ أخبث ما أوعيتَ من زادٍ

: (5) Brunel et Autres :Dictionnaire des mythes littéraires, édition du
Rocher, Paris, 1988, P:12 ترجمة د . عبد المجيد حنون وآخرين (مخطوط)

** للاطلاع على نص الحكاية كاملة راجع ملحق هذه الدراسة

(6) ألكسندر هجرتي كراب، علم الفولكلور، ت: رشدي صالح، دار الكتاب العربي
القاهرة 1967. ص: 445

(7) فوزية براهيمية: ظاهرة المسخ والتحوّل في القصص الخرافي الشعبي الجزائري،

جمع ودراسة، (مخطوط) رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير بجامعة باجي مختار ،
عنابة، 2006/2005، ص: 52

(8) المرجع نفسه، ص: 52

(9) نزار عيون السود: نظريات الأسطورة، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام -

الكويت-، المجلد الرابع والعشرون، العددان الأول والثاني، يوليو - سبتمبر - أكتوبر -
ديسمبر، 1995، ص: 216.

(10) عبد المجيد حنون: النقد الأسطوري والأدب العربي الحديث، مجلة اللغة العربية،
المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، العدد الرابع عشر، شتاء 2005 ص : 220.

*** كما في تلك الحكاية الشعبية المحلية التي يعترض فيها الرهبان طريق أحدهم في الصباح الباكر وهو ذاهب إلى السوق فيقول له: " رُوْح رَاكْ عِنْدَكَ رَبْعَهُ يَخْلُفُو رَبْعَهُ حَتَّى توصل للسوق...". فيمضي المسكين حائرا ، يقَلِّبُ فكره في القول دون أن يفهمه، ولا يجد له معنى إلا حين يدخل السوق فينتبه إلى أنَّ حوافر بغله الأربعة كانت تترك خلفها أربع (ويزات) مع كل خطوة طويلة الطريق وبما أنه لم يلتقطها فورا فهي تتحول مباشرة إلى فحم.

- الملحق:

...حكاية لعزوز (القبلة)..والرَّاجِل البرَّاني...

(باللهجة العامية الجزائرية)

"... صرَّاتْ هَذي لَحَايَه بَكْرِي مَعَ وَاحِدْ لَعَزُوزْ (قَابِلَه)، كَانَتْ تُسْكُنْ مَعَ بِنْتَهَا فِي قُرْبِي مَطْرَفْ فِي دَوَّارْ جَايْ فِي رَاسْ أَجْبَلْ، أَوْ فِي وَاحِدْ اللَّيْلَه تَاغْ أَشْتَا بَارْدَه، سَمَعْتِ الطَّبْطِيبْ عَلَى لَبَابْ فِي نَصْ اللَّيْلِ، كِي فَتَحْتِ لَبَابْ الْقَاتْ رَاغْلْ أَطْوِيلْ كِي الصَّصَافَه، لَابَسْ لَكْحَلْ فِي لَكْحَلْ، أَقْرِبْ مَا يَبَانَ مَنُو وَأَلُو فِي الظَّلْمَه غَيْرْ عَيْنِيَه، كَانُو يَبْرُقُو كِي عَيْنِيْنْ لَقَطْطْ، وَوَجْهُو أَيَّانْ أَشْهَبْ أَشْوِيَه، وَبَجَنْبُو أَحْصَانْ أَبْيَضْ، اتْبَسَمَ الرَّاجِلْ فِي أَوْجَهَهَا، أَوْقَالَهَا: اسْمَحْ لِي يَا أُمَّ لَكَانْ طَبْطَبْتِ اعْلِيكُمْ فِي نَصْ لَيْلْ، بَصَحْ رَانِي عِنْدِي لَمْرَا رَايْحَه أَتْرَيْدْ، أَوْ رَانَا نَسْكُنُو وَحَدْنَا، أَوْ مَا كَايْنْ حَتَّى قَابَلَه فِي الدَّوَّارْ غَيْرْ أَنْتِ، لَكَانْ تَقْدَرِي أَتْجِيْ امْعَايْ، أَوْ مَا اتْحَفِيْشْ رَانِي كِيَمَا نَدَيْكَ كِيَمَا أَنْزَجْعَكَ، وَأَطْلَبِيْ امْبَعْدْ وَأَشْ حَبِيْتِي... قَاتْلُو: يَا أُولِيْدِي الْمُسْكِلَه مَا هِيْشْ فِي الدَّرَاهِمْ، الْوَقْتْ رَاهُو لَيْلْ وَالدَّنْيَا أَشْتَا... أَوْ رَانِي نَسْكُنْ أَنَا أَوْ بِنْتِي وَحَدْنَا فِي هَذِ الْقُرْبِي، أَوْ مَا جِينَاشْ حَتَّى فِي الدَّوَّارْ رَاكْ شَايْفْ بَلِي رَانَا مَطْرَفَيْنْ أَشْوِيَه... دَارَكْ أَقْرِيْبَه مَنَّا؟

قَالَهَا: مَا هِيْشْ أَبْعِيْدَه بَرَّافْ... اتوَكَّلِيْ عَلَى رَبِّي يَا أُمَّ...، انْشَالله مَا يُكُونْ غَيْرْ لُخَيْرْ.

خَمَّتْ امْعَ رُوحَهَا اشْوِيَّةً، وَاْمَبَعْدَ قَاتَلُو: اَسْنَانِي اُنْحَبِرْ اِبْنِيَّتِي بَاشْ مَا تَنْقَلَقْشْ
 اُونْتَوَكْلُو عَلَى اللّٰه. كِي قَالَتْ لِبْنَتَهَا اُوْرَجَعْتْ، لَقَاتُو يَسْنَى فِيهَا، عَاوَنَهَا بَاشْ رَكَبْتْ
 عَلَى لِحْصَانْ تَاعُو، وَهُوَ احْكَمُ الْجَامِ وَ اَمْشَى قُدَامَهَا اَثْلَاثَ فَحْجَاتٍ وَّلَى رَبْعَهْ،
 وَاْمَبَعْدَ، مَا فَاقْتَشْ اِبْرُوحَهَا حَتَّى لَقَاتْ رُوحَهَا امْعَاهُ فِي وَسْطِ غَابَهْ، قُدَامَ حَجْرَهْ
 اكْبِيرَهْ بِيضًا كِي لَقَبَهْ تَاغَ لَمْزَارَهْ، دَايِرْ بِيهَا الضَّرْوُ وَّلِعَلَّايْقُ مَلْجَهَاتُ اَكْلُ، كِي قَدَمُ
 الرَّاجِلْ مَ لَحَجْرَهْ تَفْتَحْتْ كِي لِبَابْ، وَيَانُو فِيهَا اذْرُوجُ تَاغَ احْجَرْ، يَهْبُطُو لَتَحْتْ
 لِرَرْضْ، قَالَهَا الرَّاجِلْ: اِتْفَضِّلِي يَا اَمَّا اَوْ مَا اِتْخَفِيْشْ رَانَا اَوْصَلْنَا لِدَارِي، كَانُوا هُمَا
 يَنْزَلُو وَالضَّوْ يَفْوَى، هُمَا يَنْزَلُو وَالضَّوْ يَفْوَى، حَتَّى وَصَلُو لِبَيْتٍ وَّاسِعَهْ ضَّاوِيَهْ
 اُوْفِيهَا خَزَايِنُ تَاغَ احْطَبْ، وَاَسْرِيْرُ فِي نُصْحَا مَدَهْبْ، رَاَقْدَهْ فِيَهْ مَرَتُ الرَّاجِلْ،
 كَانَتْ اَمْرًا بِيضًا اُو زَيْنَهْ، اُو عَيْنِيهَا اَزْرُقْ، يَبْرُقُو كِي الشَّرْكْ، عَاوَنَتْ الْقَابِلَهْ
 هَاذِيكْ لِمَخْلُوقَهْ حَتَّى زَيْدْتْ، اُو كِي بَانْتَلَهَا بَلِّي رَاهِي لَابَاسُ نَاصَتْ، وَقَالَتْ لِلرَّاجِلْ
 بَلِّي لَازِمُ اِتْرُوْحْ، وَبْنَتَهَا رَاهِي اِتْكَوْنُ قَلْقَانَهْ اَعْلِيهَا، قَالَهَا الرَّاجِلْ: كَثْرُ خَيْرِكْ يَا اَمَّا
 ... وَاكِي مَا قَتْلُكْ، هَايَايْ اَمْعَايْ دُرْكْ اُنْرَجْعَكْ لِدَارِكْ، كِي خُرْجُو مَلْحَجْرَهْ، كَانَتْ
 اَلْدُنْيَا مَا زَالَتْ لِيْلْ، رَكَبَهَا عَلَى لِحْصَانْ، وَفِي رَمْسَتْ عَيْنْ، لَقَاتْ رُوحَهَا قُدَامَ
 دَارَهَا ، وَاَقْبَلْ مَا يَخِيْلِيهَا، حَطَّلَهَا فِي عَبُونَهَا زُوْرُ حَقْنَاتُ تَاغَ اَفْحَمْ، اُو كِي جَاتْ
 تَتَلَفَّتْ مَا لَقَاتُوْشْ، اَقْبَلْ مَا تَدْخُلْ لِدَارَهَا جَبِدْتْ لَفْحَمْ مَنْ عَبُونَهَا فِي الظَّلْمَهْ وَرَا حَتْ
 اِتْطِيْشْ فِيَهْ، قَالَتْ: يَعْني مَا لَقَى مَا يَمْدَلِي، غَيْرْ لَفْحَمْ ... ! وَاَشْ اَنْدِيْرُ اَنَا بَلْفَحَمْ ؟
 كِي دَخَلَتْ لِبْنَتَهَا سَفْسَاتَهَا: وَايْنُ جَاتْ دَارُ الرَّاجِلْ لِي طَبْطَبْ اَعْلِيْنَا قُبِيْلَا، اِحْكَاتَلَهَا
 لَعَزُوْرُ لُقْصَهْ، وَمَدَّتْ يَدَهَا لِعَبُونَهَا بَاشْ تَتَعَتَّلَهَا زُوْرُ فَحْمَاتُ تَخْلُفُوْلَهَا، وَمَا
 طِيْشْتَهُمْشْ، شَافْتَهُمْ عَلَى ضَوْ لَفْنَارْ لَقَاتَهُمْ وَّلَاوْ وِيْرَاتْ، اِرْغَاتُ بِنْتَهَا كِي شَافْتَهُمْ
 وَقَالَتْلَهَا: " آه ... يَا اَمَّا ... رَاهُو اَطْلَعَكْ اللَّيْلَهْ رَهْبَانْ ... وَاغْنَاكُ بَصَّحْ مَا
 اَعْرِفْتِيْشْ".

عن الحاجة : وناسة سبأق 75 عام

ليلة 25 مارس 2011 \ هيليوبوليس (قائمة) - الجزائر

وهي من أشهر حكايات "الرهبان" الشعبية الشفهية المتداولة في منطقة (قالمة) بالشرق الجزائري

...حكاية العجوز (القابلة)... والرجل الغريب (معرّبة عن العامية الجزائرية)

"... حدث ذلك في زمن ليس بالبعيد الغابر، حين دقَّ شخص غريب في وقت متأخّر من ليلة شتوية باردة، باب كوخ بسيط يقع في طرف قرية جبلية نائية، تسكنه عجوز (قابلة) مع ابنة لها، فسارعت العجوز عند سماعها الطرّق إلى فتح باب الكوخ، لتفاجأ برجل طويل القامة، عليه عباءة سوداء، وبجانبه حصان أبيض، قد سترت العباءة السوداء جسم الرجل الغريب كلّهُ، من رأسه حتّى أخصص قدميه، فلا يبدو منه في حلقة الليل سوى عينين زرقاوين لامعتين كعيون السنوريّات، سحنته مائلة اللون إلى الشقّرة. ابتسم الغريب في وجه العجوز ابتسامة خفيفة، ليبادرها بالاعتذار عن طريقه باب كوخها في هذا الوقت المتأخّر من الليل، شارحاً لها بصوت هادئ، أنّ الحاجة الملحة، والضرورة القصوى، هي التي دفعت به إلى أن يقصد كوخها، بعد أنّ دلّه عليه أحد القرويين... لقد فهمت العجوز ممّا سرده الغريب عليها أن زوجته على وشك الولادة، وهي تحتاج إلى (قابلة) تساعدّها على الوضع، وهما يقطنان لوحدهما خارج القرية، ولا توجد قابلة في الضاحية سواها، تردّدت العجوز قليلاً قبل أن تردّد عليه:

- ولكن يا بني الفصل شتاء... والوقت متأخّر... وأنا وابنتي نقطن لوحدها في هذا الكوخ... هل بيتك قريب؟
- ليس بالبعيد. (أجابها الغريب)... سأعطيك كلّ الذي تطلبينه، وسأعيدك بنفسى إلى بيتك متى انتهيت من مهمتك فاطمئني.
- ليست المسألة مسألة مال يا بني.. حسناً سأخبر ابنتي، وأحمل عدّتي، وأعود في الحين.

ما لبثت العجوز أن عادت حاملة عدتها البسيطة، فدنا منها الغريب وساعدها برفق على امتطاء حصانه الأبيض، بينما سار هو أمامها أخذاً بلجامه، الذي حدث بعد ذلك كان سريعاً وضبابياً وعجيباً، ففي أقلّ من رمشة عين وجدت العجوز (القابلة) نفسها في بيئة غير البيئة، كانت الأغصان الملتفة تحيط بالمكان، وجذوع الأشجار تحجب السماء، وأمامها مباشرة، انتصبت صخرة عظيمة، ناصعة البياض، تبدو للنّاظر إليها في حلقة ذلك الليل البهيم كالصومعة، أو كقبة مزار، قد أحاطت بها أغصان الضرو ونباتات العليق الشائكة من كلّ جانب. وقف الغريب أمام الصخرة وتمتم فانفتح فيها ما يشبه الباب، أشار حينها إلى العجوز قائلاً:

- تفضلي يا أمّاه.. ولا تخافي، فقد وصلنا إلى بيتي.

دخلت العجوز الصخرة، ونزلت أدراج سلم حجري وتبعها الغريب بعد أن ترك الحصان في الخارج، وكلّما تقدّما قليلاً، استقبلهما نور خافت قادم من آخر الدهليز، حتّى انتهيا إلى غرفة واسعة تشعّ أنوارها في كلّ اتجاه، بأركانها أثاث فاخر مزخرف، يتوسطها سرير مذهّب الأطراف كأسرة الملوك والسلطين، عليه ملاءات بيضاء ناصعة، لم يسبق للعجوز الفقيرة أن رأت مثلها، دنت من السرير قليلاً، فإذا به حسناء في مقتبل العمر، ذات عينيّن زرقاوين لا يضاهي لمعانها إلا لمعان عينيّ ذاك الغريب، كانت الفتاة تتنّ من آلام المخاض - على ما يبدو-، بل لعلّها كانت على وشك الولادة فعلاً كما أخبرها بذلك الغريب، باشرت العجوز مهمتها التي جاءت من أجلها، وساعدت الفتاة في وضع حملها، حيث وضعت بعد معاناة شديدة مولوداً بهياً، جميلاً، كأنه قطعة من لؤلؤ... مرّت ساعات قبل أن تتأكد العجوز أن الأمّ بخير، لتقف عندئذ إيداناً بالمغادرة، تقدّم الغريب منها مبتسماً وهو يقول: لا أدري كيف أشكرك يا أمّاه... ورافقها عبر أدراج السلم الحجري حيث غادرا الصخرة ليجدا الحصان في مكانه، أركبها على الحصان، وما هي إلا طرفة عين، حتّى وجدت نفسها أمام كوخها، وقبل أن يودّعها، أخرج الغريب من جيبه حفنتي فحم ووضعهما في جيبها (عبونها) مبتسماً واختفى عن الأنظار،

أخرجت العجوز ما وضع الغريب في (عبونها) ونظرت إليه في حلقة الليل فتبينت أنه فحم، فرمته بتذمّر قائلة : فحم !! ما الذي أفعله أنا بالفحم... ودخلت إلى الكوخ مرهقة تعباً، فوجدت ابنتها في انتظارها، بادرتها قائلة:

- أين تقع دار الرّجل الغريب يا أمّاه ؟

فأخذت العجوز تقصُّ على ابنتها ما حدث معها الليلة مع ذلك الشّخص الغريب، منذ أن دقّ باب الكوخ إلى رجوعها من عنده، ولم تنس إخبارها أنه عرض عليها في البداية أن يعطيها كلّ ما تطلبه، ولكنّه أخلف بوعدّه، ولم يعطها بعد عودتها غير حفنتي فحم، تخلّصت منه ورمت به خارجاً قبل دخولها الكوخ، فصاحت الفتاة :

- هل بقي معك شيء...؟

أحسّت العجوز وكأنّ قطعتي فحم ما زالتا عالقتين بطرف ثوبها، فمدّت يدها إليهما لتريهما ابنتها على ضوء قنديل، فإذا بهما قطعتي ذهب خالص، فصاحت الفتاة مناسّقة :

- ويحك يا أمّاه... لقد طلع لك الليلة " رهباني"... ولكنك أضعت كلّ شيء...."



UNIVERSITE 8 MAI 1945 GUELMA

Annales des lettres et des langues de l'Université de Guelma

***Revue Scientifique Indexée, publiée par
l'Université 8 Mai 1945 Guelma (Algérie)***

N° : 21 □

Décembre 2017

Dépôt légal : 2129-2007

ISSN : 1112-7880



DIRECTION DE LA PUBLICATION UNIVERSITAIRE DE GUELMA 2017

D.P.U.G



UNIVERSITE 8 MAI 1945 GUELMA

Annales des lettres et des langues de l'Université de Guelma

*Revue Scientifique Indexée, publiée par
l'Université 8 Mai 1945 Guelma (Algérie)*

N° : 21
Décembre 2017

Dépôt légal : 2129-2007

ISSN : 1112-7880



DIRECTION DE LA PUBLICATION UNIVERSITAIRE DE GUELMA 2017

D.P.U.G

Annales des Lettres et des Langues

Revue scientifique publiée par l'Université 8 Mai 1945 Guelma

<p><u>Directeur de la revue :</u> Pr. Salah Ellagoune</p> <p><u>Directeur de la publication:</u> Dr. Lassaad Ghrieb</p> <p><u>Rédacteur en chef :</u> Dr. Abderrahmen Djoudi</p> <p><u>Comité de rédaction :</u></p> <ul style="list-style-type: none">• Dr. Nacer Bouazize• Dr. Wassila Harkas• Dr. Hamid hamlaoui• Dr. Mounia dahdouh• Dr. Souhila Boukhmis <p><u>Comité scientifique:</u></p> <p>Pr. Nouiat Mokhtar Univ. Annaba/Algérie Pr. Mohamed khane Univ. Biskra/Algérie Pr. A.M.Hanoune Univ. Annaba/Algérie Pr. Bachir Ibrir Univ. Annaba/Algérie Pr. Mohamed Ghalime Univ. Mohamed 5/ Maroc Pr. Saber Elhabacha Univ. Elmaftouha /Bahreïn Pr. Rachid Chaalel Univ. Annaba/Algérie Pr. Cherif Bouchahdene Univ. Annaba/Algérie Pr. Mohamed Bouamama Univ. Batna/Algérie Pr. Khaled Basendi Univ. R.Saoud/A.Saoudite</p>	<p>Pr. Habib Mounsi Univ. Sidi Belaabes/Algérie Pr. Mohamed Houar Univ. Alhachimia/ Jordanie Pr. Sakina Kadour Univ. constantine/Algérie Pr. Abdelkarime Aoufi Univ. A.Saoudite Pr. Fethi Boukhalfa Univ. Msila/Algérie Pr. Mohamed Laid Taourta Univ. Const/Algérie Pr. Ahmed Azzouze Univ. d'Oran/Algérie Pr. Saleh Bouregbi Univ. Annaba/Algérie Pr. Naïma Hamlaoui Univ. Annaba/Algérie Pr. Elaabed Nasif Univ. Constantine/Algérie Pr. Djaoudet Ibrahim Université Baas/ Syrie Pr. Abdeljalil Hanouche Univ. Marrakech/ Maroc Pr. Abd el Ileh Ismaili Univ. Mcnas/Maroc Pr. Youcef Bekkar Univ. Yarmouk / Jordanie Pr. Moussa Mariene Univ. Sekikda/Algérie Dr. Tarek Tabet Univ. Batna/Algérie Dr. Youcef Atrouz Univ. Annaba/Algérie Dr. Nouredine Bahloul Univ. Annaba/Algérie Dr. A.Latif Hani Univ. de Taref/Algérie Dr. Riad Belouaheme Univ. de Const/Algérie Dr. Samia Alioui Univ. Annaba/Algérie Dr. Walid Bouadila Univ. Sekikda/Algérie Dr. Amel Maafa Univ. Guelma/Algérie</p>
---	---

Secrétariat : Amari Sabah – Meknasi Amel

Conception : Ghozlani Adala

Correspondance :

Toute Correspondance doit parvenir à :

La direction de la Publication Universitaire de Guelma

BP 401 Guelma 24000 Algérie

Tél : 037.11.60.46 Fax : 037.10.05.55

Email: annaesguelmash@yahoo.fr Site Universitaire: www.univ-guelma.dz

Sommaire

- Gauging International/American NGOs' Challenging Role in Curbing the Scourge of Child Soldier in Africa

TOULGUI Insaf & ELAGGOUNE Abdelhak 01-20

- L'allégorie aqueuse de la folie dans Sur l'eau de Guy de Maupassant

CHAIB Sami 21-35

Gauging International/American NGOs' Challenging Role in Curbing the Scourge of Child Soldier in Africa

TOULGUI Insaf
ELAGGOUNE Abdelhak
Department of Letters and English Language

Abstract:

Child soldiering as a global phenomenon has been unveiled through a myriad of international news agency articles and Human Rights reports. Usually, these materials only pinpoint limited and often sensationalized cases. In this regard, there is focus of attention at the level of this paper relative to deep understanding of NGOs' involvement in the phenomenon under study. One of the major points that this paper spotlights is the role played by international and particularly American NGOs such as UNICEF, Child Soldiers International, War Child, Human Rights Watch, and Amnesty International in shaping an international political and legal advocacy against the use of children in armed conflict and how to materialize it. More explicitly, the paper gauges the dimensional effects in order to curb the enduring phenomenon of child soldiers that still resists total eradication with emphasis on Africa.

Keywords: Child soldiering, Human rights, Africa, Amnesty International, NGOs, Human Rights Watch, UNICEF.

Résumé :

L'enrôlement d'enfants soldats en tant que phénomène mondial a été dévoilé par d'innombrables articles d'agences de presse internationales et rapports d'organisations de défense des Droits de l'Homme. Habituellement, ces documents ne mettent en évidence que des cas limités et souvent sensationnels. A cet égard, l'accent est mis sur une compréhension profonde de l'implication des ONG dans le phénomène en question. L'un des principaux points soulignés dans cet article est le rôle joué par les ONG internationales, en particulier américaines telles que l'UNICEF, International Child Soldiers, War Child, Human Rights Watch et Amnésie Internationale dans la formulation d'un plaidoyer politique et juridique contre l'utilisation des enfants dans les conflits armés et comment le concrétiser. Plus explicitement, l'article évalue les effets dimensionnels afin de freiner le phénomène des enfants soldats qui résiste toujours l'éradication totale surtout en Afrique.

Mots-clés: Enfants soldats, Droits de l'homme, Afrique, Amnistie Internationale, ONG,
Human Rights Watch, UNICEF.

الملخص:

تم الكشف عن تجنيد الأطفال كظاهرة عالمية من خلال عدد لا يحصى من مقالات ووكالات الأنباء الدولية وتقرير جمعيات حقوق الإنسان. في كثير من الأحيان تحدد هذه المواد حالات محدودة ومثيرة. من خلال هذا المقال، ينصب الاهتمام على الفهم العميق لمشاركة المنظمات غير الحكومية في الظاهرة قيد الدراسة. ومن النقاط الرئيسية التي تسلط هذه المقالة الضوء عليها الدور الذي تضطلع به المنظمات الدولية غير الحكومية، ولا سيما الأمريكية، مثل منظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف)، منظمة الجنود الأطفال الدولية، طفل الحرب، هيومن رايتس ووتش، ومنظمة العفو الدولية في تشكيل الدعوة السياسية والقانونية الدولية ضد استخدام الأطفال في الصراعات المسلحة وكيفية تحقيقها. وبشكل أكثر وضوحاً، يقيس المقال الآثار البعيدة للحد من ظاهرة الأطفال الجنود المستمرة التي لا تزال تقاوم حتى الآن الاستئصال مع التركيز على أفريقيا.

الكلمات المفتاحية: تجنيد الأطفال، حقوق الإنسان، أفريقيا، منظمة العفو الدولية، المنظمات غير الحكومية، هيومن رايتس ووتش، اليونيسيف.

Introduction:

The rise of nationalist movements and the situations of civil wars that have resulted from the constant questioning of the authority and legitimacy of the central government in African countries since the end of the Cold War, reverse the state of affairs where only adults participate in armed conflicts. These conflicts, often in the territory of the same State, from the regular armed forces to the rebels, are increasingly leading to the recruitment of civilians, among whom there are many children.

Despite the lack of precise and official data, the huge number of children under the age of eighteen involved in internal armed conflicts is alarming (Wessells 407-408). According to the United Nations Children's Fund (UNICEF), more than 300,000 children (both boys and girls) under the age of 18 in 44 countries around the world are directly involved in armed conflicts serving most of the time as combatants among other tasks. They fight in almost 75 percent of the world's conflicts. Eighty percent of these conflicts where children are

present include fighters under the age of fifteen, some of them up to 8 years of age (Singer 105). These children, recruited within the armed forces, are deprived of their fundamental rights, such as the right to health, the right to education and the right to family unity. The phenomenon of children participating in hostilities or child soldiers, which has been virtually put on hold during peacetime, is taking on rather dramatic proportions in conflict zones, as evidenced by an avalanche of horrific images broadcast by the media. Violence and atrocities perpetrated by these children puzzled the common people: The idea of death is trivialized. The horror of such a situation raises the question of measures taken by governments to respect the rights of civilians in general, and children involved in hostilities in particular.

When Statistics Talk

If the rough figure seems to have slightly declined since the end of some conflicts in Africa (Sierra Leone and Liberia in particular), it still reflects the idea of the proportion of the phenomenon which is far more widespread than is commonly believed. In three-quarters of the armed conflicts that have affected the planet in the last 30 years, there have been a considerable number of children enrolled to take part in hostilities. Child soldiers represent about 10% of the fighters' strength. Considering the death toll, it is estimated that two million youths were killed in armed conflicts in the past decade alone, and three times as many have been seriously injured or impaired (Miller 28).

Who Is a Child and Who Is a Child Soldier?

The definition of the term "child" is analyzed at the etymological, doctrinal and conventional levels. Etymologically, and according to the *Online Etymology Dictionary*, the term "child" comes from Old English "cild" meaning "fetus, infant, unborn or newly born person". The wider sense "young person before the onset of puberty" was developed in late Old English. From Latin "infantem" (nominative infans) "young child, babe in arms," noun use of adjective meaning "not able to speak," from in- "not, opposite of" and fans, present participle of fari "to speak," (etymonline.com). The word

“infans” then means here “who does not speak/is speechless”. It is, therefore, the human being in the period of childhood.

For the *APA Dictionary of Psychology*, a child is “a young boy or girl between infancy and adolescence” (VandenBos 178). He is a human being whose age is between his birth and that of puberty. During this interval, he is still dependent upon adults for food and other resources, including intensive care (Mai, Owl, and Kersting 98). This age of adolescence, however, varies from one region to another and depending on the sex of the child. The aforementioned definition seems to be insufficient for the object of the present study in that it does not fix the age limit of childhood.

More interesting then, the child does not have the ability to protect himself physically or mentally as compared to the adult and, as a consequence, is highly susceptible to predation.

The child lives in a situation of particular weakness, whether physical, intellectual or moral. His age entitles him to the right of special protection. It is clearly shown that the child is a being who has not reached an intellectual, psychological, and moral maturity. He is incapable of analyzing and appreciating things. Under these conditions, the child is in a situation of dependence on the adult. Therefore, the child is distinguished from the adult by the fact that it is necessary for him to be protected, to be channeled, to be oriented due to his vulnerable situation.

As to the legal definitions that follow, they differ somewhat from the previous ones. Indeed, the Convention on the Rights of the Child (CRC) adopted on 20 November 1989 and entered into force on 2 September 1990 (OHCHR) specifies in Article 1 that a child means “every human being below the age of eighteen years unless under the law applicable to the child, majority is attained earlier.” Again, the African Charter on the Rights and Welfare of the Child (ACRWC) in Article 2 provides a definition: “a child means every human being below the age of 18 years” that is along the same lines. This distinction lies in the age limit that is referred to in the aforementioned Convention. Thus, any person whose life starts from birth to seventeen years of age is legally considered a child.

However, the Article 1 of the CRC mentioned above contains a reservation that “...unless the majority is attained rather under the legislation applicable to it”. This reservation indicates that the age of

majority, which varies according to the legislation of the States Parties to the said Convention, affects the age limit of being considered a child. For example, Uganda, Ivory Coast, Sierra Leone, and Rwanda are CRC parties where the age of majority is fixed at twenty-one years of age for both sexes (Notarius International). That is to say, all those who are not 21 years old are minors. This law leads to conclude that the CRC parties fully adhere to the conventional definition of the child in that it does not alter it in any way.

In International Humanitarian Law (IHL), “under/below 15 years” is the age limit set by the Fourth Geneva Convention of 1949 in most provisions concerning the child (American Red Cross). This age limit assumes the exclusion of other children over the age of 15 because there are other provisions for children without reference to age or other designations, such as “minors”, “Persons under 18 years of age” or “adolescents”. In sum, it can be retained from the previous definitions that the child is the human being from birth up to at least seventeen years of age.

For the notion of soldier, it etymologically contains the reality of an individual who is instructed and equipped for the defense of his country. According to Walter Skeat and William Skeat, the term originates from old French: ‘soldier’, ‘soudoier’, and ‘souldoyer’ meaning “one who fights for pay” (450). He is, therefore, one who is “engaged in military service and especially in the army” (*Merriam-Webster*).

The combination of the two terms “child” and “soldier” gives place to a contradictory term that engenders the dichotomy of “innocent” and “killer”. In this context, the definition of child soldier is essentially conventional. The CRC defines the child soldier as an individual under 15 years of age in an army. Put differently, the soldier is no longer considered a child from the age of 15 under Article 38, which prohibits direct participation in hostilities and recruitment into the armed forces of children under 15 years of age. Child soldiers are children who are used for military purposes. They are used for fighting –being forced to take part in wars and conflicts, forced to be perpetrators and act as suicide bombers. Among the forcing reasons to join “willingly” armed groups is poverty, sense of duty, or mere vengeance (“What Are Child Soldiers?”). The definition excludes children from military colleges who receive academic training punctuated by a few rules of military discipline. Similarly, a

UN Security Council report defines child soldiers as any person under the age of eighteen who belongs to an armed force, whatever his or her function, and all persons accompanying that group, other than family members.

Despite the lack of a uniform definition at the level of recruiting age, it is commonly agreed that a child soldier is any girl or boy below the age of 18 who is recruited or used by an armed force or armed group. However, they are not just someone involved in fighting. This includes but is not limited to other roles such as cooks, porters, messengers, human shields, spies, suicide bombers or those used for sexual exploitation.

For a legal definition of the term child soldier, it is necessary to wait for the year 2007 and the Paris Principles that regard a child soldier as “any minor, so under the age of 18, who takes part of any kind of regular or irregular armed force or armed group in any capacity; including capacities such as combatants, cooks, porters, messengers or anyone accompanying such armed groups or forces that are not family members” (Waals 1).

Selected youths have been trained in different historical eras to be knights, samurai warriors, and raiders. The widespread employment of child soldiers in these settings favors the use of lightweight weapons principally AK-47 assault rifle because of their pervasive availability and relative inexpensiveness. Such weapons enable young teenagers and even 10-year-olds to be effective combatants (Rotberg 123).

Defining the Notion of Conflict as a Social Phenomenon

As for the notion of war or conflict, it is undoubtedly the most constant social phenomenon that humanity has known. Of the past 3,400 years, historians contend that only 268 years (“or just 8 percent of recorded history) represent the period of general peace for humans (Hedges). War in its various forms has always characterized the history of mankind. Although its typology has also evolved, its appalling reality has remained unaltered. A war has resulted in more human atrocities that are found in genocides, raids, plunders, massacres of innocent civilians, mass destructions of property, rapes, ruins, desolations, forced exiles, and deportations. These cited abuses remind us of Cicero’s popular maxim “inter arma enim silent leges”

meaning “in times of war, the law falls silent” (Ghoshray 687-88). Sometimes referred to as conflict, nowadays we witness the emergence of new forms of warfare involving regular armies, guerrilla movements, often with the intervention of foreign powers.

In sum, the classical distinction between international and non-international conflicts seems to bend. It falls into obsolescence in a context animated by new or even de-structured conflicts. These are characterized by the total or partial absence of the State. War does not seem to be in agreement with Clausewitz’s dictum “the continuation of politics by other means” (qtd. in Vigh 66). It is simply internal.

Rebuking African Countries for being Voluntarily the Nest of Child Soldiers

In addition to the rise of nationalist movements, in African countries the situations of civil wars have resulted from the constant questioning of authority and legitimacy of the central government. More, since the end of the Cold War the acknowledged situation has been reversed dictating that only adults can take part in the provoked conflicts or wars. These conflicts, which often arise in the territory of the same state – regular armed forces fighting rebels, increasingly entail the recruitment of civilians among whom children are included.

However, in Africa apart from rebels and the defense and security forces, there is also another type of combatant that belongs neither to the first nor to the second. These combatants are found in the government area. They fight on their own to protect their villages, tribes, and property: They are militias. These groups are scattered in several areas under government control. Children are an important component that constitutes these armed groups. It can be argued that it is this presence of children as soldiers that shapes the complex issue from which emanates both a challenging exploration and an inspirational study of the phenomenon. Moreover, the originality of this topic is justified by the tendency to extend children’s voluntary or involuntary participation in armed conflicts in African regions; hence the need for protection against their involvement and prevention from their recruitment as soldiers. The most recent wars in Uganda, Angola, Sudan, Liberia, Sierra Leone, Burundi, the Democratic Republic of Congo (DRC) and the Republic of the Ivory Coast (RCI) where the presence of this category of fighters is reported (Heidelberg), have

highlighted the resurgence of the child soldier practice. The organizers of these recruitments find it increasingly difficult to recruit adults who are often not ready to die for a cause.

Analysis of the current international order (not to say a “disorder”) context, which is the expanding armed conflicts in Africa, has become commonplace. With violence trivialized despite the general prohibition of the threat or use of force posed by the UN act, a child soldier is today one of the main challenges faced by the international community. At its forefront is the UN whose main role is to maintain international peace and security. After the Cold War period, the United Nations has significantly increased its activities in this area.

Many peacekeeping operations (PKOs) have been projected around the world, especially in Africa to deal with all these series of wars that break out there. The implementation of these operations has, in many cases, mitigated tensions and avoided violent escalations but has also uncovered their limits. Difficulties and failures in maintaining and defending peace have highlighted this old lesson of wisdom that “an ounce of prevention is worth a pound of cure”.

International Organizations: Building Awareness and Establishing Cooperation

The international community and non-governmental organizations (NGOs) are aware of this distressing lesson and the need to act in this direction. Faced with such a phenomenon, they did not remain inactive. Today, more than ever, these organizations emerge in Africa as a categorical imperative in view of the disastrous consequences of conflicts for this continent, conflicts that states alone can no longer manage. The whole situation impairs the functioning of social norms that traditional African societies follow. The need to involve international organizations/NGOs is necessary because they have undeniably become essential actors in the resolution of conflict and crisis situations. Their principle of neutrality in interventions practically displayed since the birth of the Red Cross in 1864 (Leader), provides most of them with a unique mediating power.

The period since the 1980s has witnessed the emergence and development of a political and humanitarian movement, denouncing the use of children as soldiers in armed conflicts in different parts of

the world. From that time, international organizations have made the issue of child soldiers one of their main concerns and began reporting on children's participation in armed conflicts and civil wars, particularly in Africa. The International Committee of the Red Cross (ICRC), the United Nations (UN) and NGOs such as Human Rights Watch and Amnesty International have become tightly involved by publishing reports on this highly disturbing subject. Usually, these materials only identify sporadic and often sensationalized cases. What has been less apparent is a profound understanding of what Singer calls the "child-soldier doctrine": A calculated and pervasive strategy by armed groups to use children as combatants (Perrin 687).

The rudimentary role of non-governmental organizations and humanitarian agencies responsible for the protection of children as actors/victims of armed conflicts cannot be overlooked. They have worked unobtrusively for many years on this issue and have made important legal and political advances, including the preparation of the International Convention on the Rights of the Child, which laid the groundwork for the protection of children in armed conflicts. Initially self-invested in a humanitarian mission to these children in very special situations during hostilities and in post-conflict situations, they originally contributed to the emergence of the concepts of human security and child soldiers.

Attempts to curb the recruitment of these child soldiers continue to confuse practitioners, NGOs, governments, and international organizations. The existing international law sets 15 as the minimum age for recruitment into armed forces and participation in combat, but for more than a decade NGOs have agreed that it is time to prohibit the use of child soldiers and have campaigned for the minimum age to be 18 years for recruitment into armed forces and involvement in war (Amnesty International). Emphasis today is not just on prevention but increasingly on how to best reintegrate these youth once the conflict has ended. Reintegration focuses on psychosocial support, family and community reunification, and education and skills training, among other issues (Jennings).

In November 1989 the Berlin Wall fell, the Cold War lived its final moments and the United Nations Children's Fund (UNICEF) succeeded in bringing together the UN member states around a treaty project. Its text that would be adopted unanimously by the UN members gave birth to the International Convention on the Rights of

the Child (ICRC). Only three countries did not ratify it: Southern Sudan, Somalia and the United States (Attiah).

In 1994, when the African continent was already experiencing several conflicts, a commission chaired by the Mozambican politician and humanitarian Graça Machel was in charge of a study on the impact of armed conflicts on children. The 1996 report covered, inter alia, refugee children, child victims of sexual exploitation and child soldiers. It was on the recommendations of this commission that the Office of the Special Representative of the United Nations Secretary-General for Children and Armed Conflict was established. Its head, the Algerian legal expert on Human Rights and Administration of Justice Leila Zerrougui summed up its mission: "From now on, our work is based on the global consensus that child soldiers should not be used in conflicts. This is a breakthrough of major significance. We are now working alongside States, as partners, with the legitimacy to move forward to end a recognized problem (Wallström and Zerrougui).

NGOs' Collective and Individual Implications: Demobilization and Reintegration

Many NGOs (some of which have joined together in the International Coalition to Stop the Use of Child Soldiers), as well as international organizations (UNICEF, ICRC, Amnesty International, ACEI, HRW, War Child, etc.), play an active role in the demobilization of child soldiers. They mobilize both actors in the field and public opinion. Besides, international courts consider recruiting and using child soldiers as a crime and actively pursue it. This is an offense frequently committed in armed conflict, as the phenomenon has become widespread and general. This act, unlike others, is relatively easy to prove. It is enough to demonstrate the presence of child soldiers in the ranks of the leader in question and to prove that he could not ignore this presence.

Who are the NGOs? What are the reasons for them to get involved in crisis situations to remedy the phenomenon of child soldiers? How do they do it? In other words, what is the rationale of this special attention given to children in armed conflict and in what form does it take place?

The notion of NGOs covers different realities. Apart from international organizations, of which is the renowned United Nations, other essential actors originating from a specific associative phenomenon would emerge. They are according to Volker Heins “post-traditional civil associations. They represent a distinctive social form that has organizational characteristics and behavioral proclivities different from states, firms, political parties, trade unions, or nonpolitical voluntary associations” (4). They can be any organization, association or movement enjoying substantial autonomy and constituted in a sustainable manner of individuals from different countries with a view to pursuing seemingly non-profit-making objectives. The non-profit-making characteristic of NGOs is regarded as a distinctive criterion. Indeed, NGOs are by no means commercial enterprises in search of profits. They pursue social interests such as assistance, relief and development without expecting a financial contribution from the beneficiaries. Such an explanation is reflected by their presupposed name as it is defined first by opposing to what is governmental or intergovernmental; and also by the non-profit nature of the activity, which distinguishes NGOs from corporations or business companies. The UN identifies an NGO as “any non-profit, voluntary citizens’ group which is organized on a local, national or international level” (Yaziji and Doh 4) for the purpose of performing a variety of services and humanitarian functions, providing analysis and expertise, monitoring and implementing international agreements and promoting cases such as human rights (4).

In addition, it would be awkward to approach the notion of NGOs without considering the several other notions it emanates from, especially that of the civil society, which remained for long the expression of collective freedom. It can be remarked that the notion of NGOs refers to a non-profit, non-political international solidarity association shaped by states’ humanitarian and independent norms. This kind of association is created by private initiative and brings together natural or legal persons to carry out an activity of general interest, solidarity or voluntary cooperation for economic, social, cultural, environmental and humanitarian development (Yaziji and Doh 1-10).

The notion of protection etymologically originates from the Latin term ‘*protegere*’ which means to “to secure or preserve from encroachment, infringement, restriction, or violation; maintain the

status or integrity of [a person]" (Reaves 136). The wording of the above definition refers to protection "as being an inherently exclusive action in that person" with the intent of preventing harm or injury (136).

As the NGO notion takes on the meaning of that acknowledged institutional channel that acts to protect, in the present context, the protection in question concerns children. Their protection is supposed to include all measures designed to promote their optimal development, to protect them from harm, mitigate, and remedy the after-effects of violations of their safety and human rights. These embrace educational and pedagogical knowledge, formal social and family policy measures, and a number of voluntary actions, public law means, and others. These enclosed in international laws promulgated by institutions as the Hague Convention on Protection of Children, the Hague Convention on Jurisdiction, Applicable Law, Recognition, Enforcement and Co-operation in Respect of Parental Responsibility and Measures for the Protection of Children (HCCH). All these measures are shaped to be employed but in favor of children's well-being. Simply put, child protection is based on prevention and intervention.

One-third of child soldiers are in Africa, and the majority of them are in the Democratic Republic of Congo. In 2011 alone, the United Nations Office for the Fate of Children in Conflict identified 272 new cases of recruitment in that country, 12 of those children were under the age of 10. More recently, and from the outset UNICEF and all child welfare organizations alerted the view of the presence of children among combatants in the Central African Republic and Mali (*The Use of Children as Soldiers in Africa*).

Experts say that organizations such as NGOs such as Child Soldiers International, formerly Coalition to Stop the Use of Child Soldiers, Save the Children Alliance, and Human Right Watch continue to play a vital role in preventing the use of children as soldiers. According to Becker of Human Rights Watch, the role of NGOs is really important at two levels. The first level is prevention: It is about persuading governments and armed groups not to recruit and not to use children in armed conflicts. Moreover, NGOs have a very important role to play in another facet: When child soldiers emerge

from a war situation, they provide them with assistance for social reintegration.

Jo Becker, who has been operational on this issue for more than a decade, noticed considerable progress in combating this form of child exploitation. He observed that many NGOs involved in the field are undertaking reintegration projects, such as UNICEF, which oversees prevention and protection programs, to particularly prevent new recruitment. Since 2001, nearly 100,000 children have been supported in their release and reintegration (Anthonya, et al.). This assistance involves schooling, apprenticeship and, of course, psychosocial support. One of the priorities of these NGOs is to ensure that these children have the support of the host communities and a protective environment.

The most recent case concerns Syria. The use of child soldiers by armed groups fighting in this country continues to be of worry to human rights organizations and international institutions. Several recent reports show that their numbers have increased, particularly in the jihadist ranks where they are subjected to an important ideological conditioning. There are several examples of published reports about the taken steps that have changed the behavior of governments or armed groups that recruit or use child soldiers. For example, HRW succeeded in persuading the LURD (Liberians United for Reconciliation and Democracy), a Liberian rebel group, to stop using child soldiers. It is also seen that in recent years that the use of children by the Tamil Tigers in Sri Lanka (Human Right Watch, *Children as Weapons of War*) has significantly decreased because of the pressure that is constantly exerted upon the recruiters.

International Coalition to Undermine the Global Expansion of Child Soldiers

Because the issue of child soldiers is so complex, NGOs have come together to deal with it. Human Rights Watch, an international NGO, for example, is part of the Coalition to Stop the Use of Child Soldiers. Amnesty International, Defence for Children International, Jesuit Refugee Service, Quaker United Nations Office in Geneva, Rädä Barnen for the International Save the Children Alliance, International Federation Terre des Hommes, World Vision International and several other regional NGOs from Latin America,

Africa and Asia are members of its steering committee ("Coalition to Stop the Use of Child Soldiers"). The Coalition advocates the adoption and observance of national, regional and international legal standards, including the Optional Protocol to the Convention on the Rights of the Child, which prohibits the use of children under the age of 18 in armed groups.

The Coalition participated in the drafting and adoption of this protocol and facilitated its ratification by 192 countries. It also organized field workshops for human rights defenders in order to help them engage in this issue, conduct monitoring and follow-up, and to influence some governments to bring about legal and political changes. The coalition tries evenly to influence some governments to bring about legal and political changes. These efforts can be attributed to the reduction in the number of child soldiers in the world.

According to Rachel Stohl, a senior analyst at the Center for Defense Information at the World Security Institute, a research organization based in Washington, D.C., there is no single way to solve the problem. It is important to put pressure on governments and groups that continue to use child soldiers. Stohl also sees that it is equally essential to protect children at risk, and this, and according to her, this cannot be done in Washington only. These program need to be implemented in the concerned countries, at the local government level. Stohl contends that if such agenda is unable to help former child soldiers or protect children, then everything is just words in the air (Brough, Lango and Linden).

What Next Steps to Take? The Case of US NGOs

There is a series of international treaties to protect children from combat operations. The question is how to implement them. In the United States, HRW was from the beginning supportive of the draft law on the prevention of the use of child soldiers, which was submitted to Congress in 2007. The passed law limits assistance to the governments involved in the recruitment and use of child soldiers. Again, Becker believed this was a way for the United States to exert influence to try to change the behavior of other governments. She was optimistic that this project would likely succeed. In her opinion, the version that was before the Senate had 34 co-sponsors, both Republicans and Democrats. The House of Representatives had

already adopted its version of this proposal as part of the renewal of the Act to assist victims of trafficking in persons. Despite her optimism that “the United States has a powerful tool to pressure foreign countries to crack down on these abuses,” she sharply criticized former President Obama for his failure to use it effectively during his presidency (Becker).

Difficulties Related to Prevention

The Child Soldiers issue appears to be daunting. The international community has started to react, but the problem is whether this is no more than rhetoric. On January 8, 1999, *The Washington Post* wrote in an editorial

A nightmare is unfolding in the civil war in Sierra Leone, West Africa.... Perhaps the worst of it is the broadening threat to the children of Sierra Leone as their villages and families disintegrate around them. The boys, some seven years old and younger, are being kidnapped, to be press-ganged into military service, meaning in some cases being compelled to clear paths with their bodies through unmarked mine fields. (qtd. in Skinner)

In this development of things, the difficulties related to the prevention of the phenomenon of child soldiers are exposed. Their examination corresponds to the concern of demonstrating the problems and inadequacies encountered by the State in the efficient implementation of the measures to eradicate, or at least to reduce the phenomenon of child soldiers: Hence the need for NGOs to get involved. Their important role reflects their degree of intervention that effectively contributes to the preventive and curative protection of children from becoming child soldiers.

It is no coincidence that NGOs have been the groups that have been very much involved in helping African societies through their support and advocacy to contain their civil wars. Yet, it is also clear that these organizations are as weak as the children they are trying to assist. For example, Human Rights Watch (HRW) has elaborated a number of measures to deal with the situation in Uganda that could be

generalized to other areas where child soldiering has caused serious human damage, but in vain. The failure is that it does not have either the political clout or resources to engage in more than moral suasion. HRW holds the position that no one under the age of eighteen should take part in armed conflicts of any kind, whether it is national or international. It, therefore, supports the efforts of the international community (through the work of a UN working group under the Commission on Human Rights) to set the minimum age for involvement in armed conflict at eighteen. However, the US government actively opposes international efforts to set the age limit. The best that the HRW can do is to hope that the creation of an Optional Protocol to the Convention on the Rights of the Child would bring results.

In this field, HRW has recommended that the Lord's Resistance Army in Uganda immediately put an end to the "abduction, killing, torture, and sexual abuse of children and release all children remaining in captivity (Human Rights Watch, *Stolen Children* 3). It has urged the government of Sudan to use its influence with the Lord's Resistance Army (LRA) to accept those recommendations, and to cease all military aid and other support to the rebels until they comply with the above recommendations (4). Finally, it counseled the Ugandan government to ensure that all children who escape or are captured from the LRA receive prompt and adequate access to medical attention and advice while in government custody, release children promptly to their families, or if the families' whereabouts are unknown or the families are unable to receive the children, arrange for appropriate alternative care for the children, take into account the special needs of the young people and develop a concrete plan for meeting the long-term needs of former child soldiers (4).

However, it is quite clear to HRW and the other numerous NGOs that the world community has a special obligation to help reduce affliction of child soldiers. The UN special rapporteur for Sudan has been urged to report on the role of Sudan in supporting the LRA, especially the abduction, killing, torture, and rape of children, and their use in armed conflict. Finally, the UN working group drafting an Optional Protocol to the Convention on the Rights of the Child and Involvement of Children in Armed Conflict is urged to

recommend that eighteen be the minimum age at which people can be recruited into armed forces.

Issues that appear among the poor and disadvantaged usually spread upward and threaten the stability of more affluent societies. This is very much a function of globalization where while all societies are gradually and often quickly linked economically and culturally, the cultural values from the core diffuse more rapidly to the periphery than the economic factors that underpin them. Unless this is understood, one cannot see the linkage between the use of child soldiers in African societies, and the war against children among the police forces in places such as Rio de Janeiro in Brazil. In this society, too, it is not apparently recognized that sacrificing its young in the hope of giving comfort to adults is to commit social death (Skinner).

Conclusion :

Concern is growing about the increasing use of child soldiers in civil wars around the world. In view of all the aforementioned facts, there comes up the question of child protection in peace, but in war times, especially. The expected answer has shown how the use of children for military purposes became a cause of concern. Pictures of children wielding weapons, sowing desolation and terror, and inflicting atrocities constantly animate the theater of armed conflicts. Trained on the culture of violence, children have become the cruelest fighters and merciless killers. The notion of child soldier is closely linked to that of armed conflicts.

Conventionally, the protection of these children is the responsibility of the State that normally guarantees the rights of its nationals. The phenomenon has so seriously affected different regions of the world, especially Africa, and NGOs are now deeply involved to assist them. The study therefore has delved into the phenomenon of child soldiers and how NGOs contribute to its reduction.

The analysis of the current context of the international order, which is the multiplication of conflicts in Africa, for example, is a chaos established by armed conflicts where violence is somewhat trivialized despite the general prohibition of the threat or use of force posed by the creative act of the United Nations. It is today one of the main challenges the international community faces at the forefront of which is the UN. Its main role is to maintain international peace and

security. After the Cold War, the United Nations has significantly increased its activities in this area, but with no visible results.

Finally, considering the role of the Security Council and the whole UN system, in addition to NGOs, this crisis is now far more widely acknowledged than it was at the time of the first international study on the effect of conflict on children by Machel (1996). Yet, Security Council resolutions on Children and Armed Conflict and other international standards for protecting children are not consistently enforced, thus allowing offenders of human rights to continue ignoring these laws with impunity. Alarmingly, the substantial international legal framework to protect these children is failing in the most ways. Despite the willingness of NGOs to minimize the impact of child soldiering and its damaging consequences through their advocacy, they will permanently face complex legal and political hindrances in relation to countries that are reluctant to cooperate to eventually create a political and social climate which makes the recruitment of children as soldiers completely unacceptable. Until something is done, this continues to be an ominous norm in conflict, one which is in direct opposition to the principles which the Convention on the Rights of the Child seeks to uphold.

References:

- American Red Cross. "Summary of the Geneva Conventions of 1949 and their Additional Protocols." Accessed 9 Aug. 2017.
- Amnesty International. "Child Soldiers: One of the Worst Abuses of Child Labor." *amnesty.org.*, 1999. Accessed 5 Aug. 2017.
- Anthonya, Elizabeth K., et al. "Coming back Home: The Reintegration of Formerly Incarcerated Youth with Service Implications." *Children and Youth Services Review* vol. 32, issue 10, October 2010, pp. 1271-1277. Accessed 12 Oct. 2017.
- Attiah, Karen. "Why won't the US Ratify the UN's Child Rights Treaty?" *The Washington Post*. 21 Nov. 2014. Accessed 2 Oct. 2017.
- Becker, Jo. "Children on the Front Lines, with US Dollars." *Politicomagazine*, 30 June 2016. Accessed 9 Sept. 2017.
- Brough, Michael W., John W Lango, and Harry Van der Linden, editors. *Rethinking the Just War Tradition*. State University of New York Press, 2007. Accessed 13 Oct. 2017.

- “Coalition to Stop the Use of Child Soldiers” child-soldiers.org, 2002. Accessed 18 Sept. 2017.
- Ghoshray, Saby. “When Does Collateral Damage Rise to the Level of a War Crime? Expanding the Adequacy of Laws of War against Contemporary Human Rights Discourse.” *Creighton Law Review*, vol. 41, 2008, pp. 679-712. Accessed 22 Jan. 2018.
- HCCH. “Convention of 19 October 1996 on Jurisdiction, Applicable Law, Recognition, Enforcement and Co-operation in Respect of Parental Responsibility and Measures for the Protection of Children.” *hcch.net*, 19 Oct. 1996. Accessed 17 Aug. 2017.
- Hedges, Chris. “What every Person should Know about War.” *New York Times*, 6 July 2003. Accessed 2 Oct. 2017.
- Heidelberg Institute for International Conflict Research. Conflict Barometer 2015, Heidelberg, Feb. 2016. Accessed 13 Oct. 2017.
- Heins, Volker. *Non-governmental Organizations in International Society: Struggle over Recognition*. Palgrave MacMillan, 2008. Accessed 12 Sept. 2017.
- Human Right Watch. *Children as Weapons of War*. Human Rights Watch World Report, 25 Jan. 2004. Accessed 2 Aug. 2017.
- . “Stolen Children: Abduction and Recruitment in Northern Uganda.” vol. 15, no. 7 (A), March 2003, pp. 1-31. Accessed 14 Oct. 2017.
- Jennings, Randolph. “Child Soldiers: New Evidence, New Advocacy Approaches.” United States Institute of Peace, 1 June 2007. Accessed 21 Sept. 2017.
- Leader, Nicholas. *The Politics of Principle: The Principles of Humanitarian Action in Practice*. Humanitarian Policy Group, March 2000. Accessed. 7 Sept. 2017.
- Mai, Larry L., Marcus Y. Owl, and M. Patricia Kersting. *The Cambridge Dictionary of Human Biology and Evolution*. New York: Cambridge University Press, 2005. Accessed 11 Oct. 2017.
- Merriam-Webster. “Soldier.” merriam-webster.com. Accessed 6 Oct. 2017.
- Miller, Sarah Rose. “Child Soldiers.” *The Humanist*, vol. 62, no. 4, July-August 2002, p. 28. Accessed 22 Oct. 2017.
- Notarius International. “World Map: Age of Majority.” III, 1 Feb. 2006. Accessed 7 Oct. 2017.
- Online Etymology Dictionary*. etymonline.com. Accessed 19 Sept. 2017.
- Perrin, Benjamin E. A. “Child Soldiers: Legal and Military Challenges in Confronting a Global Phenomenon.” Review of Children at War by P.W. Singer, *McGill Law Journal*, 2005, p. 687. Accessed 4 Oct. 2017.

- Reaves, Jayme R. *Safeguarding the Stranger: An Abrahamic Theology and Ethic of Protective Hospitality*. Eugene, OR: Pickwick Papers, 2016. Accessed 5 Sept. 2017.
- Rotberg, Robert I., editor. *When States Fail: Causes and Consequences*. Princeton University Press, 2004. Accessed 14 Oct. 2017.
- Skeat, Walter and William Skeat. *The Concise Dictionary of English Etymology*. Wordsworth Editions, Ltd, 1993. Accessed 3 Oct. 2017.
- Singer, Peter W. "The New Children of Terror." *The Making of a Terrorist*, edited by James Forest, Preager, 2005, pp. 105-390. Accessed 11 Sept. 2017.
- Skinner, Elliott P. "Child Soldiers in Africa: A Disaster for Future Families." *International Journal on World Peace*, vol. 16, no. 2, June 1999. pp. 7-22. Accessed 10 Oct. 2017.
- The Use of Children as Soldiers in Africa: A Country Analysis of Child Recruitment and Participation in Armed Conflict*. reliefweb.int, 2000. Accessed 25 Sept. 2017.
- VandenBos, Gary R. *APA Dictionary of Psychology*. American Psychological Association, 2015. Accessed 8 Oct. 2017.
- Vigh, Henrik. *Navigating Terrains of War: Youth and Soldiering in Guinea Bissau*. Oxford, NY: Berghahn Books, 2006. Accessed 1 Sept. 2017.
- Waals, Gabie Roldán. *Establishing Measures to Ensure the Reintegration of Child Soldiers*. The Human Right Council, 2016, pp. 1-10. Accessed 9 Oct. 2017.
- Wessells, Michael. "How we can Prevent Child Soldiering". *Peace Review*, vol. 12, no. 3, 2000, pp. 407-413. Accessed 12 July 2017.
- "What are Child Soldiers" childsoldier.org. Accessed 19 Sept. 2017.
- Wallström, Margot and Leila Zerrougui. "Ending the Use of Child Soldiers." *children and armed conflict.un.org.*, 12 Feb. 2017. Accessed 3 Oct. 2017.
- "What are Child Soldiers." childsoldier.org. Accessed 12 Oct. 2017.
- Yaziji, Michael and Jonathan Doh. *NGOs and Corporations: Conflict and Collaboration*. Cambridge University Press, March 2009. Accessed 7 Oct. 2017.

L'allégorie aqueuse de la folie dans *Sur l'eau* de Guy de Maupassant

CHAIB Sami
Université de Batna 2 - (Algérie)

Résumé :

Passionné par la mer et frappé par la démence, Guy de Maupassant demeure pour bon nombre de critiques la figure emblématique de l'écrivain dont la thématique d'écriture s'inspire largement de son propre vécu. Le présent article tente de déceler, dans son écriture, ce rapport existant entre les images littéraires de l'eau, en tant qu'élément naturel, avec ses troubles psychiques. Il s'agit plus précisément de comprendre ce mécanisme par lequel l'auteur de la nouvelle fantastique *Sur l'eau* traduit ses souffrances et ses angoisses profondes de son âme, à travers une alchimie de l'élément liquide. Une manière pour nous de renouer avec les travaux de Gaston Bachelard sur la rêverie, et de voir comment s'opère cette fusion irraisonnée de l'imagination créatrice de Maupassant aux eaux claires et eaux profondes.

Mots clés : Eau, Rêverie, images littéraires, troubles psychiques, thématique.

Abstract:

Passionate about the sea and hit by the madness, Guy de Maupassant remains in the eyes of many critics an emblematic figure of the writer whose writing themes essentially take inspiration from his own life. This essay attempts to detect, in his writing, the link between the literary images of water, as a natural element, and his psychological troubles. It is, more exactly, about understanding this mechanism through which the writer of the fantastic novel *On The River* translates his sufferings and his soul's deep anguishes, through an alchemy of the liquid element. For us, it is a way of renewing with the works of Gaston Bachelard about daydreaming, and seeing how to operate this irrational fusion of the creative imagination of Maupassant to the clear and deep water.

Keywords: Water, daydreaming, literary images, psychological troubles, thematic.

ملخص:

كشخصية مولعة بالماء ومصابة بالجنون، يعتبر جي دو موباسون في أعين الكثير من النقاد شخصية رمزية للكاتب الذي يستمد مواضيع كتاباته من حياته الخاصة. يحاول هذا المقال الكشف، عبر كتاباته، عن العلاقة الموجودة بين الصور الأدبية للماء كعنصر طبيعي واضطراباته النفسية. يتعلق الأمر على وجه التحديد بفهم هذه الآلية التي يترجم من خلالها

كاتب الرواية العجائبية " فوق الماء " ألامه وهمومه العميقة، عبر خيمياء العنصر السائل. هي طريقتنا لإعادة النظر في أعمال جاستون باشلارد حول أحلام اليقظة، وتحديد كيفية عمل هذا الاندماج غير المنطقي للمخيلة الإبداعية لموباسون مع أملياه الصافية والملكاه العميقة.

الكلمات المفتاحية: ماء، أحلام اليقظة، صور أدبية، اضطرابات نفسية، اموضوعاتية.

Introduction

J'aime l'eau d'une passion désordonnée, la mer, bien que trop grande, trop remuante, impossible à posséder, les rivières si jolies mais qui passent, qui fuient, qui s'en vont, et les marais surtout où palpite toute l'existence inconnue des bêtes aquatiques.

Amour, Guy de Maupassant, 1886

Portant en lui l'amour de la mer et des grands larges, l'omniprésence de l'eau dans la vie et l'œuvre de Guy de Maupassant témoigne, indéniablement, de son imprégnation dès son enfance du paysage marin de sa Normandie natale. Cette passion prématurée pour l'eau nourrira largement ses ambitions futures ; allant jusqu'à faire carrière dans le ministère de la marine et se rendre propriétaire d'un yacht qu'il baptisa au nom de son célèbre roman « Le Bel-Ami » : une embarcation avec laquelle il enchaîne les escapades maritimes et qui donnera décor à de nombreuses nouvelles. Ainsi, si l'ensemble des biographes admettent l'influence considérable de l'eau sur l'imagination de l'écrivain, nombreux sont ceux qui récuseraient, par contre, l'idée qui viendrait conférer à la créativité littéraire de ce dernier un semblant de folie, remettant en cause son génie et ses talents d'auteur.

Seulement, Guy de Maupassant était réellement malade. L'hypothèse d'une syphilis mal soignée remporte la faveur des spécialistes et des médecins. Elle serait la cause directe de sa déchéance mentale. Le début d'un long calvaire qui fera

graduellement prendre l'eau à Maupassant qui, ne gardera de son nom que ses heures de gloire englouties dans les profondeurs de sa propre folie. De tels stigmates affecteront sensiblement son existence et sa perception de la réalité. Une présence bien encombrante dans l'esprit de l'écrivain qui se matérialisera sous forme de récits fantastiques racontant la misère de l'homme face à l'étrange et l'innommable.

Entre eau et folie, le rapport ambigu qui les relie dans l'œuvre de Maupassant, témoigne de ce paradoxe d'écrivain, affirme Michel Cuoq qui assure que *l'eau qui a été sa vie apparat à la fin l'image même de la mort dont il rêve: Une mort douce, parmi les sirènes et les algues, emportée dans la caresse de la vague.*¹ C'est donc à travers cette eau que Maupassant nous révèle le fond de son être. Sa nouvelle *Sur l'eau* en serait d'ailleurs le bon exemple. Ayant pour cadre narratif ; l'histoire d'un canotier en proie à des visions surnaturelles, cette nouvelle fantastique nous pousse à s'interroger sur la similitude qui puisse y avoir entre l'expérience morbide de l'auteur et celle du personnage, vis-à-vis des images de l'eau et de comprendre comment en un alchimiste de l'image, l'écrivain réussit-il à transformer ses visions de l'eau en une allégorie aqueuse de sa propre folie ?

Pour ce faire, nous postulons dans cet article que cette transformation des images de l'eau en une métaphore de la folie trouve source, en premier lieu, dans un large héritage occidental. Elle serait motivée, en second lieu, par un travail conscient de l'imagination ; La rêverie à laquelle, Gaston Bachelard à travers ses travaux sur l'interférence des quatre éléments naturels : eau, air, terre et feu dans la création littéraire, en donne d'amples exemples. Et notamment sur la nature de l'eau, entre eaux claires et eaux profondes, sur lesquelles fléchit la folie de Maupassant dans sa nouvelle.

1. L'eau et la folie dans l'imaginaire occidental.

Longtemps considérées comme appartenant aux espaces aquatiques, plus précisément océaniques; les troubles psychiques, en tant que figures mouvantes et incertaines, menaçant et submergeant la

solide surface de la raison, occupent une place prépondérante dans l'imaginaire occidental. Ce rapport étroit entre l'eau et les états démentiels jouit d'une acceptation tacite dans les représentations littéraires et artistiques dans la mesure où ce rapport découle, à en croire Michel Foucault, de la configuration même des *vieux paysages imaginaires*² de l'Europe. Une configuration topographique dont les étendus et les cours d'eau, océans, mers et lacs, bordent et traversent le continent à l'image de la folie; *cet extérieur liquide et ruisselant de la rocheuse raison*.³

C'est donc grâce à cette particularité géographique du paysage européen qu'une véritable complicité s'opère entre l'eau et la folie en littérature. Nombreux sont les écrivains du XIX^{ème} siècle et notamment les poètes symbolistes qui portent en eux cette fascination de l'eau, reprenant ainsi à leur compte tout un imaginaire traditionnellement réservé aux marins et favorisant largement un certain nombre de thèmes importants à l'instar de l'ivresse, les vapeurs, les brumeuses, les lacs funèbres et les miroirs en larmes.

Mais au-delà de cette fascination portée par toute une génération de poètes se réclamant du symbolisme, c'est plus précisément les conteurs fantastiques qui semblent vouer quant à eux, tout un culte pour cette affinité existante entre l'eau dans tous ses aspects avec les différents troubles de la raison. Adoptant dans leurs œuvres tout un vocabulaire nosographique sur les névroses, les psychoses et les schizophrénies, les conteurs fantastiques de la deuxième moitié du XIX^e siècle nouent une véritable relation avec les aliénistes et partagent avec eux tout un imaginaire sur l'attraction de l'eau sur les différentes pathologies de l'âme. En effet, l'émergence institutionnelle de la médecine mentale « la psychiatrie », dans sa description technique, voire thérapeutique, atteste de cette corrélation et tente de l'utiliser dans sa littérature.

Tantôt poison et tantôt antidote, aliénante et guérisseuse ; l'eau, synonyme de démence, est aussi son antonyme.

L'hydrothérapie utilisée par la psychiatrie comme pratique curative semble retracer cette traversée périlleuse du fou à la recherche de la terre ferme. Une traversée souvent évoquée dans les contes fantastiques et plus spécifiquement dans ceux de Guy de Maupassant. Michel Foucault dans une citation de son célèbre ouvrage décrit cette eau qui fait dériver et qui ramène vers des lieux surs :

*L'eau emporte, mais elle fait plus, elle purifie; et puis la navigation livre l'homme à l'incertitude du sort; là, chacun est confié à son propre destin. Tout embarquement est, en puissance, le dernier. C'est vers l'autre monde que part le fou sur sa folle nacelle; c'est de l'autre monde qu'il vient quand il débarque.*⁴

2. La poétique de l'eau selon Gaston Bachelard.

A plus forte raison, C'est Gaston Bachelard qui nous révèle au mieux ce rapport interactionnel entre l'eau et le déséquilibre mental en littérature. Désigné à juste titre comme étant « l'homme du poème et du théorème », sa formation d'épistémologue tournée vers l'histoire des sciences place ce dernier dans une optique résolument novatrice en appliquant à l'imaginaire littéraire des approches scientifiques. Ainsi, il fait recourir, dans sa volonté d'analyser les thèmes propre à chaque écrivain, aux différents éléments de la nature : l'eau, la terre, l'air et le feu. Il explique que la rêverie, ce processus imaginatif nécessaire à la création littéraire, chercherait toujours une matière. L'œuvre ne serait donc qu'un avatar à cette matière, à cet élément naturel. Il souligne :

*Pour qu'une rêverie se poursuive avec assez de constance pour donner une œuvre écrite, pour qu'elle ne soit pas simplement la vacance d'une heure fugitive, il faut qu'elle trouve sa matière. Il faut qu'un élément matériel lui donne sa propre substance, sa propre règle, sa poétique spécifique.*⁵

De l'esprit de l'écrivain au texte, la rêverie travaille et transforme la matière en une poétique spécifique. Perçue par le

discours médical médiéval comme un délire, une *Aliénation de l'esprit et un égarement aux confins de la folie*.⁶ La rêverie évoquée par Bachelard garderait en elle ce caractère de fugacité propre à l'aliénation et serait selon ses propos ; *Création évanescence d'un monde nouveau de repos et de douceur qui, contrairement au rêve, ne se raconterait pas, mais pourrait seulement s'écrire*.⁷ C'est à travers cette conception dynamique, consciente et créatrice de l'imagination de l'écrivain, attachée à un monde matériel et sensible, que se fait l'image poétique du texte. Autrement dit, chaque écrivain est lié à son œuvre par une activité consciente et imagée de la matière. A quoi Bachelard résume en ces mots : *Je rêve le monde, donc le monde existe comme je le rêve*⁸

Dans son ouvrage *L'eau et le rêve*, le théoricien aborde en profondeur la question de l'imagination de la matière. Plus féminine que le feu, l'eau symbolise les formes cachées de l'instantanéité, les mystères d'une mémoire encore vive où il ne s'agit plus de psychanalyse (rôle de l'inconscient) comme il est le cas pour le feu, mais d'une mémoire lucide et laborieuse des images de la matière (rôle de la conscience) : *Les images de l'eau, nous les vivons encore, nous les vivons synthétiquement dans leur complexité première en leur donnant souvent notre adhésion irraisonnée*.⁹ Assure Gaston Bachelard.

Cette fusion irraisonnée de l'imagination créatrice de l'auteur (la rêverie) aux images de l'eau s'opère de manière affligeante. Car, l'eau est avant tout un élément douloureux. Il submerge et emporte la raison de celui qui l'adule. Bachelard résume en ces quelques mots cette douloureuse tragédie : *L'être voué à l'eau est un être en vertige. Il meurt à chaque minute, sans cesse quelque chose de sa substance s'écroule*¹⁰. A cet effet, Gaston Bachelard distingue deux catégories d'eau ; les eaux claires et les eaux profondes.

D'une part, les eaux claires se caractérisent par leur écoulement et leur fluidité. Elles sont courantes et ruisselantes. Elles

produisent et permettent d'emporter les images fluides et mouvantes qui se matérialisent mal. *Une image fuyante, une image en fuite, car l'élément qui la porte et la constitue est voué par essence à l'évanouissement.*¹¹ Les écrivains qui seraient sous l'influence de ces eaux, partagent en eux un sentiment d'anxiété, de frayeur et d'angoisse. Ce sont des esprits tourmentés en quête de réconfort et de purification.

D'autre part, les eaux profondes se distinguent quant à elles par leur immobilité et leur inertie. Noires et marécageuses, étang boueuses ou océaniques ; ces eaux tirent vers les tréfonds de la folie, vers l'aliénation absolue. Là où les *rêveries singulières, de cauchemars et des hallucinations révèlent les grandes profondeurs psychologiques.*¹² Conséquemment, les écrivains qui seraient sous l'emprise de ces eaux, luttent désespérément contre la démence et la mort.

3. *Sur l'eau*, Une œuvre aux abords de la folie.

Exerçant une séduction des plus morbides, l'eau chez Maupassant témoigne, indéniablement, d'une émotivité interloquée voire embarrassée de l'auteur face à un avenir flou et incertain, dont la folie et la mort semblent être la seule finalité. Cette fatalité liée à l'eau est d'une fréquence notable comme l'affirme Savinio, en assurant que *deux thèmes dominant la vie et l'œuvre de Maupassant : la femme et l'eau.*¹³ Il ajoute encore : *Toute son œuvre est pleine d'eau, de fleuves, d'étangs, de mer ; toute son œuvre est pleine des jeux et des tragédies de l'eau.*¹⁴ Cette omniprésence des motifs aquatiques dans l'écriture maupassantienne dévoile pour nous ces images singulières, ces scènes lourdes, ces affres de l'existence qui mettent l'homme face à ses complexes et ses frustrations.

Parue quelques années avant sa déchéance mentale, la nouvelle *Sur l'eau* demeure, sans aucun doute, l'un des récits fantastiques les plus en vogue sur la thématique de l'eau et ces attractions sur l'état psychique de son auteur. Dans *Sur l'eau* de Guy de Maupassant, un

canotier de la seine présenté comme étant *toujours près de l'eau, toujours sur l'eau, toujours dans l'eau*.¹⁵ raconte une aventure particulière qui lui est survenue en rentrant chez lui une soirée de pleine lune.

Profitant d'un moment de répit pour fumer sa pipe, une étrange sensation envahit l'esprit du vieux canotier. Se sentant menacé par une présence qui l'observe dans ce calme assourdissant, le vieil homme se décide de reprendre la navigation quand soudainement, un mouvement brusque sous son embarcation le fait tressaillir. Pris de panique, il se hâta de tirer son ancre qui reste coincée au fond de la rivière. Un épais brouillard commence à envelopper la rivière accentuant l'inquiétude et l'angoisse du marin. Ce dernier, dans des gestes désespérés, tenta par tous les moyens d'attirer inutilement l'attention des riverains. N'ayant aucune chance de s'en sortir et se résignant à passer la nuit sur le voilier, il se mit à boire du rhum pour tenter de venir à bout de son agitation. Graduellement, le brouillard se dissipa laissant place à des visions surnaturelles qui finirent par l'apaiser. Au matin, deux pêcheurs viennent le délivrer d'une mort certaine et l'aidèrent à dégager l'ancre qui ramène avec elle sur la surface le cadavre d'une vieille femme, avec une pierre au cou.

A travers ce petit résumé, nous pouvons ainsi saisir cette affinité existante entre l'agitation nerveuse du vieux marin avec l'eau de la rivière et faire un rapprochement avec l'expérience morbide de l'auteur lui-même. Maupassant excelle, par sa connaissance de l'espace fluvial, dans la description réaliste du décor qui s'offre au canotier. Une description grandiloquente qui, à force de trop dire, étouffe le réel pour le rendre surréal. N'est-ce pas là l'atmosphère angoissante auquel prétend l'univers fantastique de Maupassant ?

4. La métamorphose de l'eau dans l'œuvre de Maupassant.

Caractère inhérent à l'écriture maupatienne, le cadre réaliste de ses nouvelles fantastiques prend des tournures bien différentes. En effet, en exagérant les formes du réel dans les récits, Maupassant

obtient des effets contraires. Il étouffe le réel et le rend surréel, voire irréel. C'est donc par une amplification des visions réalistes qui s'offrent aux personnages que le récit bouscule dans les limites du réel. Cette aporie est confirmée par Martin Gosman qui avance que *Comme la nouvelle "réaliste" tente de rendre compte de la diversité de la réalité du visible, la nouvelle fantastique (de Maupassant) tente de rendre palpable les limites et les apories de cette lecture de la réalité.*¹⁶

C'est donc une spécificité des récits fantastiques de Maupassant d'amener par un maniement à outrance des effets du réel jusqu'à ce qu'il s'annule par lui-même. Cette mise à mort du cadre réel du récit fantastique fonctionne comme une épitaphe de sa propre folie. L'annulation du réel devant les yeux effarés des narrateurs de ces récits ne serait donc que la démence qui se dit de leur auteur. Cette transition du réel vers l'in vraisemblable est un trait distinctif du récit délirant, S. Consolile révèle dans son ouvrage « le récit du psychotique » :

*Une des particularités du discours délirant n'est-elle pas la transition sournoise, sans aucun avertissement préalable, d'un récit réaliste doté d'un référent historiquement défini à un récit imaginaire dont le référent est purement fantasmatique au sein de ce no man's land discursif ou réalité et fantasmes s'interpénètrent, n'ayant plus de statut séparé ?*¹⁷

Par une transition sournoise du réel vers l'in vraisemblable, en exagérant le réel lui-même, Maupassant exprime indirectement ses propres glissement et infléchissement dans la folie. De même qu'en abusant des effets du réel pour faire vivre sa folie dans les textes, notre écrivain dissimule et symbolise sa maladie en l'incarnant et en la métamorphosant dans l'image de l'eau.

4.1 Folie et eaux claires

Dès le début de la nouvelle, l'on comprend l'influence de l'eau qui coule sur l'esprit du personnage. Guy de Maupassant insiste sur la réaction démesurée du vieux canotier qui *s'anime, se transfigure, devient éloquent, presque poète* devant cette grande passion, *dévorante et irrésistible*¹⁸ pour la rivière. Suintante, l'eau de la rivière évoque cette raison qui se laisse échapper lentement vers la démence. Elle traîne avec elle son lot d'images, d'angoisses et de peurs qui se concrétisent et deviennent plus obsédantes et plus harcelantes au fur et à mesure que l'eau stagne et se stabilise. Il n'y aurait, cependant, que les initiés ; marins et pêcheurs qui peuvent dépeindre la rivière telle qu'elle doit être, assure le vieil homme :

*Ah ! me dit-il, combien j'ai de souvenirs sur cette rivière que vous voyez couler là près de nous ! Vous autres, habitants des rues, vous ne savez pas ce qu'est la rivière. Mais écoutez un pêcheur prononcer ce mot. Pour lui, c'est la chose mystérieuse, profonde, inconnue, le pays des mirages et des fantasmagories, où l'on voit, la nuit, des choses qui ne sont pas, où l'on entend des bruits que l'on ne connaît point, où l'on tremble sans savoir pourquoi, comme en traversant un cimetière : et c'est en effet le plus sinistre des cimetières, celui où l'on n'a point de tombeau.*¹⁹

Silencieuses et discrètes, les eaux courantes du fleuve enchainent la pensée et la conduisent sereinement vers sa chute. Le mutisme de l'eau exerce un envoutement des plus pesants sur l'esprit ; il le captive et l'emprisonne. La tête du vieux canotier se retrouve enfermée dans ce néant sonore. Il dira à cet effet : *Le fleuve était parfaitement tranquille, mais je me sentis ému par le silence extraordinaire qui m'entourait [...] je demeurai tranquille, mais bientôt les légers mouvements de la barque m'inquiétèrent.*²⁰ Si le silence de l'eau captive, son mouvement lui, égare. Les fluctuations de la rivière trainent lentement les états d'âmes du marin vers sa destination tragique. La santé mentale de l'homme oscille aux grés des passions tumultueuses à l'image de la barque du canotier *je crus*

*qu'un être ou qu'une force invisible l'attirait doucement au fond de l'eau et la soulevait ensuite pour la laisser retomber. J'étais ballotté comme au milieu d'une tempête.*²¹

De même que l'eau de la rivière, la brume et le brouillard ont des effets angoissants et terrifiants sur la pensée du narrateur. Ce décor sinistre de blancheur étouffante génère des sensations humides d'effroi qui font frémir le corps et le paralysent.

*J'étais comme enseveli jusqu'à la ceinture dans une nappe de coton d'une blancheur singulière, et il me venait des imaginations fantastiques. Je me figurais qu'on essayait de monter dans ma barque que je ne pouvais plus distinguer, et que la rivière, cachée par ce brouillard opaque, devait être pleine d'êtres étranges qui nageaient autour de moi. J'éprouvais un malaise horrible, j'avais les tempes serrées, mon cœur battait à m'étouffer ; et, perdant la tête, je pensai à me sauver à la nage ; puis aussitôt, cette idée me fit frissonner d'épouvante.*²²

4.2 Folie et eaux profondes

Contrairement aux images liées aux eaux courantes, les eaux profondes ; immobiles et océaniques sont moins répandues dans la nouvelle de Guy de Maupassant. En effet, dans *Sur l'eau*, rares sont les passages qui font ouvertement et explicitement référence à ces eaux. Ceci s'explique, en grande partie, par le fait que les sensations d'angoisse, vécues par le narrateur, inquiètent davantage que la démence elle-même et notamment ces impressions étouffantes de captivité et d'égarement qui tourmentent l'esprit. Car, ce qui fait le plus affoler Maupassant ; et par analogie son personnage, c'est de se savoir sombrer dans la folie. Devenir fou serait alors moins redouté que l'acheminement vers cette folie, dans la mesure où la folie est considérée comme le point de non-retour, au même titre que la mort.

Le vieux canotier rend compte de cette réalité dans son récit. Il confronte, tout au long, les deux représentations qu'évoquent les eaux

douces et les eaux océaniques sur l'esprit des marins. Par cette comparaison, il confère aux premières des tempéraments imprévisibles, voire capricieuses, souvent déloyales. Il reconnaît aux deuxièmes, certes plus dangereuses, leur caractère de probité et de loyauté. Ainsi, il dissemble à travers ce passage les deux eaux :

*La terre est bornée pour le pêcheur, et dans l'ombre, quand il n'y a pas de lune, la rivière est illimitée. Un marin n'éprouve point la même chose pour la mer. Elle est souvent dure et méchante c'est vrai, mais elle crie, elle hurle, elle est loyale, la grande mer ; tandis que la rivière est silencieuse et perfide. Elle ne gronde pas, elle coule toujours sans bruit, et ce mouvement éternel de l'eau qui coule est plus effrayant pour moi que les hautes vagues de l'Océan.*²³

De même, il accentue ce discernement en insistant sur la propriété des eaux de mer et leur capacité à faire basculer la raison dans des mondes imaginaires et étranges, à l'inverse des eaux de la rivière qui enfonce l'âme dans les marasmes boueuses. Il dit : *Des rêveurs prétendent que la mer cache dans son sein d'immenses pays bleuâtres, où les noyés roulent parmi les grands poissons, au milieu d'étranges forêts et dans des grottes de cristal. La rivière n'a que des profondeurs noires où l'on pourrit dans la vase.*²⁴

Il termine par cette phrase qui témoigne tant de cette persistance à croire en la perniciosité de l'eau douce et son préjudice sur l'esprit humain :

*Eh bien, je crois que les histoires chuchotées par les roseaux minces avec leurs petites voix si douces doivent être encore plus sinistres que les drames lugubres racontés par les hurlements des vagues.*²⁵

Conclusion

Quelle soit douce ou profonde, l'eau en tant que thème littéraire chez Guy de Maupassant demeure, au-delà de sa représentation effective, corolaire d'une pensée tourmentée qui se

laisse emporter vers sa totale aliénation. Douleuruse, cette eau laisse entrevoir ses angoisses, ses propres peurs face au doute, face à l'incertitude du destin. Une destinée qui l'obsède à lui faire perdre la raison. Dans *Sur l'eau*, Maupassant rend compte de cette réalité. En travaillant et en transformant la liquidité de l'eau en une poésie spécifique de la folie ; la rêverie chez Maupassant revêt le caractère de l'alchimie. Il exagère les images du réel et notamment celle de l'eau, pour obtenir un effet contraire, celui de l'in vraisemblable et de l'irréel, là où sa démence s'exprime.

Au terme de cet article, nous croyons que la complicité qui s'opère entre l'eau et la folie dans l'œuvre de Maupassant, en plus de porter les marques d'un héritage de l'imaginaire occidental- une conscience collective- exprime le désarroi de l'auteur face à sa propre détresse mentale – conscience individuelle-.

Bibliographie

- ALONSO HERNÁNDEZ, José Luis et GOSMAN, Martin. *La Nouvelle Romane: (Italia, France, España)*. Amsterdam, Pays-Bas, Etats-Unis d'Amérique, 1993.
- ARON, Paul, SAINT-JACQUES, Denis et VIALA, Alain (éd.). *Le dictionnaire du littéraire*. Paris, France : Presses universitaires de France, DL 2010, 2010 / Rêverie.
- BACHELARD, Gaston. *L'eau et les rêves: essai sur l'imagination de la matière*. Paris, France : J. Corti, 1984.
- BACHELARD, Gaston. *La poésie de la rêverie*. Paris, France : Presses universitaires de France, 1974.
- CUOQ, Michelle Marie Louise. *Le thème de l'eau dans la vie et dans l'œuvre de Guy de Maupassant*. Université McGill, 1972.
- FOUCAULT, Michel. *Histoire de la folie à l'âge classique*. Paris, France : Gallimard, 1998, 1998.
- FOUCAULT, Michel. *L'eau et la folie*, Médecine et Hygiène, 21e année, no 613,23 octobre 1963.

- MAUPASSANT, Guy de. *Sur l'eau*. Paris, France : Minerve, 1989.
- SAVINIO, Alberto. *Maupassant e « l'altro »*. Milano, Italie : Adelphi, 1995.
- TILKIN, Françoise. *Quand la folie se racontait: récit et antipsychiatrie*. Rodopi, 1990.

¹ CUOQ, Michelle Marie Louise. *Le thème de l'eau dans la vie et dans l'œuvre de Guy de Maupassant*. Université McGill, 1972. p 78

² FOUCAULT, Michel. *L'eau et la folie*, Médecine et Hygiène, 21e année, no 613,23 octobre 1963, p 269

³ Ibid.

⁴ FOUCAULT, Michel. *Histoire de la folie à l'âge classique*. Paris, France: Gallimard, 1998, 1998. p 22

⁵ BACHELARD, Gaston. *L'eau et les rêves: essai sur l'imagination de la matière*. Paris, France : J. Corti, 1984. p 5

⁶ ARON, Paul, SAINT-JACQUES, Denis et VIALA, Alain (éd.). *Le dictionnaire du littéraire*. Paris, France : Presses universitaires de France, DL 2010, 2010 / Rêverie.

⁷ Ibid.

⁸ BACHELARD, Gaston. *La poétique de la rêverie*. Paris, France : Presses universitaires de France, 1974. P 10

⁹ BACHELARD, Gaston. *L'eau et les rêves: essai sur l'imagination de la matière*. Paris, France : J. Corti, 1984. p 14

¹⁰ Ibid, p 9

¹¹ Ibid, p 27

¹² Ibid, p 23

¹³ SAVINIO, Alberto. *Maupassant e « l'altro »*. Milano, Italie : Adelphi, 1995. P 60

¹⁴ Ibid, p 62

¹⁵ MAUPASSANT, Guy de. *Sur l'eau*. Paris, France : Minerve, 1989. p 1

¹⁶ ALONSO HERNÁNDEZ, José Luis et GOSMAN, Martin. *La Nouvelle Romane: (Italia, France, España)*. Amsterdam, Pays-Bas, Etats-Unis d'Amérique, 1993. p 95

¹⁷ TILKIN, Françoise. *Quand la folie se racontait: récit et antipsychiatrie*. Rodopi, 1990. p 288

¹⁸ MAUPASSANT, Guy de. *Sur l'eau*. Paris, France : Minerve, 1989. p 1

¹⁹ Ibid, p 2

²⁰ Ibid, p 6

²¹ Ibid, p 8

²² Ibid, p 10

²³ Ibid, p 05

²⁴ Ibid, p 06

²⁵ Ibid.